
دار الموقف العربي
للصحافة والنشر والتوزيع
٣٨ شارع قصر العيني
ت: ٣٥٥٦٤٢٥ جمهورية مصر العربية

ارتيميس كوبر

القاهرة

فى الحرب العالمية الثانية

١٩٣٩-١٩٤٥



ترجمة:

محمد الخولى

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

القاهـرة
فى الحرب العالمية الثانية
١٩٣٩ - ١٩٤٥

تأليف

أرتيميس كوبـر

ترجمة

محمـد الخـولـى

١٩٩٦

مقدمة المترجم

هذا الكتاب يشد قارئه إلى متابعته، وربما إكمال مطالعته في جلسات متتابعة أو شديدة التركيز، بفضل عنصر يلمحه القارئ والمحلل أيضا وقد سرى في أعطاف السطور وثنايا العبارات: هذا العنصر هو في رأينا: الإخلاص. وهو إخلاص أدبي وموضوعي في آن .. لا نقصد به إخلاصا أخلاقيا أو سلوكيا، فهذا خارج بنية القضية التي نحن بصددها، ولكنه إخلاص في اختيار الموضوع وفي متابعته وفي تقصي جوانبه واستيفاء، أو محاولة استيفاء، أبعاده وتشعباته. صحيح أن مؤلفة الكتاب عاشت في مصر إبان الحرب العالمية الثانية، وعلّمت في جامعة (فاروق، الاسكندرية) لكنها أفلحت - أو فلنقل تعمدت - ألا تضفي على الموضوع صفة الذاتية أو شبهة المذكرات أو الذكريات. لهذا جاء اقترابها من الموضوع ومعالجتها للطروحات التي تصدت لها نتاجا لعقلية مراقب يرصد ويدون ويربط بين العلاقات ويحلل الفصول والمشاهد المختلفة التي ظلت تتوالى لتحكي دراما الصراع الكوني الذي اكتوى بناره عالمنا المعاصر طيلة السنوات الست التي اشتعل فيهن أتون الحرب العالمية الثانية، وكان المسرح هو مدينة القاهرة التي كان لها همومها الخاصة وقد تمثلت في واقع الاحتلال البريطاني (بلغ عمره وقت اندلاع الحرب ٥٧ عاما ثم أكمل أعوامه الستين في ذروة اشتعالها) وكان هناك أيضا ذلك الصراع العقيم أحيانا بين مؤسسة السياسة الحزبية المصرية، وبين مؤسسة القصر ومن والاه من أشياع وبطانة ومؤيدين. وهو صراع يعلو أحيانا فيحاول احتواء نوازع الملك فاروق إلى الاستبداد والتعدي على الدستور، وقد يسف ويتدنى أحيانا ليكون محض تكالب وتحاسد ونميمة سياسية دائرة بين أوغاد الساسة من جانب ، وشماشرجية

السراي من جانب آخر: لا غرابة إذن أن تشجع السفارة البريطانية هذا الإمعان في التدني كي تصبح الملاذ والصدر الحنون لهؤلاء وأولئك ممن يخطبون ودها ليكسبوها إلى صفهم ويتقربون إلى عميدها لورد كيلرن نفاقا وزلفى.

اعتمدت مؤلفة الكتاب في مصادر البحث على ركائز أساسية جاءت كالتالي:

١- الكتب والدراسات التي تناولت الفترة (كلها بالانجليزية) وكثير منها رسائل علمية عن الحرب العالمية الثانية بعامة، أو عن مسرح العمليات والمجهود الحربي في منطقة الشرق الأوسط ومصر ومدينة القاهرة بصفة خاصة.

٢- الوثائق الرسمية التي أفرجت عنها الحكومة البريطانية، وفي مقدمتها برقيات وتقارير السفارة البريطانية في القاهرة ووزارة الخارجية في لندن، ثم الإشارات العسكرية والتقارير المتبادلة بين وزارة الحرب ومركز قيادة القوات البريطانية والحليفة الذي كان يقع في حي" جاردن سيتي" بالقاهرة، وكذلك مكتب وزير الدولة البريطاني المقيم وهو المنصب الذي استحدثه تشرشل أثناء سنوات الحرب.

٣- المذكرات والأوراق الخاصة وأهمها مذكرات لورد كيلرن (سير مايلز لامبسون سابقا) وقد أمضى ١٣ سنة كاملة مندوبا ساميا ثم سفيرا هو عميد السفراء الأجانب بحكم الاتفاق المصري - الانجليزي في القاهرة يلقي بظله الكثيف (وكان كثيفا بحق بحكم ضخامة جثة اللورد) على مصائر ومجريات السياسة المصرية الداخلية والخارجية على السواء.

٤- اللقاءات والأحاديث والمراسلات الخاصة التي عكفت عليها المؤلفة في دأب عجيب مع أفراد وشخصيات شتى: منهم من عايش تلك المرحلة عن كثب مباشر بمعنى تكليفه - أو تكليفها بوظائف أو مهام في قاهرة الحرب العالمية، أو في البلقان أو اليونان أو كريت أو في مواجهة روميل بشمال أفريقيا سواء في الميدان العسكري

أو المدني. ومنهم أفراد من الأسرة المالكة المصرية (السابقة) ومنهم أدباء وفنانون ومؤرخون ومثقفون وسياسيون وأكاديميون كان لهم أدوارهم أو اهتماماتهم بشكل مباشر أو غير مباشر وأحيانا كان لهم آراؤهم التي تُبلور رؤيتهم للفترة وتعليقاتهم على مجريات أمورها. وفي هذا الإطار تبرز أسماء قد يهتم بها القارئ العربي المعاصر مثل: عبد الفتاح حسن (باشا) ومجدي وهبة ولويس عوض وحامد سلطان وجرترود ويصا ولورانس دوريل (صاحب رباعيات الاسكندرية) وعزيز حسن (الأمير السابق) والمبدع الراحل يوسف إدريس وعادل ثابت (صاحب كتاب فاروق المفترى عليه) وسامح موسى ووجيه قطب ومحمود محمدْ محمود (رئيس ديوان المحاسبة الذي استقال بشرف احتجاجا على الفساد في مطلع الخمسينات) وفيكتور سميكة وغيرهم.

ومن جوانب الكتاب أيضا أنه إذ يتصدى لكتابة جزء من تاريخ الفترة أو هو يحاول ذلك، ولكن ليس من خلال السرد الجهم للوقائع والأحداث والتواريخ بل بأسلوب يقارب أحيانا أسلوب التحقيق الصحفي البارع، وأحيانا لا يتورع عن الخوض في لغة الثرثرة أو هي الفضفضة التي لا نرى أنها تنال في كل حال من قيمة الكتاب (كيف لا ... والمؤلفة تحكي مثلا عن التخطيط لأهم عملية إنزال بالمظلات دعما لمقاومة الأنصار البارتيزان في يوغوسلافيا ضد النازي بقيادة تيتو - بطل التحرير الوطني - وقد "حبكت" عملية التخطيط لمهمة الكوماندوز هذه - بكل خطورتها - في حمام بإحدى شقق القاهرة حيث رسموا خريطة المنطقة فوق جدران القيشاني المجللة ساعتها ببخار الماء.)!

أنت إذن تتفرج من خلال السطور على عالم الحفلات الأسطورية في قصر الأميرة شويكار، وتجهد في متابعة الضباط الانجليز الذي اختاروا أن يعيش بعضهم لزوم الشح والتقتير في جامع أحمد بن طولون، ثم ترهف السمع إلى الشائعات التي ينشرها قسم البروباجندا في إدارة إعلام القوات الحليفة وتتابع نشاط أربعة ملوك كانوا، ولا فخر، يعيشون في وقت واحد على أرض الكنانة: يقيمون بالقاهرة وينعمون بالاسكندرية ويصخبون في الفيوم، ويتآمرون داخل

جدران السرايات والمفوضيات والسفارات ... كانوا: ملك ألبانيا، وملك يوغوسلافيا، وملك اليونان ثم طبعا ملك مصر، وربما يضاف إليهم - فوق البيعة - امبراطور اسمه هيلاسلاسي عاهل الحبشة في ذلك الزمان.

على أن الذي يميز الكتاب، وتلك برأينا ميزة فريدة حقا، هي أن المؤلفة بحكم مشاربها الأدبية وقفت كثيرا بنا عند الحياة الأدبية - الناطقة بالانجليزية - تلك التي نشأت وترعرعت وقت الحرب بالقاهرة والاسكندرية على السواء ... لقد ضمت الحرب شبابا من أنصع مبدعي الانجليزية وأرقاهم ثقافة، تخرجوا في أعرق الجامعات البريطانية وجاءوا متطوعين إلى الشرق الأوسط في الخدمة العسكرية تحدوهم مشاعر نبيلة في مقدمتها الكفاح ضد الفاشية ... بعضهم تمكن من خوض غمرات القتال الحقيقي وعاش خيار الموت والحياة سواء في حرب الصحراء بشمال أفريقيا أو في مهاد الوديان والمغارات باليونان أو الكريت أو ألبانيا أو يوغوسلافيا، وبعضهم اكتفى، أو اكتفى له أهله من كبار العائلات في انجلترا، بالجلوس إلى مكتب في قسم الدعاية أو حتى في دوائر التجسس وأقسام فك الشفرات ... هؤلاء وهؤلاء قدر لهم أن يعيشوا فوق الأرض المصرية، وعملت مؤلفة كتابنا على رصد إبداعاتهم في مجالات الشعر والقصة والرواية وأحيانا الأزجال الشعبية الساخرة. وبعض من هذا الإنتاج الأدبي الرفيع وجد طريقه إلى النشر في مجلات أدبية متخصصة ما زال بعضها يحتل مكانة بارزة في تطور الأدب الانجليزي الحديث: هنالك تلمع أسماء مثل لورانس دوريل وأوليفياماننج وإيفلين وو وغيرهم.

مؤلفة الكتاب تتألق أحيانا وهي تغوص بنا في صميم، في تلافيف حياة الجالية الانجليزية اليومية: شقق الزمالك أو جاردن سيتي أو بيوت بولاق الدكرور (تصور!) أو الجزيرة أو مينا هاوس ... عالم الشعراء والمدمنين والمغامرين والسفرجية والجواسيس والمدعين والمتحذلقين وأبطال الفضائح وأبطال المعارك على السواء ... هو العالم الذي كان مستغلقا أو يكاد على معظم المصريين المعاصرين لتلك الفترة وربما أيضا على من حاول أن يؤرخ للفترة من بعد.

لكن المؤلفة حين تنتقل للحديث عن عالم القاهرة، أو مصر الأخرى -

مصر الوطن وأولاد البلد والساسة والشعارات والاغتيالات والعادات الاجتماعية والهموم الوطنية - فهي تفيدنا حين نتأمل صورتنا في عيون "الآخر" حيث كان الآخر متسيدا في نادي الجزيرة، مترفعا لا يتعاطى سوى مع عتاة الباشوات والبرنسيسات ومن لف لفهم من صفوة الشوام (آسف لهذا التعبير غير العروبي، لكن دقة المصطلح تحكم تماما كما تحبك القافية كما يقولون) ومع أخلاط من اليهود والمالطيين والأروام (الليفانتيون كما قد يسمون) وكلهم كانوا يعيشون - عن غير جدارة في معظم الأحيان - في بلهنية من رغد العيش، فيما لا يفوت المؤلفة أن ترصد مدى التناقض الصارخ بين وارف حياتهم وبين تعاسة الشظف الذي يكابده المتكسبون في الصباح والمساء من عامة المصريين. هنا تقع المؤلفة في أخطاء التفسير أو خلط الوقائع أو إرباك التواريخ أو هي "الغفلة" العلمية كما يقول الفقهاء في تراثنا الطيب العريق. وهنا كان لا بد أن نخف لنجدتها، إن صح التعبير، سواء من خلال عبارات أوردناها بين أقواس وألحقناها بسطور المتن مباشرة لإضاءة بعض المعاني، أو من خلال حواش عمدنا إلى إيداعها تحت المتن لزوم الاحتراز أو التصحيح أو التفسير.

ولأن تاريخنا ليس ككل تاريخ...

فلا نحن "بوتسوانا" ... ولا نحن "بروني دار السلام" (مع الاعتذار للأفارقة وأهل البترول الموسرين على السواء) بمعنى أن تاريخنا حافل، خصب، مترع بالوقائع، مفعم بالدلالات، متقاطع ومتشابك من حيث الأحداث والأدوار والشخوص والصراعات والنتائج ... ومهما كتبوا في سرد وتحليل هذا التاريخ فلسوف تظل ملحمة هذا الإنسان المصري، الطيب الصبور، حين يكد ويشقى، وحين يصبر ويبدع، وحين يرفض ويثور، وحين يهدم أو يبني، ستظل هذه الملحمة الإنسانية، على تعدد أبعادها واختلاف زواياها وتباين فصولها بحاجة إلى مزيد من درس واستقصاء وتنقيب وجهد بحثي وعلمي، يتوخى مزيدا من إغناء تلك الأبعاد وإضاءة تلك الزوايا.

وفي إطار هذه الجهود، كان الكتاب الذي جهدنا في ترجمته، ثم عكفنا على مراجعته في ضوء ما أطلنا النظر فيه من المراجع المتوافرة بين

أيدينا عن تاريـــخ مصـــر الحديث أو القريـب . وإذا كان فن المسرح الجدير بهذا الاسم - لابد وأن يجمع بين عنصرى «الفرجـة» و«الفكر» كما يقول العلاّمة «علي الراعـــي»، فإن هـــذه النوعية مـن الكتـــب تجمـع فى رأينا بين عنصرى «الفكر» و«الإمتاع» .

وهذا ما نطمح إلى أن يجتنيه القارىء في كل حال ... والله غالب على أمره.

محمد الخولي

ووتر سايد ، نيويورك

الفاتح من يوليه / تموز ١٩٩٥

تمهيد

تمهيد

عندما اضطر سلاح الطيران الألماني إلى تغيير تكتيكاته كي يشن غارات جوية على لندن في سبتمبر ١٩٤٠، أصبح البريطانيون في كل من لندن والقاهرة مفصولين عن بعضهم البعض بفعل وجود قوات المحور التي كانت تمتد من النرويج إلى ليبيا. لكن الانفصام بين العاصمتين ظل في الواقع أمرا من نسج الخيال.

في القاهرة، عكف البريجادير إريك شيرر مدير المخابرات العسكرية وقد أخلد إلى مكتبه في القيادة العامة، على إمعان النظر في تلك الخطط التي أحضرها من لندن الكابتن جوردون ووترفيلد وظل البريجادير يتعجب عن السبب الذي جعل وزارة الحرب البريطانية تولي هذه المهمة أسبقية غير عادية. كانت بريطانيا تواجه احتمال غزو ألماني وقد افتقرت إلى حد كبير إلى الطائرات ومع ذلك كان من الأسباب الرئيسية لحمل الكابتن جوردون ووتر فيلد على جناح الطيران محلقا إلى القاهرة هو أن بوسعه أن يطير لكي يدمر خط سكة حديد أديس أبابا - جيبوتي. لا مراء في أن تدمير ذلك الخط بات كفيلا بتدمير خطوط إمداد العدو، وفي الأجل الطويل كان بوسع هذه الوصلة من السكك الحديدية بين العاصمة الإثيوبية والمدخل الضيق للبحر الأحمر أن تكون ذات فائدة جمة للحلفاء. ضحك مدير المخابرات العسكرية قائلا: لكننا لا نريد تدمير خط سكة حديد جيبوتي، وإذا كان الأمر كذلك فبوسعنا أن ندمره بأنفسنا دون أن تعمد وزارة الحرب إلى إرسال مبعوث طائر من لندن!.

من ناحيته شعر جوردن ووتر فيلد بالمهانة عندما رأى القوم وهم يعدون مهمته بمثابة إضاعة للوقت، ولم يملك سوى الشعور بأن ضحكات البريجادير شيرر غير المبالية جاءت أمرا في غير موضعه. لم يكن بوسع أحد ممن لم

يذق غارات ألمانيا الصاعقة على لندن أن يعرف ما معنى أن يخلد الإنسان إلى فراشه وقد أقضت مضاجعه أصوات صفارات الإنذار وهدير الطائرات وقصف المدافع ثم تلك الصفارات الخبيثة التي يعقبها إنفجارات هنا وهناك. في الصباح كانت المناطق المقصوفة تنضح ببقايا مياه راكدة وغبار متطاير وأخشاب محترقة. الآلاف، خصوصا في حي إيست إند في لندن كانوا يجدون أنفسهم بلا مأوى، كل فرقة مطافئ، كل مستشفى، وكل محطة إسعاف كانت تعمل ليل نهار، وكانت كل المخابئ ومراكز الإيواء مكتظة بشاغليها فيما ظل أهل لندن يتحملون في صبر وجلد ذلك القصف الوحشي الذي تعرضت له عاصمتهم.

ثم جاءت الغارات الجوية التي لا تنقطع ومعها شبح التهديد بالغزو من الساحل الجنوبي لتزيد إلى حد بالغ من عوامل القلق التي ساورت وزارة الحرب ويتصاعد معها الإحساس بالخطر، بل وتحث على شن موجة قوية جديدة للرد على العدو في أي مكان يمكن أن يتواجد فيه.

كان هذا هو الجو الذي فكر فيه المخططون في تنفيذ عدد من العمليات الجريئة التي شملت تدمير سكة حديد أديس أبابا - جيبوتي.

مع ذلك لم يكن بوسع ضابط صغير أن يشرح كل هذه الأمور أمام مدير المخابرات العسكرية البريطانية في القاهرة برغم أن جوردون ووتر فيلد كان بوسعه أن يفعل ذلك: قبل تدريبه في سلك الصاعقة استطاع أن يغطي أحداثا لحساب وكالة رويتر مثل سقوط فرنسا ثم أصدر كتابا بعنوان "ماذا جرى لفرنسا". وكانت رحلته بين لندن والقاهرة على متن قاذفة ولينجتون قد استغرقت أقل من أسبوع ولاحت معها حوامل التناقض بين لندن والقاهرة كي تتضح أمامه بأكثر مما اتضحت لغالبية الأفراد الآخرين الذين كانوا يصلون بالسفن من ناقلات الجنود وبالقطارات بعد رحلة طويلة حول رأس الرجاء الصالح كانت تستغرق أحيانا ٧٠ يوما. ووتر فيلد شعر بالإحباط والاكتئاب، ومن ثم خرج من مبنى القيادة العسكرية إلى ضوء النهار الحار مدركا أن الحرب ما زالت بعيدة جدا عن القاهرة.

كان ووتر فيلد قد عمل صحفيا بجريدة إيجيبشيان جازيت لمدة سبع سنوات ومن ثم كان يعرف المدينة تماما. في خريف عام ١٩٤٠ كان سكان القاهرة البالغ تعدادهم وقتها نصف مليون قد ازدادوا عددا ببضعة آلاف من الجنود البريطانيين والقادمين من أنحاء الامبراطورية، ثم جاء الربيع التالي فأصبح عدد الجنود ٣٥ ألفا. هكذا كانت الشوارع والأرصفة تموج بحشد من الطواقي والطرابيش التي كان يتخللها قبعات الخاكي من أكثر من طراز، ومع ذلك ظلت المدينة تفوح برائحة مألوفة في عواصم الشرق الأوسط هي عبارة عن مزيج من أبخرة العوادم وعرق حيوانات مجهدة وعبير بخور رخيص ثم رائحة الروث.

سيارات أتوبيس ثورنكرفت القديمة وعربات الترام كانت بدورها مجهدة تحاكي عناء الحمير، وكانت على شاكلة الحمير أيضا تزينها خرزات زرقاء لدرء عين الحسود. المرور في القاهرة كان يضم عربات الكارو بصرير عجلاتها وقد علتها أكوام الخضر وكذلك قطعان متوترة الأعصاب من الأغنام ذات الذيول السمينة وسيارات صغيرة من طراز فيات وأوستن تملكها الجالية الأوروبية وكان على الجميع أن يتقاسموا الشوارع مع عدد متزايد باضطراد من سيارات الضباط ودراجات العساكر والشاحنات الحربية.

في المحلات الكبرى بالمدينة مثل شيكوريل وشملا أو الصالون الأخضر، كان العمل يجري على النسق المعتاد بكل ما كانت تعرضه واجهات المحلات من فاخر الزجاج والأواني المنزلية والمنسوجات وأدوات التجميل. جروبي أشهر مقاهي القاهرة كان يعبق برائحة البن المحمص والحلويات الطازجة المصنوعة بزبدة صافية. في فندق شبرد لم تنضب الأرصدة من أنواع المشروبات والشمبانيا الفاخرة لغاية عام ١٩٤٣، وحتى في ذلك الحين لم يكن ثمة نقص في أنواع الأنبذة الواردة من الجزائر أو فلسطين أو جنوب أفريقيا. كان تقنين التموين قد سرى مفعوله لمدة تسعة أشهر في انجلترا في حين أن المحلات والبقالات اليونانية بالقاهرة كانت حاشدة بأنواع الزبد والسكر والبيض

والكيروسين. أصناف البرتقال وأنواع البلح كانت مرصوصة في سلال مستديرة في محلات الفاكهة والخضر وكذلك كانت أكوام من الفاصوليا والذرة والكرنب والقرنبيط ذات أحجام ضخمة وقد أنتجتها تربة الدلتا بكل خصوبتها ودفئها.

شق ووتر فيلد طريقة إلى فندق الكونتننتال حيث قرر أن يتناول طعامه ولكن لدى دخوله المطعم أبلغوه أن الفندق لا يخدم الضباط الذين يرتدون بنطلونات شورت وعندما احتج بأنه واصل لتوه جوا وليس لديه ملابس أخرى وأن بريطانيا العظمى تحارب من أجل حياتها وسط ساحات الوغى، ومن ثم لم يكن يهم ما الذي يرتديه ضابط مكلف بمهمة عسكرية عاجلة. عندما أعرب بذلك عن غضبه إلى مجموعة من الضباط الذين كانوا يجلسون بعد ذلك في نادي التيرف، أسعده أن يكون من مستمعيه قائد الشرطة العسكرية المساعد. لكن الأمر لم يقتصر على أن الضابط الكبير لم يبد اهتماما بالحكاية، بل انطوى الأمر على كولونيل ينهض قائما على قدميه ويقول بحرارة شديدة إن الضباط من رتبة كابتن ليس لهم الحق في إبداء رأي في مثل هذه المواضيع!

على أن الأكثر مدعاة للفزع لم يكن ذلك العالم البعيد عن الواقع الذي كان يسكن إليه العسكريون في القاهرة بل كان بالأحرى هو عزوفهم الواضح عن مفارقتها. اقترح ووتر فيلد أن يقدم برنامجا في الإذاعة يصف الأحوال التي كان الشعب البريطاني يعيشها في ظل غارات النازي الصاعقة، فضلا عن شجاعة أهل لندن وجلدهم، ولكنه وجد نفسه من جديد بمواجهة البريجادير شيرر وقد ظل يرفض كل المقترحات بنصوص البرنامج نصا وراء نص. من هنا شعر ووتر فيلد بقوة أن الأمور في القاهرة بحاجة إلى هزة شديدة فمضى يردد إنه واحد من شهود العيان لغارات النازي الرهيبة على لندن، وها هو قد وصل إلى مصر ولا ينقطع الناس عن سؤاله حول الحياة في انجلترا. قال إن الناس يريدون معرفة الحقيقة، وسوف يستمدون الإلهام من بطولة لندن، لكن البريجادير ظل ثابتا على موقفه بدعوى أن أفراد القوات يمكن أن تساورهم

الهواجس إذ يعلمون بمدى الشظف الذي يعيشه عائلاتهم وأصدقائهم الذين خُلفوا في الوطن.

مع ذلك، كان ثمة سبب وراء هذا التبرير الواضح. فمن شأن إذاعة تصف لندن تحت القصف أن تخلق انطباعا سلبيا على الصعيد المحلي (المصري). إن الاحتلال البريطاني بمصر لم يكن يحظى بأي شعبية، وإذا أدركت مصر أي ضعف تعيشه بريطانيا فربما تتقاعس بدورها عن تقديم القوى العاملة والتسهيلات التي تعتمد عليها آلة الحرب البريطانية في الشرق الأوسط.

البريطانيون فى مصــر

لم يكن أي مصري، إذ يتأمل أحوال بلده في أواخر القرن التاسع عشر، بحاجة إلى أن يكون وطنيا متحمسا، حتى يصل إلى النتيجة التي تقول بأن بلاده إنما يقوم على شؤونها الأجانب وهم الذين يحققون بذلك مصالحهم وحدها. ولم يكن ذلك جديدا بحال من الأحوال. لقد دخلت مصر تحت الحكم العثماني في عام ١٥١٧، وعندما جاءها نابليون بونابرت في حملته القصيرة الأمد عام ١٧٩٨ كان شأنها قد تضاءل لتصبح مجرد ولاية شبه منسية من ولايات الامبراطورية العثمانية. عرف المصريون نظام الضرائب والاضطهاد وويلات الجفاف والأوبئة بغير نهاية. قاهرة العصور الوسطى المزدهرة كانت تتساقط أشلاء وكل ما تبقى من مجدها القديم كان يتمثل في جامع أو جامعة الأزهر التي كانت تمثل أقدم مراكز الدراسة الإسلامية وأوفرها إجلالا.

بعد ذلك جاءت السنوات التي أعقبت رحيل الفرنسيين من مصر عام ١٨٠١ ليجد المصريون زعيما جديدا هو محمد علي الذي كان ضابطا في قيادة القوات الألبانية للسلطان العثماني في مصر. وبمساعة من الشعب، أطاح محمد علي بحكم المماليك* وفرض نفسه حاكما مطلقا في وادي النيل. حينئذ استطاع محمد علي أن يخرج مصر من قرون من الركود وأن يوقظ وعيها لكي تجني المنافع فضلا عن التعقيدات المؤلمة الناجمة عن الأخذ بأسباب الحداثة الغربية. ومع ذلك فلم يعمل محمد علي على التخلص من سيادة العثمانيين في مصر.

كان خلفاؤه أتراكا في الأساس يعيشون في بلد أجنبي. تزوجوا من شركسيات واحتفظوا بفيلات على ضفاف البوسفور وكانت التركية هي لغة

---

* كلمة "مملوك" تعني الملكية باللغة العربية وكان المماليك نخبة من المحاربين المسترقين المجلوبين إلى مصر الذين أطاحوا بالأسرة الحاكمة في البلاد عام ١٢٥٠ ثم هزمهم العثمانيون عام ١٥١٧ ومنذ ذلك الحين فصاعدا، وحتى نهايتهم على يد محمد علي، ظلوا تابعين للسلطان في تركيا.

البلاط المصري فيما ظل الأتراك يتمتعون بكل مكانة اجتماعية أو مركز مهم في السلكين الإداري والعسكري.

في ركابهم جاء الأوروبيون ولم يقتصروا على البريطانيين والفرنسيين فحسب، بل كان منهم أيضا الإيطاليون واليونانيون والمالطيون. عملوا تجارا وسماسرة ومدرسين وأطباء ومحامين واشتغلوا في كل ما استطاعوه من مهن الخبرة المالية أو الفنية.

وفي ظل نظام عثماني عرف باسم نظام الامتيازات لم يدفعوا ضرائب ولا كانوا يحاكمون إلا أمام محاكمهم القنصلية مما وضعهم بعيدا عن متناول القانون المصري، ويرجع تمتعهم بهذه المكانة القوية إلى أواخر الخمسينيات من القرن التاسع عشر عندما تمكن فرديناند ديلسبس - بعد سنوات من محاولات الإقناع - من الحصول في نهاية المطاف على موافقة نجل محمد علي (الوالي سعيد) على حفر قناة السويس.

وبرغم أن القناة تم حفرها بواسطة السخرة التي استخدمت عمالا تحت ظل نظام ضريبي يعرف باسم كورفيه*، إلا أن القناة أثبتت أنها باهظة التكاليف إلى حد الخراب بالنسبة لمصر. إن ديليسبس استخدم الجزرة متمثلة في أرباح المستقبل ومعها العصا متجسدة في التزام دائم من جانب مصر، ومن ثم حمل الوالي سعيد على أن يتعهد بتكاليف المشروع ويقدم امتيازات إلى شركة قناة السويس كانت فادحة للغاية بالنسبة لمصر فضلا عن كونها تنازلات سخية لدرجة الحماقة لصالح المستثمرين. أما إيرادات القناة فلم تكن تكفي لتسوية اقتصاد كان قد فقد توازنه ومن ثم اضطر سعيد إلى أن يبدأ رحلة اقتراض الأموال.

---

* نظام العمل المفروض وغير المأجور الموروث عن نظام الإقطاع الأوروبي. "المترجم"

خليفة الوالي سعيد (الخديوي اسماعيل) لم يبد عليه أي قلق إزاء ما ورثه من ديون ولذلك أعد لافتتاح قناة السويس وسط موجة من الأبهة والفخفخة في نوفمبر من عام ١٨٦٩. اسماعيل الكبير أنفق ثروة كاملة في استضافة الامبراطورة أوجيني وجميع أعضاء الأسر المالكة الأوروبية الذين أمكنه أن يجمعهم للمناسبة الفخيمة. لقد أعيد بناء وسط القاهرة على طراز هوسمان• بما في ذلك بناء دار أوبرا خصيصا لوصول الضيوف البارزين. ولم تمض سوى سنوات قلائل حتى حصل الباب العالي على هدايا أخرى كلفت ثروة طائلة بدورها لحمل اسطنبول على إصدار فرمان يعلن مصر ملكية وراثية في أبناء عائلة حكام مصر الذين حصلوا على لقب خديوي أو نائب الملك. وخلال حكم اسماعيل، تم إنشاء مئات الأميال من السكك الحديدية وإقامة أعمدة التلغراف وحفر رياحات وترع للري وإنشاء المدارس والمستشفيات وتأسيس الكليات التعليمية. إن مصر الحديثة التي كان يحلم بها جده محمد علي الكبير أصبحت حقيقة واقعة في عهد اسماعيل ولكنها في الوقت نفسه كانت تنوء بديون بلغت مائة مليون جنيه في ذلك الحين.

ومن أجل تمويل مشاريعه، اقترض اسماعيل الأموال من المصارف الأوروبية بأسعار فائدة غاية في الضخامة، أما الفلاحون وهم الذين ظلوا يزرعون وادي النيل آلافا من السنين فكانوا ضحية الفقر بل سحقهم نظام الضرائب الذي في أغلاله كانوا يرسفون. وأدرك الدائنون الأوروبيون أنهم بغير أن يتولوا بأنفسهم السيطرة على اقتصاد مصر فإن الديون كانت كفيلة بأن تزداد أضعافا مضاعفة وكان اسماعيل يعرف ذلك، ومن ثم بذل جهودا محمومة لجمع أموال كان من بينها مثلا ما أعطى دزرائيلي (رئيس وزراء

• إيوجين هوسمان (توفي سنة ١٨٧٠) – حاكم منطقة السين الذي أعاد بناء وتوسيع شوارع وأحياء باريس. "المترجم"

بريطانيا في ذلك الحين) الفرصة لشراء أسهم الخديوي نفسه في شركة قناة السويس لقاء أربعة ملايين جنيه لا غير. وفي عام ١٨٧٦، قامت انجلترا وفرنسا بتشكيل لجنة تتولى إدارة اقتصاد مصر لحين سداد المديونية وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ أجبر الخديوي اسماعيل على التنازل عن العرش.

خلف اسماعيل ابنه توفيق الذي كان رجلا ضعيفا سعى للتعاون مع الدول الأوروبية وكذلك مع الامبراطورية العثمانية التي كانت مصر لا تزال جزءا منها. الأتراك من جانبهم وجدوها فرصة سانحة لإعادة تأكيد سلطتهم في مصر، وكان من مطالبهم تقليل عدد قوات الجيش المصري إلى حد بالغ. وجاءت التخفيضات سواء في الرواتب أو الأفراد لتشكل ضربة قاسية للضباط المصريين الذين اشتعلت بينهم باضطراد روح التمرد وتوحدت صفوفهم خلف الكولونيل أحمد عرابي بك الذي عقد العزم على إزالة هذه المظالم، وشهدت البلاد موجة عاتية من التأييد الشعبي لذلك الرجل الذي كان يتمتع باستقامة وبنية قوية وشجاعة أتاحت له أن يتحدى الأتراك مما أجبر الخديوي على الرضوخ لمطالبه، ولكن عندما تكاتف عرابي والجيش مع العناصر الأخرى التي كانت تسعى لإعلان دستور أكثر تحررية للبلاد. وشنوا حملتهم لكي تفرض مصر سيطرتها على أبواب الميزانية المتبقية بعد سداد الديون، حينئذ قررت انجلترا وفرنسا أن الوقت قد حان لاستعراض القوة في مصر.

في مايو عام ١٨٨٢ تجمعت السفن الحربية البريطانية والفرنسية على ساحل مصر وفي ١٠ يوليه من ذلك العام أمر الأميرال السير بيشام سيمور الكولونيل عرابي بوقف التحصينات في طوابي الاسكندرية ولقي إنذاره هذا تجاهلا من العرابيين وعندما أحاط الفرنسيون علما بما ينوي البريطانيون فعله بعد ذلك عمدوا إلى سحب بوارجهم، وفي ١١ يوليه تعرضت الاسكندرية إلى ١٢ ساعة من القصف من البحرية الملكية البريطانية وانسحب جيش عرابي وبعد أيام قلائل لجأ الخديوي وأتباعه إلى الاسكندرية التي وقعت تحت الاحتلال البريطاني.

في أغسطس من ذلك العام تحركت قوة سريعة قوامها عشرون ألفا من الجنود بقيادة سير جارنت وولسلي على ساحل قناة السويس إلى الاسماعيلية على مسافة ٨٠ ميلا شرق القاهرة، أما جيش عرابي الذي كان يتراوح عدده بين ١٠ و ١٥ ألفا فقد حاربوا بشجاعة في القصاصين ولكن ليلة ١٣ سبتمبر هاجمهم وولسلي وهم يغطون في نومهم في التل الكبير، وقتل نحو ثلث رجال عرابي فيما تشتت الباقون وفي تلك اللحظة بدأ الاحتلال البريطاني لمصر.

الغضب الشديد عصف بالفرنسيين والروس والألمان بل والأتراك بصفة خاصة إزاء تدخل بريطانيا في مصر وطالبوها بأن تعلن رسميا موقفها ونواياها إزاء مصر. ورفض البريطانيون قائلين أنهم سوف ينسحبون فور أن تستعاد سلطة الخديوي والاستقرار المالي للبلاد، ومع ذلك فما أن وجدوا أنفسهم في مصر حتى التمسوا أسبابا براقة شتى للبقاء. مثلا أن جهودهم لإعادة تثبيت الاستقرار السياسي والمالي استغرقت وقتا أطول من المتوقع بينما كان طريق السويس المفضي إلى الهند قد تزايدت أهميته بالنسبة لأمن الإمبراطورية البريطانية ورخائها. ثم كان هناك أيضا .. السودان.

من الناحية الجغرافية تمثل مصر شريطا من الزراعة على جانبي نهر واسع تجري مياهه مسافة ٧٠٠ ميل وسط الصحراء. ولأن المياه التي تغذي مصر يتعين عليها أولا أن تجتاز أرض السودان، كان من الطبيعي أن ينظر المصريون إلى السودان بوصفه امتدادا لوادي النيل، وكان محمد علي قد أخضعه للسيطرة المصرية في حين أن السودانيين ظلوا في حال من التمرد منذ عام ١٨٨١. وشنت حملات أنجلو - مصرية دموية كثيرة، وكانت مقتلة الجنرال غوردون الدرامية في الخرطوم هي التي استدعت الانتقام من خلال الانتصار الذي تم للانجليز في أم درمان عام ١٨٩٨. يومها أصبح اللورد كيتشنر بطلا في مصر، ولكن بعد استرجاع الخرطوم لم يشعر المصريون

بالارتياح إذ رأوا علم بريطانيا يرفرف على سماء المدينة جنبا إلى جنب مع علمهم المصري. وهكذا ظل السودان مثارا للصراع بين مصر وبريطانيا على مدى السنوات الخمسين التالية، فقد حكمه البريطانيون بكفاءة لدرجة أن أصبح نموذجا للإدارة الاستعمارية.•

السير إيفلين بارنج، اللورد كرومر فيما بعد، كان القنصل البريطاني العام في مصر بين عامي ١٨٨٢ و ١٩٠٧. خلال تلك الحقبة تم سداد الديون وتحقق التوازن المالي وخففت الضرائب عن كاهل الفلاحين وكل الأموال التي تبقت كانت تستثمر في مشاريع سرعان ما تدر عائدها. ومن أجل إرضاء الحساسيات المصرية، اصطنع الخديوي واجهة للحكم من خلال حكومة برلمانية (!!) تضم وزراء مصريين. في حين أن كان الكل يعرف أنه خلف كل وزير مصري كان ثمة موظف مستشار(بريطاني) .

هكذا كانت مصر تعيش في ظل تلك "الحماية المقنعة" وفيما عدا أمور الصحة العامة والتعليم التي كانت معرضة لإهمال جسيم، كانت مصر تدار بكفاءة أكثر بكثير مما كان عليه الحال في ظل الأتراك. ومع ذلك ظل المصريون شاعرين بالحنق، وكشأن الأتراك، ظل الحكام الأجانب يعطون أفضل الوظائف إلى الشباب من أرومتهم وليس للشباب المصريين. أما موقف البريطانيين تجاه المصريين فكان يتراوح بين نفاد الصبر والتجمل وبين الازدراء المستتر، ومن ثم ظل المصريون يشعرون بالاضطهاد برغم كل الثمار التي جاء بها الحكم البريطاني.

• غني عن التنويه أن هذه السطور تحكي وجهة النظر البريطانية فيما كان الجانب المصري مغلوبا على أمره في مسألة "استرجاع السودان" فلا كانت الحملات أنجلو – "مصرية" حقا ولا صار كتشنر بطلا في أعين المصريين. "المترجم."

وفي يوليه ١٩٠٦، كان بعض الضباط البريطانيين في طريقهم من القاهرة إلى الاسكندرية فعرجوا قرب قرية تسمى دنشواي لاصطياد الحمام ولم يكترسوا بأخذ تصريح بذلك من شيخ البلد، وكان الحمام جزءا من الاقتصادالبسيط الذي يقوم عليه الفلاحون، ومن ثم ظل القوم يبغضون كثيرا عادة البريطانيين في صيد الطيور بصورة عشوائية قرب القرى .

بدأت المشكلة بإصابة – من جراء رصاص أحد الضباط لزوجة رجل دين محلي في القرية مما اندلع معه قتال أصيب فيه عدد من الأهالي بجروح بالغة وقتل فرد من الطرفين وكان أن ألقي القبض على اثنين وخمسين من الفلاحين وأنزلت عقوبات وحشية على الذين وجد أنهم مذنبون: شنق أربعة وتلقى الكثيرون أحكام بالسجن مع الأشغال الشاقة وتم جلد الآخرون علانية على رؤوس الأشهاد. واستفزت الحادثة مشاعر واسعة النطاق أشعلت الغضب بين المصريين وأزكت أوار وطنية جديدة بقيادة الزعيم مصطفى كامل ومعه الإسلاميون المتحمسون الذين أرادوا إخراج البريطانيين بأي ثمن، ولكن مصطفى كامل مات شابا في عام ١٩٠٨ وإن كان المصريون مازالوا يذكرونه بوصفه الرجل الذي كان أول من ألهمهم بضرورة النضال من أجل الاستقلال وأقنعهم بإمكانية تحقيق ذلك.

وجاء خليفة كرومر، سير إلدون (لورد فيما بعد) غورست، الذي اتبع سياسة أكثر لينا في حكم مصر ولكن الاضطراب ظل في البلاد بين حين وآخر حتى تعيين لورد كتشنر في عام ١٩١١ معتمدا بريطانيا. ورغم أنه شرع في إجراء بعض الإصلاحات المهمة وكانت له شعبيته في مصر فعندما عاد إلى انجلترا وقت اندلاع الحرب العالمية الأولى كان قد صنع من الخديوي عباس حلمي (الثاني) عدوا لدودا.

الخديوي كان في القسطنطينية في عام ١٩١٤ وقرر أن يجرب حظه بالانحياز إلى جانب تركيا والألمان. وفي مصر انحاز الوطنيون والإسلاميون كذلك إلى جانب تركيا، ولكن رئيس الوزراء، حسين رشدي باشا، أعلن أن بلده

محايد ومؤيد للحلفاء• وبرغم هذا التأييد فإن بريطانيا أدركت أن ليس بوسعها أن تتحمل المزيد من الإبقاء على علاقة غير محددة مع مصر، ولذلك أعلنت في ديسمبر من ذلك العام فرض الحماية البريطانية على مصر.

تعهدت بريطانيا بتحمل كل المسؤولية عن الحرب بما في ذلك الدفاع عن وادي النيل والدلتا وبطبيعة الحال قناة السويس، وتدفقت القوات إلى البلاد وجرى شن حملات غاليبولي وفلسطين من أرض مصر، وطلب إلى الأهالي التعاون مع البريطانيين وهو ما فعلوه ومن ثم جرت مصادرة كميات هائلة من القمح وعلف الماشية بالإضافة إلى آلاف من الجمال والحمير، وحاول البريطانيون أن يتبعوا سبيل العدالة سواء في مجال المصادرة أو التعويض، ولكن النظام في مجمله كان موبوءا بقصور الكفاءة وشيوع الفساد. وتأسست فرقة العمال (المصريين) التي كلفت بإنشاء خطوط الإمداد والاتصالات، وكانت الأجور مرتفعة لتشجيع المتطوعين، ولكن مع تقدم مراحل الحرب بدأ العمل بنظام تجنيد فرقة العمال مما كان بخاصة مدعاة لبغض المصريين الذين رأوا في ذلك طبعة بريطانية من نظام السخرة القديم.

أربع سنوات من الحرب (العالمية الأولى) غيرت تماما وجه الشرق الأوسط، لقد نهضت شعوب وأمم من بين أطلال الإمبراطورية التركية دون أن تجرب حظها أو توضع على محك الاختبار. وهذه الوضعية حملت البريطانيين على أن يعززوا روابطهم مع مصر بدلا من تخفيف قبضتهم، وذلك في محاولة للحفاظ على نفوذهم في المنطقة وحماية قناة السويس. ولكن عند إعلان الحماية عام ١٩١٤ كان البريطانيون قد انتهجوا سياسة التخدير والملاطفة عندما تعهدوا بالنظر في إمكانية إعطاء المصريين حكما ذاتيا في الأمد الطويل. ومن هذا المنطلق فهم المصريون أن الحماية مؤقتة وأنهم، وقد عاونوا

• هكذا! مع التناقش بين الموقفين. "المترجم"

البريطانيين بإخلاص خلال سني الحرب، فإنما يريدون من بعد أن يناقشوا قضية الاستقلال.

هكذا شهدت مصر في تلك الفترة نوعية جديدة من الشعور الوطني ربما جاء أكثر اعتدالا من سابقه، ولكن التأييد الشعبي الذي لاقاه، والتصميم المعنوي الذي انطلق منه جعله شعورا ثوريا وقد تزعمه سعد زغلول وكان محاميا ووزيرا أسبق للمعارف والحقانية في ظل كرومر. وفي عام ١٩١٨ عمد سعد إلى تشكيل وفد مقترحا السفر إلى لندن لمناقشة مستقبل بلاده، وفي هذه الحقبة قام الوفد المصري الذي أسسه سعد زغلول ليتطور إلى حزب سياسي.يمكنه بحق أن يدعي أنه الصوت الديمقراطي المعبر عن مصر.

ولم يقتصر الأمر على أن البريطانيين رفضوا أن يجتمعوا إلى سعد زغلول بل لم يتح لمصر فرصة التمثيل في مؤتمر الصلح (في باريس) برغم أن المؤتمر استقبل ممثلين عن الحجاز وسوريا والعراق وإثيوبيا. وفي ربيع ١٩١٩ انطلقت مشاعر المصريين في سلسلة من حوادث الشغب والمظاهرات التي بدأت في القاهرة وسرعان ما انتشرت في كل أنحاء البلاد. وينظر المصريون إلى سنة ١٩١٩ على أنها ثورتهم الأولى برغم أن البلاد كانت حافلة بعدد كبير من القوات البريطانية بما لا يكاد يتيح الأمل في نجاحها.

وبرغم أن البريطانيين أخمدوا الانتفاضة ونفوا سعد زغلول، إلا أنهم أدركوا أن لن يكون بوسعهم قط إعادة الأمن والنظام إلا إذا توصلوا إلى اتفاق مع الرجل. ذلك الشيخ الكبير العنيد الذي اشتعل رأسه شيبا والذي ينحدر من أصلاب الفلاحين كان قد استحوذ على تأييد هائل في طول مصر وعرضها، ولأنه أصر بعناد على جلاء القوات البريطانية وتحقيق سيادة مصر على السودان فقد قرر البريطانيون أن يتجاوزوه تماما.

وفي عام ١٩٢٢ مُنحت مصر استقلالا مشروطا وأعلن دستور زاد إلى حد كبير من سلطة العرش إذ كانت أسرة محمد علي قد رفعت إلى مرتبة

الأسرة المالكة بعد انحلال الإمبراطورية العثمانية. وأعلن البريطانيون عددا من "التحفظات" التي يصار إلى مناقشاتها في المستقبل ولكنها كانت في واقع الحال داخلة ضمن السيطرة البريطانية وتمثلت التحفظات في إدارة السودان والدفاع عن مصر وطريق الهند مما كان يعني أن القوات الأجنبية لن يتم جلاؤها وكذلك حماية الأجانب.

سعد زغلول الذي كان قد عاد من المنفى في السنة التالية شعر بالازدراء إزاء هذا الاستقلال المنقوص ورأى أن من شأن الدستور الجديد أن يشكل خطرا بالغا على وحدة مصر فالسلطة التي منحت للملك كان من المحتم أن تجتذب مؤيديها مما يعني عاجلا أو آجلا صراعا مع الوفد. وفي كل حال فإن تبدد الطاقة في الخلافات السياسية كان يعني أن البريطانيين يستطيعون الجلوس مرتاحين في مقاعد السيطرة على أمور البلاد.

مع ذلك كان معظم المصريين سعداء بمكانة مصر الجديدة كبلد ذي سيادة، وقد جاءت الانتخابات الأولى بالوفد إلى السلطة بأغلبية كبيرة للغاية، وأصبح سعد زغلول رئيسا للوزراء برغم أنه لم ينكص عن الاستمرار في حملته من أجل الاستقلال الحقيقي. وفي مايو ١٩٢٤ عمد إلى تذكير البرلمان بأن هناك انجليزيا هو الحاكم العام للسودان والسردار (القائد) للجيش المصري، وبعد أيام ثلاثة، أغتيل السردار، سير لي ستاك، بواسطة المتطرفين الوطنيين وأعقب ذلك حملة ترهيب شاملة جاءت لتضع نهاية للفترة الثورية التي كانت قد بدأت في عام ١٩١٩ وقد أصيب سعد زغلول بصدمة عميقة من جراء الاغتيال ولذلك سقطت في ديسمبر وزارته الأولى والوحيدة.

هكذا أخذ الوفد يعاني من انحسار مؤقت مما أخرج إلى النور الأحزاب السياسية الأخرى وكان أهمها بعد الوفد حزب الأحرار الدستوريين، فإذا كان الوفد هو حزب الأهالي فقد كان الأحرار الدستوريين يمثلون مصالح الطبقات المالكة والعائلات التركية القديمة. ثم جاء تأسيس حزب الاتحاد عام ١٩٢٥

على يد نشأت باشا الذي سيصبح سفيرا لمصر في لندن خلال الحرب العالمية الثانية، ومع ذلك فإن الزعيم الحقيقي لذلك الحزب لم يره أحد قط في البرلمان، وكان الجميع يعرفون أنه الملك (فؤاد) نفسه.

وقد كان الملك فؤاد قد تعاون مع البريطانيين عام ١٩١٩ بدل أن يقف إلى جانب الغالبية من رعاياه ومعهم سعد زغلول. ثم جاء دستور عام ١٩٢٢• ليعطيه السلطة. وكان فؤاد قد عقد العزم تماما على استخدام تلك السلطة كاملة. وعندما توفي سعد زغلول مؤسس الوفد في عام ١٩٢٧ ساورت الملك فؤاد آمال صامتة بأن الفرصة قد حانت لكي يشهد انهيارا في أكبر حزب يمثل الأهالي في مصر .

على أن زعامة الوفد آلت إلى النحاس باشا، وهو مثل زغلول من أصل فلاحي ولكن ذلك السياسي المتبسط الأكرش كان تنقصه الكثير من الخصائل مما جعله على النقيض تماما من سلفه رحل الدولة البارز. كل فرد في مصر كان له عم أو خال منطلق السجية مثل النحاس، ومع ذلك فقد حقق النحاس ما لم يحققه سعد زغلول – توصل إلى معاهدة عملية مع البريطانيين.

السنوات التي فصلت بين وفاة سعد زغلول وتوقيع المعاهدة الانجليزية البريطانية في عام ١٩٣٦ شهدت اضطرابا متزايدا، إذ كان الصراع محتدما بين الملك بنزعته المتسلطة وبين الوفد من أجل السيطرة على أمور مصر في الحكم. هذه الاضطرابات السياسية أفضت إلى موجات من التمرد والإضرابات والمظاهرات التي كان يعقبها مواجهات محتومة لإخماد هذا كله بوحي من القصر.

في أكتوبر ١٩٣٥ اجتاحت إيطاليا الحبشة وأدركت مصر أن ليس بوسعها الدفاع عن نفسها ضد التهديد الإيطالي بغير مساعدة البريطانيين. من هنا أصبح توقيع معاهدة انجليزية بريطانية من الأهمية بمكان، ولكن الانجليز كانوا

• الصحيح ١٩٢٣. "المترجم"

عازفين عن التفاوض مع أي طرف يدنو عن كونه حكومة منتخبة دستوريا برغم حرصهم على أن تقوم علاقتهم بالمصريين على أساس متين وطيد.

هكذا أجريت الانتخابات في مايو ١٩٣٦ فجاءت بالنحاس من جديد الذي شكل وزارته الثالثة في مدى ثمانية أعوام وجرى التفاوض على المعاهدة الانجليزية البريطانية وتم توقيعها في أغسطس ١٩٣٦.

واحد فقط من التحفظات الأربع التي كانت تعترض طريق الاستقلال الكامل في عام ١٩٢٢ هو الذي جرى حله لمصلحة مصر وهو: الامتيازات الأجنبية التي كانت تضفي الحصانة الدبلوماسية على مجمل الجاليات الأجنبية وقد تم بعد ذلك إلغاؤها، إلا أن البريطانيين ظلوا يحتفظون بحق الدفاع عن مصر وعن الطريق إلى الهند وتقرر أن يظل السودان تحت الإدارة البريطانية، ولكن المعاهدة اعتبرت انتصارا للنحاس والوفد لأن مصر حصلت بالفعل على المزيد من الاستقلال عن البريطانيين إذ أصبحت عضوا في عصبة الأمم وتخلى البريطانيون عن قبضتهم على أمورها الدبلوماسية وأصبح المفوض السامي، سير مايلز لامبسون مجرد سفير في مصر. مع ذلك ظلت هيمنة الممثل الدبلوماسي لبريطانيا تستند إلى حقيقة أنه كان يترأس السفارة الوحيدة الأجنبية في مصر في حين أن كان لجميع البلدان الأخرى مفوضيات أو قنصليات يترأسها وزراء مفوضون أو قناصل.

ووردت بنود كذلك تقضي بتوسيع القوات المصرية المسلحة ومن ثم أصبح بوسع الكلية الحربية الملكية التي كانت حتى ذلك الحين تختار طلبتها من صفوف الطبقات الغنية العليا، أن تفتح أبوابها لكي تستوعب قطاعات أوسع في المجتمع وهكذا جاء جمال عبد الناصر وأنور السادات ضمن الأفواج الجديدة من الطلاب وهما ينحدران من عائلات فقيرة نسبيا وبغير نفوذ وما كان لهما أن يأملا في أن تتاح مثل هذه الفرصة قبل عام ١٩٣٦.

لم يقدر للملك فؤاد أن يعيش ليشهد هذه التطـورات فقد توفـي فـي أبريـل من ذلك العام ومن سخرية القدر أن ما كرس له فؤاد جهوده مـن أجـل تحسـين التعليم العالي في مصر قد أدى إلى زيادة كبيرة في عدد المصريين المشـتغلين بالسياسة رغم أن الملك وهو الأوتوقراطي القديم لم يؤمـن يومـا بالديمقراطيـة ولا شك أنه كان يتصور أنه يؤدي أفضل خدمة لمصر عندما يستجمع فـي يـده كل خيوط السلطة. بل كان يرى من الأسهل أن يمارس سلطته على عائلته بـدلا من بلاده ولكن الآثار الناجمة عن هذا كله كانت غير مرضية في الحالتين.

الملك والمدينة

من شأن الطفل الوحيد الذَكَر في عائلة من البنات أن يفسده التدليل، فإذا ما كانت العائلة مسلمة وكان الطفل الذكر سيصبح يوما ملكا للبلاد فإن التدليل جدير بأن يصل إلى حدود بالغة السوء. كان الملك فؤاد واعيا بذلك ومن هنا فقد خطط لنظام للأمير الصغير فاروق يجعله عاكفا على دراساته من الصباح حتى المساء مقررا أن يحصل ابنه على أفضل تعليم وأن يتكلم العربية لغة الشعب، إذ أن عدم تمكن فؤاد من تلك اللغة كان إحراجا له، فلم يكن يتكلم سوى الفرنسية والتركية والإيطالية رغم كونه ملكا لمصر. لكن فاروق كان طالبا سيئا وكل ما تعلمه منذ نعومة أظفاره أن هناك نوعين فقط من البشر: الذين يسيطرون عليه مثل أبيه ومعلميه، والذين يستطيع هو أن يسيطر عليهم مثل أمه الشغوفة الملكة نازلي ثم خدم القصر المطيعين. وكان يركض إلى الصنف الآخر حيثما استطاع فينال التدليل ويطعمونه صنوف الكعك. وعندما نالت منه السمنة، إذ كان فاروق الطفل يتمتع بشهية كبيرة، وبدأ جسمه يميل إلى الترهل فرض عليه أبوه نظاما غذائيا. وفي مرحلة لاحقة أخبر فاروق صديقا له أنه كان يشعر أحيانا بجوع شديد فكان يلتهم الطعام الموضوع من أجل القطط، ولم يعرف فاروق فردا يتعامل معه معاملة الأنداد. ففي الساحات الشاسعة لقصر القبة أو على ضفاف قصر المنتزه في الاسكندرية كان الأطفال الذين يلعب معه مقتصرين على أخواته الصغيرات فوزية وفايزة وفايقة وفتحية (كان الملك والملكة يعتقدان في الخزعبلات ويوما ما قالت قارئة للطالع للملك فؤاد إن حرف فاء سيكون من حسن الطالع على أسرته.)

في عام ١٩٣٥ كان فاروق قد بلغ الخامسة عشرة فأرسلوه إلى انجلترا للدراسة في الكلية الحربية الملكية في وول ويش. وفي امتحان القبول قبع بانتظار الإجابات على الأسئلة كي توضع على طاولته على نحو ما دأب عليه في مصر، ولكن في هذه المرة لم تظهر الأسئلة إطلاقا ورسب فاروق برغم أن سمح له بحضور الدراسة مرتين في العصر كل أسبوع.

الحاشية الملكية لفاروق سكنت في كيري هاوس، كينغستون حيث كان الأمير يقضي وقتا أطول في محلات المجوهرات وصالات الشاي بالمدينة بأكثر مما يقضيه في دراساته. في الوقت نفسه كان معلموه المصريون يتجادلون فيما بينهم حول أسلوب معاملته. كان عزيز المصري باشا ضابطا وطنيا يقرأ للبريطانيين ويعجب بالألمان ويؤمن بالنظام والانضباط، أما أحمد حسنين باشا فكان من ناحية أخرى له رأي متساهل إلى أبعد الحدود. كان رجلا جذابا رفيع التهذيب صنع لنفسه شهرة بأنه من رواد الصحراء وفاز بميدالية الجمعية الجغرافية الملكية (البريطانية) باعتباره أول من عبر الصحراء الكبرى من البحر المتوسط إلى دارفور، وكان من رجال البلاط، ومن مصلحته تأمين الثقة لدى سيده الذي سيكون في المستقبل ومن ثم كان يرى أن يطلق للصبي الحبل على الغارب. وفي كل حال فلم يكن قد أمضى سبعة أشهر في انجلترا حتى سارع الأمير بالعودة إلى مصر عند وفاة الملك فؤاد.

ومن سوء طالع فاروق أنه لم يكد يبلغ السادسة عشرة من العمر حتى وجد نفسه أغنى فرد في مصر وأكثر المصريين نفوذا. وبوصفه رأس العائلة المالكة بلغ الأمر (من الناحية الفنية على الأقل) أن أصبحت أمه وعمه رهيني إرادته. وكان ذلك حملا هائلا على فرد لم يكد يبدأ مرحلة البلوغ من حياته كما كان ضعيفا من الناحية العاطفية، ولكن بوصفه ملكا لم يكن بالوسع سوى مجرد إسداء المشورة إليه دون التطرق إلى ما ينبغي عليه أن يفعله وعلى ذلك لم يجد من يقاسمه هذا الحمل الباهظ. إن عزلة مركزه فضلا عن إحساس عميق لديه بعجز الكفاءة، كل هذا جعله إنسانا سيئا وحمله على درب من المباهاة الحمقاء وسط شلة طبقته الاجتماعية الخاصة، مباهاة تدل أحيانا على خيال أرعن. أول مرة ذهب فيها لصيد البط كان ضيفا على سير مايلز لامبسون الذي كان رياضيا محنكا وصيادا من الدرجة الأولى، إلا أن صحف القاهرة

أفادت بأن جلالته اصطاد ٢٠٨ من طيور البط، أي أكثر من ٦٨ من مضيفه وطبعا أكثر بكثير من أي فرد آخر ضمته الرحلة.

والد فاروق كان قد تعلم في جنيف وفي الكلية الحربية في تورينو، ثم أمضى أسعد سنوات حياته في إيطاليا ولدى عودته إلى مصر احتفظ بعدد من الخدم الإيطاليين الذين كانوا في غاية التساهل والتدليل لفاروق الذي احتفظ بهم بدوره ضمن حاشيته حتى أن أنطونيو بوللي كهربائي القصر أصبح ظل الملك يصاحبه في كل مكان عندما يخلو من واجباته. كأنما استطاع إيطاليو القصر الملكي أن يعوضوا عن إحساس فاروق بقصور الكفاءة من خلال ما كانوا يعمدون إليه من أقاويل النميمة التي كانوا يشفعونها بنكات ومقالب صبية المدارس. صحبتهم كانت الرفقة الوحيدة التي يرتاح فاروق الملك الشاب إليها وفي معرض مقارنة انبساطهم ضحكا وتملقا إليه كانت أصوات عائلته ومستشاريه تبدو نغمات رتيبة وكئيبة بصورة لا يمكن احتمالها.

عينوا مدرسا خصوصيا انجليزي الجنسية شابا اسمه ادوارد (السير ادوارد) فيما بعد (فورد) ضمن العاملين في معية فاروق، وكان من المؤمل أن يترك هذا المعلم أثرا صحيا في نفس سمو الأمير، لكن عمله كان في حكم المستحيل إذ لم يكن فاروق يلقي بالا كبيرا إلى حاجته للتعليم، بل كان يزعم أنه قتل مواضيع الدراسة بحثا ابتداء من تاريخ الحرب الأهلية الأمريكية إلى نظرية النسبية. هنالك أدرك فورد أن ما كان يحتاجه الملك الشاب حقيقة هو صديق ومن ثم أعلن أنه سوف يكون سعيدا للغاية إذا ما عن لصاحب الجلالة أن يلاعبه في مباراة بريدج أو تنس. لكن فاروق قلما كان يستدعيه لأنه كان يفضل قيادة السيارات في ساحات القصر بسرعة مرعبة.

على أن إدوارد فورد كان يرافق الحاشية الملكية التي شملت فاروق وأمه على متن باخرة أبحرت إلى صعيد مصر في يناير عام ١٩٣٧ وقد سجل في

مذكراته ما حدث عندما قال لفاروق إن نجاحه المدهش في صيد البط لم يصدقه أحد في القاهرة:

"كانت إجابة فاروق أنه لم يكن متأكدا من العدد ٨ الزائد عن الإحصاء وإن كان متأكدا للغاية أنه اصطاد مائتي بطة ببندقيته الخاصة. أما الحقيقة فمؤداها أنه كان ماهرا كصياد مبتدئ والصحيح أيضا أنه اصطاد ما بين ٤٠ إلى ٥٠ من الطيور، ولكن العدد المتبقي الذي أودعوه في حقيبة الملك إنما اصطاده إثنان أو ثلاثة من أمهر صيادي البدو".

كذلك كان سلوك الملكة الوالدة أمرا لم يساعد على استقرار فاروق عاطفيا. كانت تراود الملك فؤاد الراحل أفكار في غاية الصرامة بشأن عزل النساء ولكن ما كان من نازلي فور وفاة زوجها إلا أن أباحت لنفسها أن تعيش حياة مترخصة. ففي رحلة الإجازة في أوروبا كانوا يشاهدونها في المسرح والمطاعم والحفلات بل وفي ساحات الرقص أيضا. لم تكن تستطيع أن تتصرف بهذه الحرية في مصر، ولكن لم يكن سرا أن أقرب مرافقيها سواء في الوطن أو الخارج كان حسنين باشا رائد فاروق القديم الذي جعلته نازلي تشريفاتيا لها. أما الملك فقد كانت له تحفظات كثيرة على هذه العلاقة، وفي إحدى المرات أبلغوه أن ثمة رجلا موجودا في جناح نازلي في الحرملك *• وما كان من فاروق إلا أن اقتحم المكان شاهرا مسدسه فضبط حسنين وهو يقرأ القرآن لوالدته، ويقال إنهما تزوجا سرا في عام ١٩٣٧ وأنه عندما لقي حسنين مصرعه في حادثة سيارة عام ١٩٤٦ أمر فاروق بإتلاف عقد الزواج.

---

* منازل المسلمين منقسمة إلى السلاملك، وهو الجانب المعلن من البيت الذي يشمل حجرات الاستقبال، ثم الحرملك وهو أجنحة النساء.

• ملاحظة المؤلفة السابقة تصدق طبعا على السراة الذين نقلوا عن الأتراك عادات السلاملك والحرملك. تأمل مشاهد العمل الزراعي والصناعي حيث لا يعني القوم في مصر شأن هذا التقسيم! "المترجم"

في تلك الأيام المبكرة من عهده، كان فاروق بهي الطلعة، طويل القامة، متين البنيان، وكان له شعر خفيف وعينان ساهمتان مما كان مثار الإعجاب في بلاد المشرق، ومما جعله نموذجا لجمال الرجل في عيون رعاياه. كان يشعرون باعتزاز عميق بهذا الابن المحبوب. وفي يوليه ١٩٣٧ تدفق على القاهرة أكثر من مليوني نسمة من جميع أنحاء البلاد للاحتفال بتتويج أول ملك على مصر المستقلة .وكم كان ابتهاج الشعب شديدا عندما تزوج فاروق في يناير ١٩٣٨، أي قبل شهر من عيد ميلاده الثامن عشر، صافيناز ذو الفقار ذات الستة عشر ربيعا، وكان والدها يوسف ذو الفقار، نائب رئيس محكمة الاستئناف المختلطة في الاسكندرية فيما كانت والدتها وصيفة في حاشية الملكة نازلي. وجريا على عادة العائلة من التفاؤل بالحرف فاء غيروا اسمها لتصبح فريدة التي سرعان ما ازدادت شعبيتها في مصر إذ كانت تطالعها العيون على صفحات عدد لا يحصى من المجلات قسماتها المليحة يحيطها اليشمك وهو غطاء الرأس التركي الأبيض الذي كان موضة معمولا بها لسيدات القصر الملكي.

الملكة نازلي هي التي وفقت بين الاثنين وشجعت على نمو العلاقة بينهما (رغم أنها حاولت ومعها آل ذو الفقار إقناع الزوجين بتأجيل زواجهما إلى مرحلة ينضجان فيها أكثر) كانت تأمل أن تسيطر على زوجة ابنها من خلال تذكيرها باستمرار أنها كانت المسؤولة عن رفع مكانتها، ولكن فريدة قاومت هذا الاتجاه بكل عزم وتصميم ومن ثم شجرت خلافات عنيفة بين الملكتين، إلا أن فريدة كانت قرة عين زوجها، وكانت لها مكانة أرفع بالتأكيد عند فاروق حتى من الملكة الأم، وقيل إن الملك كان يقدم لها هدية جواهر مع مطلع كل يوم، وكان يتعين إيداعها في أدراج خاصة إذ لم يكن بمقدور أي علبة مجوهرات أن تسعها (وربما لا يعدو هذا القول مجرد إشاعة كان يعمل على تشجيعها حاشية فريدة ذاتها).

كانت التقاليد تقضي بأن يظل الأمير محمد علي، عم الملك، وليا للعهد ريثما يرزق الملك بطفل ذكر لوراثة العرش. وكان محمد علي رجلا حسن الهندام، جم التهذيب، رقيق البنية، له لحية بيضاء معتنى بتشذيبها. كان يلبس الطربوش وقد عوجه على جبينه، وفي يده دائما خاتم مرصع بزمردة ضخمة، وكان لهذا الحجر الكريم قصة غريبة، ففي شبابه ظل الأمير محمد علي فريسة مرض عضال لدرجة أن أطباءه تخلوا عن كل الأمل في تحسين حالته، ومع ذلك سعى الأمير إلى نصيحة استقاها من امرأة حكيمة قالت له أن يستثمر كل شيء يملكه في غرض واحد بعينه. ومن هنا اشترى زمردة فريدة في نوعها كلفته أكثر مما كان يطيق، ولكنه لم يصب بمرض يوما منذ تلك اللحظة. الأمير محمد علي كان قد وضع كتابا بعنوان "تربية الجياد العربية" ولكن اهتمامه الرئيسي بات يتمثل في جمع الكنوز الأثرية وزراعة حديقته في قصر المنيل الذي اشتهر بأنه أجمل قصور القاهرة.

كان مؤيدا للبريطانيين بصورة متطرفة وكثيرا ما كان يزور السفارة بغير موعد كي يتجاذب أطرافا من حديث مع مايلز لامبسون الذي كان من جانبه يتخلى عن أي شيء في يده لكي يستقبل صاحب السمو الملكي. كان الأمير محمد علي يتصور أن السفير البريطاني يلتزم جادة اللين والملاطفة البالغة، سواء في معاملته المصريين أو ابن أخيه فاروق الذي كان ما يفتأ يشكو منه بغير انقطاع.

ثم كان ثمة شخصيتان رئيسيتان في حياة فاروق العامة: رجل شديد الإخلاص للقصر وهو السياسي علي ماهر باشا ثم السفير البريطاني. سير مايلز كان قد عين مندوبا ساميا في مصر عام ١٩٣٣ بعد أن كان وزيرا مفوضا لبلاده في الصين. أما المصريون الذين ارتاحوا إلى الدور الذي لعبه في توقيع معاهدة ١٩٣٦ الانجليزية البريطانية في العام السابق فقد طلبوا إبقاءه ليكون أول سفير لبريطانيا في مصر. وقد وصفه هارولد ماكملان فقال

"إنه رجل ذو شخصية لها وزنها، قوي الشكيمة مجرد من العواطف لطيف المعشر". ولكن بصيرته المؤكدة وقدرات الملاحظة لديه كانت أحيانا يشوبها التعنت الذي لا يجعله أن يرى طرفي المسألة وخاصة إذا كانت المسألة المصرية. سير مايلز كان طوله يبلغ ستة أقدام ونصفا، كان يرتدي معطفا رماديا وتحوطه صرامة ومهابة لكي تتوافق مع جرمه الضخم. لم يكن يشعر بكبير احترام إزاء فاروق، بل كان يشير إليه بوصف "الولد" لا في مذكراته فحسب، ولكن على مرأى ومسمع من الجميع أيضا. أما بالنسبة إلى فاروق فكان يصف لامبسون بأنه "الخوجة" أو "جاموسة باشا"، إذ كان السفير البريطاني يمثل كل ما يبغضه فاروق بغض التحريم: الأب بكل سلطته الصارمة والاحتلال الأجنبي لبلاده وقد كان يتوق إلى التخلص منه.

مجرد معرفة أن هذا شيء أو ذاك سيكون محل رفض من جانب سير مايلز كان يدفع فاروق أكثر وأكثر لكي يصغي إلى علي ماهر باشا الذي سبق أن خدم أباه، ثم ها هو وقد أصبح أقرب المستشارين السياسيين لدى الملك الجديد. كان رجلا أنيقا دقيق الحجم، وكان يعاني من عسر الهضم ولا يستغني قط عن حبوب الهضم التي يتناولها. بقدر كفاءته وحسن تنظيمه، بقدر ما كان يتمتع به من مهارة مرموقة على نسج المؤامرات مما جعله موضع خشية الجميع سواء بين صفوف أعضاء البرلمان أو دعاة الديمقراطية الذين كانوا يبغضون فيه أحابيله التي كان ينسجها لصالح الملكية منذ عام ١٩٢٣. في أواخر عام ١٩٣٧ شرع علي ماهر باشا في جني الثمرات مستفيدا من شباب الملك وشعبيته التي كانت وقتها قد بلغت أوجها، وذلك لإرضاء طموحات علي ماهر أن يصبح القوة الحقيقية من خلف العرش حيث كانت أيادي البرلمان شبه مغلولة وحيث كان يستعين بشبكة من المرشدين والمخبرين الثقات.

من جانبه كان النحاس باشا رئيس الوزراء مشغولا أشد الانشغال بشعبية الملك المتصاعدة التي كان يقصد بها علي ماهر تدمير شعبية حزب الوفد

بمنهجه الديمقراطي. كان النحاس قد وقف في وجه فاروق في مناسبتين سبقتا وبدأت العلاقة تسوء بين السراي والوفد. ففي ديسمبر ١٩٣٧ حاول النحاس أن يقطع الطريق على ممارسة الملك لسلطاته مرة واحدة وإلى الأبد، وجاءت النتيجة على شكل مجاهرة حاشدة معادية للوفد زاد من حدتها مشاركة الأزهر وكذلك طلبة جامعة القاهرة (فؤاد). آلاف من البشر تجمعوا خارج قصر عابدين يهتفون بحياة الملك ثم يطالبون بإقصاء النحاس والوفد عن السلطة، وكسبت السراي الجولة، ففي أغسطس من عام ١٩٣٨ أصبح علي ماهر رئيسا للوزراء.

القاهرة، شأنها شأن المدن التجارية الأخرى الكبيرة بالشرق الأوسط مثل حلب ودمشق واسطنبول، مؤلفة من مجاميع من جاليات ودوائر مختلفة ما بين المسلمين والأقباط واليهود والمسيحيين الشوام فضلا عن الوافدين من فرنسيين وإيطاليين ومالطيين وقبارصة ويونانيين، كلهم يمارسون التجارة والأعمال معا عبر تناول فناجين لا حصر لها من القهوة المحلاة بالسكر ومن أكواب الشاي بالسكر أيضا. كان من حسن الأخلاق ما يدفع المسلم أن يقدم تهانيه إلى أصدقائه المسيحيين في عيدي الميلاد والقيامة وبالمثل كان يتلقى منهم التهاني في الأعياد الإسلامية سواء في رأس السنة الهجرية أو في مولد النبي عليه الصلاة والسلام.

لم تشهد الساحة سوى أقل القليل من التمييز العرقي أو التفرقة الدينية ولكن البنوك والمحلات الكبرى في أفخر أحياء المدينة كانت تنزع إلى محاباة الموظفين من ذوي الأصل الأوروبي في حين كانت الشابات الأوروبيات يعملن بائعات في المحلات وسكرتيرات. كانت عائلاتهن تعيش في مستوى أفضل بكثير في مصر من المستوى الذي تستطيع العيش فيه في أوروبا ذاتها: ضرائب عند الحد الأدنى، طعام موفور متهاود الثمن، ثم كان لدى معظم الأسر خادم بل وأكثر من خادم، وكانوا يتعلمون في مدارس الإرساليات الفرنسية

والإيطالية والأمريكية التي تحفل بها البلاد وكان ذلك مجالا تخلف عنه البريطانيون بكثير. ففيما عدا كلية فيكتوريا الممتازة في الاسكندرية ثم مدرسة الجزيرة التحضيرية والمجلس البريطاني وأنشطته في القاهرة كان البريطانيون قد أهملوا التعليم في مصر، وتلك سياسة بدأها لورد كرومر الذي كان يرفض تماما التعليم على أساس أن قليلا من التعليم أمر محفوف بالخطر.

زوار عاصمة الملك فاروق كانوا يجدون ما يتطلعون إليه في القاهرة التي كانت راضية للغاية بالحمير في شوارعها والباعة الجائلين يجوبون الشوارع والبازارات والمقاهي التي كانت تترافق جميعا مع الجلبة التي تعرفها حياة الشارع العربي، في حين أن الطبقات الوسطى من المصريين كانت أقرب روحا إلى أقاليم فرنسا وأريافها منها إلى حياة ألف ليلة وليلة، وكان الإلمام بالثقافة الفرنسية أمرا لا غنى عنه لكل امرئ يطمح إلى مجالي الصقل والتهذيب.

في زمن الخديوي اسماعيل كانت التركية والفرنسية هما لغتا الطبقات الحاكمة، ومنذ الاستقلال حلت العربية محل التركية بوصفها لغة الحكومة، وبرغم تزايد الحديث بالانجليزية إلا أن الفرنسية ظلت مهيمنة في دوائر التجارة والأعمال وفي الحياة الاجتماعية على السواء. وكثير من التعليم الخاص، فضلا عن جانب لا يستهان به من الصحافة كان بالفرنسية التي كانت كذلك لغة المنتديات وصالات الشاي والمحلات الكبرى والجمعيات العلمية والمتاحف والبنوك وبورصات القطن. وكما يقول عالم قاهري• "أن تتكلم الفرنسية معناه أن تعرف القاهرة وطنا، ولكن عليك أن تؤمن بأن باريس هي عاصمة الدنيا كلها". كانت فرقة الكوميدي فرانسيز وأوبرا باريس تأتيان بانتظام إلى القاهرة والاسكندرية وكان الذوق الفرنسي عادة هو المفضل على

• هو الدكتور مجدي وهبه الأكاديمي الكبير والمجمعي الراحل. "المترجم"

الانجليزي في كل شيء فيما عدا تفصيل بدلات الرجال. وكم كان الأثاث الفرنسي الفاخر وأنواع الخزف الصيني الفرنسي مفضلا بالذات في مجتمع تحتكر فيه المرأة ترتيب البيت وتنظيمه.

الطبقات الوسطى من المصريين كانت تفضل كذلك التعليم الأجنبي ولم يكن من غير المألوف أن يرسل المسلمون أبناءهم إلى مدارس الإرساليات الكاثوليكية وبعد ذلك يتوجه أفضل العناصر للدراسة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة أو في جامعة فؤاد الأول بالجيزة على الضفة الأخرى من النيل، ومن هنا كان يقدر للمحظوظين أن يتبعوا خطى أبائهم إلى مجالات التجارة والأعمال في ممتلكات العائلة أو يصبحون معلمين أو محامين أو موظفين بالحكومة حيث لم تكن الصناعة في مصر قائمة إلا على نطاق محدود فيما كان الأعمال المجزية يحظى بها عادة الأوروبيون. لا عجب إذن أن اتجه كثير من الطلبة إلى ميدان السياسة حيث أطلقوا العنان لإحباطاتهم في مظاهرات وطنية معادية للبريطانيين.

على قمة الهرم الاجتماعي المصري كان ثمة مجتمع يتسم بنزعة كوزموبوليتانية لا يطمح إلى أن يصطبغ بالصبغة الأوروبية لأنه كان مصبوغا بها بالفعل. الدادات الانجليزيات والمربيات الفرنسيات كفلن لأعضاء هذا المجتمع التكلم باللغتين بنفس السهولة والطلاقة وكان أبناء ذلك المجتمع يذهبون للدراسة في كلية فيكتوريا بالاسكندرية ومنها إلى أكسفورد أو كمبردج بينما كانت بناتهم يكملن التعليم في سويسرا. كان بالوسع أن يتكلموا العربية، ولكنها كان تستخدم في معظم الأحيان للتخاطب مع الخدم. أما الوقت فكان مقسما بين الفيلات التي يمتلكونها في الاسكندرية والقاهرة، أما شهور القيظ اللافحة فكانوا يقضونها خارج البلاد في جنيف أو باريس.

باللغة الفرنسية قالت إحدى سيدات مجتمع القاهرة في ذلك الحين لسيدة أخرى وفدت على هذا المجتمع: "يسعدني أن أقدم لك أعلى طبقة بين اليهود

وبين الأقباط وبين المسلمين في القاهرة كلها". وكان بوسعها أن تضيف بدقة شديدة قائلة "وهناك أيضا صفوة الليفانتيين (أبناء شرقي وجنوبي المتوسط) وصفوة الجريج" ولكن بلاغة العبارة كان يمكن أن تضيع بتلك الإضافة.

صفوة مسلمي القاهرة كان يقبع على قمتها بطبيعة الحال العائلة المالكة. الجيل الأكبر كان يترأسه الأمير محمد علي ولي العهد وريث العرش، والأمير عمر طوسون. ومن خلال السلالة التي تنحدر من مؤسس الأسرة كان كلاهما أكبر سنا من فاروق وكلاهما كذلك كانا ينعي تحلل جيل الشباب وإن كان الأمير عمر طوسون هو الأشد محافظة. كان رجلا يتصف بعادات غريبة واهتمامات علمية كما كان مسلما عميق الإيمان ولم يغفر عمر طوسون للملك فؤاد يوما عصيانه تعاليم القرآن التي لا تبيح استنساخ الصور المخلوقة وذلك عندما سمح الملك بأن تظهر صورته على العملة المصرية.

الأمير عمر طوسون كان له ولدان تطور لديهما أذواق غربية فاسدة برغم كل هذه الصرامة وربما بسبب هذه الصرامة في التربية. وعندما كانا يعيشان مع والدهما لم يقدر للأمير العجوز أن يكتشف قط الوسكي الذي تم تهريبه إلى قصره بل وشراؤه من حسابه لأن الأمر كان يبدو وكأن الشراء تم لزجاجات مياه إيفيان المعدنية. والحقيقة أن الأمير كان يتعجب إزاء كمية المياه المعدنية التي واصل ابناه استهلاكها.

الأمير الأكبر سعيد طوسون* تزوج مهواش شيرين في عام ١٩٣١ بينما تزوج الأصغر وهو الأمير حسن فاطمة في عام ١٩٤٠ وكانت كل من فاطمة

---

* من الناحية العملية البحتة لم يكن ولدا الأمير عمر طوسون أميرين بل نبيلين وذلك لقب يدنو عن لقب الأمير ويعطى لمن يجري في عروقهم الدم الملكي ولكنهم ليسوا على قرابة وثيقة بالأسرة الحاكمة. لكن كتابنا هذا لم يتبع هذا التمييز بل سوف نشير إلى كل أعضاء العائلة المالكة المصرية (دون مرتبة الملوك والملكات على أنهم الأمير أو الأميرة).

ومهواش طوسون جميلة وشابة وممتلئة بالحيوية وفورة الصبا. كان من عادة الملك فاروق أن يتصل مع مهواش أو فاطمة لكي يسأل عن الحفلات التي سوف تقام هذا الأسبوع أو ذاك، وكان يتلقى الاقتراحات حول من يريده أن يأتي إلى هذه الحفلة أو تلك. وقرب نهاية الحرب انتشرت الإشاعات التي تقول إن الأميرة فاطمة طوسون قد أصبحت خليلة فاروق، وكان من المفترض أن تلد له طفلة غير شرعية تعرف باسم (مدموازيل روا.)

على أن زوجي كل من فاطمة ومهواش كانا دائما يتلقيان اللوم من والدهما لأنهما تركا الحبل على غاربه للزوجتين وكم كان الأمير عمر طوسون يشعر بخيبة الأمل إزاء رفض الأميرة أمينة ابنته التي بقيت من بعده أن تجلس في الحرملك طيلة اليوم شأن أي سيدة مبجلة. وفي سن الثانية والعشرين ظهرت أمينة بين ثلاث أميرات سافرة في دار أوبرا القاهرة عام ١٩٢٥ مما سبب اضطرابا عميقا.

كان أول زوج للأميرة أمينة (وقد طلقت منه بعد سنة بسبب حادثة السفور الشهيرة) هو الأمير عمر حليم وكان من أمهر لاعبي البولو، أما زواجها الثاني فلم يدم سوى أقل من عام، وبعد الحرب تزوجت من ضابط في بحرية الولايات المتحدة هو الكابتن كورنيليوس بريتش.

ومن بين المسلمات المنتميات للطبقات العليا في ذلك الوقت، كان يمكن للمرء أن يجد تنويعات غير عادية في أسلوب الحياة وخاصة ضمن صفوف العائلة المالكة. الأميرة نعمت الله مختار كانت تعتزل بصورة نسبية في قصرها بالمرج، وكانت تستقبل أحيانا زوارا من الرجال ولكن لم يرها أحد في حفلات مختلطة، بل دارت حياتها الاجتماعية حول صديقاتها وأسرتها. كثيرا من كان يزورها الملك فاروق وكان من المفترض أنها لها دالة كبيرة عليه بأكثر من والدته الملكة نازلي أو زوجته الملكة فريدة. مع ذلك كان فاروق شغوفا كذلك

بزوجة أبيه الأولى الأميرة شويكار التي اشتهرت بسبب حفلاتها المثيرة التي كانت تتسامع بها القاهرة.

الأميرات الصغيرات لم يكن لديهن ما يفعلنه سوى الجري وراء مباهج الموضة والعصر، ففي القاهرة كانت هذه المباهج تشمل تدبير المقالب وركوب الخيل وشراء الملابس، إذ كن بمثابة نموذج يحتذى من حيث الموضة في المجتمع. وكن يقامرن كذلك مع الملك في نادي السيارات الملكي أو في كلوب (نادي) محمد علي الذي كان أعظم وأفخم مؤسسة من نوعها في القاهرة. كان معظم رواده من المصريين ولكن انضم اليهم عدد كبير من ضباط الحلفاء خلال سنوات الحرب وخاصة لأن النادي كان يفخر بأن لديه أفضل مطاعم في المدينة.

مع ذلك كان ثمة أمير أو أميران لهما طموحات خطيرة أولهما الأمير (النبيل) عباس حليم الذي حارب في صفوف الألمان في الحرب العالمية الأولى وكان معجبا بأيديولوجية الاشتراكية الوطنية (النازية) وشارك في غمار النقابات العمالية. ولم يكن البريطانيون يوافقون على عواطفه نحو الألمان، ولهذا فقد وضع قيد الاعتقال في عام ١٩٤٢، ولكنهم كانوا يستمتعون في الوقت نفسه بالذهاب إلى الحفلات التي كان يقيمها مع زوجته تفيدة حليم في جاردن سيتي، ومن عجب أن إحدى سرايات عباس حليم الكائنة في ٦ شارع رستم استخدمت بوصفها المفوضية الأمريكية بالقاهرة.

خارج نطاق العائلة المالكة كانت النساء المسلمات أقل بروزا. ناهد سري، مثلا، كان زوجها قد أصبح رئيسا للوزراء في أواخر عام ١٩٤١، لم تكن قد ظهرت في المجتمع العام إلا بعد تعيينه في منصبه، وكان هناك أيضا عدد من المسلمين المتزوجين بنساء من أديان أخرى بمعنى أن نواميس السلوك الإسلامي لم تكن لتنطبق عليهن. أحمد بك صادق الذي أصبح الحارس على ممتلكات الألمان بالقاهرة كان متزوجا بيهودية جميلة حمراء الشعر اسمها

فيكي، ويقال إنها كانت تربطها علاقة بالملك فيصل ملك العراق. وكان آل صادق هؤلاء من بين أغنياء القاهريين الذين يمتلكون ذهبية في نهر النيل كانت تستخدم لزوم التفاريح والحفلات. ممدوح رياض باشا كان متزوجا من فرنسية اسمها ماري كافاديا، التي كانت من أشهر مقيمي في القاهرة، بينما عبود باشا وهو من أغنى أغنياء مصر كان متزوجا من فتاة اسكتلندية من أصول متواضعة. البريطانيون كانوا معجبين بشمائل مدام عبود باشا المحسوبة، ولكنهم كانوا شبه منحازين إلى كاتي وهي شقراء ممتلئة الجسم كانت تعمل في بار وتتكلم برطانة أبناء البلد من الانجليز وتزوجت من السياسي الوفدي السير أمين عثمان باشا. وعندما سئلت عن شعورها وقد أصبحت ليدي أمين عثمان باشا أجابت قائلة تمام التمام – أنا ليدي من الناحيتين (تقصد اللقبين.)

صفوة اليهود كانت تتمثل في عائلات مثل قطاوي ورولو وهراري ومنشة وكانوا من المتمولين الكبار في مصر، يتنقلون وسط الدوائر الملكية: مدام يوسف باشا قطاوي وفالنتين رولو زوجة السير روبرت يقال إنهما كانت صديقتين للملك فؤاد. كان سير روبرت رولو مدير البنك الأهلي المصري، أما ابنه سيمون فكانت أذواقه في الملابس تعد زاعقة فيما كان ذوقه في النساء لا يشق له غبار، أما زوجته قنسويلو نصف الإيطالية ونصف الأمريكية فكانت إحدى جميلات القاهرة. السير فيكتور هراري باشا كان ماليا لامعا اشتغل مع لورد كرومر ثم كرس حياته للتجارة والأعمال الخيرية وكان ما يفتأ يحث ابنه ماكس على أن ينتهج سبيلا أكثر جدية في الحياة ولكن ماكس، شأن كثير من شباب الأغنياء بالقاهرة كان يفضل لعب البولو في نادي الجزيرة الرياضي وقد خدم في فرقة الهوسار – الفرسان الثامنة في الحرب العالمية. عائلة منشة كانت قد منحت الأوسمة من امبراطور النمسا وكان البارون جورج دي منشة رجلا تنتابه وساوس إزاء ما يعلق بيديه أو من جراء أيدي الناس من شوائب،

ومن ثم كان يرتدي القفازات باستمرار، ولا يمكن لأحد رؤية أصابعه إلا إذا كان يعزف على البيانو. كان أخوه تشارلس في غاية الاعتزاز بنبالة عائلته وكثيرا ما كان يستعرض براءات الأوسمة الممنوحة من الامبراطور وقد تألقت فوق منصة فخمة في مدخل الصالة.

الأقباط كانوا هم الوحيدون من سكان مصر الحديثة الذين كان بوسعهم أن يتابعوا انتسابهم إلى الفراعنة. كان أسلافهم هم المصريون الأصلاء الذين بشرهم القديس مرقس بالديانة المسيحية وظلوا متمسكين بهذه الديانة حتى بعد الفتح العربي لمصر عام ٦٤٠ للميلاد. وكلمتا قبط ومصر تنبعان من نفس الجذر اللغوي. وكانت كبرى العائلات القبطية في مصر من ملاك الأراضي والسياسيين، أما في مجتمع القاهرة فكان أشهرها هم عائلات ويصا ووهبة وغالي وخياط. من الناحية التقليدية كانوا جميعا مؤيدين للبريطانيين ولكن هذه العائلات الأربع كانت تتصف بكرم وفادة منقطع النظير. عائلة ويصا كانت تقيم حفلات نهاية الأسبوع للأصدقاء البريطانيين في منزل العائلة في أسيوط، ثم تنظم رحلات الصيد في أبو كساه بالفيوم. بينما كانت حفلة الكريسماس المقامة على يد بوبي خياط واحدة من أبرز معالم السنة الاجتماعية. ولأنهم مسيحيون لم يكن لديهم اعتراض على أن تستمتع بناتهم بمباهج مجتمع الانجليز – المصري•، وكان من بين زهرات المجتمع: جرترود (وكثيرا ما كانت تعرف باسم جرتي) فاروسا وفيلاي ويصا، ومن الأقارب سميرة وسميحة وهبة. ومن أشهر نجوم مجتمع الصفوة القبطية كان فيكتور سميكة، الذي حظي بحسن المنظر وحب دافئ للحياة، وكان الرجال يعجبون بمهارته الفائقة في البولو، بينما كانت النساء يجدنه ساحرا ذكيا وفتى للأحلام.

• هكذا في الأصل، ولنا تحفظات بالطبع على إطلاق مثل هذا الحكم الانطباعي. وقد سبق ذكر حفلات شويكار وسائر أفراد العائلة المالكة. "المترجم"

أهم العائلات اليونانية في مصر كانت عائلات سلفاجوس وبيناتشيس وسرفوداكيس ورودوكاناكيس، وكانوا قد جاءوا إلى مصر في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وعاشوا أساسا في الاسكندرية. أما عائلة موصيري فكانت من يهود اليونان، وعملت هيلين أرملة إيلي مصيري على إقامة حفلاتها في دار آل موصيري الفخيمة بالقاهرة حيث تخصصت في إقامة الحفلات للأسرة المالكة. من هنا كان الأمير اليوناني بيتر والأميرة إيرين يترددان بالزيارة في النصف الثاني من الحرب العالمية (برغم أن ولي العهد الأمير بول والأمِيرة فرديريكا لم تطأ قدماهما المكان قط باعتبار أن فردريكا لم توافق قط على زواج بيتر وإيرين غير المتكافئ). كانت هيلين موصيري صديقة مقربة من الملك فاروق، وقيل إن الملك أمر بتركيب خط تليفوني خاص يستطيع من خلاله أن يخابرها في أي لحظة بالليل أو بالنهار. وقد منحها فاروق كذلك إسورة فخمة من الزمرد والماس كانت كثيرا ما تعتز بها، ولكن عندما حاولت أن تبيعها في الأيام الصعبة بعد ذلك اكتشفت أن الأحجار الكريمة كانت مزيفة.

مجتمع القاهرة شمل أيضا عددا من المسيحيين الشوام، من بينهم إخوان لطف الله وعائلة نمر. كان الدكتور فارس نمر قد أسس صحيفة المقطم، ثم عاش مع عائلته في ضاحية المعادي الخضراء التي يربطها بالقاهرة كورنيش يحف على جانبيه الأشجار الدائمة الخضرة. كريمته آني تزوجت وولتر سمارت المستشار الشرقي البريطاني، بينما تزوجت كريمته كاتي واحدا من أكبر مفكري القومية* العربية هو جورج أنطونيوس. وكان التميز الرئيسي الذي انفرد به جورج وحبيب لطف الله، باستثناء الحفلات التي اشتهرا بإقامتها، هو أنهما كانا يعيشان في قصر الجزيرة (فندق ماريوت الآن) الذي أقامه اسماعيل باشا الكبير في غضون أشهر قليلة لكي تنزل فيه الامبراطورة أوجيني خلال زيارتها في افتتاح قناة السويس.

هذه الجموع من البشر من أغنياء الكريمي الوفادة ما أسهل ما اختلطت بالصفوف العليا من الجاليةِ البريطانية التي كان أبرز أعضائها هو سير توماس رسل باشا، حكمدار القاهرة الذي ذاعت شهرته بعد أن سحق تجارة المخدرات في مصر، ثم تقاعد في عام ١٩٤٦. وكان آخر، في هذا الوقت، موظف بريطاني يعمل في السلك المدني المصري. استقى معرفته بمصر والمصريين من واقع حب عميق ربطه بالبلاد واحترام لأهلها. كان طويل القامة ممشوقا مهذبا وكان عاكفا على الاستمتاع بمباهج الحياة في القاهرة، ومع ذلك فإن أجمل السطور التي حوتها مذكراته تصف الأيام التي أمضاها في الصيد وسط الأرباض الخضراء بالصحراء

رسل باشا كان واحدا من "أربع شخصيات: قصة حب" بقلم مريام فوجت، زوجة المستشار النرويجي التي تصف تجاربها مع أربعة من عشاقها الكثيرين في القاهرة (الثلاثة الآخرون كانوا هم الكاتب جوردون ووترفيلد، والميجور سيسيل كامبل الذي كان يدير شركة ماركوني للراديو والتلغراف في مصر، والبروفيسور روبين فيرنس من قسم اللغة الانجليزية من جامعة فؤاد - القاهرة). وقد طبع الكتاب في مطبعة أوبوليسك (المسلة) في باريس، ويبدو أنه باع عددا كبيرا من النسخ في مكتبة محطة الشمال في باريس، ومنذ اللحظة التي اكتشفت فيها الأمر السيدة دورسيا بكل حزمها وانضباطها، يقول البعض إنه لم يسمح للزوج - رسل باشا - بمغادرة المنزل قط وهو يحمل من المال أكثر من عشرين قرش صاغ في جيبه*، إلا أن هناك من زعم أن الزوجة ربما شعرت بالارتياح إذ اكتشفت أن هناك حيوية ما تزال تسري في أوصال الثعلب العجوز.

---

* منذ عام ١٨٨٥ أصبحت العملة المصرية هي الجنيه المصري الذي انقسم الى مائة قرش.

كان أعيان الجالية البريطانية يعملون جميعا تقريبا في خدمة الحكومة المصرية. سير الكسندر كين بويد كان المدير العام للقسم الأوروبي بوزارة الداخلية المصرية، وشارك مجموعة من باشاوات المصريين في تأسيس صناعة الصباغة في مصر، ويقال إنه بفضل اتصالاته كان مطلعا على ما يدور داخل الكواليس من معلومات عن السياسة المصرية، وهي معلومات كان يعمل على تمريرها إلى السفارة البريطانية.

سير روبرت جريج كان عنصرا بارزا آخر على الساحة الاجتماعية وكان يتسم بنزوع إلى غطرسة الأبهة مما أضفى عليه اسم جريج "المنفوخ". كاد قد تولى في ظل الحماية إدارة وزارة الخارجية وعمل مفوضا للدين العام لمدة عشر سنوات قبل تقاعده عام ١٩٤٠. سير روبرت كان رجلا ذواقة، ومن حسن طالعه أن تزوج ثرية أمريكية هي جوليا التي كانت شغوفة بالجمال تماما كشغف زوجها. الفيلا الكبيرة التي اتخذاها مسكنا في شارع ابن بكيل بالجيزة كانت معرضا لمجموعة التحف التي اقتنياها إذ كان علم الآثار من اهتمامات سير روبرت الأخرى. وبالإضافة إلى مهاراته كدبلوماسي فقد رشحه هذا ليكون الشخص الذي يتولى تصريف تركة الراحل هوارد كارتر• في شهر مارس سنة ١٩٤٠ ويقنع ذويه بإعادة الأشياء التي أخذت من مقبرة توت عنخ أمون والتي تخص عن حق المتحف المصري.

وبالإضافة إلى الذين كانوا يتنقلون بين ظهراني صفوة الانجليز والمصريين، فإن معظم البريطانيين في مصر وقتها كانوا مستوعبين في الحياة الاقتصادية لمصر قبل حياتها الاجتماعية حيث يعملون في دوائر الحكومة، فمنهم من كانوا موظفين دائمين في سكك حديد الحكومة المصرية، ومنهم من كانوا مفتشي ري وكان أقلهم مرتبة المدرسين في وزارة المعارف العمومية.

• مكتشف مقبرة توت عنخ آمون. "المترجم

وضمن صفوفهم كذلك تجار وأطباء ومصرفيون ورجال أعمال ومحامون وأرباب كل مهنة أخرى يستطيعون العثور على موطن قدم سخيّ العائد في مصر. وكان يقوم على خدمتهم محلات خاصة تهتم بجلب بضائع لها شخصيتها البريطانية التي لا تخطئ ومنها محلات روبرت هيوز للأحذية وديفيز برايان للملبوسات والأدوات المنزلية ومنها ما كان يبيع ملابس لائقة كاملة وصفائح ضخمة من بسكويت هانتلي وبالمر، وبالات من قماش الشيت القطني المطبوع. ومع ذلك فلم يكن كل البريطانيين يشعرون بالحاجة إلى أن يعزلوا أنفسهم عن مسار الحياة اليومية في مصر. فقد تحول إلى الإسلام إثنان من الأساتذة بجامعة القاهرة، وعاشا في "الجيزة، بينما كان معظم البريطانيين يعيشون في الزمالك، أولهما كان اسمه أبو بكر سراج الدين لنجز، والثاني حسين نور الدين باترسون.

في القاهرة كانت حياة النخبة سواء على المستوى الاجتماعي أو التجاري أو السياسي يضمها ميل مربع يشمل ميدان اسماعيل باشا (التحرير الآن) وكان المركز التجاري للمدينة يقع بين ميدان الاسماعيلية هذا وحدائق الأزبكية في منطقة حافلة بالشوارع العريضة التي تحفها المكاتب والعمارات السكنية ويقوم فيها بين موقع وآخر المحلات التجارية الكبرى الحديثة. أما الطرز المعمارية لهذه المباني فكانت إما الطراز النمساوي أو الإيطالي أو العمارة الحديثة، أو الطراز النيوعربي بكل زخارفه. وقد أطلت المحلات على مجرى الشارع من خلال واجهات لعرض المنتجات ولافتات ضخمة مكتوبة بالفرنسية أو العربية بالإضافة إلى البنوك والسينمات والمقاهي والحانات.

الطرق كانت مزدحمة لكن المرور كان يتحرك أفضل كثيرا مما هو عليه الآن، ولم يكن ثمة صعوبة في إيجاد أماكن لصف السيارات، ولكن كانت جميع السيارات المتروكة وحدها دون سائق تحت رحمة صعاليك القاهرة، وإذا لم يكن السائق على استعداد لوضع أتوموبيله "تحت حراسة ما" فقد يعود فإذا

بالهواء قد تسرب تماما من إطارات السيارة. هكذا كان معظمهم يرضخون لدفع هذه الفِردة لزوم الحماية، وعندما يعطون الصبية نقودا في آخر السهرة كانوا يتلقون منهم السؤال المحتوم: فين الكوكتيل بكره؟

أما الراجلون بغير سيارات فكان أمامهم سيارات التاكسي والحنطور كثيرة وبأجور زهيدة.

جنوبي حدائق الأزبكية مباشرة كان يقع قصر عابدين بكل هيلمانه، وهو السكن الرئيسي للملك فاروق، وقد بناه الخديوي اسماعيل في عام ١٨٦٣ وأحدقت به شمالا وشرقا مكاتب الحاشية والمفتشين وثكنات الحرس الملكي. بينما تميزت بقية حي عابدين بعدد كبير من المساجد والمدارس ومتحف الملك فؤاد الأول الصحي.

إلى الغرب ناحية النيل كانت تقع مباني البرلمان وتحلقت من حولها كوكبة من مقار الوزارات، ويفصل بينها وبين النهر حي عصري اتخذ اسمه من ميدان قصر الدوبارة. هنالك كان يسكن أغنى المصريين وأفراد الأسرة المالكة في دارات مهيبة وسامقة، بينما كان يقع جنوبي المكان حي جاردن سيتي بشوارعه الملتوية التي تحفها الأشجار. وهنا كانت المنازل أقرب إلى التلاصق مع بعضها البعض، وقد انبثت فيما بينها المكاتب والعمارات السكنية. وبرغم أن العائلات البريطانية والمصرية كانت تسكن جاردن سيتي، إلا أنه كان مفضلا أكثر من جانب المصريين الذين أحبوا قربه من وسط البلد. أما البريطانيون فكانوا ينزعون إلى تفضيل الزمالك الذي يقع مباشرة شمال النادي الرياضي، وهو جزيرة في النيل، ومن ثم كان جوه ألطف من جاردن سيتي. وكان الزمالك مؤلفا من شوارع مستقيمة عريضة وطويلة وعلى جانبيها أشجار الدلب. منازله وشققه كانت أبسط وأرق نسيما من تلك الواقعة على ضفة النهر الشرقية.

ثم كانت القاهرة تضم ضاحيتين جميلتين تقعان فيما يتجاوز دائرة الوسط، فقد بنى البارون إمبان ضاحية هليوبوليس (مصر الجديدة) شمال غربي المدينة، وظل بيته الخاص المشيد على شكل معبد هندوكي أحد المعالم التي لا تزال تطالع المسافر من مطار القاهرة إلى المدينة حتى اليوم. وعلى مبعدة أميال قليلة جنوبي القاهرة تقع المعادي بفيلاتها الكبيرة التي تحفها حدائق فسيحة بهيجة. وفيما عدا الضاحيتين، بين المناطق العصرية في دائرة وسط البلد، كانت القاهرة أساسا مدينة إسلامية أكثر من كونها مدينة كوزموبوليتية. التواصل بين العالمين كان محدودا بقدر المعاملات التجارية بينهما. فلا البريطانيون ولا الفرنسيون ولا الطبقات العليا من المصريين الناطقين بالانجليزية كانت تربطهم أي صلات اجتماعية مع أهل القاهرة العاديين الذين كانت لغتهم هي العربية.

الشوارع الكبرى – شبرا، بولاق والسيدة زينب – كانت هي التي تشهد الطبقات الأدنى من أهل القاهرة، ولكنها كانت تنتفض بالرواج وتحفل بالدكاكين الصغيرة والمقاهي والمحال الكبيرة، وبعد هذا كانت طرز المعمار أشد ما تكون متباينة: مساكن من الطوب ومساكن من الطين تتجمع بعضها مع بعض أحيانا بغير صرف صحي، أو مياه جارية. والشوارع تنقسم إلى حارات وأزقة ضيقة حيث يلعب الأطفال في التراب، وبين الكبار كان الرجال على استعداد دائم للتنقل حيثما يتاح العمل، لكن النساء قلما كن يتجاوزن البئر أو الحنفيات التي يجلبن منها المياه. كانت مناطق واسعة من تلك الأحياء لا تدخل ضمن خرائط التنظيم حتى لو كانت خريطة مصلحة المساحة المصرية الضخمة المجلّدة بالكتان، ومقياس رسمها ١ إلى ٥٠٠٠، بل كانت جماعات بأكملها تعيش في المقابر وبين شواهد الجبانات في ظاهر المدينة.

مع ذلك كانت هذه المنطقة التي يقل المعرفة بها تحوي معالم بارزة منها حي الموسكي في الشمال الشرقي، حيث الجامع الأزهر الذي ينتمي إلى القرن

العاشر والصحن الفسيح الأرجاء الذي يخص هذه الجامعة الإسلامية، حيث يجلس الطلبة في جماعات صغيرة على الأرض يستمعون إلى دروس المشايخ في أمور الدين. ويتاخم الأزهر بازار خان الخليلي حيث يأتي السواح وأهل المدينة أنفسهم لشراء المسابح الثمينة ومقتنيات الفضة والمرمر والأبسطة والتوابل والعطور.

البازار والجامعة الإسلامية يقعان كلاهما بين بوابتين، باب الفتوح في الشمال وبوابة المتولي في الجنوب، وهما تحرسان ما تبقى من أعظم عاصمة شهدها العالم إبان العصور الوسطى. وكم طرحوا السؤال حول الأجل الذي يمكن أن يطول به عمر هذه المواقع التي عاشت من المدينة وخاصة في ضوء إيقاع الحياة الحديثة، لكن المدينة لقيت من يسجلها بدقة وأناة في شخص البروفيسور أرشيبالد كريسويل، أستاذ الفن والعمارة الإسلامية بجامعة فؤاد الأول.

ثكنات الجيش البريطاني في القاهرة كانت داخل قلعة محمد علي، حيث كانت الثكنات عبارة عن مجمع واسع الأرجاء شمل تقسيمات محددة وملاعب تنس واسطبلات وأرضا للتدريب، وكان ثمة ثكنات أصغر على شط النهر في قصر النيل يمكنها أن تسع ١٠٠٠ فرد. وكم كانت كل كتيبة بريطانية وافدة تلوم سالفتها بسبب حشرة البق في ثكنات قصر النيل التي بدت وكأنها تقاوم ببسالة كل شكل من أشكال المبيدات الحشرية!

وكما كانت حياة البريطانيين محمية بهذه الثكنات الواسعة، كانت أيضا تتجسد في خمس مؤسسات مهيبة. اثنتان منهما تطلان مباشرة على نهر النيل وهما السفارة البريطانية في جاردن سيتي، وكاتدرائية جميع القديسين في بولاق، وكان قد بنى الكاتدرائية أدريان جلبر سكوت وتبدو في جسامة جرمها الطابع العملي الذي يحفها وكأنها محطة توليد كهرباء! وقد تم هدمها بعد

الثورة لفتح المجال أمام شق كورنيش النيل الذي يمتد الآن على طول الضفة الشرقية للنهر.

من الخسائر المحزنة الأخرى التي راحت ضحية الكورنيش، النصف الجنوبي من حديقة السفارة البريطانية في جاردن سيتي، التي كانت تمتد من منطقة الشرفة إلى الحائط المنخفض الذي كان يلي حافة النيل مباشرة. أما السفارة ذاتها فعلى حالها دون تغيير بوصفها دارة فسيحة على الطراز الكولونيالي تحميها من الشمس شرفة فسيحة ذات أعمدة، وتنهض على طابقين، ويحميها أسوار من الحديد المعقوف التي زينها طغراء الملكة فيكتوريا. أما مدخل الرواق فيحفه من جانبين أسود حجرية، وينتهي إلى بضع درجات من السلم الذي يفضي إلى الدار. وفي أيام سير مايلز لامبسون كانت نوافذها السامقة تعلوها ستائر الحرير الدمشقي مما أضفى عليها مهابة انعكست بدورها على المكاتب والمقاعد العريقة التي كان قد جاء بها من الصين بالإضافة إلى مجموعته من السجاجيد العجمية.

وبين الكاتدرائية والازبكية، أي في المنطقة التي يمكن وصفها بأنها ويست إند القاهرة، كان يقع نادي التيرف - وهو مؤسسة كانت مقصورة على البريطانيين من الذكور فحسب وعنوانه ٣٢ شارع عدلي باشا الذي لم يكن بعيد الشبه بشارع سان جيمس في لندن. وعلى مسير بضع دقائق كان يقع فندق شبرد الذي يلي الأهرام ذاتها في الشهرة بوصفه أحد المعالم السياحية البارزة في القاهرة. جاء تأسيس فندق شبرد في عام ١٨٤١ وما تبعه من رابطة مجزية مع أول "الرحلات" التي نظمها توماس كوك في سبعينات القرن الماضي ليشكل الموئل الأساسي الذي كانت تهوي إليه جموع المسافرين في رحلاتهم التي يجوبون فيها أنحاء الشرق الأوسط. فإلى جانب شرفته الشهيرة التي كانت حافلة بكراسي وموائد الخيزران، وفضلا عما كان يوفره من جلسة باذخة وارفة الظلال تطل على شارع ابراهيم باشا، كان شبرد يحوي كذلك

الرواق المغربي: رواق تتردد فيه نسائم طرية ويسوده ضوء خفيف شبه معتم بفعل قبة من الزجاج الملون التي تعلو المكان. وإذ كان يكفل جلوس مجموعات صغيرة مرتاحة في مقاعد وثيرة حول موائد صغيرة ثمانية الأشكال، فقد كان يضفي شعورا من المودة والخصوصية الحميمة. قاعة الرقص في الفندق كانت تتبدى منها أعمدة تعلوها زهرات اللوتس التي تحاكي مثيلاتها في معبد الكرنك، مما دفع كاتبا إلى وصف طراز الفندق وكأنه "طراز إدواردي ينتمي إلى القرن الثامن عشر". لكن البعض وجد الأمر شديد الوطأة، فهناك من الزوار من كتب بأن الحياة في الفندق بمثابة معيشة في المتحف البريطاني و "حتى الحمامات كانت تعكس طابعا أثريا ... فأنت تشعر فيها وكأنك تقبع في القاعة المركزية داخل هرم". ومن الرواق المغربي كانت درجات السلالم الواسعة تصعد إلى أعلى وقد أحاط بها تمثالان لكاهنتين ممشوقتين من الأبنوس وقد أطل في شموخ نهداهما اللذان تعرضا لكثير من السخافات الوقحة في السهرات الصاخبة. يشرف على البار الطويل في فندق شبرد البارمان السويسري "جو" الذي ربما كان واحدا من أكثر سكان القاهرة إحاطة بما يجري من أمور. وحقيقة عدم السماح للنساء بأن يغشين بار الفندق، جعلت رواده ينطلقون على سجيتهم بشكل غير لائق، وخلال حرب الصحراء قيل أن أي امرئ يبغي الحصول على أوامر المعركة في الهجوم التالي لا يحتاج سوى إلى الجلوس في بار شبرد فترة من الوقت على أن يصيخ السمع مرهفا لما يجري. وربما نشروا شائعة تقول إن "جو" جاسوس لكي يشجعوا على التزام التحوط والحذر هناك، وعلى فرض أنه كان كذلك فلم ينكشف هذا الأمر يوما من الأيام. بالنسبة إلى العساكر وضباط الصف الانجليز العاملين في مصر، كانت الحياة في القاهرة نسخة أشد قيظا من حياة الثلاكم وتنظيف الأسلحة التي يتوقعونها في الدرشوت أو كاتيريك في انجلترا، وإن كان يتخللها بين فينة وأخرى مباراة كرة قدم أو لعبة نيشان خشنة وسط الغبار. إلا أن ضباطهم كانوا يتمتعون

بفرص الدخول إلى أفخم ساحات للرياضة شهدها قلب العاصمة. كان نادي الجزيرة الرياضي يقوم على الأرض التي وهبها الخديوي توفيق إلى الجيش البريطاني. وكان الطرف الجنوبي من منطقة الجزيرة يغطيه بأكمله الحدائق وساحات البولو ومضمار للجولف مساحته ٥٢٥٠ ياردة ومضمار للسباق وللعبة الكريكيت وملاعب اسكواش وأرض للكروكيت وساحات للتنس. ثم شيدوا مبنى جديدا للنادي في عام ١٩٣٨ مؤلفا من هيكل مربع مطلي باللون الكريم والأحمر الغامق ويحفه جناحان يتقاطعان إلى شرفة حملت اسم الليدو باعتبار أن حمام السباحة كان أمامها مباشرة. ومن الحرارة اللزجة في مكاتبهم أو بيوتهم بالزمالك، كان القوم يتجمعون تحت الظل في الليدو يتناولون الغذاء وقيل إن النادي الرياضي كان مقصورا على البريطانيين ولم يكن هذا صحيحا، فكثير من الأعضاء جاءوا من صفوف العائلات المصرية، أغنى هذه العائلات وأشدها إمعانا في الطابع الغربي، برغم أن عدد الأعضاء البريطانيين كان يفوقهم بكثير. احتوى المكان حديقة كذلك، وفي ركن منه جبانة الحيوانات المدللة، وساحة تتجمع فيها ساعة العصاري الدادات والخدم وكل هذا كان يتم بعيدا عن أهم ما يشغل النادي الذي كان يركز جهوده على السباق والبولو.

وفيما كان بوسع المصريين أن يفهموا الرعاية والاهتمام المكرسين إلى الجياد الأصيلة، فقد راعهم أن البريطانيين يسيلون رقة في عواطفهم تجاه دواب الحمل التعيسة، ولم يفهموا هذه العواطف. لم يكن في رأيهم أن ثمة خطأ عندما يباع جواد أصيل بعد أن تنقضي فترة يفاعته. ثم يسمح بأن تتداوله أيدي المالكين حتى تصل إلى عربجي فقير حيث يعيش الحيوان حياة يتناول فيها نصف وجبة وتعوقه وتبهظ كاهله أحمال قاصمة إلى أن ينفق من فرط الإجهاد.

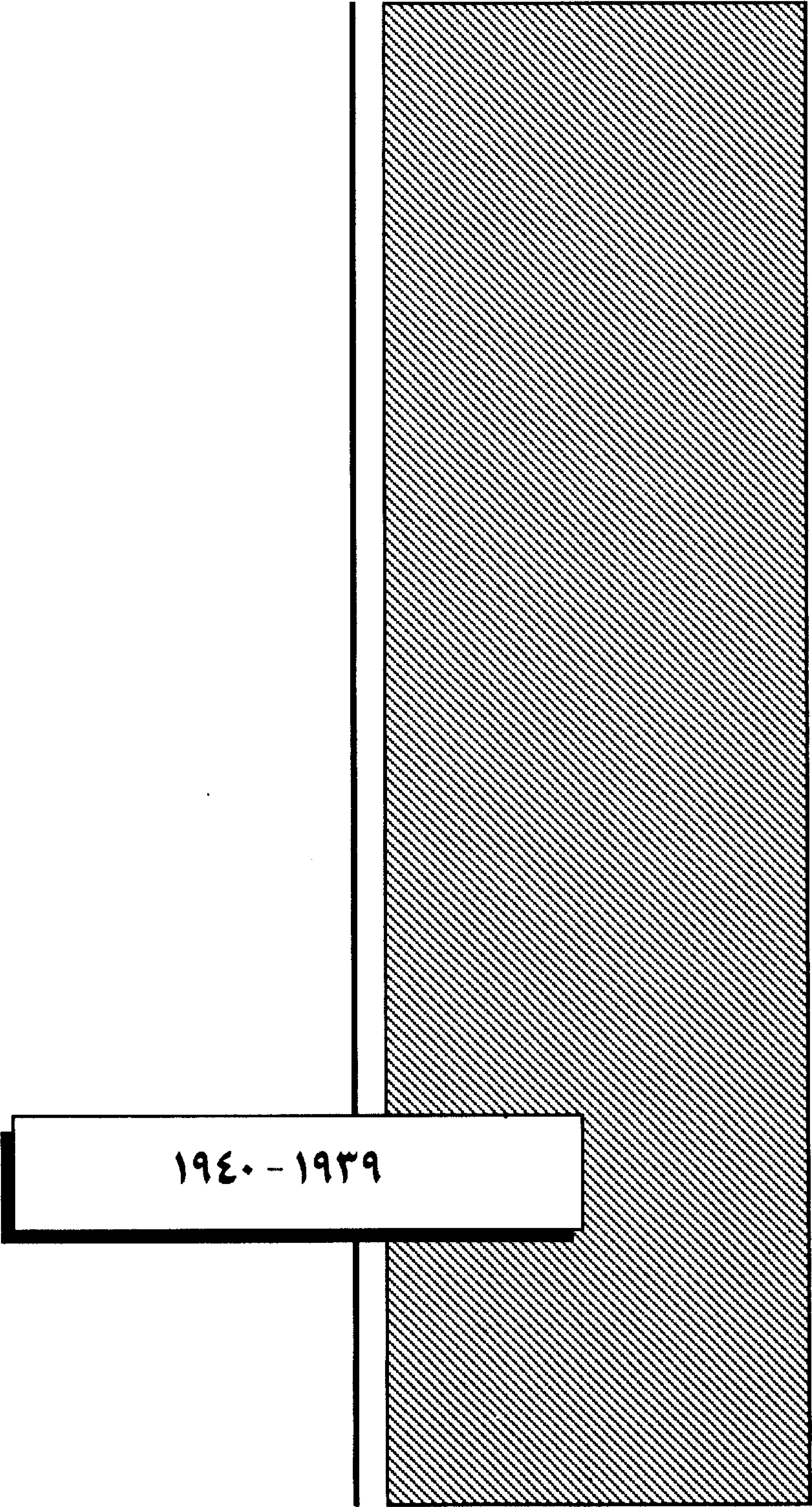
كان هذا مصير مئات من جياد الحرب المتقدمة في السن في مصر التي كانوا قد شحنوها من انجلترا مع سلاح الفرسان، ثم باعوها في نهاية العظمى

الأولى. ولكي يتم إنقاذها من ربقة الألم والتعاسة بادرت "دوروثي بروك"، زوجة ضابط في الجيش البريطاني جاء إلى مصر في عام ١٩٣٠، إلى إنشاء ما ظل فقراء المصريين يعتبرونه أشد المؤسسات حماقة وغرابة أطوار. ففي كل أسبوع كان عربجية القاهرة يسوقون دوابهم للبيع، فإذا بتلك الانجليزية المجنونة وأصدقاؤها يشترون أتعس الدواب ويضعونها في حظائر مريحة للغاية ويقدمون لها أقصى ما تستطيع التهامه من الطعام، وإذا ما تم شفائها فهم يبادرون إلى إعدامها! استطاعت "دوروثي بروك" أن تجلب بهذه الطريقة أكبر عدد أمكنها جلبه من تلك الكائنات المتهالكة، ولكنها كانت تتطلع دائما بحثا عن جياد الحرب المسنة بالذات التي كانت تتميز بجرمها الهائل وبوسم القوس على كل من جانبيها الأجربين.

زاد الدعم للصندوق التذكاري لجياد الحرب المسنة لدرجة أنه عند اندلاع الحرب العالمية الثانية وعد الجيش البريطاني بأن تحظى جياد الفرسان التي كانت قد أرسلت إلى الشرق الأوسط بإعدام لائق بدلا من بيعها. وإذا كانت جياد الحرب قد أصبحت من ذكريات الماضي، إلا أن صنيع "دوروثي بروك" ما زال حتى الآن قائما يجسده مستشفى بروك للرفق بالحيوان في القاهرة حيث ما زالت بغال وحمير الفقراء تعالج مجانا.

في واقع الأمر لم يكن في مصر خلال الحرب العالمية الثانية سوى أقل القليل من جياد الفرسان. ولم يتم الاحتفاظ بالدوريات الراكبة وكتائب الفرسان إلا لأعمال الدورية فقط في فلسطين وشرق الأردن، بينما تمت إلى حد كبير ميكنة كتائب الفرسان في مصر. هكذا أصبحت كتائب الهوسار الحادية عشرة هي أهم الوحدات المطعمة بإيقاع المعركة في الفرقة السابعة المدرعة وتسمى فئران الصحراء. كانوا قد وصلوا إلى مصر في جولة عملية سنة ١٩٣٤ وظلوا يتدربون خمس سنوات إلى حين اندلاع الحرب فتعلموا بأكثر مما تعلمت سائر الوحدات عن كيفية التعامل مع المدرعات في الصحراء. كما كانوا

يأخذون لعبة البولو التي مارسوها على محمل الجد الشديد. وتم إرسال ٤٦ من جياد البولو سنويا قبل وصول الكتيبة حتى تتعود الجياد على الظروف المحلية ثم جاؤوا باثنين وعشرين فرسا آخرين من الاسكندرية. ويعرب تاريخ الكتيبة عن خيبة أمل بالغة بأنه نظرا لوجود الدوريات المميكنة بالسيارات في الصحراء، وبسبب اندلاع المشاكل في فلسطين وحرب الصحراء، فلم يقيض للكتيبة قط أن تتواجد في القاهرة لفترة تكفي لكي تؤلف فريقا لائقا بين أفرادها.


١٩٤٠ - ١٩٣٩

الاستعداد للحرب

تعرضت ألمانيا للدمار عندما خاضت قتالا على جبهتين في الحرب العالمية الأولى. ولهذا عقد هتلر العزم على ألا يكرر نفس الخطأ من جديد. وجاءت محالفة اعدم الاعتداء النازية – السوفييتية في أغسطس عام ١٩٣٩ ليعقبها غزو بولندا وتقطيع أوصالها ومن ثم تأمين الجبهة الشرقية لهتلر الذي أصبح بعد ذلك قادرا على توجيه اهتمامه صوب الغرب.

بريطانيا وفرنسا لم تتخذا أهبة الاستعداد في تلك الفترة ولم يكن بوسعهما أن يساورهما الأمل في إيقاف هتلر عند حده، بينما مضى من جانبه في بناء قوته الذاتية وقاعدة إمداداته. وكان معنى ذلك جلب البترول من الشرق الأوسط واستحضار الأفراد والأعتدة من كندا وجنوب أفريقيا واستراليا ونيوزيلندا والهند، والهند الصينية. وأيا كان الفرد الذي يتبوأ موقع القيادة في الشرق الأوسط كان يتعين عليه الدفاع عن قناة السويس والبحر الأحمر وشرقي البحر المتوسط، فضلا عن ضرورة الاستعداد للحرب مع الإيطاليين الذين لم يكن بالوسع توقع أن تبقى جيوشهم المرابطة في ليبيا وإثيوبيا والصومال الإيطالي محايدة إلى الأبد.

وصل الجنرال سير أرشيبالد ويفيل إلى مصر يوم ٣ أغسطس ١٩٣٩: كان في السادسة والخمسين وسبق له أن خدم في فرنسا وروسيا ومصر إبان الحرب العالمية الأولى. خلف تحفظه الصارم الذي كان مصدر حيرة لشخصيات مثقفة وانفعالية من أمثال تشرشل نفسه، كان ثمة عقلية مستنيرة وثاقبة. حمل رتبة القائد الأعلى في الشرق الأوسط وجرى تثبيته فيها في فبراير ١٩٤٠ ولذلك كان مسؤولا عن القوات البرية في مصر وشرق الأردن وقبرص، وبعد ذلك اتسعت المسؤولية لتشمل الصومال البريطاني وعدن والعراق في زمن

الحرب. وكان من مسؤوليته أيضا الاتصال بجميع السفراء والمندوبين الساميين والحكام العموميين في تلك الأبراشية الهائلة، مع تنسيق خطط الحرب البريطانية مع حلفاء بريطانيا على مستوى منطقة امتدت من سورية (الكبرى) إلى إثيوبيا، ومن الصحراء الغربية إلى بغداد. أما قوته في مصر فتألفت من فرقة مدرعة كانت قيد التشكيل (وقد حازت شهرتها فيما بعد بوصفها الفيلق المدرع السابع) بالإضافة إلى ٨ كتاب مشاة. وكان عليه أن يركز جهوده على بناءدفاعات الدلتا والصحراء الغربية دون أن يستفز بذلك الإيطاليين من قريب أو بعيد.

كان قيام موسوليني بغزو إثيوبيا قد كشف على أنه لم يكن من همه سوى اصطناع مبرر يتذرع به لشن الحرب. أما خرائطه فلم تكن لتبدو أفضل إذا ما تعين إنشاء امبراطورية إيطالية في أفريقيا التي انقسمت إلى جزأين وبعد ذلك كان مقررا أن يدخل فيها كل من مصر والسودان. وكان عدد القوات الإيطالية في برقة يقدر بنحو ٢١٥ ألف فرد، أما في إثيوبيا فكان جيش الدوق أيوستا يصل تعداده إلى ربع مليون. على أن ويفيل لم يتوقع أن يهاجم الإيطاليون في المستقبل الفوري لأن تقارير المخابرات أوضحت أن رجالهم لم يكن لديهم رغبة في القتال إلا أن الحقيقة بقيت متمثلة في أنهم يفوقون رجال ويفيل عددا بنسبة خمسة إلى واحد، كما كانت أعتدتهم أفضل بكثير.

الجنرال سير هنري متلاند ويلسون كانوا يعرفونه عادة بأنه جامبو ويلسون وصل قبل ويفيل بأسابيع قليلة، في ٢١ يونيه ليتولى منصبه بوصفه قائد عام القوات البريطانية في مصر، وكانت التعليمات لديه تقضي بأن يعد الخطط لغزو ليبيا ويشيد دفاعات مصر ولا سيما في الاسكندرية كما يتولى الاستعدادات لاستقبال جيش قوامه ١٥ فرقة، مما كان يعني توفير سبل الإيواء لنحو ٣٠٠ ألف فرد. وظل الرجل يعمل بغير هوادة طيلة الشتاء وكانت تعوقه في ذلك شحة الموارد وسوء الإدارة.

كانت مصر، بوصفها قاعدة عسكرية كبيرة تتمتع بعدد من المزايا. لديها ثلاثة موانى عميقة الغور، وخط سكة حديد بين السويس وميناء حيفا العميق

بدوره في فلسطين. وكانت الأيدي العاملة رخيصة وكثيرة، وبرغم قسوة الصحراء كان ثمة مجال لإقامة المنشآت العسكرية دون أن يضيع بذلك جزء كبير من الأراضي الزراعية العزيزة المنال.

جميع منشآت البنية الأساسية العسكرية التي تركها البريطانيون من خلفهم في عام ١٩١٨ كانت قد دمرت أو انتهت صلاحياتها مما دعا إلى إنشاء ورشات ومستودعات ذخيرة جديدة في منطقة التل الكبير والقصاصين غربي الاسماعيلية حيث يمكن استغلال السكة الحديد والإفادة من الترعة الحلوة في المنطقة. واقتضى الأمر كذلك إنشاء طرق ومطارات وخطوط اتصالات جديدة ونصب مواسير لجلب مياه النيل إلى الصحراء فضلا عن محطات تنقية المياه ومعالجتها. كذلك احتاجت العملية إلى إنشاء وتنظيم مدارس تدريب ومعسكرات دائمة للقاعدة ومقاصف ومستشفيات ميدان. وزادت بالضرورة إلى حد كبير عمليات شحن وتفريغ وخزن المواد وتم تمشيط مصر وفلسطين بحثا عن كل العربات القادرة على العمل في الصحراء وخاصة شاحنات النقل. لقد تبين أن الدبابات المصممة لخوض حقول الطين في أوروبا تغوص وتغرز في رمال الصحراء كما تؤدي حبات الرمال إلى سد مصافيها الهوائية.

وبما أن مصر لا تكاد تمتلك مواد أولية سوى الأغذية، كانت مشكلة الإمداد والتموين هائلة، ولم تضيع قيادة الشرق الأوسط وقتا في ترتيب الأمور قدر ما استطاعت بحيث تحصل على ما تريد من الشرق الأقصى أو استراليا أو جنوب وشرق أفريقيا. وقد حولت جميع أموال الحكومة البريطانية المتاحة لها إلى حيث إنتاج وتوفير الصلب والمضخات والمواسير والأدوات والمتفجرات والبترول والآلات والمعدات الثقيلة اللازمة لأحواض السفن وورش الإصلاح.

وعندما أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا في سبتمبر ١٩٣٩، بدأ رئيس الوزراء المصري علي ماهر يتحرك بدهاء وحرص بالغين. أما العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا فتم قطعها وجرى اعتقال الذكور الألمان البالغين ومصادرة ممتلكاتهم على الفور.

كان عدد الألمان في مصر أقل من الألف معظمهم أعضاء في الحزب النازي وبخلاف ذلك كان عدد غير الأعضاء يبلغ نحو ٢٠ في المائة من الجالية الألمانية الذين خضعوا لضغوط بالغة اجتماعية واقتصادية للانضمام لصفوف النازي. لكن هؤلاء وهؤلاء باتوا جميعا تحت سلطة أحمد بك صادق الذي عين حارسا رسميا على الممتلكات الألمانية وكان مؤيدا للبريطانيين بصورة بالغة فضلا عن كونه شخصية مألوفة باستمرار على مسرح الحفلات الانجليزية - المصرية. لقد تم إيداع أعضاء الحزب النازي وقادتهم في المدرسة الإيطالية بالاسكندرية، أما الألمان غير النازيين فأودعوا في المدرسة الألمانية في بولاق بالقاهرة، وتم أثناء الحرب توحيد المجموعتين، وكان ذلك قرارا أدى إلى إشعال العراك بين النازي وحفنة من المعتقلين من اليهود الألمان الذين ما لبث بهم الأمر وقد أطلق سراحهم في أواخر عام ١٩٤٢.

أعلنت الأحكام العرفية في مصر واصبح رئيس الوزراء هو الحاكم العسكري العام ووضعت جميع مرافق السكك الحديدة والمطارات بتصرف البريطانيين وفرضت الرقابة على الاتصالات والصحافة، وطبقا لأحكام المعاهدة الأنجلو مصرية (١٩٣٦)، على نحو ما ظل يردده على ماهر على أسماع سير مايلز لامبسون، كانت مصر تتعاون كاملا مع حليفتها ولكن لم يكن لديها استعداد لإعلان الحرب.

في السنة الجديدة بدأ الأفراد الذين كان ويفيل بحاجة يائسة إليهم في الوصول إلى البلاد: من الهند ونيوزيلندا وانجلترا واستراليا. بدا الهنود وجنود نيوزيلندا وبريطانيا من أصحاب السلوك السليم ولكن المصريين شعروا بتوتر شديد إزاء الاستراليين الذين كانوا يتذكرونهم إذ يعيثون فسادا في جنبات القاهرة في نهاية الحرب الأخيرة. وأصرت الحكومة المصرية على إخراج الاستراليين من البلاد ومن ثم فقد أبقوا بعد الأشهر القليلة الأولى في فلسطين. أما الأعمال المتصلة بإنشاء الهياكل الأساسية العسكرية الجديدة فكانت ماضية على قدم وساق، إذ كان البريطانيون يدفعون أجورا مجزية ولكن برغم أن الأمور بدأت تتحرك بصورة طيبة بالنسبة إلى ويفيل، ظلت جهود سير مايلز

لامبسون لدفع الحكومة المصرية كي تضطلع بدور أنشط في الحرب تواجه عقبات مستمرة من جانب علي ماهر.

سرعان ما أدركت السفارة أن الإجراءات التي اتخذها علي ماهر إنما تقصد إبلاغ قوى المحور أنه برغم اضطراره للتعاون مع بريطانيا، إلا أنه يعمل من وراء ستار على إعاقة الأمر ما استطاع إلى ذلك سبيلا. إن المسؤولين المصريين الذين تعاونوا مع البريطانيين (مثل شاكر باشا المدير العام لسكك حديد الحكومة المصرية الذي باع له ١٧ ألف طن فحم من المخازن) سرعان ما استبدل بهم رجال علي ماهر. وفي منتصف يناير ١٩٤٠، كان قد تم فصل عدد من الموظفين ووكلاء الوزارات وأصبح معروفا جيدا أن المودة مع البريطانيين معناها كارثة سياسية تلحق بالمرء في ظل الحكم القائم. وظهر رسم كاريكاتوري يوضح مدير جامعة القاهرة جاثيا على ركبتيه أمام سير مايلز لامبسون ومتوسلا إعفاءه من حضور حفل السفارة.

إلا أن على ماهر كان مضطرا أن يفعل شيئا إزاء عزيز علي المصري الذي كان رائدا لفاروق وأصبح بعد ذلك رئيسا لأركان حرب الجيش المصري. كان ذلك الوطني المثالي النزعة قد بلغ منتصف العقد السادس من العمر، وكان صديقا مقربا باستمرار من علي ماهر. وكان من المشكوك فيه أن كثيرا من ضباطه تربطهم صلات مع العدو، وقد وجده رئيس البعثة العسكرية البريطانية الجنرال ماكريدي رجلا من المستحيل التعامل معه إذ كان لا يفتأ يمتدح الجيشين الفرنسي والألماني مع إبداء ازدرائه للجيش البريطاني. كان يجري التعيينات على هواه ويفتقد كل خطوة تقدم عليها البعثة العسكرية ويرفض الرد على رسائلها (وطبقا لما ذكره أنور السادات، زاد عزيز المصري من حنق مكريدي عندما قال إن البعثة العسكرية المصرية كانت أشد اهتماما بالتجارة منها بالدفاع عن مصر: فازت بريطانيا بعرض لتقديم مدافع برن للجيش المصري برغم أن التشيك كانوا قد قدموا عرضا بأسعار أقل بكثير). وطلب لامبسون إزاحة عزيز المصري من منصبه ولكن علي ماهر لم يفعل أكثر من إعطائه إجازة مفتوحة.

ثم انطوى الأمر كذلك على مجموعات من الأصوليين الإسلاميين الذين أضافوا المزيد إلى الاتجاه العام المعادي لبريطانيا وخاصة أعضاء جمعية مصر الفتاة التي نشط زعيمها أحمد حسين في الكتابة وإصدار المنشورات وتنظيم المظاهرات بغير هوادة واتفق علي ماهر مع سير مايلز على ضرورة القضاء على أحمد حسين بوصفه سم الأفعى، ولكنه لم يفعل أكثر من ذلك.

في ٩ أبريل ١٩٤٠ احتل الألمان الدانمرك والنرويج وبعدها بشهر واحد شنوا هجومهم على الأراضي المنخفضة. وفي ١٧ مايو استولوا على بروكسل وفي اليوم التالي كانوا على الطريق نحو أراس وأمينز. كانت الأحداث تمضي بسرعة رهيبة وشعرت انجلترا بالخطر الفوري يحدق بها وكانت قد أصبحت تحت زعامة ونستون تشرشل. لم يكن موسوليني قد أعلن عن نفسه بعد، ولكن في رسالة إلى الجنرال سير جون دل بتاريخ ٢٢ مايو عمد ويفيل إلى مقارنته برجل اتخذ طريقه نحو سطح منصة للغوص: "أتصور أن عليه أن يفعل شيئا، وإذا لم يستطع القيام بقفزة رشيقة فسوف يتعين عليه على الأقل أن يقفز بطريقة ما إذ لم يعد باستطاعته بعد أن يرتدي ملابسه ثم يهبط إلى السلالم مرة أخرى".

في ٣٠ مايو، وضع علي ماهر أصول بيان يعلن القاهرة مدينة مفتوحة، وهذا الإجراء الذي يرسمه القانون الدولي لحماية السكان المدنيين لدولة محايدة من قصف العدو كان مقررا عدم إنفاذه فيما تظل القوات البريطانية في القلعة وثكنات قصر النيل وكلا الموقعين داخل حدود المدينة. من جانبه كان السفير ومعه رؤساء الأفرع المسلحة في حال من الهياج إذ أخذوا على حين بغتة ولكن لم يكن لديهم أي نية لتحريك قواتهم ومن ثم ظل مركز القاهرة غامضا.

وفي بداية يونيه، ضوعفت دوريات الحرس على قصر عابدين والوزارات وتم إلقاء القبض على عدد آخر من المشتبه بهم وتم إبعاد مئات من الاسكندرية إلى الصعيد، وقبض على ١٤ ألمانيا بسبب أنشطة الطابور

الخامس، وجرى ترحيل مئة من فناني الكباريهات وإجلاء ستة آلاف طفل من الاسكندرية استباقا لوقوع غارات جوية عنيفة.

أما موسوليني فقد انتظر حتى يوم ١٠ يونيه قبل أن يعلن الحرب على الحلفاء أي بعد ١٢ يوما من إجلاء القوة البريطانية ومعها ٩٠ ألف فرنسي من دنكرك. أعلنت كندا فورا الحرب على إيطاليا وأعقبتها كل من استراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا. وطلب إلى السفير الإيطالي الكونت ماسوليني مغادرة القاهرة وهو ما فعله مبلغا خدمه بأنه سيعود في ظرف أسبوعين ليس إلا. وتم اعتقال مئات من الرجال الإيطاليين ممن بلغوا سن التجنيد مما أدى إلى مضايقة كل فرد باعتبار أن معظمهم كانوا ميكانيكيين أو كهربائيين. وفي ١٢ يونيه، كشفت الصحف عن ورود أسماء عدد من كبار سكان الاسكندرية الإيطاليين في وثيقة ترسم خطوطها حكومة مصر المحتلة من جانب إيطاليا بعد انقضاء الحرب ومعها خرائط تظهر فيها مصر بوصفها من الممتلكات الإيطالية.

وقرب نهاية ذلك الشهر، عاد إلى أفريقيا امبراطور الحبشة هيلاسلاسي الذي كان في المنفى بأوروبا منذ غزو الإيطاليين لبلاده قبل أربع سنوات. وقد عمدت قوات الأمن إلى تنظيم مظاهرة في حي آخر بالاسكندرية من أجل صرف الانتباه عن وصوله بعد أن تقرر إبقاء وجوده سرا لحين تمكنه من عبور الجبال في الحبشة. ولكن في استقبال خاص تم في نادي اليخت الملكي، أعطى الامبراطور ساعة ذهبية إلى الطيار الذي جاء به بأمان محلقا فوق البحر الأبيض المتوسط ثم حث مضيفيه على أن يأتوا ليزوروه في أديس أبابا وذلك قبل أن يتم نقله في سرعة إلى مقر قيادته المبدئي في السودان حيث تقرر أن يدخل من هناك إلى بلاده ترافقه قوة بريطانية ثم يدعو شعبه إلى الالتفاف من حوله لمطاردة الإيطاليين حتى يطردوا خارج شرق أفريقيا.

بالنسبة للمصريين، بدا الأمر وكأن بلدهم مهدد بمصير مماثل لمصير الحبشة، وقد أسعدتهم أخبار ٣٠ يونيه عندما أعلن أن المارشال إيتالو بالبو القائد الأعلى للجيش الإيطالي في شمال أفريقيا أسقطت طائرته بالمدافع فيما كان يحلق فوق طبرق قبل يومين من ذلك التاريخ. وقد رئي أن هذا طالع سيئ

بالنسبة للامبراطورية الإيطالية وإن كانت لحظة الأمل قد انجابت عندما سمعوا أن الذي حل محله هو المارشال رودلفو جرازياني. ذلك أن جرازياني عمد قبل عشر سنوات خلت إلى إخماد جذوة التمرد في فزان في ليبيا بقدر من القسوة الوحشية. هنالك ترامت حكايات عن عمليات الاغتصاب والحرق والسلب التي عاناها الليبيون على يد الجنود الإيطاليين الذين كانوا يطردونهم من أراضيهم لصالح المستوطنين المستعمرين. وبالمقارنة إلى ما شهده الصيف السابق عندما كانت الصيحات تتوالى على أفواه الإيطاليين الفاشست في كل من السويس والاسكندرية والقاهرة تقول "لجيتو سارا أنواه" (مصر ستكون لنا)، التزم هؤلاء الإيطاليون جادة الهدوء المريب.*

وفيما شعر المصريون بالامتنان لمساعدة البريطانيين على إبقاء الإيطاليين بعيدين عن بلدهم، لم يكن بهم رغبة للمشاركة في الحرب الدائرة بين انجلترا وألمانيا. النحاس باشا وصف الحالة من خلال مثل عربي يقول إننا في الحرب "لا ناقة لنا فيها ولا جمل" وبمعنى آخر ليس لدينا أي مصلحة فيها.

ولكن بينما ظل التهديد الإيطالي يزداد تدريجيا منذ عام ١٩٣٦ جاء استسلام فرنسا في ١٦ يونيه ١٩٤٠ صدمة كاملة. قبل ذلك التاريخ بأشهر قليلة فقط، كان محمود أبو الفتح الصحفي المصري قد ذهب في جولة على خط ماجينو. كان في غاية الإعجاب عندما وصف قوة الخط واستحكاماته التي لا تقهر لقراء جريدتيه المصري والبورص إيجبسيان. وعندما ترامت الأنباء الرهيبة إلى سواحل الاسكندرية حيث كان القوم قد هربوا بعيدا عن حر القاهرة اللافح، لم تستطع هذه الأنباء أن تجد من يصدقها، ولكن من الآن فصاعدا شعر المصريون أنهم قد أحيط بهم في سلسلة من الحوادث التي لم يكن في مقدورهم تقريبا السيطرة عليها.

بالنسبة إلى قادة الأسلحة في القاهرة، فإن الآثار العسكرية التي نجمت

---

* التعبير منسوب في الحوليات المصرية إلى الشيخ محمد مصطفى المراغي، شيخ الجامع الأزهر وقتها. "المترجم"

عن سقوط فرنسا كانت في حكم الكارثة. كان تعاون البحرية الفرنسية في البحر المتوسط والجيش الفرنسي في سوريا والقواعد الجوية في فرنسا أمرا لم يعد ممكنا التعويل عليه، أما بارقة الأمل الوحيدة المتبقية فكانت من جانب الجنرال ديجول ولكن كان من السابق لأوانه بكثير تقدير نجاح دعوته التي وجهها إلى الفرنسيين الأحرار في كل مكان. في يونيه ١٩٤٠، صمم البارون دي بينواه مدير شركة قناة السويس التي كانت تستخدم نسبة كبيرة من الفرنسيين والفرنسيات العاملين في مصر على أن القتال ينبغي أن يستمر ووافقه في ذلك معظم مديري الشركة بمن فيهم القبطان دي ليسو لوكاس الذي أبلغ أبناءه أنه "من الآن فصاعدا علينا أن نعتبر أنفسنا بريطانيين". يتذكر ابنه البالغ وقتها عشر سنوات أنه خرج إلى حديقة بيت الأسرة في الاسماعيلية لكي يغني نشيد "المرسيليز" للمرة التي تصورها الأخيرة. وبفضل مبادرة رجال مثل لوكاس وبينواه فإن أغلبية الفرنسيين في مصر التفوا حول الجنرال ديجول، وكانوا بهذا أول فرنسيين يفعلون ذلك من وراء البحار. إلا أن الوزير الفرنسي المفوض في القاهرة وكذلك قنصل فرنسا في الاسكندرية كانوا من بين الذين ظلوا على ولائهم لحكومة فيشي، وكان القنصل معاديا بعمق للسامية (مبغض لليهود). وفي تقرير سري كشفه الأمن الميداني، كتب يقول إن الصحف الفرنسية الصادرة بالفرنسية لم تؤيد ديجول إلا لأنها وقعت في يد اليهود وتحت ربقة النفوذ البريطاني.

قامت قوة بريطانية بإغراق سفن الأسطول الفرنسي الراسية في ميناء المرسي الكبير بالجزائر يوم ٣ يوليه ١٩٤٠ وسبب هذا التدمير هو أنه برغم أن الهدنة تحذر نشر سفن فرنسية ضد الحلفاء، إلا أن هتلر لم يكن ليتردد يوما عن إجبار فرنسا على استخدام أسطولها إذا ما اقتضى الأمر، ومن هنا لم يتخذ البريطانيون القرار بخفة، وبرغم خسارة ما يزيد عن ١٠٠٠ من الأفراد الفرنسيين الذين لقوا مصرعهم، فحتى الجنرال ديجول اعترف بأن الأمر كان ضروريا، لكن ما وجده لا يستحق أي عفو أو تجاوز هو الطريقة التي كان تشرشل يستمتع بها ويظهرها إزاء اتخاذ ذلك القرار، ومن ثم أدان ديجول

الإجراء بوصفه مدعاة للازدراء ولكنه حث الفرنسيين على أن يتفهموا أسبابه ومراميه.

وحتى حادثة المرسى الكبير، فإن الفرنسيين الذين كانوا مؤيدين أو معادين لحكومة فيشي ظلوا يخوضون مناقشات صاخبة ولكن ها هم باتوا منقسمين ترتفع بينهم جدران من الصمت الثلجي. جين دي شوتي الزوجة الفرنسية لوزير بلجيكا المفوض أقض مضاجعها أن ترى كيف أن البغض لبريطانيا أصبح قويا بين صفوف الفرنسيين المقيمين في منطقة الشام ومدينة بيروت لدرجة وصل الأمر معها إلى النسيان الكامل للعدو الحقيقي. وقيل لمدام دي شوتي إن ما قام به البريطانيون من نهب وتدمير صارخين في المرسى الكبير هو أمر لا يغتفر بالنظر إلى سلوك الألمان في باريس الذي كان يلتزم جادة الاستقامة بغير شائبة.

وإذ عادت السيدة جان دي شوتي إلى القاهرة في نهاية الشهر فقد وجدت نفسها تترأس حفل غذاء في مطعم بتي كون دي فرانس، وكان بين الحاضرين أيضا الكولونيل دي لار مينا الذي كان قد هرب لتوه من سورية ومعه ١٥ فرنسيا آخر. كانوا قد جاءوا من أقاصي روسيا وكذلك من تونس إلى بلد ما زال يحفل بجبهة نشطة للحرب ومع ذلك فقد صرفتهم المفوضية الفرنسية بعيدا. وبما أن المدينة كانت قائظة الحرارة، قررت مدام دي شوتي إقامة حفل لهؤلاء الرجال الشجعان والحيارى في المساء التالي حيث يقومون بنزهة في الصحراء في الوقت الذي زاد عددهم إلى ثلاثين فردا. وما أن وجدوا أنفسهم في الخلاء حتى ارتفعت معنوياتهم قليلا بفعل الغذاء والنبيذ وبدأوا يتأملون روعة الغروب في مصر. هكذا ظلت أشباح الهموم بعيدا إلى أن شرع ملازم شاب من طولون في إنشاد أغان ريفية تحت ظلال الأهرام.

ومن بين ٣٧ ألف من أفراد الجيش الفرنسي في منطقة الليفانت (شرق المتوسط) المرابطين في سورية ولبنان، بدا الأمر وكأن هناك حفنة من الرجال الذين فارقوا سورية لمواصلة الحرب جنبا إلى جنب مع البريطانيين. وقد وصلوا إلى حدود فلسطين الواقعة تحت الانتداب البريطاني دون أن تساورهم

أي فكرة عن الموقف الحقيقي إذ كانوا يقتصرون على سماع إذاعات فيشي. وكل ما عرفوه أنهم لم يكن بوسعهم هضم الهدنة، ووقت مغادرتهم فلسطين إلى مصر تضاءل عددهم إلى ١٠٠٠ من الرجال الأشداء، واتخذوا مخيمهم في "تاج" قرب الاسماعيلية التي كانت المركز الإداري لشركة قناة السويس حيث لقوا تحية حارة من الجالية الفرنسية.

أما ديجول فقبل أول إذاعة له من راديو لندن كان قد اتصل بالقادة العسكريين والحكام الإداريين في كل أنحاء الامبراطورية الفرنسية. والفرد الوحيد الذي كان على استعداد لأن يتبعه كان الجنرال جورج كارتو الحاكم العام للهند الصينية الفرنسية. وحقيقة أن هذا الجنرال (الذي يحمل رتبة فريق) كان مستعدا لوضع نفسه تحت قيادة ديجول أضفت على حركة فرنسا الحرة وزنا في مرحلة حاسمة من نشأتها. كارتو وزوجته الصلبة المعروفة بوصف "صاحبة الجلالة - لارين مارجو انتقلا إلى القاهرة في شهر أكتوبر في شقة في عمارة من طابق أو طابقين في الزمالك يعرفها السكان البريطانيون بأنها الفيل والقلعة. وكان مقررا أن يتقاضى مرتب سفير عامل، وكان ذلك ملائما إذ أنه كان أقرب إلى السفير منه إلى الجندي. في بادئ الأمر ظل الرجل متنكرا تحت اسم مسيو كارتييه (وهو اسم اختاروه مشتقا من العربة ذات الأربع عجلات•) وفي مدى زمني قصير، استعاد الرجل شخصيته الحقيقية وقام آدم واطسون (البروفيسور واطسون حاليا) ضابط الاتصال بالسفارة مع فرنسا الحرة بالعثور على خياط يوناني ممتاز قدمه لكارتو الذي كلفه بحياكة عدد من البزات الرسمية. لكن الترزي اليوناني لم يقتنع برتبة كاترو وآثر أن يتحقق من الأمر سائلا: جنرال يا سيدي؟ وعندما أكد له واطسون أن كاترو كان جنرالا عاد الترزي يسأل: ويحمل رتبة فريق كمان؟

كاترو كان رجلا شديد التهذيب والتدقيق طلعته الأنيقة المهندمة كانت

• إشارة إلى الأربع نجمات التي تزين رتبته. "المترجم"

تتناقض تماما مع هيئة الجنرال ديجول. وفور وصوله إلى القاهرة استقبله سير مايلز لامبسون الذي أحبه على الفور، ومع ذلك لم يكن مركزه بوصفه ممثل الفرنسيين الأحرار في مصر معترفا به من كل طرف. ففي حفل استقبال للمفوضية الفرنسية، سأل الأمير محمد علي عم الملك، إذا ما كان كاترو يتم استقباله في الدوائر الدبلوماسية وساعتها ساد صمت قلق وأجاب الوزير الفرنسي المفوض مسيو بوذي قائلا: "برغم أن الأمر لا يكاد يصدقه أحد فهناك مفوضية صديقة بعينها (يقصد السفارة البريطانية) تفتح أبوابها فعلا لجنرال فرنسي تم تجريده من رتبته وحكم عليه بالإعدام من حكومته ولا يعدو كونه صعلوكا مطلوبا في الظروف المعتادة أن يطلق عليه الرصاص".

رجل واحد كان قد شعر بالمهانة بأكثر من غيره في حادثة المرسي الكبير هو الأميرال جوت فروي، قائد القوة سين: وكانت تتألف من بارجة حربية وأربع فرقاطات وثلاث مدمرات من الجيش الفرنسي وكلها مرابطة في ميناء الاسكندرية. ومنذ توقيع الهدنة، وعندما تلقى أوامر العودة إلى الوطن ظل الأميرال كانن هام يرفض السماح له بمغادرة الاسكندرية، ومن ثم ظل يتعاون مع الأميرال البريطاني الذي أحبه واحترمه.

كان جود فروي قد شرع في تصريف وقود الزيت تدليلا على حسن نيته، عندما جاءته أنباء حادثة المرسي الكبير. هنالك توقف تدفق الوقود النفطي وأعلن الأميرال تخليه عن أي تعهد سبق وقعه أمام كانن هام، وبدأت السفن الفرنسية تعد عدتها للرحيل وتخلي أسطحها للعمل. بدا الأمر وكأن جود فوري يخطط لاقتحام طريق خروجه من ميناء الاسكندرية، وكان يمثل أسوأ موقع ممكن لوقوع معركة بحرية بالنسبة إلى الأميرال كانن هام. وفضلا عن الدمار الذي يمكن أن يلحق بالأرصفة والمرافق في المرفأ، لم يكن القائد البحري البريطاني يريد حادثة أخرى تقع على يديه على غرار المرسي الكبير، ومن ثم توسل إلى جود فروي أن يعاود التفكير في الأمر.

وإذ بقي جود فروي على سخطه، وجه نداء إلى الضباط وفصائل السفن عبارة عن رسالة مكتوبة على لافتات كبيرة وضعت فوق قوارب تطفو من حول

السفن الفرنسية، وكان الضباط والأفراد يؤيدون قبول الشروط المقدمة لهم وبوجه هذا الضغط، فضلا عن ضغط الوزير الفرنسي المفوض بالقاهرة رضخ الأميرال جود فروي.

على أن الاحترام الذي عوملت به الفرقة سين كان سخيا للغاية بفضل جهود الأميرال كانن هام إذ سمح للأميرال جود فروي باستخدام شفرات حكومة فيشي لنقل المعلومات من منطقة الشام وقدم الغذاء والأموال من البريطانيين لرجاله وسمح لهم القيام بإجازات في الاسكندرية وعلى مدار أكثر من سنتين شهد فيهما الأسطول البريطاني انتصارا في ماتبان ولحقته خسائر فادحة في كريت وأبقى على طبرق مزودة بالمؤن وسط خطر فظيع محدق، وحارب للسيطرة على شرقي البحر المتوسط ظل الأميرال جود فروي متشبثا بمبادئه لا يمارس سوى لعبة التنس. أما السفن الفرنسية التي لم يكد يصيبها سوى خدوش في طلائها، فقد ظلت تبدو متأنقة مصقولة ولامعة بالمقارنة مع الأسطول البريطاني المثخن بالجراح. ومع ذلك لم يتوقف جود فروي عن بعث رسائل مهذبة سواء للتهنئة أو للتعزية إلى الأميرال كانن هام بعد كل قتال بحري يشتبك فيه البريطانيون.

على أن أفراد الفرقة سين الفرنسية ذهبوا في إجازات إلى سوريا ولبنان حيث أعادت فصيلة الجيش الفرنسي المؤيدة لحكومة فيشي في سورية شحن بطارياتهم لكراهية الفرنسيين الأحرار الذين كانوا يبادلونهم عداء بعداء وكراهية بكراهية. ولم يقتصر الأمر على أن رجال فرقة سين عاشوا حياة ناعمة، بل أمكنهم أيضا أن يرسلوا أموالا إلى وطنهم وهذا لم يكن بوسع الفرنسيين الأحرار أن يفعلوه من خلال القنوات المعتادة. وكم شهدت شوارع الاسكندرية مشاجرات كان الفرنسيون الأحرار يستفزون البحارة بعبارات من قبيل: "تلاقي عندكم محار أو أم الخلول للبيع؟"• وبعدها تشتعل المشاجرة بغير

• العبارة ساقتها المؤلفة بالفرنسية وتنطوي على تورية تشير أيضا إلى البحث عن حمقى ومأفونين. "المترجم"

انتظار. وكان ثمة تحد آخر يستدعي إعمال الفكر العميق يأتي من جانب جورج جورس الذي كان يقدم برامج إذاعية تقصد إلى تحويل ولاء بحارة أسطول الأميرال جود فروي إلى فرنسا الحرة. ومن هذه الإذاعات ما أبرز نتائج مسابقة حول أفدح حماقات الحرب (كان جورس قد قام بتأليف جميع بنود المسابقة بنفسه) ومن نتائج المسابقة تعادل بين حماقتين أولهما تتويج تومسلاف الثاني على كرواتيا وقيام رجال حكومة فيشي بغناء نشيد "المرسيليز".

أما جنود الامبراطورية البريطانية فقد طوروا فيما بينهم عبارات تتغنى بالبطولة ولكنها تعرب دوما عن الابتهاج فيما تعرب أحيانا عن معاني الشجاعة والصمود عندما تزداد الأمور سوءا، وقد انعكس هذا في العناوين العامية التي اتخذتها أفلام الدعاية من قبيل: "حسنا أعطينا جيري فطيرة الآن ولن يهرول من جديد كي يلتهم واحدة أخرى" هذه النغمة كانت على النقيض تماما من أحوال الفرنسيين الأحرار الذين كانت أمزجتهم في التغني بالبطولة أكثر جدية بكثير.

التوق ليوم التحرير كان أمرا مشتركا بين الفرنسيين الأحرار وبين حشود البولنديين والبلجيكيين واليوغسلاف وجميع الجنسيات التي كانت تحارب في الشرق الأوسط فيما كانت بلدانهم تحتلها ألمانيا، ولكن الفرنسيين الأحرار كانوا الوحيدين من بينهم ممن تتبرأ منهم حكومة وطنهم تماما، كانوا قد شقوا الطاعة على سلطتها ولم يقتصر أمرهم على أنهم خرجوا على القانون بل كانوا بنظرها خونة أيضا. وبرغم أن كان بالوسع رؤيتهم وقد أخلدوا إلى الراحة أو حتى تبادل النكات إلا أن التزامهم بقضيتهم فيما بين صفوفهم كان من الحماس لدرجة لم تكن تترك فسحة كبيرة للخفة أو الراحة.

سرعة الأحداث نتج عنها قدر من الارتباك في العلاقات الانجليزية – المصرية. ففيما أدت قوة المحور إلى جعل المصريين في شغل من أمر المدى الذي يلزمون به أنفسهم إزاء بريطانيا، كانت بريطانيا في شغل من الأمر كذلك

حول ما الذي تتوقعه من مصر. وبعد هزيمة فرنسا، شعرت دوائر الحكومة البريطانية بالحاجة إلى المزيد من الحلفاء المشاركين في القتال وتطلعت في هذا إلى مصر، ولكن برغم أن رؤساء أفرع القوات المسلحة ومعهم السفير سير مايلز لامبسون كان يتفقون من حيث المبدأ مع رؤسائهم في مصر ويحثون مصر على إعلان الحرب، إلا أنهم كان لهم تحفظاتهم بشأن احتمال أن تكون مصر حليفا مقاتلا.

شعر قادة الأفرع أن العناصر الوطنية في الجيش المصري ربما تسبب متاعب وترفض القتال، تحت إمرة الضباط البريطانيين بينما كان لامبسون يعرف أن المشاركة الكاملة من شأنها أن تعرض مصر لعمليات قصف عشوائي بغير تمييز، وإذا ما حدث ذلك في القاهرة وهي واحدة من المدن الإسلامية المعتبرة، فإن بقية العالم الإسلامي سوف توجه اللوم ولا شك إلى بريطانيا لإجبارها مصر على خوض حرب بغير إرادتها. ولا يملك البريطانيون أن يخسروا حسن ظن الجيران من الأقطار العربية الأخرى، ومن ثم لم يكن هناك سبب وجيه لحمل مصر بالقسر على خوض الحرب، بينما كانت المعاهدة الأنجلو مصرية تجعلها تتعهد بالفعل بتعاونها الكامل.

على أن البريطانيين كان يساورهم قلق بالغ عندما ذكر على ماهر أنه لو غزت بريطانيا مصر فلن يعلن الحرب مباشرة ولكنه سوف يطرح المسألة لنقاش في البرلمان. لقد قطعت العلاقات مع إيطاليا يوم ١٢ يونيه، ولكن الصحافة الناطقة بالعربية لم يسمح لها بنشر أي دعاية مناهضة للإيطاليين وكل ما حدث أن تم التحفظ على حفنة من الألمان، بل إن منشآتهم وخاصة بنك درزدنر بدت وكأنها سوف تستغرق وقتا طويلا في التصفية. وبرغم الادعاءات الظاهرة كان واضحا أن الملك ومعه علي ماهر يريدان البقاء أصدقاء مع المحور، وكان لامبسون ورؤساء الأفرع يعرفون أنه سوف يتعين عليهم، عاجلا أو آجلا، التخلص من رئيس الوزراء.

ومن حسن حظ البريطانيين، أن علي ماهر كان مفتقرا بشدة إلى الشعبية: لم يكن منتخبا بل معينا من قبل الملك، وفي ظل الحكم العرفي أصبح أقوى

بكثير من أي رئيس سابق للوزراء في مصر. وقد أثار علي ماهر قدرا كبيرا من السخط في الأشهر القليلة التي أمضاها في الحكم. كان يحكم بالمؤامرات والتهديدات والتلاعب في الوظائف الإدارية بدلا من الحكم بواسطة الوزراء الذين كان يضمر لهم قدرا لا يكاد يخفيه من الازدراء. وعلى هذا لم يبذل البرلمان محاولة يؤبه بها للدفاع عنه عندما طلب البريطانيون طرده من المنصب، وعندما قبل الملك فاروق على مضض استقالته يوم ٢٣ يونيه.

وبرغم النوبات التي كانت تساور الوفد بين حين وآخر من المشاعر المعادية للبريطانيين، إلا أن لامبسون كان يعرف أن الوفد هو الحزب الوحيد القادر على إبقاء البلاد في حال من الاستقرار خلال مسار الحرب القادمة. وعليه طلب السفير البريطاني من الملك فاروق دعوة زعيم الوفد النحاس باشا لتأليف حكومة. وكان فاروق يكره سير مايلز كما كان يكره النحاس الذي حاول بغير ترو الحد من سلطة الملك. وما كان من الملك إلا أن ظل يوارب ويراوغ بإصرار لدرجة اتضح معها أن ليس لديه نية أن يكلف الوفد بتشكيل الحكومة. ولما كان الأمر لا يسمح أن تظل مصر بغير حكومة إلى الأبد، فقد تم تعيين حسن صبري باشا الذي كان يمثل حلا وسطا رئيسا للوزراء. وعملت حكومته خلال الأشهر القليلة التالية على مصادرة ممتلكات الإيطاليين وزيادة عدد الجيش المصري خمسة آلاف فرد وسنت قانونا يعطي للشرطة سلطات تقبض بها على مروجي الإشاعات الكاذبة.

لكن الإشاعات الكاذبة التي كانت تنتشر في أواخر أغسطس كانت كلها ترجع إلى قيادة الجيش البريطاني في مصر التي قررت في ذلك الوقت إجلاء زوجات وأطفال جميع العسكريين البريطانيين المقيمين في مصر ولم يسمح بالبقاء سوى للزوجات المشاركات في أعمال الحرب الرسمية. إن عائلات ضباط الخدمات لم يكن يحدق بها خطر مباشر، ولكن رئي أن من الأفضل للجندي أن يركز على كسب الحرب إذا ما تأكد أن زوجته وأطفاله في مأمن بعيد. لكن الزوجات عارضن بشدة هذا الإجراء وخاصة عندما شاهدن استثناءات من ذوي النفوذ أو الدخل أو مجرد التصميم على البقاء. وقد

أصبحن يعرفن في القاهرة بعد ذلك بصفة "الزوجات السائبات" برغم أن الوصف قلما كان يشمل أبرز استثناء صارخ للغاية وهو ليدي ويفيل وبناتها. وقد ذكر البريجادير ماكندليش الذي تولى أمر هذا الإجلاء أنه كان يخوض وقتها حربا ضاربة. أولا كان عليه أن يفصل بين العائلات الشديدة الالتصاق وكذلك المتزوجين حديثا الذين كان الفصل بالنسبة لهم شديد الإيلام، وبعد انتهاء القتال أصبح عمله إعادة توحيد الأفراد الذين أصبح إبقاؤهم بعيدا عن بعضهم البعض أفضل بكثير!!

وعندما ترامت الأنباء بأن جميع عائلات العسكريين في طريقها إلى المغادرة إلى جنوب أفريقيا نجم ذعر شديد بين صفوف المدنيين. كان سير الكسندر كوين بويد قد كتب بالفعل ورقة بشأن إجلاء الزوجات والأطفال البريطانيين انتهت بمناشدة ألا تترك مثل هذه الترتيبات إلى اللحظة الأخيرة. وبات السؤال هو: ما الذي ستفعله السفارة؟ لقد جاهد لامبسون في تطمين مجلس الجالية البريطانية دون أن يلزم نفسه بتقديم الجواب. وفي رأيه فإن العسكريين أثاروا ذعرا بغير مبرر لا بين الجالية البريطانية وحدها ولكن بين السكان المحليين كذلك. أما عن الإجلاء فقد وصفه فيما بعد بأنه كان أمرا: "غير منطقي وغير متسق وغير نزيه".

وبينما كان البريطانيون يعدون عدتهم للحرب، كان بوسع المصريين أن يقولوا إنهم أوفوا بالتزاماتهم بموجب المعاهدة المصرية البريطانية. وإذا كان ثمة جانب يوجه إليه النقد بأنه لم يلتزم فهو البريطانيون لأن الاتفاق يضمن حقوق مصر أن تدبر شؤونها الداخلية وهو شرط اختار البريطانيون أن يخالفوه عندما عملوا على طرد رئيس الوزراء المصري ولكن عندما أصبح الإيطاليون على الأبواب لم يكن ذلك هو وقت الدخول في الجدال.

سباق المعوقين في بنغازي

في منتصف ليلة ١٠ يونيه، في اللحظة التي أعلن فيها موسوليني الحرب على الحلفاء، بدأ فيلق الهوسار الحادي عشر أولى تحركاته في حرب الصحراء عندما شق طريقه وسط الأسلاك، أي عند خط الحدود الفاصل بين مصر وليبيا الذي كان يتألف من صفوف ثلاثة في العمق من الأعمدة المعدنية والأسلاك الشائكة ويمتد مئات الأميال في خط مستقيم عبر فيافي خاوية لا تحفل إلا بالرمال والصخور. وما أن وجدوا أنفسهم داخل ليبيا حتى شنوا سلسلة من الغارات على المعسكرات في فورت كابوتوزو وفورت مادالينا مما أخذ الإيطاليين على حين غرة تماما. وفضلا عما دمروه من مدافع ودبابات وشاحنات فإن أسراهم شملوا الجنرال لاستوشي كبير المهندسين في الجيش (الإيطالي) العاشر الذي تم أسره في سيارته الميدانية ومعه "صديقتان"*. ولقد واصل البريطانيون تكتيكاتهم السريعة ولكن الإيطاليين، فضلا عن شنهم غارات

---

* الجيش الإيطالي كان يتبع موقفا عمليا للغاية إزاء الجنس ومن ثم كان يزود حامياته الكبيرة بالبغايا، وقد وجد ١٤ منهن في طبرق عندما استولى عليها الاستراليون عام ١٩٤١. وبما أنه لا سبيل إلى إيداع النساء في السجون مع أسرى الحرب، فقد أرسلن إلى الاسكندرية. وهنا صادفن إحراجا شديدا عندما تم تسليمهن إلى كنيسة الروم الكاثوليك التابعة للقوات التي أنشأت ديرا في القاهرة استعدادا لاستقبالهن، وقد جردن من أدوات الزينة وسائر الأمتعة ومنحن بدلا من ذلك بدلات لا شكل لها من القطن الرخيص المخطط، كما حرمن من أي حلوى أو سجاير لدرجة أن باتت معيشتهن من البؤس بمكان. ولكن لا الكنيسة ولا الجيش كان بوسعهما تحمل المسؤولية الأدبية عن تركهن إلى الشوارع لممارسة حرفتهن.

منتظمة ولكن غير فعالة على مصر وفلسطين، لم يقدموا على أي خطوة جادة من جانبهم حتى يوم ١٣ سبتمبر. في ذلك اليوم أقدم المارشال جرازياني، يشوبه قدر كبير من التخوف والارتباك، على تحريك جيشه العاشر لمسافة ٦٠ ميلا إلى داخل مصر فاحتل السلوم وسيدي براني. وهنا توقف وبدأ في تشييد سلسلة من المعسكرات الدفاعية شبه الدائمة. ولم يكن من شأن هذا أن يشكل علامة على استراتيجية هجومية، ولكن إذاعات راديو المحور ذكرت أن جيش التحرير الإيطالي الذي يستلهم التوجيه من موسوليني وقد نصب نفسه بدوره "حامي حمى الإسلام" هو في طريقه لتحرير مصر من الغاصبين البريطانيين.

المصريون لم يساورهم أوهام قط في هذا الصدد، إن أخبار الصحف قدرت القوة الإيطالية بنحو ٢٥٠ ألف فرد يدعمها نحو ألف طائرة ولكن الرقابة منعتها من تقدير عدد الأفراد البريطانيين في حين أن الكل كان يعرف أنهم أقل من ٥٠ ألف. المارشال ويفيل بضغط متزايد من جانب تشرشل لبدء الحملة رفض الهرولة إليها، وظل سلاح الطيران البريطاني الملكي يشن على الإيطاليين غارات بغير انقطاع وتم عرض طائرة إيطالية مستولى عليها في مدينة الاسكندرية للتدليل على كفاءة السلاح البريطاني ولتطمين الأهالي هناك. وكانت الفكرة أن المشاهدين لها سوف يفعمون إعجابا بآسريها البريطانيين، ولكن الأمر في عيون المصريين انقلب ليجعل الطائرة رمزا مؤكدا لقوة الامبراطورية الإيطالية. وساد شعور عام لما وصفه البريطانيون بأنه "الانهزامية" ولم تفلح في تبديده الدعايات العقيمة. وفي مساء ١٩ أكتوبر كانت الطائرات الإيطالية تزأر فوق سماوات القاهرة وقصفت يومها ضاحية المعادي.

كان ويفيل قد وضع قوة الصحراء الغربية تحت قيادة الجنرال ريتشارد أوكونور. وعلى مدى الشهرين التاليين، عمد هذا القائد الدقيق الحجم الكثير الحذر والشديد التواضع إلى تشييد عدد من مستودعات الإمداد والتموين في عرض الصحراء بحيث يمكن لنقلياته المحدودة أن يقتصر استخدامها على الأفراد فقط عندما يصبح كل شيء جاهزا. كانت السرية أمرا من الحيوية

بمكان لأن القاهرة كانت تحفل بعملاء العدو، ومن أجل إعطاء الانطباع بأن لا شيء يتم في هذا الصدد، ذهب القائد الأعلى ومعه ليدي ويفيل وابنتاهما إلى مباريات السباق في الجزيرة عصر يوم السبت ٧ ديسمبر، وفي هذه الليلة أقام ويفيل حفلا لكبار الضباط في نادي التيرف وقال ضيوفه إنه بدا في غاية الارتياح.

لم يكن الإيطاليون في معسكراتهم أندادا للقوات الخفيفة المتحركة التي أطلقها أوكونور يوم ٩ ديسمبر. وبعد ثلاثة أيام من القتال استعاد أوكونور سيدي براني.

وجاء هذا عاملا هائلا لرفع الروح المعنوية في القاهرة ولندن. فعلى مدار الأشهر القليلة التي مضت كان تشرشل قد نفد صبره إلى حد بالغ إزاء ويفيل الذي كان يرفض التحرك إلى أن يعد للأمر عدته. وانتهى هذا كله وسط هالة النصر، ولكن بهجة رئيس الوزراء أثارت بدورها بيانين جاءا على محمل سيئ إلى حد ما. أولهما الخطاب الذي قال فيه إن الإيطاليين قاموا بغزو مصر الواقعة "تحت الحماية البريطانية" مما أثار هياج المصريين الذين كانت كلمة "الحماية" ترتبط في أذهانهم بذكريات مهينة. وأدى ذلك إلى وابل من الاعتذارات المحرجة من جانب السفارة. وثمة خطاب آخر حمل ويفيل على أن يعتقد أن رئيس الوزراء لم يكن يوضع في الصورة على النحو الصحيح وهو انطباع حرص سير جون ديل سكرتير وزارة الحرب على التعجيل بتصحيحه في إشارة بعث بها إلى القاهرة تقول:

"٢١ ديسمبر ١٩٤٠. نعم إنني أدرك بطبيعة الحال أن فيلق الخيالة الاسترالي الخفيف فيلق ميكانيكي. أخشى أن يكون رئيس الوزراء قد رأى أن يشير إلى الخيالة الاسترالية ... في لحظة ابتهاج ناسيا الصحراء والمسافة والمياه وقفز إلى نتيجة أن هجوم الخيالة الصاعق قد تم وقال هذا في البرلمان".

ولم يستغرق الأمر طويلا إلا وتم اكتشاف مخالفة خطيرة لقواعد الأمن. لقد عثر على نسخة من مذكرة سرية موجهة من الجنرال ويلسون بشأن الدفاع البريطاني عن واحة سيوة بين أوراق تخص الجنرال بسكاتوري المأسور. كان تاريخها في أكتوبر ١٩٣٩ وكانت مرسلة إلى وزير الحربية المصري ولكن الذين شُك في أنهم قاموا بتمريرها إلى الإيطاليين كانوا علي ماهر رئيس الوزراء حينذاك أو عزيز المصري بوصفه رئيسا لأركان حرب الجيش المصري. وبما أن الاثنين كانا بعيدين عن الوظيفة وواقعين بالفعل تحت المراقبة لم يكن أمام لامبسون الكثير مما يفعله وإن كانت هذه الحادثة قد أسكتت الاعتراضات عندما استرد البريطانيون المعدات التي كانوا قد وعدوا بها الجيش المصري.

لم يكن ثمة فرصة أمام رئيس الوزراء الجديد حسن صبري لكي يثبت لنفسه، فقد سقط ميتا بنوبة قلبية عندما كان يقرأ خطاب العرش إلى اجتماع البرلمان في ١٤ نوفمبر. ولم يشعر لامبسون بالدهشة عندما وجد أن الملك ما زال معارضا تكليف النحاس بالوزارة، ولكن شد مكان سخطه عند سمع أن فاروق يريد إعادة علي ماهر إلى الحكم. وكان المرشح المقبول الوحيد للسفارة والبرلمان وفاروق هو حسين سري باشا، المهندس الذي كان يشغل منصب وزير الأشغال العمومية والتجارة، ولم يشعر سير مايلز بسعادة كبيرة، ولكن سري بدا مستعدا للتعاون مع البريطانيين كما كان قريبا من جهة الزواج للملك. وكانت السفارة تأمل أنه سيمارس نفوذا ما على جلالته ولو اقتصر الأمر على إبعاد علي ماهر قدر الإمكان من السراي.

كان هذا الأمر من السهل قوله أكثر من فعله، فاروق لم يكن قد طرد أيا من خدمه الإيطاليين الذين كان عن طريقهم يحتفظ بصلاته مع علي ماهر وروما. وسرت إشاعات عن إذاعة قوية تبث من القصر الملكي في أنشاص وتعين من جديد على سير مايلز أن يحذر الملك بأنه رغم إطفاء الأنوار الذي

يسود الاسكندرية بالأمر، فقد شوهدت أضواء قوية تنبعث من قصر المنتزه، وهنالك ابتسم الملك قائلا إن هذا لن يحدث ثانية.

وفي ٢٣ ديسمبر، كان قد تم أسر ٢٤ ألف إيطالي، وبدا أوكونور مندفعا لا يوقفه أحد. ولم يقتصر الأمر على إبعاد الإيطاليين عن برقة، ولكن خلال ذلك الخريف فشلوا كذلك في الاستيلاء على اليونان، وعندما أعلن الإيطاليون الحرب على اليونان في أكتوبر ١٩٤٠ نشبت على الفور مشاحنات بين الجاليتين في مصر. كان حماس اليونانيين في مصر في الاندفاع لمساعدة وطنهم أمرا مرموقا، لقد تم تجنيد ١٤ ألف في الحال وأبحروا إلى وطنهم للقتال، بينما ذكرت مجلة المصور أن الجالية اليونانية استطاعت في ليلة واحدة أن تجمع من الأموال ما يفوق ميزانية الدفاع الوطني في مصر بأكملها وكانت مصر بلدا يحوي ١٦ مليون نسمة. وأفادت المقطم أن يونانيا عاقلا فسخ خطبته بفتاة إيطالية. وبين صفوف الرجال بدا هذا الحماس الوطني وكأنه يتجاهل الأحوال التي يواجهها الجيش اليوناني في الجبال. إلا أن النساء أظهرن قدرا أكبر من بعد النظر: مدام كبساليس زوجة الوزير اليوناني المفوض حثت جميع اليونانيات على حياكة صديريات بشغل الإبرة وجوارب للجنود الشجعان لارتدائها في الشتاء المقبل. وبعد شهر من ذلك التاريخ انهار التقدم الإيطالي، وفي ١٨ ديسمبر استطاع الجيش اليوناني شن هجومه وطرد الإيطاليين إلى أن تقهقروا في ألبانيا. وفي ديسمبر ١٩٤٠ احتفل اليونانيون والبريطانيون في مصر بانتصارهم هذا، وبدت القاهرة مزدانة ومرحة في أبهى حللها في ذلك الكريسماس.

وبرغم أن مطاعم القاهرة الفاخرة كانت حاشدة بالمرتادين الذين يهنئ بعضهم بعضا إلا أن نجاحات بريطانيا في الصحراء أدت إلى تفاقم العلاقات الانجليزية المصرية، فقد ظهرت الصحف المصرية حافلة بالمقالات التي تقول إن ويفيل ما كان يمكن أن ينجز ما أنجزه بغير تعاون مصر، وفي المقابل فإن المصريين يريدون أن يروا تنازلات تقرّبهم إلى هدفهم الأسمى وهو الاستقلال

التام. من ناحية أخرى كان البريطانيون يتصورون أن مصر ينبغي أن تشعر بامتنان أبدي لأنهم أنقذوها من براثن الإيطاليين.

وبعد حفل شاي هائل أقيم على شرف نحو ألفين أو ثلاثة آلاف من الجنود في نادي الجزيرة، حيث شاركت في تقديم الشاي ليدي لامبسون، حزم السفير وعقيلته متاعهما في رحلة إلى الصعيد تستغرق بضعة أيام من العطلة ومعهم الكاتبة والرحالة فريا ستارك. وقد زاروا المدافن والمعابد في الصحراء على ظهور الحمير ورقصوا في المساء مع الباشوات في قاعة فندق وينتر بالاس، وكتبت فريا تقول "كان منهم الأخيار وكان منهم أيضا الأشرار الذين بدوا وكأنهم ساندوا فعلا من أفعال الخير ولكنهم خسروا الرهان".

جاكلين لامبسون أعربت عن ابتهاجها بانتصار الصحراء على نحو ما فعل كل فرد في الجالية البريطانية ولكن الحرب كانت قد وضعتها في موقف دقيق إذ كان نصفها إيطاليا، فأبوها سير ألدو كاستيلاني، كان طبيبا إيطاليا شهيرا يتخذ عيادته في هارلي ستريت (شارع الطب في لندن) وكان قد أنجز عملا له قيمته في مجال طب المناطق الحارة في أفريقيا، وعمل رئيسا للقسم الطبي للقوات الإيطالية خلال الحرب الإثيوبية في الفترة ١٩٣٥-١٩٣٦ ثم ما لبث أن أصبح المستشار الطبي للقيادة الإيطالية العليا في عام ١٩٤٢. وبالنسبة إلى لامبسون كان الإحراج الوحيد والحقيقي يأتي من جانب فاروق الذي كان يدلي بملاحظات من قبيل "لن أتخلص من الإيطاليين إلا بعد أن يتخلص هو ممن لديه منهم" وكانت الحكاية تسري في كل أنحاء القاهرة مسرى الهشيم.

كانت زوجة سير مايلز الأولى قد توفيت عندما كان يشغل منصبه في الصين والتقى مع جاكلين في زيارة إلى مصر كانت تقوم بها كصديقة لابنة أخيه ميراندا. وبرغم الفارق الكبير بين عمريهما فقد تزوجا في ديسمبر ١٩٣٤ وكان لا يزال وقتها مفوضا ساميا. جاكلين لامبسون كانت حسناء سمراء، لا تكاد تصل في طولها إلى كتف زوجها، ولكنها كانت مفعمة بالحيوية

تميل إلى الرئاسة وتلك ميزات ممتازة في حياة زوجة الدبلوماسي، كما حظيت بموهبة لا تقدر بثمن تجعلها تتكلم بثقة وذكاء أمام كل فرد ابتداء من الملك وحتى أقل مراتب الأفراد.

وصل شيبس شانون ليقيم في السفارة البريطانية في القاهرة يوم رأس السنة من عام ١٩٤١ وكان في طريقه إلى يوغوسلافيا. يقول "أشعر بسعادة فائقة فمسرح الأحداث في القاهرة هو لعبتي المفضلة بسلاسته ورشاقته وشغفه باللذة وهيافته وارتباطه بكل ما هو دنيوي، إنه صورة مني في واقع الأمر ...". شهد شانون سباقا في الجزيرة مع مضيفيه وكم كان سعيدا برسميات الاحتفال حيث عزفوا نشيد "حفظ الله الملك" وقت دخول السفير إلى مقصورته وقد ارتدى الريدنجوت الرمادي والقبعة العالية وبصحبته ليدي لامبسون في فستان من رقائق الحرير وقبعة عصرية "كانت الساحة مزدحمة وذكرتني بمنطقة نيو ماركت حيث علي خان يرعى جياده وتشارلس وود (لورد هاليفاكس فيما بعد) يتجول بصحبة هيو نورثمبرلاند".

لا عجب إذن أن كان ويفيل هو قرة عين القاهرة وقد قرر شانون أن يجتمع إليه عن طريق بيتر كوتس ياوره العسكري الخاص. لم تكن ليدي ويفيل مضيفة موهوبة ومنذ وصولها في أوائل عام ١٩٤٠ تولى الميجور كوتس تنظيم الحياة الاجتماعية لعائلة ويفيل بنجاح مشهود، من هنا كان الطعام والحديث على مائدة الجنرال ينبئان بتحسن ملحوظ، بل إن الجنرال نفسه بدا وكأنه أصبح ثرثارا بدرجة أكبر.

كما اغتبط بيتر كوتس أن يرى شانون مرة أخرى، ولكنه شعر بالتوتر إذ تخوف من تقديم هذه الشخصية بكل احترافها في غشيان الحفلات وحبها للحياة إلى ويفيل الذي كانت نوبات الصمت التي تنتابه مصدر قلق لمن لم يتعود عليها. ولكن في ٤ يناير أقامت أسرة ويفيل حفلة كوكتيل لمائة من المدعوين في دارهم المطلة على مضمار السباق في الجزيرة. وبدا واضحا أن ويفيل قد زود بفكرة براقة عن شانون، إذ طلب إليه البقاء للعشاء ثم جمعته وإياه

محادثـة طويلـة بعد ذلك حيث أبلغـه شـانون أنـه يعد بطـلا فـي انجلـترا. "... وعندما قلت له أنه بمثابة نيلسون الثاني (وهي ملاحظة خائبـة) أجاب متمتمـا لماذا؟ ألأني أملك عينا واحدة؟ والمهم أننا أصبحنا أصدقاء بالفعل".

ولم تمض سوى أسابيع قليلة إلا وكان شانون وهو في طريقه عـائدا مـن يوغوسلافيا قد ربطته صداقة عميقـة مـع ليـدي لامبسـون التـي كـانت مشـاركة وقتهـا فـي الحفـل الراقص للصليب الأحمـر والهـلال الأحمـر. كـانت الحفـلات والمناسبات الاجتماعية تتم كل يوم سبت تقريبا دعما لمشاريع خيرية من أجـل الحرب. وكان يقوم على تنظيم هذه الحفلة بالذات ليـدي لامبسـون ومعهـا مـدام سـري، عقيلـة رئيس الـوزراء ثـم زوجـة الوزيـر اليونـاني المفـوض مـدام كبساليس. كل منهن أخذت ثلث التذاكر لبيعها وأرسلت ليدي لامبسون مائة إلـى ليدي ويفيل طالبة منها المساعدة في التوزيع، فما كان من ليدي ويفيـل إلا أن أعادتها فورا دون حتى كلمة تفسير. وبعد كثير من الجدال الـذي تـم مـن خـلال الوسطاء لم يتسن إقناعها سوى بأن تـأخذ أربـع تذاكـر، ولكـن مـن حسـن حـظ ليدي لامبسون أن عرض شانون عن طيب خاطر أن يشتري مائة تذكرة.

ظلت الأنباء الطيبة تتوالى في شهر يناير: استولى أوكونـور علـى برديـة يوم ٤ من الشهر، وتهيأ للاستيلاء علـى طبرق ودرنـة. وبـدأت حملـة شرق أفريقيا وسقطت كسلا في يد البريطانيين يوم ١٩ من الشهر. ومع ذلـك تنـاهت أخبـار منـذرة بـالخطر مـن اليونـان: إن جيشـها الباسل السـيئ التجهـيز كـان محاصرا في جبال ألبانيا ويعاني من واحد من أسوأ وأقسى فصـول الشـتاء فـي الذاكرة المعاصرة. وفي ٢٩ ينـاير توفـي الدكتـاتور اليونـاني ميتاكسـيس الـذي كـان قد رفض عـرض بريطانيـا بالمسـاعدة. وفـي ذلـك الحيـن كـان الألمـان يتجمعون في رومانيا فيما طلب خليفة ميتاكسيس، كوريزيس فورا من الحلفـاء تقديم كل مساعدة ممكنة.

شعر شانون بالحزن وهو يفارق مباهج القاهرة يوم ٨ يناير، ولكنــه كـان قلقا بشأن زيارته إلى بلغراد. كان مهمته تنحصـر فـي أن يحـاول إقنـاع الأمـير

بول الوصي على العرش الذي كان يعرفه على مدى سنوات بالانضمام إلى الحلفاء ومؤازرة جارته اليونان. ولكن بول لم يكن يريد أن يحمل نفسه على تسليم بلد في حالة حرب إلى ابن أخيه الشاب بيتر، الذي كان سيبلغ سن الرشد في مدى أشهر قلائل.

وفي مسرح شمال أفريقيا استطاع أوكونور أن يقطع الطريق على هروب الإيطاليين جنوبي بنغازي عند فم البيضاء يوم ٧ فبراير. من هنا انتهى ذلك الركض اللاهث عبر الصحراء الذي وصفه رجال قوة الصحراء الغربية بأنه "سباق بنغازي للمعوقين". وبعد خمسة أيام، جاء يوم ١٢ فبراير وهو اليوم الذي وصل فيه إلى طرابلس الجنرال إروين روميل.

ربيـــع ١٩٤١

كارثة في جميع الاتجاهات

عندما توقف روميل في صقلية يوم ١١ فبراير في طريقه إلى شمال أفريقيا، علم أن روما حظرت قصف بنغازي التي يحتلها البريطانيون لأن المدينة كانت تحتوي على منازل يملكها عدد كبير من أصحاب النفوذ الإيطاليين. ساعتها أبلغ على الفور قائد سلاح الطيران الألماني جنرال جيسلر ألا يلقي بالا لمثل هذه الاعتراضات السخيفة التي تعطل الأولويات العسكرية، وبعدها بدأت على الفور الغارات الجوية على بنغازي.

في نفس اليوم بالقاهرة تلقى ويفيل التعليمات التي كان يتوقعها بكثير من الوساوس العميقة، فمنذ ذلك الوقت فصاعدا كان ينبغي الاحتفاظ ببرقة بأقل عدد ممكن من الرجال والمعدات مع العمل بأسرع وقت ممكن على تجهيز حملة شمال أفريقيا في حين كان الدفاع عن اليونان يمثل أسبق الأولويات. لم يضيع روميل وقتا فقد أكدت تقارير مخابراته أن مركز البريطانيين ضعيف ويمتد عبر منطقة شاسعة وكان يعلم أن ويفيل سوف يتعرض لضغوط كثيرة إذا ما أرسل معونة من جانبه إلى اليونان. من هنا تقرر أن يمضي العمل بسرعة كاملة على مدار الساعات الأربع والعشرين حتى يتم تجهيز قواته وتفريغ معداته وإيفادها إلى الميدان. مع ذلك كانت القيادة العليا الألمانية أقل حماسا بكثير في هذا الصدد، حيث جاءت طلبات تجهيز جيش ضخمة كانت تخطط له كي يقوم بغزو روسيا فوضعت في المرتبة الأخيرة حرب الصحراء الغربية، وأبلغوا روميل بألا يتحرك ريثما يصل فيلق البانزر الخامس عشر في شهر مايو.

أما ويفيل فقد أصبح اهتمامه مركزا على مشكلة تجهيز ٦٠ ألف رجل ليضعهم في ميدان اليونان، ومن ثم فكر أيضا في أن لديه شهرين يستطيع

فيهما بناء دفاعاته قبل أن يتمكن الألمان من الإقدام على أي خطوات جادة في برقة. وعندما شن روميل هجومه في أواخر مارس، كان البريطانيون يفتقرون إلى الاستعدادات تماما كما كان الإيطاليون في شهر ديسمبر، بل إن الإيطاليين والقيادة العليا الألمانية شعروا بالاستياء أمام الانطلاقة السريعة ولكن هتلر نفسه تخطى الجميع عندما أعطى روميل بركاته للتقدم. أما قوة الصحراء الغربية التي بوغتت إزاء سرعة التقدم الألماني فقد شرعت في التفسخ والتبدد إلى حيث الفوضى. في ٣ أبريل، وجاء الجنرال أوكونور الذي كان يستمتع بإجازة يستحقها بالفعل لمساعدة الجنرال فيليب أنيم الذي كان قد تولى القيادة في برقة عندما انتدب جنرال ويلسون لقيادة حملة اليونان.

وفي الصباح الباكر من يوم ٦ ابريل قامت ألمانيا بغزو اليونان ويوغوسلافيا ووقعت بلجراد تحت طائلة قصف جوي يقارن بذلك الذي أطلقه هتلر على مدينتي وارسو وروتردام ثم سقطت البلاد بأكملها خلال أسبوع. وفي اليونان لم تكد القوة الصغيرة المتحالفة مع ويلسون المؤلفة من استراليين ونيوزيلنديين وانجليز وبولنديين قد بدأ تجميعها للدفاع عن اليونانيين، حتى فاجأتها عشرون فرقة ألمانية تزحف عبر الحدود من بلغاريا ووجد الحلفاء أنفسهم وهم يحاربون حرب تقهقر من البدايات الأولى. في نفس تلك الليلة وبعد يومين من محاولة عقيمة لتنسيق تحركات القوات البريطانية والاسترالية على صعيد الصحراء الغربية قرر أنيم وأوكونور سحب قيادتهما إلى الخلف ولأن أوكونور لم يكن يمتلك سيارة خاصة به فقد أركبه أنيم في سيارته الكاديلاك البيضاء الضخمة التي كان قد ورثها عن الجنرال ويلسون وانطلق الإثنان عبر المدق الرئيسي للعربات البريطانية المتدفقة شرق الجبل الأخضر، ولكن قبل حلول الظلام تأكدا أنهما على الطريق الغلط. وبعد منتصف الليل اهتزت السيارة فجأة ثم توقفت واستيقظ أوكونور فإذا بأضواء تلمع في الظلام باتجاههما وتتردد خلف الأضواء أصوات ألمانية. ومن بين جميع القادة الذين كان يمكن أن يقعوا في الأثر كان أوكونور هو الوحيد الذي لم يكن لديه أدنى

فرصة للنجاة، وكان ينبغي أن يمضي عام ونصف لحين وصول مونتجمري، دون أن يكون للبريطانيين جنرال من مستواه في الصحراء الغربية.

وعندما أعلنت قوى المحور غزوها للبلقان ثم أسر أنيم وأوكونور، حاولت القيادة البريطانية تأكيد الأنباء الطيبة فقد استعيدت أديس أبابا وتم أسر عشرة آلاف إيطالي، ولكن نجاح حملة الحبشة لم يكن له أهمية كبيرة مع ما ترامى من أنباء حول اقتراب الألمان فضلا عن تفاقم سوء العلاقات الانجليزية - المصرية. وجاء التدهور إلى حد كبير نتيجة الصراعات التي نجمت عن الحرب التي كان الحديث العلني عنها مجمدا بفعل الرقابة، لكن مشاعر العداء المتبادل وجدت تعبيرا عنها في ردود الفعل إزاء اقتراح يقضي بتدوين جميع الحسابات التجارية باللغة العربية، وهو ما لقي تأييدا واسعا من جانب المصريين الذين كانوا على بينة تماما من المشاكل التي سوف تنجم عنه، بينما ضاقت به ذرعا الجالية البريطانية التي رفضت الفكرة باعتبارها تعبيرا عن التعصب ونكران الجميل.

ولم يكد البريطانيون يخفون قلقهم برغم المناشدات القوية بألا يظهروا بمظهر المذعورين أو الانهزاميين وخاصة أمام المصريين. ففي اللحظات الحالكة الظلام ظلوا يتساءلون عما عساه يحدث عندما يصل الألمان إلى القاهرة. رئيس هيئة الأركان الجنرال سير أرثر سميث اعترف أمام لامبسون يوم ٣ أبريل أنه تصور أن الألمان سوف يصلون إلى الأهرام التي تبعد ثمانية أميال فقط عن العاصمة في أي لحظة من اللحظات.

في نفس ذلك اليوم حاصر روميل طبرق وكانت المدينة محصنة تحصينا جيدا على يد الإيطاليين، أما الاستراليون في داخلها فقد كان لديهم الوقت لتنظيم استحكاماتهم التي كانت أكثر شراسة مما توقعه الألمان. وبدا روميل متواجدا في كل مكان دون سابق إنذار وقد استبد به الهياج إزاء عدم التقدم وظل يضغط على كل وحدة لتبذل ما يتجاوز طاقة احتمالها. أمضى تسعة أيام يحاول شق طريقة بالقوة حتى هبت عواصف رملية تعمي العيون وتكبد خسائر

فادحة في الدبابات وقتل اثنان من أفضل قادته مما أجبره في النهاية على التريث والانتظار. كانت حقيقة فشله في الاستيلاء على طبرق هي التي حولت القلعة والمدافعين عنها إلى أسطورة فعالة خلبت لب الحلفاء. وبعد شهر من ذلك التاريخ فقط، صدرت مجلة باريد العسكرية بعدد خاص مكرس إلى "روح طبرق" وفي كل أسبوع استمر فيه الحصار كانت الأسطورة تزداد عنفوانا. وبرغم أنه أجبر على مغادرة أفضل ميناء في منطقة برقة وتركه في الأيدي البريطانية مما فرض ضغطا كبيرا على خطوط الإمداد الألمانية، فقد كان روميل مصمما على ألا يفقد زمام المبادرة، وفي منتصف مايو كان قد استولى على السلوم على أقصى الحدود الغربية لمصر.

في أواخر أبريل، تم إجلاء ٢١ ألف من الأفراد البريطانيين والاستراليين واليونانيين من اليونان إلى كريت لينضموا إلى الحامية القوية الموجودة هناك وقوامها ستة آلاف فرد. كانوا متعبين وكانوا يفتقرون بشدة إلى المدافع والذخيرة ومعدات الإشارة والعربات والأدوات، ولكن الجنرال النيوزيلندي فريبرج قدر أنه لو أمكن لقوافل أكثر أن تشق طريقها بنجاح إليهم، ولو تسنى له الحصول على دعم كامل من جانب البحرية وسلاح الطيران فسوف يستطيع الاحتفاظ بكريت في يده.

ومن يوم ١٤ مايو فصاعدا، ظل الألمان يشنون هجمات جوية متكررة على الجزيرة وعلى القوافل التي تحاول الوصول إليها، وهذه العملية من الضغط وصلت إلى ذروتها يوم ٢٠ مايو. ففي ساعات ذلك الصباح المبكرة، اكتسب الهجوم وحشية أكثر من المعتاد، وبعد ذلك، ووسط الغبار والدخان، رأى المدافعون السماء وقد رصعت بالباراشوت، وبدأ إطلاق الرصاص على مئات من جنود المظلات وكأنهم حمائم، ولكن برغم معدل هائل من الخسائر استطاع خمسة آلاف ألماني أن يهبطوا بسلام على أرض الجزيرة مع حلول الغروب.

وجاء الاستيلاء على مطار ماليني في اليوم التالي ليوفر أمام الألمان رأس الجسر الذي كانوا يحتاجونه، كما أن الضغط السيكولوجي الذي نجم عن القتال والغارات الجوية بغير انقطاع طيلة الأسبوع التالي، أوصل قوات الحلفاء إلى حافة الإنهاك العصبي. وفي يوم ٢٦ مايو اعترف فريبرج أن قواته كانت على حافة الانهيار وصدر الأمر بالانسحاب في اليوم التالي.

وفي جهد بطولي راح ضحيته ما يزيد على ألفي جندي وخمس سفن، جهدت البحرية في إنقاذ ١٨ ألف فرد من كريت بين يومي ٢٨ مايو و ١ يونيه. وبقي ١٢ ألف فرد على الجزيرة ليؤخذوا أسرى. ومن القاهرة بدا الموقف محفوفا بالكارثة، فلم يقتصر الأمر على أن أصبح البلقان وكريت بيد العدو، بل إن روميل كان قد قضى تماما على كل الانتصارات التي سبق وحققها ويفيل في فصل الشتاء. وهنا كتب لامبسون في مذكراته يوم ٢٩ مايو قائلا: "لا أذكر أنني رأيت عزيزنا آرشي يبدو مكتئبا كما رأيته في تلك اللحظات".

وجاءت الأنباء بأن قوة إيطالية ألمانية أصبحت ترابط على الحدود المصرية لتثير ذعرا واسع النطاق، لكن هذا الذعر لا يماثل الرعب الذي كانت تسببه الغارات الجوية الشديدة الكثافة على الاسكندرية في منتصف يونيه. وتمت عمليات تهجير واسعة النطاق لما بين ٥٠ و ٧٠ ألف من الأهالي من الاسكندرية وبورسعيد، وأدى هروب عمال الموانى بأعداد كبيرة إلى حدوث فوضى في وقت عصيب بالنسبة للإدارة العسكرية. لقد نجح حسين سري بالفعل في تهدئة البلاد وتطمين خواطرها من خلال الخطب التي كان يلقيها، ولكن المصريين لم يعد لديهم ثقة كبيرة في بريطانيا. وقبل ذلك بشهر كان مفترضا للقوة الاستطلاعية الموفدة إلى اليونان أن تكون أكبر مما كانت عليه بالفعل، ولم يكن أحد يتصور أنها قد تم جمعها من خلال تجريد برقة من عناصرها وترك مصر مكشوفة أمام الهجوم.

وجاء الغزو الجوي لكريت ليثبت أنه كان باهظ الكلفة إلى حد مدمر من حيث الأرواح والموارد لدرجة أن الألمان لم يحاولوا قط تنفيذ عملية كهذه مرة

أخرى، ولكن الأمر نجم عن ميزة تمثلت في إعطاء دفعة هائلة لمكانتهم في الشرق الأوسط. كتب لامبسون يقول: "إن سقوط كريت خلق انطباعا عميقا بالانهزامية بين صفوف الجماهير المصرية التي جنحت إلى النظر إلى هذا النجاح الألماني عبر البحار بوصفه ضربة قاصمة لأسطورة بريطانيا كقوة بحرية وهي أسطورة لم يكن يدحضها أحد من قبل. أما تفسيرات المصاعب في الطيران والافتقار إلى مطارات قريبة وما إلى ذلك، فلم تكن بكافية لمواجهة هذا الشعور". لقد ساد شعور عام أنه برغم قدرة بريطانيا على هزيمة الإيطاليين إلا أنها لم تحقق نفس النجاح في مواجهة الألمان.

وكما كان ويفيل يتولى إدارة ثلاث جبهات مختلف في وقت واحد، كان يتعين عليه أيضا أن يعالج أمر ضغوط وإلحاح وهياج واستفسارات بغير انقطاع من جانب رئيس الوزراء (تشرشل) الذي كانت أفكاره عن خوض غمرات الحرب تختلف اختلافا حادا عن أفكار ويفيل. تشرشل كان رجل الحديد والعمل والنار وكان يتصور أن الإنسان مستعد للجبهة فور أن يزودوه ببندقية يشهرها، وكان يؤمن بالبطولة، بينما كان ويفيل يعتمد على خطوط الإمداد القوية وسلامة المعدات وحسن التخطيط، وهذا الموقف الحذر جعل تشرشل يصور قدرات ويفيل المرموقة على أنها لا تعدو أن تكون ملكات "رئيس طيب لجمعية من جمعيات المحافظين".

هذه الثغرة الفاصلة بين الرجلين ازدادت اتساعا بسبب أزمة العراق التي نشبت في نفس وقت الحملة اليونانية. ففي الأيام الأولى من شهر ابريل، استولى على السلطة في العراق أربعة جنرالات عراقيين كانوا يعرفون باسم المربع الذهبي وذلك بمعاونة رشيد علي الكيلاني السياسي الوطني في العراق. وقد فتشوا القصر في بغداد بحثا عن ولي العهد الموالي للبريطانيين الأمير عبد الإله (قيل إن مجموعة البحث شملت أربعة أطباء كانوا قد وقعوا بالفعل على شهادة وفاة لعبد الإله بسبب هبوط في القلب)، ولكن الأمير كان قد هرب ولجأ على ظهر سفينة بريطانية في مياه البصرة. وحاصر المتمردون قاعدة التدريب

الجوية في الحبانية ثم أحاطوا بالسفارة البريطانية التي كان قد لجأ إليها ٣٠٠ فرد ولأن هدف الانقلاب كان تحرير العراق من السيطرة البريطانية فقد نال تأييدا كاملا من جانب ألمانيا التي وعدت بمعونة عسكرية كبيرة.

شعرت لندن أن من شأن تدخل عسكري مباغت أن يكون أفضل السبل لإعادة الأمور في نصابها إلى العراق. وعرض الجنرال سير كلود أوكينلك المعين حديثا نائبا للملك في الهند أن يرسل تجريدة إلى العراق تتحول في غضون شهر واحد إلى قوة فرقة كاملة، وكان مستعدا كذلك أن يقود العملية، وقبل تشرشل الجزء الأول من هذا العرض، ولكنه أصر على أن يكون العراق ضمن مسؤولية ويفيل.

أما ويفيل الذي كانت جهوده موزعة على كل جبهة من الجبهات فلم يكن متحمسا من قريب أو بعيد لشن حملة أخرى لم يكن يملك من أجلها لا الرجال ولا المعدات، ورأى ضرورة التماس حل دبلوماسي للمشكلة العراقية. ومع ذلك فقد عمل على تجميع وحدات مختلفة لكي يشكل منها قوة مؤقتة دخلت العراق عن طريق فلسطين في منتصف مايو. وكانت قوة ويفيل تتحرك من الغرب نحو قوة أوكينلك في الجنوب الشرقي حتى نجحت في إخماد التمرد. واضطر العراقيون إلى التحرك قبل أن يكونوا مستعدين ولم تأتهم التعزيزات التي كان قد وعدهم بها المحور. وفي ليلة ٢٩ مايو، هرب إلى إيران رشيد علي الكيلاني ورفاقه وكذلك الوزيران المفوضان الألماني والإيطالي.

وفيما لم يوجه تشرشل اللوم كاملا لويفيل على كوارث الحملة اليونانية التي تم شنها لأسباب سياسية قبل أن تكون عسكرية، إلا أنه لم يكن ليتغاضى عما أبداه ويفيل من تقاعس وتشاؤم بشأن مسألة العراق، ولذلك كان يتعين إعفاء ويفيل عاجل أو آجلا.

من ناحية أخرى كان المدى الزمني الذي تعين على بريطانيا أن تستغرقه لكي تعيد السيطرة على العراق يبدو في مصر وكأنه علامة أخرى من علامات الضعف العسكري. ففيما كان كثير من المصريين يودون أن تكون بريطانيا

أقوى لحمايتهم من الغزو، فإن ثورة رشيد علي وجدت تأييدا في مصر. وفي يوم ١٦ مايو طلبت هدى شعراوي التي كرست حياتها للدفاع عن المرأة، وسبق لها سنة ١٩٢٣ أن كانت أول سيدة تخلع الحجاب علانية في مصر، طلبت من السفارة البريطانية السماح لها بإرسال إمدادات طبية إلى الثوار. وقد رفض الإذن بحزم (بعد سنة من ذلك التاريخ أقامت إحدى حفلاتها الخيرية الساهرة وحضرها الملك فاروق الذي خلع عليها وشاح الكمال وهو إنعام فسرته السفارة على أنه موافقة على أنشطتها المعادية لبريطانيا).

في اليوم نفسه، قام عزيز المصري رئيس الأركان السابق للجيش المصري بما أصبح يسمى محاولته الثانية للهروب من مصر للانضمام إلى القتال ضد البريطانيين.

كان قد شكل تنظيما سريا معاديا للبريطانيين بين صفوف القوات المصرية المسلحة وبمساعدة من اثنين من الطيارين استولى على طائرة من مطار العباسية وانطلق بها إلى بغداد، وقد حلقت الطائرة دقائق قليلة، وبعد ذلك فقدت قوتها إذ قام أحد الطيارين بإغلاق مضخة البنزين بدلا من فتحها وتم هبوط اضطراري في قليوب على بعد أميال قليلة شمال القاهرة حيث أبلغ المصري وزميله الطيار مأمور الشرطة أن سيارتهما قد تعطلت وقد قدم هذا المسؤول سيارته إلى الرجلين اللذين عادا فاختفيا في شوارع القاهرة. وبعد يوم من هروبه أعلنت الحكومة المصرية عن مكافأة قدرها ١٠٠٠ جنيه مصري للقبض عليه، ولكن التأييد المحلي لعزيز المصري تجلى في عدد من الملصقات التي دعت إلى الثورة وقد ظهرت على جدران محطات الأتوبيس والترام، فضلا عن أعداد هائلة كالمطر من المنشورات المعادية للبريطانيين وأرسلت تهديدات بالقتل لمحرري الصحف الذين كانوا يؤيدون خطى الحكومة.

على أن هذه القصة لها سياق عجيب، فعندما أمكن لقوى الأمن القبض على عزيز المصري بعد شهرين من ذلك التاريخ، وبرغم أن مفارقات محاولة هربه كانت تعامل وكأنها نكتة لاذعة، فإن عزيز المصري كان يتحلى بقدر من

المهارة بأكثر مما افترضه البريطانيون في بادئ الأمر. لقد بدأ تحقيق مبدئي يرمي إلى تكييف القضية بتوجيه تهم الخيانة، ولكن عند التحقيق ادعى المصري أنه إنما حاول الوصول إلى العراق لا لكي ينضم إلى ثورته بل لكي يضع حدا لها. وذكر كذلك أن تدخله إنما تم بناء على طلب من ضابط بريطاني كبير.

ومن دواعي رعب لامبسون أن جانبا من هذه القصة على الأقل كان صحيحا، فقد كان عزيز المصري قد طلب مقابلة مع البريجادير كلايتون قائد المخابرات العسكرية، ولكن بما أن المذكور كان بعيدا عن موقعه فقد وافق على أن يتحدث إلى الكولونيل ثورنيل الذي كان يتولى العمليات الخاصة الفائقة السرية. وكان ثورنيل يعمل في قسم الدعاية المناهضة للفاشست فيما كان مساعده كريستوفر سايكس يصفه بأنه "رجل لم يكن بوسعه أن يقاوم التواجد في صميم كل حادثة تصادفه في طريقه". تناول ثورنيل وعزيز المصري الغذاء معا يوم ١٢ مايو، وطبقا لإفادة ثورنيل اقترح المصري أن يطير إلى العراق لكي يقطع الطريق على التمرد يضفي على العراق مركز الدومينيون وهو ما يمكن عرضه على أقطار عربية أخرى بما فيها مصر. وأيا كان الظن بهذه الفكرة العجيبة بأن تنضم معظم منطقة الشرق الأوسط إلى الامبراطورية البريطانية ولا سيما من جانب عنصر قومي شديد التعصب مثل عزيز المصري، فقد وافق ثورنيل على أن يقدم هذه المقترحات إلى البريجادير كلايتون لدى عودته برغم أنه أصر على أنه لم يشجع المصري على الطيران إلى العراق.

مع ذلك، فحقيقة أن ثورنيل اجتمع بالفعل إلى المصري، دمرت القضية بأكملها وكان الإيحاء بأن ينضم العراق ومصر إلى الامبراطورية وهو ما ذكره المصري بوصفه فكرة بريطانية طرحها ثورنيل من جانبه، هو الذي من شأنه خلق دعاية خطرة بصورة خاصة، وبدلا من المخاطرة بالنتائج فإن السفارة البريطانية قبلت على مضض التخلي عن فكرة تقديم عزيز المصري إلى

المحاكمة، ومن ثم لم يتم احتجازه رسميا حتى عام ١٩٤٢، أما ثورنيل نفسه فقد تم طرده من هيئة العمليات السرية الخاصة.

ومع النجاحات التي أحرزها الألمان في اليونان وشمال أفريقيا، أصبحت المسألة فيما يبدو مسألة وقت قبل أن يقدم الألمان على خطوة إلى داخل سورية، وكانت المعونة المقدمة للثورة العراقية تشكل الفرصة المثالية. سورية كانت تحت الانتداب الفرنسي منذ عام ١٩١٩ وهي موطن ٣٨ ألف من قوات جيش الشرق الفرنسي القوي المؤيد لحكومة فيشي وقوامه ٣٨ ألف جندي، ولذلك أعطي الألمان حقوق الهبوط في سورية، فضلا عن تصريح بنقل الأفراد والمعدات في أنحاء البلاد.

وبحلول منتصف مايو، كان كل من تشرشل في لندن والفرنسيين الأحرار في القاهرة يضغطون على ويفيل لشن حملة في سورية، ولكن في الوقت الذي شهد زحف قوة مختلطة من البريطانيين والاستراليين وقوات الفرنسيين الأحرار إلى سورية يوم ٨ يونيه كان الألمان قد خرجوا منها. إن تكاليف حملة كريت المحمولة جوا فضلا عن فشل الثورة العراقية، أدت إلى إثناء عزمهم عن اتخاذ موقع أقوى في سورية وكانت كل الأذهان في برلين مركزة على الحملة المقدر شنها وشيكا على روسيا تحت اسم عملية بربروسا. كانوا يأملون أنهم بعد انسحابهم من سورية لن يعود ثمة أسباب أمام البريطانيين لكي يدخلوا إليها، في حين أن الفرنسيين كانوا يأملون في مواجهة بني جلدتهم هناك والتحادث معهم، ومن ثم يمكن تحويل جيش الشرق بأكمله إلى صالح قضية فرنسا الحرة.

لكن استقبالهم من جانب قوات فيشي جاء أسوأ بكثير مما توقعوه، فقد وصفوهم بالخونة وقتلة الأشقاء وأغتيل عدد قليل من الفرنسيين الأحرار رافعي الرايات البيضاء حينما كانوا يحاولون التحادث مع مواطنيهم. واضطربت أنحاء مستشفى درعا الميداني حين هب الجرحى الفرنسيون يمسكون بخناق بعضهم البعض. والحاصل أن سورية دخلت في نهاية المطاف

تحت سيطرة الحلفاء في يوم ١١ يوليه، وتولاها أولا أوكينلك، إلا أن تلك العملية واسمها اكسبورتر وما تلاها من مفاوضات الهدنة لم تترك في نفوس الفرنسيين الأحرار سوى المرارة وخيبة الأمل.

لم يصدر عن تشرشل أي لوم بعد السرعة الرهيبة التي تقدم بها روميل صوب قوة الصحراء الغربية التي كان ينقصها الاستعدادات والمعدات على السواء. وعلى خلاف جميع النصائح فقد أعطى الأوامر بأن يتم على الفور إرسال قافلة ضخمة من الدبابات مباشرة إلى مصر عن طريق جبل طارق بدلا من الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح الذي كان يستغرق ٤٠ يوما أخرى. وكانت العملية تايجر (النمر) مقامرة رهيبة لأن القافلة كان يتعين عليها عبور البحر المتوسط معرضة تماما لرؤية العدو، ولكنها ستعوض الأسلحة والعتاد الذي ضاع خلال تقدم روميل، وتزرع الثقة فيما كان يسميه تشرشل بجيش النيل.

ومن بين سفن النقل الخمس التي كانت تحمل ما مجموعه ٢٩٥ دبابة، و٥٣ طائرة فقدت سفينة واحدة أغرقها لغم في مضايق جنوب مالطة، أما السفن الأخرى فقد وصلت إلى الاسكندرية يوم ١٢ مايو وكم شعر تشرشل بالابتهاج بوصول (أشبال النمر) التي بعث بها، ولكن مضى شهر بأكمله دون أن يعرف السبب في عدم إرسالها إلى الجبهة مما ظل يفرغ جعبته باستمرار من الصبر. وفسر ويفيل الأمر بأن الدبابات كانت بحاجة إلى عمليات تمويه وتعديل لكي تلائم الصحراء، كما أن أطقم الدبابات كان ينبغي تعويدها على النماذج الجديدة، وكثير من أضواء الدبابات وصلت وهي بحالة إلى إعادة تجهيز شبه كاملة، ولكن الضغط من جانب تشرشل لم ينقطع، إذ كان يقول إن الألمان كانوا بعيدين بصورة تدعو للخطر عن قاعدة إمداداتهم، ومن ثم ليس هناك وقت لكي نضيعه.

سلمت الدبابات إلى وحداتها يوم ٩ يونية وبدأت حملة الهجوم البريطاني الثانية تحت اسم عملية باتيليكس وكان ذلك يوم ١٥ من الشهر، وعلى خلاف

أشواط التقدم التي سبق وقطعها كل من أوكونور وروميل، وكانت قد اكتسحت مئات الأميال، فإن عملية باتيليكس وقعت في دائرة قطرها ١٥ ميل من السلوم.

مارشال الجو تيدر الذي كان قد تولى لتوه زمام القيادة من سير آرثر لونجمور عمد إلى تركيز أكبر عدد من الطائرات تحت حوزته لكي يكفل التفوق الجوي لسلاح الطيران البريطاني، وحقيقة أن الأمر تم بهذا الشكل، ظلت مصدرا من مصادر التشجيع في القاهرة ولندن على السواء، إلا أن الجيش لم يكن لديه أي فكرة عن مدافع روميل من عيار ٨٨ مم التي كان على وشك استخدامها بوصفها سلاحا مضادا للدبابات لأول مرة في حرب الصحراء.

كانت المدافع دقيقة بصورة مرعبة فقد بدأت الدبابات في الانفجار وسط اللهيب واحدة إثر الأخرى، ومع تقدم ساعات النهار أصبح واضحا أن روميل بات يتمتع بقبضة أقوى في السيطرة على هذه الحملة السريعة والمعقدة بأكثر من قبضة الميجور جنرال كريغ، قائد الفرقة السابعة المدرعة أو رئيسه الجنرال سير نويل بيرسي فورد. وهكذا انسحب البريطانيون يوم ١٧ يونيه.

جاء انهيار العملية المذكورة وخسائر أشبال النمور ليشكل ضربة مريرة لتشرشل، فقد دمرت ست وعشرون دبابة، ولم يبق من بين المائة طائرة ماتيلدا سوى ٣٦ فقط، وتحمل ويفيل كامل المسؤولية ولم يشر سواء في ذلك الوقت أو في المستقبل إلى أن الذي دفعه بغير هوادة كان رئيس الوزراء، تماما كما دفع أشبال النمور إلى العمل قبل أن يتخذوا أهبة الاستعداد.

البرقية التي أبلغت ويفيل بأن يتبادل مع أوكينلك المناصب سلمها أركان حربه الجنرال سير آرثر سميث بينما كان يحلق ذقنه صباح يوم الأحد ٢٢ يونيه، ولم تثر في نفسه عجب، فقد اتفق مع رئيس الوزراء على أن المهمة كانت بحاجة إلى "عقل جديد ويد جديدة"، وكان في غاية من التعب لدرجة كان يأمل معها أن يسمح له بإجازة في انجلترا، لكن تشرشل انتهى إلى أن وجود القائد الأعلى السابق بالشرق الأوسط سيكون إحراجا في لندن، وبعد خمسة

أيام من تسليم القيادة إلى أوكينلك يوم ٨ يوليه، طار ويفيل إلى نيودلهي ليتولى وظيفة القائد الأعلى في الهند.

وفي القاهرة شعر الجميع ابتداء من سير مايلز لامبسون بأن الرجل عومل معاملة سيئة للغاية، وكانت فريا ستارك من بين مجموعة صغيرة تجمعوا عند مدرج الطائرة لوداعه، حيث بدا حزينا ومنهكا، كما أن ساحة المطار الشاسعة والفارغة وقد احتوت تلك المجموعة الصغيرة من أشخاص يرتدون الملابس المدنية ويقفون في ساعات الصباح الباكرة، ذكرتها، وياللغرابة، لوداع في الروابي في مرتفعات ستووارت:

"... لم تكن الصورة تستوحي ظلالها من أي فكرة حول القضايا التي ضاعت ولكن ساد جو من الولاء والإخلاص خيم على أرجاء المكان، وسط شعور بتقبل كل ما تأتي به الأحداث" .

الوافدون الجدد

"يا إلهي إنني أتوقع أن نلتقي مرة أخرى،

إن موسم الإجلاء بدأ لتوه"

جون كوميل، منزل عند بوابة هيرود

بعد اجتياح البلقان بدأ اللاجئون يتدفقون على مصر، كان منهم أفراد بغير اسم وبغير وطن، يتشبثون بأحمالهم وأطفالهم ولكن كان من بينهم أيضا موكب صغير من الرؤوس المتوجة في البلقان. هذه الموجة من الخروج الملكي سبقت إليها جويس بريتن جونز التي وصلت إلى القاهرة يوم ١ أبريل، أي ستة أيام قبل غزو اليونان ويوغوسلافيا، وكانت في طريقها للانضمام إلى الملك جورج ملك اليونان في أثينا.

في فترة منفاه الأول بعد ثورة عام ١٩٢٣ كان الملك جورج قد وصل إلى إنجلترا، وخلال السنوات التي قضاها هناك انفصل عن زوجته الأميرة إليزابيث اليوغوسلافية وأصبحت مسز بريتن جونز خليلته حتى وفاته في عام ١٩٤٧. وعندما بدأ الألمان يحشدون حشودهم في بلغاريا، طلب الملك جورج السماح لها للالتحاق به، وبتيسير رحلتها ولأن وزارة الخارجية كانت ترى أن تأثيرها على الملك جورج أمرا مفيدا من جميع النواحي، فقد تم ما طلب. وأرسل أنطوني إيدن رسالة إلى سير مايلز لامبسون يطلب إليه العناية بها واعتبار زيارتها في القاهرة أمرا في طي الكتمان الشديد.

والذي حدث أنها وصلت وسط هالة من الأبهة، فقد أرسلوا بيتر كوتس ممثلا عن الجنرال ويفيل إلى مطار ألماظة لكي يقابل الجنرال ديجول وتجمع كل وجهاء الفرنسيين الأحرار بالقاهرة على مدرج المطار، وحين فتح باب الطائرة عزفت الموسيقى نشيد المارسيليز، وهنا برزت المسز بريتن جونز التي شاركت الجنرال رحلة الطيران في آخر مرحلة لها من لندن إلى القاهرة، أما هو فقد سمح لها بكل تهذيب أن تسبقه خارجة من الطائرة.

ومن المطار توجهت إلى السفارة البريطانية لتناول الغذاء، وبعد ذلك جمعتها محادثة طويلة مع سير مايلز "وصلت للتطرق إلى موضوع المخاللة غير الملائم، وفي أثنائه لاحظت أنه لم يطرف لها جفن"، وبعد أيام قلائل واصلت رحلتها إلى أثينا.

أما أول مجموعة ملكية تصل إلى القاهرة فتألفت من الوصي السابق على عرش يوغوسلافيا، الأمير بول مع زوجته الأميرة أولجا وأبنائهما الثلاثة يوم ١١ أبريل الذي سمع فيه البريطانيون أن روميل استولى على كل برقة ما عدا طبرق. ولم يكن رئيس الوزراء المصري سري باشا قد أخطر بوصولهم وكما يذكر سير مايلز "ثارت ثائرة الرجل بشأن الأمر وهو ما كان السفير يخشاه. "... صار الأمر على نفس النهج باستمرار" على نحو ما كتب يوم ٢٨ مارس "من حيث الطريقة التي تعامل بها لندن مصر بوصفها مقلب عام تلقي فيه باللاجئين السياسيين ومن إليهم" ووردت إلى السفارة تعليمات باستقبالهم استقبالا باردا ومعظم الترتيبات بشأن إقامتهم جرى اتخاذها بصورة غير رسمية عن طريق أصدقاء وهم بيتر كوتس والأميرة جوان علي خان، وعثروا على بيت للعائلة في مصر الجديدة برغم أن كاتبي سيرة الأمير بول وصفوه بأنه شديد القذارة وصغير بصورة تدعو للسخرية. وبعد أيام قلائل زارهم سير مايلز وليدي لامبسون زيارة غير رسمية ووجدوهما في غاية من اللطف والظرف. وقد وصف سير مايلز الأميرة أولجا بأنها واحدة من أكثر الحسناوات

اللاتي التقاهن جاذبية وكان عليه أن يذكر نفسه بأن زوجها "كاد أن يخون القضية في يوغوسلافيا".

الأمير بول اليوغوسلافي لم ير ابن أخيه الملك بيتر الذي تناول الغذاء في الاسكندرية بعد اسبوع من ذلك التاريخ قبل أن يتوجه إلى فلسطين، ومع ذلك فقد وصلت إلى مصر الجديدة بعد ذلك مجموعة من أعيان الصرب قوامها ثلاثون، وهم الرجال الذين وضعوا الملك بيتر على العرش وألغوا الوصاية، وكان يتعين وضعهم في القاهرة ريثما يوجد مأوى لها في فلسطين (ومرة أخرى اشتعل غضب حسين سري لأن الحكومة المصرية لم تخطر بهذا الأمر) وطلب الصرب إلى لامبسون إبقاء الأمير بول تحت رقابة مشددة حتى لا يبدأ التآمر ضدهم برغم أن هذا القلق لم يكن له ما يبرره، فقد كان الوصي السابق على العرش يفضل الرسم والعاديات القديمة على السياسة.

وسافر الملك اليوغوسلافي الجديد ووزراؤه إلى لندن، بينما كان يتعين إبقاء الأمير بول والأميرة بعيدا عن الطريق في كينيا*. أما جورج ملك اليونان فقد هرب من أثينا "مثل يسوع المسيح على ظهر حمار وإن كان يرتدي قبعة من الخوص" على حد ما ذكره بيتر كوتس، ومعه كان رئيس وزرائه عمانويل سوديروس وعدد من أعضاء العائلة المالكة: شقيق الملك الأصغر الأمير بول ولي العهد وزوجته الأميرة فردريكا وابناهما وشقيقة الملك الأميرة كاترين. وضمت المجموعة كذلك مسز بريتن جونز التي قدموها بأنها وصيفة للأميرة فردريكا، وطاروا جميعا إلى كريت يوم ٢٦ أبريل لأن الملك أراد أن يبقى على أرض يونانية حتى آخر لحظة ممكنة، ثم في منتصف مايو تم إجلاؤهم إلى القاهرة.

---

* سكنوا في أوسيريان في دار ريفية معزولة في نيفاشا كان يمتلكها لورد إيرول الذي كان قد قتل قبل ذلك بفترة وجيزة.

كان الملك جورج رجلا جادا له طابعه العسكري، وكان قد عمل هو وحكومته في المنفى على محاولة تشكيل جيش يوناني، وظل يناقش أفضل السبل لاستخدام الأسطول اليوناني والبحرية التجارية في بلاده بالتعاون مع الريطانيين إلى جانب الترتيب لتسلل العناصر الموالية له إلى اليونان المحتلة. وفي أوائل يونيه، بعد رحيل الأميرة كاترين، انتقل هو ومسز بريتن جونز إلى فندق مينا هاوس. ويكتب لامبسون في مذكراته: "يتعين أن أقول إنني تصورت أنه أقدم على خطوة مسيئة، ففي أيام الملك تشارلس الثاني لم يكن ثمة شك في أن البروتوكول كان يراعى بالنسبة للعشيقات الملكيات، لكنني يراودني في هذه الأيام شعور قوي بأنه ينبغي للملوك أن يستتروا إذا ما ابتلوا بهذه الأمور". ومن حسن حظ السفير، لم يمكث الملك جورج وأسرته في مصر سوى ثلاثة أسابيع، فقد دعاه الفيلد مارشال سمطس إلى جنوب أفريقيا وبعد إقامة قصيرة هناك، انتقل الملك جورج ووزراؤه إلى لندن.

بالنسبة لمن لم ينتموا إلى الأسر المالكة، كان الهروب من اليونان أمرا بالغ الإرهاق، فما أن بدأ الجرحى من الأفراد اليونانيين والجنود الاستراليين والبريطانيين يحجلون في مشيتهم إلى شوارع أثينا حتى انتشر الرعب.

كم جاهد الأهالي من أجل حصولهم على أي ملجأ على متن أي سفينة ترضى بنقلهم بحرا، بينما واصل سلاح الجو الألماني قصف ميناء العاصمة في بيراوس بصورة لا تنقطع.

بدأ وصول أول أفواج اللاجئين في مصر يوم ٢١ أبريل على متن تشكيلة غريبة من اللنشات والصنادل والبواخر الصغيرة. ونزل على شاطئ الاسكندرية أكثر من ألف منهم، بينما كانت السلطات البريطانية والمصرية تحاول الإسراع بترتيبات استقبالهم. الكثير منهم لم يكن بحوزته أوراق ومعظمهم لم يتناولوا طعاما لمدة يومين، وكان من المتوقع أن يفد على البلاد نحو أربعة آلاف آخرين في غضون الأيام القليلة التالية.

وعلى متن آخر سفينة مدنية تغادر ميناء بيراوس ركب من تبقى من أعضاء المجلس البريطاني الذين شملوا الروائي روبرت ليديل والقصاصة أوليفيا مانج وزوجها ريجي سميث. كانت سفينتهم باخرة عتيقة معطوبة استخدمت لنقل الأسرى البريطانيين: قمراتها مليئة بحشرات الفراش وبعض أجزاء ممراتها كانت محاطة بحواجز خشبية لفصل مجموعات السجناء، على متنها أيضا حملت شاعرين من اليونان: جورج سفيريس الذي أصبح بعد ذلك سفير حكومة المنفى البريطانية لدى جنوب أفريقيا، وإيلي بابا دي متريو.

أوليفيا مانج وزوجها ريجي سميث تقاسما قمرة صغيرة ذات سريرين مع الدكتور هارولد إدواردز شاعر ويلز وزوجته اليونانية إيتي. أوليفيا كان لها تحفظات كثيرة على صندوق قبعات السيدة الأخيرة وظلت تضعه باستمرار في ممر السفينة خارج غرفتهما المزدحمة. وبما أن الصندوق كان مليئا بالقبعات الباريسية الغالية، ظلت مسز إدوارد تحضره إلى الداخل باستمرار، وبنهاية الرحلة وصل الأمر إلى أن قاطعت كل سيدة الأخرى لا تبادلها طرفا من حديث.

أبلغ اللاجئون بأن يحضروا معهم أغذية ولكن بما أن أثينا لم تكن تحوي أي طعام لشرائه فلم يأكلوا شيئا لمدة ثلاثة أيام. وفي مقالة نشرت بعد سنوات من ذلك التاريخ، تذكرت أوليفيا مانج أول مرة ذاقت فيها الطعام في الاسكندرية "... رأينا الجنود البريطانيين على الرصيف وصاح أحدنا: لديكم أي شيء يؤكل؟ نعم يؤكل؟ أصابت الدهشة الجنود إزاء طلب بسيط كهذا، فتوجهوا خلف صناديق الذخيرة وجاءوا بسباط من الموز وبدأوا يستمتعون بلعبة قذف الموز إلى أعلى واحدة واثنتين، ولكننا كنا نقفز بدورنا ونناضل كي نحصل على شيء منها، وقد قدر لي أن أحصل على موزة صغيرة خضراء من الخارج لكنها شبه حمراء من الداخل وكانت تفوح بعبير العسل ولم أذق في حياتي شيئا مثلها".

بعد إتمام الإجراءات قدمت لهم وجبة معقولة من اللحم والبيض والشاي، مما جلب الدموع إلى مآقيهم. وفي تلك الليلة كانوا على متن القطار المتجه إلى القاهرة. أوليفيا وريجي سميث انتقلا إلى فندق للاجئين برغم أنه كان أقرب إلى مخيم للمأوى إذ كان يشمل عنبرين منفصلين أحدهما للرجال والآخر للنساء، ودشا باردا واحدا يستخدمه كلا الجنسين. على أن عائلة سميث هذه أراحت نفسها بفكرة أن الفندق لا بد وأن يكون رخيص السعر ولكن عندما طلبا الفاتورة تبين أن هذا المخيم كان أغلى في أسعاره من فندق شبرد. هارولد وإيتي إدواردز لم يرتكبا خطأ الذهاب إلى فندق للاجئين، ولهذا كم كانت سعادة مسز إدواردز وهي في غرفتها الخاصة تفتح صندوق قبعاتها ولكنها سرعان ما اكتشفت انتقام أوليفيا منها: قبعاتها الثمينة الغالية كانت قد تكرمشت عندما وضعت من فوقها مبولة من العاج.

لورانس دوريل وزوجته نانسي وطفلتهما بينيلوب كانوا يعيشون في كلاماتا جنوبي اليونان، حيث كان لورانس يعمل في المجلس البريطاني. وعندما اقترب الألمان من المكان كتب دوريل إلى المجلس طالبا المشورة وتلقى الرسالة: "استمر - احكمي وسودي يا بريطانيا". وعندما تسنى لعائلة دوريل أن يتحققوا أن عليهم محاولة الخروج وطفلتهم خارج اليونان، كان الألمان قد اقتربوا من أثينا. وكان ثمة صديق يمتلك زورقا كبيرا من النوع المستخدم لنقل البضائع من حول الجزر اليونانية، وقد استطاع الإبحار بهم إلى كانيا على الساحل الشمالي الغربي من جزيرة كريت.

عائلة دوريل وجدت كانيا حاشدة بالاستراليين يحف بهم سلوك ونفسية من أسوأ ما يكون برغم أنهم حاولوا كسبهم بصندوق من البيرة أخذوه من الزورق. وفيما كانوا يحادثونهم، ذكرت نانسي دوريل أن لم يعد لديها حليب طفلتها المعبأ وفي تلك اللحظة ما كان من الاستراليين إلا أن دخلوا ينهبون متجرا قريبا وعادوا يقدمون لها ما يكفي عدة أشهر من حليب كارنيشن. ومن

كانيا انضموا إلى المسافرين على متن الباخرة الشديدة الازدحام حتى وصلوا بأمان إلى الاسكندرية بعد يوم أو اثنين في الساعة الرابعة صباحا.

من بين الشاويشية التابعين للأمن الميداني الذين استقبلوا السفينة كان جون كرومر برون شاعر شاب أسعده كثيرا أن يجد أن الرجل الذي يقف أمامه كان هوالكاتب لورانس دوريل بشحمه ولحمه صديق هنري ميلر. تجاذب الحديث في الشؤون الأدبية طيلة ما تبقى من الليل إلى أن مضى دوريل ليلحق بزوجته حيث أقام مع نانسي أسبوعا في الاسكندرية قبل الانتقال إلى العاصمة.

عائلة دوريل وجدت القاهرة بغيضة وكئيبة، كانوا قد تركوا اليونان في الربيع عندما كانت آلاف الأزهار ترطب منظر الصخور السائد هناك وتملأ المنتزهات وتزين واجهات البيوت ونوافذها في أثينا. أما في القاهرة فقد حان وقتها زمن الخماسين، الرياح الصحراوية السميكة الساخنة المحملة بالرمال والغبار. المصريون يقولون (إنها تعيد ذكرى فترة الأيام الخمسين التي عكف فيها قابيل على حمل جثة أخيه هابيل فوق ظهره باحثا عن مكان يدفنها فيه). كانت أوراق أشجار البلدية تكاد تختنق من الغبار الذي كان ينفذ في كل مكان حتى إلى الشرفات المصنوعة على الطراز الإيطالي والمحاطة بسياج الحديد، وكذلك العمارات الحديثة وكان الغبار لا يعوقه شيء ومن ثم يحول كل مبنى إلى كيان ساخن يجمع بين اللونين الأصفر والرمادي. هكذا كان الهواء يحوي الغبار والذباب ومعه بدايات روائح الصيف القائظ الخبيثة، وكان بمثابة الجلد أو القناع الرقيق الذي يخفي من تحته برك الأسن الراكدة. ثمة مدن كثيرة تجمع بين الغنى الفاحش والفقر، ولكن ليس كهذا المكان نظير تبدو فيه هذه الحقيقة صارخة ومستهترة في آن.

كتب دوريل يقول "بلد كهذا حافل بالعاهات والتشوهات والرمد والأورام والأعضاء المبتورة والقمل والذباب. في الشوارع ترى الجياد وقد شطرت نصفين وقد أهملها سائقوها، أو تجد رجالا ذوي سحنات منكرة سوداء يعف الذباب عليهم وهم يعرضون عاهاتهم على الناظرين ... المرء لا يكتب شيئا

سوى أسطر قصيرة متناثرة وهو يأوي إلى جوار هذا النيل الفاسد البطيء الجريان، بينما يشعر المرء أنه يتعثر في خطاه وكأنما تدوسه أقدام الأفيال ..."

الانطباعات الأولى عن مصر بالنسبة إلى أوليفيا مانـنج كانت بدورها كالكابوس "أعتقد أن هذه المجافاة للحقيقة تتصل بأكثر من سبب بالضوء في مصر ... إنه ساطع أكثر من اللازم وهو يؤدي لتسطيح كل شيء، بل يسحب اللون من كل كائن يحيل الأشياء إلى ما يشبه الرماد، لقد صدمنا إزاء صيف الدلتا الذي لا لون له، إن بؤس مدن الدلتا شكل لنا صدمة مريعة - ليس البؤس فقط ولكن رضى الناس بهذا البؤس. مضت أسابيع عشنا إبانها في حالة من الارتداد إلى الوراء".

في المقالة ذاتها كتت أوليفيا مانـنج تقول "لم نفترض لحظة واحدة أننا سنبقى هناك، شعرنا أن المدينة مكتظة وفارغة في آن، وكأنها مفتوحة للاستخدام المؤقت مثل محطة سكة حديد سواء بسواء. ولكن أيا كان عمق الأزمة فإن الحرب منتهية بلا ريب وتوقع كل امرء أن يعود إلى دياره ويستأنف حياته العادية عاجلا أو آجلا". وبهذا المعنى كانت رؤية القاهرة بوصفها ملجأ مؤقتا أمرا معتادا، ولكن المدينة بدت أشد جهامة في عيون هؤلاء اللاجئين الذين فقدوا أعمالهم وضاعت جذورهم وذلك على خلاف العسكريين الذين كان لديهم سبب وجيه للبقاء فيها.

النساء العاملات في السلك العسكري كن في ذلك الوقت أمرا جديدا للغاية، في عصر يوم من أيام مارس ١٩٤١ وقف عند حوض في ميناء السويس إثنان من شباب ضباط كتيبة الهوسار السابعة كانا قد أعيدا من الجبهة لمراجعة من يحل محلهم، كانت القناة مغلقة مؤقتا بفعل الألغام التي ألقتها طائرة إيطالية وكل ما كان يمكن رؤيته من البحر الأحمر كان الظلام الذي أسدل ستوره بينما يحوي أشباح نحو مائتي سفينة تنتظر التفريغ، وفي مجمع خلف هذين الضابطين وقفت مجموعة من عربات التسليم من ماركة دودج وقد

حولت إلى عربات إسعاف، هذه المركبات اشتراها المتطوعون في أمريكا وكل منها كانت تعلوها لافتة صغيرة تحمل اسم النادي أو المحل التجاري الذي جمع لشرائها الأموال وقصد بها أن تشكل وحدة طبية بريطانية كبيرة هي القافلة رقم ١١ التابعة لفيلق النقل الميكانيكي، وعندما بدأ سائقوها يتحركون على أقدامهم، فغر الضابطان فمهما في دهشة ثم انخرطا في نوبات من الضحك بغير انقطاع: كانت هذه هي المرة الأولى التي يريان فيها نساء في بدلات الخاكي العسكرية.

قال الثاني في الرتبة: "تأتي الفتيات حتى ولو كن يرتدين البنطلونات فعليك أن تتصورهن يرتدين الجونلات". مع ذلك فلم يكن الأمر يحتاج إلى تذكير النساء الستين التابعات للقافلة رقم ١١ بنوع جنسهن، إذ كان ذلك قد شكل صدمة مريعة لآمر معسكر الحلمية الذي التقاهن وقد بلغ منهن الجوع والتعب مبلغه، ولكن تعين عليهن الإصغاء إلى محاضرة عن أهمية اتباع جادة السلوك القويم في منطقة مغلقة محصورة تحفل بدورها بآلاف من الرجال.

للوهلة الأولى قرر آمر المعسكر أن وجودهن مادة شديدة الالتهاب تستدعي توجيه إنذار للرجال ومن ثم أمر بنقلهن إلى فندق في مصر الجديدة. وإذ تهالكن على الفراش تم إيقاظهن بعد ساعتين ليس إلا بتعليمات أن استقبال قطار الجرحى في منتصف الليل القادم من الصحراء الغربية .لقد بدأن العمل على الفور.

هكذا ظل سائقو (سائقات) سيارات الإسعاف الجديدة يؤدين واجبهن لمدة أربع وعشرين ساعة في اليوم ولخمسة أيام متوالية، وبعدها اليوم السادس إجازة. وفور الانتهاء من المهمة، بدأت صيانة العربات خارج مبنى المقصف الكبير الذي لم يكن يشمل أي غرفة برغم حجمه وعندما لم تكن النساء مكلفات بالعمل سواء في قيادة السيارات أو تحميل أو إنزال الجرحى ونقلهم من مكان إلى آخر، كن يعملن أيضا على متن السيارات أو يختطفن كوبا من الشاي أو شيئا يتبلغن به من طعام.

وبرغم ما أكدته الجرائد من رباطة جأشهن وشعورهن الوطني، إلا أن معظم عضوات القافلة رقم ١١ انضممن إلى هذا الفيلق لسبب أو سببين: من أجل الاجتماع إلى زوج أو خليل مكلف بالعمل في أفريقيا، أو مجرد الهرب من زوج أو خليل في الوطن. من الفئة الأخيرة كانت أنيتا رودزيانكو واسمها الأصلي ليزلي: وهي ابنة أخت ونستون تشرشل وكانت كاتبة شقية بزواجها من فارس روسي هو بول رودزيانكو. وتصف مذكراتها بصورة حيوية الأيام المضنية الخمسة من العمل بغير توقف، ولكن اليوم السادس للعطلة لم يكن يضيع قط في أخذ قسط من النوم. فأي فرد في إجازة كان يقف على الطريق ليطلب من أي سيارة عسكرية مارة نقله إلى مشواره، ومن ثم الذهاب مباشرة فإلى الكوافير، والمحطة الثانية كانت عادة هي نادي الجزيرة برغم أن أنيتا رودزيانكو كان لها أيضا صديق يعيش على مقربة من معسكر الحلمية وهو عزيز المصري، كانا قد التقيا عندما كان عزيز المصري معلم فاروق في انجلترا، ولكن زياراتها إلى دارته المريحة الظليلة المحاطة بالأشجار وصلت إلى نهاية مباغتة بسبب محاولات عزيز المصري الهرب إلى العراق.

كانت مراندا لامبسون التي تعرفها عائلتها وأصدقاؤها باسم بيتي، واحدة من أشنع رفيقات أنيتا. إذ انضمت إلى القافلة رقم ١١ في ذلك الصيف قادمة من كينيا، وكانت بيتي هذه شقراء تكاد تصل في طولها إلى طول عمها السفير وكان لامبسون ذاته قد أرسلها إلى انجلترا وقت اندلاع الحرب ولعله تنفس وقتها الصعداء برغم أنه كان شغوفا بها، ولكن بسبب سلوكها الأرعن مما كان مصدر توتر للسفير، لكن ها هي ذي وقد عادت ترتدي اليونيفورم العسكري، وإن كانت قد أقسمت أنها سوف تتعقل في تصرفاتها، ولكن المتاعب والمشاكل كانت من بين خصائصها الطبيعية. كانت تعشق الحفلات، وما من شيء يمكن أن يوقفها عن ارتيادها حتى في تلك الليالي التي كان من المفترض أن تكون في نوبة سهر. لم تكن لتتردد لحظة في الزحف تحت الأسلاك الشائكة المحيطة

بالمعسكر مرتدية ثوب السهرة من اللاميه الفضي لكي تلتقي بمعجبيها المنتظرين بقلوب واجفة تنبض على الجانب الآخر من الطريق.

"سائق" الإسعاف بيتي لامبسون كم عانت تحت وطأة الانضباط العسكري الصارم الذي فرضته ماري نيوول التي كانت تحكم القافلة بوصفها آمرة لها بقبضة من حديد. مسز كييث نيوول كانت امرأة خارقة، كان قوامها الممشوق يزيده جمالا زيها العسكري الأنيق حيث كانت تضع شارة وحدتها على ذراعها فيما زينت كتفيها بعلامة وردة ذهبية. حول رقبتها يلتف وشاح من الشيفون (حثت جميع عضوات القافلة رقم ١١ على ارتدائه) في مقابل شعر ابيضت خصلاته قبل الأوان وكانت تلف حول وسطها حزام سام براون يضوي من شدة اللمعان فيما كانت تحمل مسدس والدها مما خلع عليها اسم ماري نيوول "بتاعة المسدس". بحلول ٣١ يوليه كانت بيتي لامبسون قد وضعت أصابعها في الشق منها فاستقالت، وساعتها اهتاجت مسز نيوول غضبا وقالت إنها إذا لم تعد للعمل فورا فسوف يتم ترحيلها، وما كان من سير مايلز إلا أن دعا قريبته بيتي إلى العشاء محاولا إقناعها للعودة إلى مسز نيوول رغم ما راوده من شكوك في إمكانية هذه العودة من جانب قريبته التي وصفها بأنها "لا ترعوي ولا يمكن السيطرة عليها".

لم تعد بيتي لامبسون إلى مسز نيوول وبرغم تهديدات الأخيرة بقيت بيتي في القاهرة كسائق وكان طولها الفارع مقترنا بحقيقة أنها كانت تظهر دائما وهي تقود سيارات الجنرالات الأمريكان يبرر ما خلع عليها من أوصاف بأنها أصبحت "حارس الإنقاذ".

سير مايلز كان معجبا بمسز نيوول التي وصفها بأنها امرأة حازمة برغم سمعتها بوصفها امرأة خطرة الجمال. بالنسبة لذوقه كان جمالها من النوع الصعب، ولكن بالنسبة لآخرين كان سحرها لا يقاوم، وهذا ما سوف تكتشفه القاهرة وقت الفضيحة التي هزت قوائم مكتب وزير الدولة في العام التالي.

زمن الأفكار

جاء رحيل ويفيل إيذانا بنهاية المرحلة الأولى من الحرب التي تعين فيها على بريطانيا أن تواجه عدوا شديد المراس بالحد الأدنى من الموارد. كان زمن طرح الأفكار قد شجع على تشكيل قوات صغيرة شديدة التخصص تتجاوز الأفرع الخدمات العسكرية ودوائر المخابرات التي كانت قائمة بالفعل. ربما كان لكل من ويفيل وتشرشل وجهات نظر شديدة الاختلاف بشأن خوض غمرات القتال، لكن كلا الرجلين كان على استعداد للإصغاء لأي طريقة جديدة ومبتكرة في التعامل مع العدو.

النواتج الغريبة التي نجمت عن "الجيوش الخاصة" التي ازدهرت خلال حرب الصحراء كان أكثرها فاعلية يحمل اسم فريق الصحراء الميداني. بدأت قصته بالصدام الذي وقع بين سفينتين في البحر الأبيض المتوسط في أكتوبر عام ١٩٣٩ وقد لحق بإحدى السفينتين دمار بالغ لدرجة أنهم اضطروا لسحبها لإصلاحها في بورسعيد. الميجور رالف باجنولد الذي كان مسافرا على متنها كان في طريقه إلى شرق أفريقيا لتولي وظيفة روتينية تصور أن بوسعه أن يستفيد ببضعة أيام من التأخير لكي يزور أصدقاء له في القاهرة.

طيلة سنوات عشر فاصلة بين الحربين كان باجنولد هو قائد فصيل صغير من الأفراد المتحمسين الذين كانوا يقومون برحلات استطلاعية في صحراء ليبيا، ويشقون طريقهم بدفع عشرين جنيه استرليني لكل ألف ميل. وفي سياق هذه الرحلات أتقن باجنولد استخدام البوصلة الشمسية وأمكنه تطوير حصائر وسلالم خاصة لانتشال السيارات الغارزة في رمال الصحراء، وأصبح على

مستوى من اتقان أساليب القيادة والملاحة في الصحراء لدرجة أنه بدأ يدبر أمر اختراق بحر الرمال العظيم وهو سلسلة شاسعة من الكثبان الدقيقة الرمال الذي لم يكن بالوسع حتى ذلك الحين عبوره إلا على سنام الإبل.

سمع ويفيل بوصوله إلى القاهرة فاستدعاه إلى مكتبه وكان ويفيل في غاية الاهتمام بفكرة باجنولد التي تقول بإحياء دوريات السيارات الخفيفة التي كانت تعمل في الحرب العالمية الأولى، بمعنى إنشاء قوة كر وفر (موسكيتو) تشن الغارات على العدو ثم تختفي في الصحراء فور إتمام مهمتها، ولقد كان الميجور منذ زمن طويل واحدا من أفراد أركان حرب ويفيل.

رغم الحماس المبدئي لويفيل شعر باجنولد بخيبة الأمل لأن الاقتراح الذي وضعه على الورق جرى خنقه بواسطة بيروقراطية متهالكة وكان أن رتب الأمر لكي يوضع الاقتراح الثاني مباشرة على مكتب ويفيل بعد أيام قلائل من غزو إيطاليا لمصر، فأدى الأمر إلى استدعائه لمقابلة ثانية مع القائد الأعلى حيث قال ويفيل أن ليس ثمة حاجة لدوريات في الصحراء الكبرى لأن مصر أكثر تعرضا للهجمات البحرية في البحر الأحمر إلا أن باجنولد تساءل قائلا: فماذا عن القرصنة في أعالي الصحراء؟

كان يفكر في "الكفرة"، وهي واحة في ليبيا تقع على مسافة ٧٠٠ ميل تقريبا شرقي وادي حلفا، وكان الإيطاليون قد أنشأوا حامية هناك قبل عشر سنوات مما أعطى العدو قاعدة مثالية لممارسة قرصنة الصحراء. من الكفرة كان يمكنهم الوصول إلى وادي حلفا على الحدود المصرية - السودانية، وإن هي إلا أيام قلائل حتى يمكن بغير سابق إنذار مهاجمة الترسانة البحرية وورش السكك الحديدية في مصر ذاتها.

وطبقا لما قاله الميجور باجنولد، فإن استخدامه لفظ "قرصنة" أدى المهمة تمام الأداء إذ قال ويفيل: أريدك أن تكون مستعدا في ستة أسابيع وبعد ذلك دق جرسا بجانبه ولدهشة باجنولد لم يكن الرجل الذي لبى الجرس سكرتيرا، ولكن

ضابط برتبة جنرال بادره القائد الأعلى قائلا'' :باجنولد بحاجة إلى تعويذة" وعليه أعطوا الميجور المذكرة التالية:

''إلى جميع رؤساء الإدارات والأفرع: أريد أن تقدم على الفور أي احتياجات يطلبها الميجور باجنولد شخصيا وبغير أسئلة. توقيع، أ. ب. ويفيل''.

بدأ تجنيد عدد من هؤلاء الذين كانوا قد شاركوا في حملات ما قبل الحرب مثل ب. كلايتون الذي كان يعمل في مصلحة المساحة بمصر وبرندرجاست، وكيندي شو، وبالإضافة إليهم كان لدى الميجور باجنولد فكرة واضحة عن نوعية الرجال الذين سيحتاجهم لوحدته الجديدة وقد طلب من قيادة نيوزيلندا بالشرق الأوسط تزويده بهم. والسبب في اختيار أفراد من نيوزيلندا يتمثّل في أنهم جاءوا من ثقافة الريف لا من بيئة الصناعة ويتسمون بخشونة وحدَة في الطبع واعتماد على الذات. كانوا قد دربوا بوصفهم فلاحين وسائقي سيارات يعكفون على صيانة دقيقة للأجهزة وذلك على خلاف الجندي البريطاني العادي الذي كان في رأي الميجور باجنولد يتخذ موقف الفارس المترفع تجاه ممتلكات الحكومة.

تألفت نقلياتهم من ٣٠ شاحنة فورد ومجموعة مختلفة من السيارات التي أخذت من منظمات صديقة شتى إذ لم يكن لدى الجيش أي مركبات مناسبة. وبدأ العمل لتعديل هذه العربات حتى تصبح ملائمة للعمل في الصحراء وهو ما أعطي أولوية عليا، وبحلول منتصف أغسطس أصبح فريق الصحراء جاهزا للعمل. ومنذ ذلك الحين فصاعدا بدأت دوريات مكونة من خمس شاحنات تحمل كل منها خمسة أفراد في حملات استطلاعية منتظمة داخل الصحراء وكان الهدف عادة هو الاستطلاع والمسح الاستقصائي. وفي ضوء الصعوبات الجغرافية والميكانيكية كان من المدهش أن تتم هذه المهمات بصورة منتظمة، ولقد تعلم النيوزيلنديون هذا التخصص الصحراوي بسرعة مرموقة وأثبتوا أن لديهم القوة الكامنة التي تتيح لهم العيش في الصحراء.

وما أن اشتد ساعد فريق الصحراء الخاص حتى اتصل الميجور باجنولد بكولونيل دورنانو قائد الفرنسيين الأحرار في فورت لامي (تشاد) واقترح عليه أن يشاركه الهجوم على مرزوق عاصمة فزان في غربي ليبيا، إذ بالإمكان إلحاق ضرر لا يستهان به بالحامية الإيطالية ومطارها، وما كان من دورنانو إلا أن قبل العرض بلهفة بعد أن كان قد أعلن سائر إقليم تشاد جزءا من فرنسا الحرة في شهر أغسطس. شنت الغارة على مرزوق في أوائل يناير وأصبح المطار وحظائر الطائرات فريسة للنيران وتم تفجير مستودعات البترول والذخيرة ولكن دورنانو نفسه ومعه ضابط من فريق الصحراء الجديد لقيا حتفهما في الهجوم.

المهمة الثانية التي قام بها باجنولد مع الفرنسيين الأحرار كانت أشد طموحا، ألا وهي الاستيلاء على الكفرة، ولسوف يتولى قيادتها واحد من ألمع قادة الفرنسيين الأحرار هو الجنرال ليكريك، وقد بدأت دورية استطلاع تابعة لفريق الصحراء على طريق الكفرة يوم ٢٦ يناير ولكن لأن الأمن كان يشوبه الإهمال بل إن معسكر الفرنسيين ظل تتردد فيه أنخاب الشراب طيلة أسابيع سبقت في صحة "الطريق إلى الكفرة" كانت النتيجة هي أن القوم كانوا مستعدين لاستقبال المهاجمين.

خسر الفريق نصف عرباته في القتال الذي دار قبل الكفرة بنحو ٧٠ ميلا ووقع كلايتون في الأسر، بينما اختار أربعة من أفراد فريق الصحراء – افترض زملاؤهم أنهم أسروا – إما الاستسلام بأن يسيروا شمالا إلى الكفرة أو أن يتجهوا جنوبا، وفي هذا الاتجاه لم يروا شيئا سوى الصحراء تمتد مئات الأميال دون آبار أو واحات، ولم تكد تراودهم سوى أقل فرصة أن هناك من سيتولى إنقاذهم. هذا المصير شعروا أنه أفضل من معسكر أسرى يقوم عليه الإيطاليون رغم حقيقة أنه لم يكن لديهم طعام، وكل المياه التي كانت بحوزتهم كانت عبارة عن جالونين إلا ربعا.

بعد تسعة أيام عثرت دورية من مجموعة الصحراء كانت تتجه نحو الكفرة على أول الناجين، وبدأ البحث عن رفاقه في أول ضوء في اليوم التالي حيث وجدوا الرجل الآخر على مسافة ٥٥ ميلا، وبرغم أنه كان فيَ وعيه إلا أنه مات في ذلك المساء. وعلى بعد ٦٥ ميلا أخرى عثروا عَلى ناج آخر وقد استبد به الانهاك والهذيان، أما الأخير وهو المظلي مور فكان لا يزال سائرا في طريقه عندما عثروا عليه وقد أفعمته الثقة أن بوسعه أن يصل إلى أقرب مصدر للمياه على بعد ثمانين ميلا، ومن ثم شعر بضيق طفيف إذ حرم من فرصة إثبات ما كان يتصوره.

حكايات مثل حكاية المظلي موز كانت كفيلة بأن تضفي على فريق أو مجموعة الصحراء ما يكاد يشبه هالة من الأساطير وسط ميثولوجيا حرب الصحراء. كتبت مقالات عنهم تحمل عناوين من قبيل "مغيرو الصحراء يقومون بدورهم"، ومن قبيل "قاطعو الطريق في الصحراء الكبرى" وكانت تظهر في المجلات عندما يبدو الأمر بحاجة إلى دفعة جديدة في الروح المعنوية. وذهب سيسيل بيتون لالتقاط صور لهم في قاعدتهم في سيوة عام ١٩٤٢. وكتب يقول "هؤلاء ضباط جادون يتمتعون بحس انتقادي ولا ينغمسون في المباهاة الصبيانية ولا في الضحك بدون سبب أو إطلاق النكات الساذجة التي نسمعها تتردد في كثير من مقاصف الجنود.... ".

على أن ضباط المجموعة الخاصة كانوا ينتقدون بيتون بالتأكيد والضابط المصاحب له الذي أشار إليه كيندي شو في مذكراته بأنه "مراسل الحرب الرسمي وصديقه الأثير، إن أي حساب مبدئي يبين أنهم أنفقوا نحو خمسين جنيها استرلينيا على البنزين وحده لكي يأتي السيد مراسل الحرب الرسمي وقرة عينه الصديق لزيارتنا، ولم نسعد كثيرا بهذه الزيارة".

ولأن أعضاء هذه المجموعة كانوا يشاركون أساسا في جمع المعلومات الخاصة عن طريق الملاحظة والرصد والاستطلاع، فلم يسعدهم كثيرا اهتمام مراسلي الحرب الذين كانوا أحيانا يسربون معلومات لها قيمتها عن قواعدهم

العسكرية، لكن برغم أن الصحفيين كانوا يلقون مثل هذه الخشونة في المعاملة إلا أنهم كانوا أكثر من مستعدين للتعاون مع غيرهم من العناصر غير النظامية العاملة خلف خطوط العدو، ومن بين الذين عملوا على استخدام المجموعة الخاصة بوصفها خدمة تاكسي شديدة التخصص، رجل اسمه فلاديمير بنياكوف: بلجيكي في متوسط العمر كان يعمل في صناعة السكر واستقر في مصر وكان يتمتع بحمية هائلة ونشاط بغير حدود. استطاع بنياكوف في فترة ما بين الحربين أن يسافر إلى دواخل الصحراء سواء مع باجنولد نفسه أو على حسابه الخاص لكن ها هو ذا وقد انتقى مجموعة من اختياره الخاص من الجنود العرب والبريطانيين التي كانت تعرف في نهاية المطاف باسم جيش بوبسكي الخاص لكي يعمل هناك لعدة أشهر، وبمساعدة من مجموعة الصحراء الخاصة استطاع هو و "جيشه" إطلاق سراح أسرى الحرب وشن ما وقع في طريقه من عمليات التخريب، استطاعوا كذلك إقامة شبكة مهمة للمخابرات قوامها رجال القبائل في الصحراء الذين إذا ما ضبطهم الإيطاليون سوف يعاملون لا كأسرى حرب ولكن كخونة متعاونين، وكان هذا يعني رشق خطاف حديدي في أشداقهم.

وإذا كانت مجموعة الصحراء الخاصة وجيش بوبسكي الخاص قد تشكلا من عاشقي الصحراء ومن أجل استخدام محدد للصحراء ذاته إلا أن جيش ديفيد سترلينج وهو أشهر "جيش خاص" في حرب الصحراء نبت من فكرة كانت قد تطورت أصلا في انجلترا: فكرة الكوماندوز. انطلق سترلينج في رحلته إلى مصر في أكتوبر سنة ١٩٤٠ بوصفه فردا ضمن قوة الكوماندوز القوية البالغ عددها ٢٠٠٠ فرد والمعروفة باسم "لاي فورس"، وكانت بقيادة الكولونيل روبرت لاي كوك. وكان من بين الملازمين الشباب الذين تدرب معهم راندولف تشرشل وإدوارد فيتس كلارينس (إير مونستر السادس فيما بعد) وإيفيلين ووه (الكاتب الروائي) وقد أمضوا جانبا كبيرا من الرحلة الطويلة يزاولون طائفة مختلفة من الألعاب بغير انقطاع. إيفيلين ووه الذي كان قد تلقى

تدريب الصاعقة مع سترلينج وراندولف تشرشل في سكوتلندا وصف سترلينج بأنه "جنتلمان شغوف جدا بمباهج الحظ وقد استطاع أن يلعب بمهارة وشرف وها نحن نلعب سباق دمى السيارات على مدى ساعات الليل والنهار". وكلما استطالت الرحلة الطويلة زادت المراهنات وخسر تشرشل ٤٠٠ جنيه في ليلة واحدة وعندما وصلوا إلى مصر كان قد خسر ٨٠٠ جنيه، وفي عالم السفينة المغلق كان الرجال يسعدون بهذه الأنباء بقدر من بهجة التشفي، ذلك أن أجر الجندي النفر كان ١٤ جنيهاً في الأسبوع.

هؤلاء الضباط الصغار كانوا عَلَما على طبقتهم وتعليمهم إذ لم يكن لديهم إيمان عميق بالجندي المحترف القديم، كانوا يرونه نتاجا لنظام أعمى مسؤول عما شهدته الحرب العالمية الأولى من مذابح. ومن ناحية أخرى فبرغم أنهم مستجدون على العمل كانوا ينظرون إلى أنفسهم بوصفهم الدم الجديد والنشيط في شرايين الجيش، ولقد نما بينهم تباغض شديد مع ضباط البحرية وخاصة عندما كانوا يشيرون إلى قبطان السفينة بقولهم "المتعوس العجوز على سطح المركب".

قوة الكوماندوز الصاعقة هذه وصلت مصر في أوائل عام ١٩٤١ وكان أول واجباتها هو الاستيلاء على رودس بما من شأنه الحيلولة بين الألمان وبين بناء قاعدة جوية في الجزيرة. وكان هؤلاء الكوماندوز عبارة عن مظليين للاصطدام بالهدف مدربين لكي يتحلقوا بجموعهم فوق منطقة الهدف ويؤدوا عملهم هذا بسرعة مرعبة حتى قبل أن يعرف العدو ما الذي ألم به. لكن نقطة الضعف في تصميم عملياتهم تمثلت في أن كان عليهم الاعتماد على طرف آخر لكي يوصلهم إلى هدفهم وفي هذه الحالة كان الطرف هو الأسطول. وفي غضون شهر واحد من وصولهم كان الأسطول مشغولا تماما بنقل الأفراد والمعدات إلى اليونان، ومن ثم تأجلت عملية الصاعقة ومع أواخر أبريل كان روميل قد تقدم صوب الحدود المصرية. لم يكن أمامهم شيء محدد يفعله ولذلك ناضلت فرقة الصاعقة للحفاظ على هويتها في مواجهة اتجاه محتوم لتوزيعها

على الوحدات الأخرى وما لبث غرورها أن انحدر تدريجيا إلى شعور بالسأم والإحباط وحتى سلسلة الهجمات التي خططها الكولونيل لاي كوك لمضايقة العدو والتحرش به لم تعمل على رفع روحهم المعنوية. لا غرو أن أعطوا هذه العمليات أسماء كودية مستقاة من عناوين هزليات انجليزية ناجحة من أمثال روكري ونوك وكوكو.

وكان الضغط الشديد الذي رزحت تحته جميع الموارد العسكرية والبحرية يعني أن البرنامج اقتضى إعادة نظر لتقليصه بصورة جذرية. من هنا تم إلغاء ثلاث من عمليات الفريق في اللحظة الأخيرة مما كان مدعاة لخيبة أمل بالغة لرجاله، ومن المهمات القليلة التي حققت بالفعل هدفها مهمة الهجوم على بردية. فتحت جنح الظلام تسللت القوة المغيرة في صمت إلى الميناء وهي كاملة الاستعداد لكي تهيئ للحامية الإيطالية القوية البالغة ألفي رجل مفاجأة غير سارة، لكن الذي باغتها أكثر أن وجدت أن الإيطاليين كانوا قد هجروا المدينة أصلا!!

هذه الإحباطات والمفاجآت غير السعيدة كانت تصيب الرجال بخيبة أمل مريرة وهم الذين تطوعوا لأداء مهام خطرة وخاصة وكانوا يتوقعون أن ينغمسوا في غمار النشاط المحموم في غضون أسابيع قلائل من وصولهم. وكان الرجال يقيمون في معسكرات خيام كئيبة دون أن يشغلهم شيء برغم أن الضباط الشباب كان بوسعهم قتل الضجر الذي يساورهم بارتياد النوادي والمطاعم وحفلات العشاء في القاهرة والاسكندرية.

راندولف تشرشل لم يكن يضيع أي فرصة لانتقاد الآلة العسكرية المترهلة التي رآها مسؤولة عن احتجاز مثل هؤلاء الشباب الأشداء المتحمسين عن العمل. ومع ذلك فلم يكن يتورع هو نفسه عن الاستمتاع بالقاهرة حتى الثمالة. ولم يكد هو وغيره من شباب ضباط الفرقة الخاصة قد أمضوا فترة في القاهرة حتى تم تقديمهم إلى مومو ماريوت ابنة المالي الأمريكي أوتو كاهن. إن جوليان آمري الذي كان قد وصل إلى القاهرة في ذلك الصيف وأصبح صديقا

مقربا منها كتب يقول "نظام حياتها ظل دون تغيير سواء كانت تعيش في لندن أو نيويورك أو باريس أو قاهرة زمن الحرب، لم تكن تنهض من نومها قبل الغذاء، تمضي ساعة ونصفا تقرأ في الحمام، قبل العشاء تقيم مآدب غذاء وعشاء في كل يوم تقريبا، وتستقبل سيلا لا ينتهي من الزوار في فترة الليل وحتى ساعة متأخرة منه، لهذا كانت معلوماتها من أهم ما يمكن وبصورة استثنائية".

مومو كانت بالضبط هذه النوعية من النساء المثيرات والمنمقات التي يحبها راندولف، وبرغم أنها كانت تنكر الأمر فقد كان مجتمع القاهرة يتصور أنهما عاشقان. ولكن أيا كانت علاقة راندولف مع السيدة ماريوت إلا أن ذلك لم يحل بينه وبين الاستمتاع برفقة أفواج متوالية ومتغيرة من حسناوات البحر المتوسط اللاتي كن يجلسن في مجموعات حول موائد الشاي في شبرد والكونتننتال بانتظار من يدعوهن لقضاء الأمسيات. كثيرا ما كانوا يشاهدونه في كازينو بديعة أو ملهى الكيت كات وحتى في كلوب محمد علي مما كان يرفع أكثر من حاجب بالاستغراب. في إحدى المناسبات جلس إلى صديقتين له في البهو الذي كان يقتصر غشيانه فقط على السادة من الرجال إذ كان يفترض أن تتجه السيدات مباشرة إلى الطابق الأعلى. وعندما طلب إليه التحرك استبد به هيجان الغضب لدرجة تسامعت بها أرجاء المبنى، وكانت النتيجة أن اضطر الكلوب إلى إدخال قاعدة جديدة تفرض على الأعضاء تدوين أسماء ضيفاتهم حتى يتسنى حجز السيدات غير المرغوب بهن. مع ذلك فلم تستطع كل مباهج القاهرة أن تخفف من إحباطه، وبعد الهزيمة في اليونان في أواخر أبريل، ازدادت اشتعالا نوبات الغضب في نفس راندولف إزاء ما كان يراه بين الرتب الكبيرة من غباء وافتقار للكفاءة وخاصة بعد عشاء أقيم يوم ٥ مايو بالسفارة البريطانية عندما شغل الليلة بأكملها في مسلسل مستمر يهاجم فيه الجيش هجوما صاعقا.

إيفيلين ووه عين ضابط مخابرات في شهر أبريل وأمضى معظم وقته في المعسكر في سيدي بشر ونمت له لحية غير مشذبة سرعان ما حلقها عندما سمع أن الرجال يطلقون عليه وصف "القزم ذو اللحية الحمراء" ولكنه أبقى على شاربه الذي ظل رمزا لجديته وشهامته التي كان يبديها في اضطلاعه بواجباته. وعندما ذهب في أواخر أبريل لكي يبوح باعتراف عيد الفصح الديني ما كان منه إلا أن قبض على القسيس لأنه طرح أسئلة ذات أهمية عسكرية. ووقعت حادثة مماثلة مع جي جروش باك في رواية ووه بعنوان "الضابط والجنتلمان": "فجأة صار الشك في نفس جي، كانت أطرافه ترتعش، لم يعد الكاهن ملتزما فقط بطقوس الاعتراف. كان الحاجز قائما بينهما وظل جي راكعا ولكن المهمة بينهما انتهت، ها هما رجل ورجل آخر متواجدان في بلد يعيش حالة حرب".

كان ووه رجلا حاذقا مخلصا ومن ثم كان يزدري رجالا من أمثال إدوارد فيتز كلارينس الذي عندما تدرب في سكتلندا نمت بين جوانحه شهوة تدفعه لاصطياد الألمان مثل الفئران ولكنه لم يكن يضيع وقتا لكي يحصل لنفسه على وظيفة في هيئة الأركان فور أن وطئت قدمه أرض مصر. إن ووه يورد قولة لصاحبه هذا في مذكراته: لعلك تعلم يا صاحبي أنني لا أحب فكرة "الإخلاص لإنجلترا إلى الأبد".

صحيح أن ووه كان يعلم أن الدنيا فيها الضعف والخوف والخيبة ولكن بوجه الموت والكارثة كان يعتقد أن روح الجيش البريطاني يمكن أن تحول الرجال إلى أبطال. لكن لحظة كشف المستور جاءت في الشهر التالي عندما قيض له يوم ٢٠ مايو وسط الكتيبة "ألف" من المجموعة الخاصة الصعود على متن سفينة متجهة إلى كريت. لحظة مغادرة الاسكندرية تصوروا أنهم جزء من تعزيزات هائلة تقصد إلى دفع الألمان إلى الوراء، ولكن ما أن نزلوا إلى الجزيرة حتى بدأت الحقيقة تراودهم وهي أن لاي فورس لم تكن تعزيزا بل

كانت مجرد قوة خلفية تعيسة يقصد بها حماية جيش ممزق في حال إخلائه مواقعه.

لم يكن ثمة خطة للزحف وانطوى الأمر على جماعات مرهقة من الرجال الذي جروا أقدامهم صعودا في الجبال إلى الجزء الجنوبي من الجزيرة وميناء صفاقيا. التشكيلات العسكرية لم يعد لها وجود ونفدت مؤنة الغذاء والمياه، ومرة أخرى في رواية "الضابط والجنتلمان"، يرى البطل جي مزيدا من أمثلة النذالة والجبن أكثر من نماذج الفروسية وخاصة عندما تجلت في حقيقة السقوط المعنوي للميجور هاوند. وبعد نقل ووه عائدا إلى مصر لم يكن ليخفي حقيقة مشاعره تلك، بل سجلها صديقه وكاتب سيرته في المستقبل كريستوفر سايكس الذي كان يعمل وقتها في قسم الدعاية بمكتب العمليات الخاصة في القاهرة. وفي عام ١٩٣٦ كان سايكس قد تزوج كاميلا، الابنة الوحيدة لرسل باشا، وأصبح جزءا من هذه الشلة من صغار الضباط المتحمسين التي كانت تزدان بها حفلات مومو ماريوت.

"(ووه) أعلن أن كريت استسلمت دون ضرورة؛ كأنما ران على أفئدة الضباط والأفراد سلوك الهزيمة كالتنويم المغنطيسي من خلال القصف الذي لم ينقطع والذي كان بحاجة إلى قليل من شجاعة للتصدي أمامه. كذلك تضاءلت روح القتال بين البريطانيين ولم يعد لدينا أمل في الصمود أمام الألمان، وعلى ذلك تحمل الرجل جزءا من العار العسكري وتلك حقيقة لم يكن لينساها يوما بخجل ما تبقى من أيام حياته".

عاد ووه للالتحاق بمشاة الأسطول مبحرا إلى انجلترا بعد أسابيع قليلة من عودته من كريت، وفي إطار إعادة التنظيم التي أعقبت نكسة كريت، جرى تسريح فرقة الكوماندوز رقم ٨ وتطايرت أحاديث بأن مجموعة لاي فورس سوف تلقى نفس المصير.

راندولف تشرشل لم يكن جزءا من الفصيلة التي أرسلت إلى كريت على أساس أن زملاءه شعروا أن خطر أسره كان من أكبر ما يكون. راندولف لم

يشارك هذه الخواطر، وعندما خططوا لغارة على مطار غزالة وجد راندولف أن المدينة تتباهى بمطارين لا بواحد، وكم أمضى من الوقت والجهد محاولا تنظيم طلعات جوية منفصلة لنفسه ومعه روبن كامبل من أجل تفجير المطار الآخر، ومع هذا فلم يحن الوقت لكي يثبت نفسه في الميدان وفي بدايات شهر يونيه بدأ يزاول وظيفة جديدة هي ضابط العلاقات الصحفية.

ديفيد سترلينج كان الوحيد من الثلاثة الذي ظل مقتنعا أن ثمة مجالا إذا ما زودوه بمزيد من إمكانيات الحركة وهذا هو السبب في اغتنامه الفرصة للحاق بضابط زميل يسمى جوك لويس كان قد استولى على شحنة مؤلفة من خمسين مظلة هبوط (باراشوت موجهة إلى الهند ولكن سلمت في مصر بالصدفة) بالإضافة إلى تصريح بتجريبها. كان أول هبوط بالباراشوت أجراه سترلينج من طائرة فالنسيا عتيقة في مطار بمرسى مطروح ويومها أصاب ظهره إصابة بالغة وأمضى الأسابيع القليلة التالية في سرير المستشفى العسكري الاسكتلندي بالاسكندرية حيث كتب اقتراحا حول إنشاء قوة جديدة للكوماندوز أبسط تشكيلا وأخف حركة.

كانت أفكاره متجهة نحو مئات الأميال من الطريق الذي يتلوى كالثعبان على ساحل شمال أفريقيا يحمل شريان الحياة لكلا الجيشين. وعلى مقربة من الطريق تقع المطارات والمستودعات ومخازن الذخيرة وصهاريج البترول. سلاح الطيران البريطاني كان يعرف المنطقة جيدا، إذ كان يحلق من فوقها بانتظام. واقترح سترلينج أن يقوم ستون رجلا مقسمين إلى خمس مجموعات من إثني عشر فردا تحمل كل مجموعة متفجرات ثم يتم إسقاطهم بالمظلات إلى جوار الطريق في الليلة التي تسبق هجوم الحلفاء الرئيسي، وسوف يستطيعون إلحاق قدر كبير من الدمار قبل أن يختفوا وسط الصحراء حيث يختبئون لحين يتولى تجميعهم دورية تابعة لفرقة الكوماندوز.

ولأنه لم يكن تربطه علاقات اجتماعية مع أي عنصر في القيادة العليا، فقد أصبح خياره الرئيسي هو تسليم اقتراحه عند بوابة مجمع القيادة حيث كان

يعرف تماما أن الاقتراح سينتهي في إحدى سلال المهملات قبل أن يقدر له الوصول إلى أي امرء ذي حيثية. البديل الثاني كان يقضي بمحاولة أن يضع الاقتراح في يد أصحاب الشأن بنفسه .

كان يوما يغلي من الحرارة في شهر يوليه ١٩٤١ عندما تجاوز ديفيد سترلينج حارس البوابة المنوب في مقر القيادة بالقاهرة وسار لا يلوي على شيء صوب المدخل الرئيسي ولكن كانت تتابعه أكثر من عين فاحصة يدل على ذلك الصيحات الغاضبة التي تطايرت من خلفه. دخل أول مكتب رآه لمجرد أن يتجنب متابعيه ولكن شاغل المكتب كان أبعد عن التعاطف معه وأنذره بمصير سيئ لأفكاره الحمقاء، وما كان من سترلينج إلا أن خرج بسرعة عندما استرعى رنين التليفون انتباه الضابط صاحب الغرفة الذي تلقى ولا شك نبأ مفاده أن ثمة شخصا بغير زي عسكري اقتحم البناية. كان يعرف أن أي فرد خلف الباب التالي سيكون آخر فرصة أمامه، وكان على الباب لافتة تحمل الحروف التالية ن. ر. أ. ق. ش. ط. وسرعان ما أدرك سترلينج أن الرجل الذي يطل عليه من خلف المكتب هو بعينه الجنرال نيل ريتشي الذي تدل الحروف على منصبه: نائب رئيس هيئة أركان الحرب، قوات الشرق الأوسط.

وقع ريتشي في سحر الاقتراح، وكذلك كان أوكينلك القائد الأعلى الجديد. وبعدها منح سترلينج رتبة كابتن ومعها إذن بتجنيد ستين فردا وستة ضباط من بينهم كان جوك لويس ورجل ضخم الجثة من ايرلندا الشمالية، اسمه بادي مين، كان لاعب كرة رجبي من المستوى الدولي قبل نشوب الحرب وستعرف الوحدة الجديدة باسم الفصيلة لام، التابعة للشعبة الجوية الخاصة (ساس.)

بدأت ساس بوصفها أسطورة من الأساطير العديدة التي انبثقت عن القوة ألف تحت قيادة البريجادير دادلي كلاك التي كانت مهمتها حمل العدو على أن يتصور أن البريطانيين بدورهم قادرون على شن غزوات محمولة جوا. ومن أجل الترويج لوجودها الموهوم تم تشييد هياكل طائرات ودمى مظلات أسقطت لخداع أجهزة رصد العدو ولذلك سيكون من واجبات سترلينج إعطاء مضمون

لما كان مجرد أسطورة فحسب ولكن دون أن يعمل تحت أوامر من دادلي كلارك. ومنذ البداية الأولى أصر سترلينج على أن يكون تحت القيادة المباشرة للقائد الأعلى.

لم يجد صعوبة تذكر في تدبير المجندين الذين يلتحقون بمثل هذه الشعبة المثيرة، ولكن مشكلته تلخصت في الإمدادات وإن كان القوم لم يسمحوا للمشكلة أن تعوق التدريب. وقد كان سترلينج هو الوحيد القادر على الوصول إلى طائرة يستخدمها ساعات قليلة في اليوم، وعوض عن هذا النقص بأن جعل رجاله يتدحرجون من فوق أسطح شاحنات تتحرك بسرعة ٣٠ ميلا في الساعة مما أدى إلى تمزق في العضلات وكسور بغير حصر. على أن تدريبهم هذا لم يقتصر على طرح معايير جديدة للخشونة والصلابة، ولكنه كان فعالا أيضا: زعم سترلينج أن بوسعه الوصول إلى مطار ألماظة والخروج منه دون أن يلحظه أحد، وقد تحدوه بأن يحاول ذلك في نهاية شهر أكتوبر، وكان الحراس قد أنذروا بتوقع غزو ومع ذلك استطاعت فصيلة ساس أن تدخل وتضع ملصقات على ٤٥ طائرة.

في ١٦ نوفمبر، كان الهجوم الثاني للحلفاء مقررا في مدى ٤٨ ساعة، وشنت غارتان على الألمان أولاهما على مقر قيادة روميل والثانية على مطاري غزالة والتميمي، وكانت تلك هي العملية الأولى المقرر أن تقوم بها ساس. لكن الأمر نجمت عنه كارثة بسبب اضطراب أحوال الجو وقلة الخبرة فلم يتح تدمير أي من المطارين ومن بين الرجال الإثنين والستين الذين اسقطوا بالمظلات فوق المنطقة لم يستطع سوى ٢٢ منهم الزحف عائدين إلى دورية الكوماندوز التي كانت بانتظارهم بعد يومين من ذلك التاريخ.

أدرك سترلينج أن عودته إلى القاهرة في تلك المرحلة معناها فصله من الخدمة دون سابق إنذار هو وفصيلة لام بواسطة السلطات العسكرية، فقرر البقاء في الصحراء مؤقتا. ورأى كذلك أن المظلات كانت غير موثوقة كوسيلة لتوصيل رجاله إلى أهدافهم، مع ذلك راعه كثيرا كفاءة دورية وحدة الكوماندوز

التي التقطتهم. وهنا ثار السؤال هل هم على استعداد لنقل فصيلة لام عبر الصحراء دخولا إليها وخروجا منها؟ الميجور دون ستيل قائد سرب بالفصيلة قال إنه على استعداد لنقل سترلينج إلى أي مكان يبغيه، وهنا كانت بداية مشاركة حققت أكبر قدر في مضمار النجاح، ففي نهاية تلك السنة كانت فصيلة الكوماندوز قد نقلت سترلينج ورجاله خلال أربع مهمات، وتم بذلك تدمير ٨٩ من مطارات العدو.

بعد سقوط فرنسا بدا من المحتم أن احتلال أوروبا ذاتها أمر قريب، وبدت جيوش هتلر جيوشا لا تقهر، وكانت الطريقة الوحيدة لتدميرها هو استحداث استراتيجية جديدة تماما لا تتصل من قريب أو بعيد بأساليب الحرب التقليدية.

هكذا صممت أوامر العمليات الخاصة لكي تحمل شريان الحياة إلى المقاومة الأوروبية، وفي أيامها الأولى كانت تتستر خلف عديد من الأسماء بل لم تكن موجودة من الناحية الرسمية على الإطلاق. كانت عناصر العمليات الخاصة تتحمل واجب الاتصال بحركات المقاومة في المناطق المحتلة، وتقوم بنشر الدعاية وبتقديم أجهزة اللاسلكي والأسلحة وسبل التدريب وتقيم شبكات المعلومات، ثم تشن عمليات التخريب. وشيئا فشيئا بدأت قوة أوروبا تبنى تحت الأرض بينما ركزت بريطانيا على تجميع مواردها وحماية نفسها. أما القوات الألمانية التي كانت قد بلغت أوج عنفوانها فقد أخذت تدريجيا في التآكل، وعندما بات العدو من الضعف بصورة كافية قيض لأوروبا المحتلة بأسرها أن تنهض في حال من التمرد.

كانت هذه هي الآمال اليائسة التي تساور فرع العمليات الخاصة، وكانت أيضا السبب الذي دفع القوم لأن يزودوها بكل ما تحتاجه من دفق الأموال والطاقات. وأسندت إلى هيو دالتون، وزير اقتصاد الحرب، المسؤولية عن المنظمة يوم ٢٢ يوليه ١٩٤٠ من جانب رئيس الوزراء ويومها قال تشرشل له: "والآن اشعل أوروبا حمما ".

مكاتب فرع العمليات الخاصة كانت قد أقيمت في لشبونة وبرن واسطنبول وغيرها من المدن المحايدة، وكل مكتب كان له قسمان، واحد يعالج أمور الدعاية والآخر مختص بالعمليات. وفي خريف عام ١٩٤٠ أسندت إلى جورج بولوك مهمة قسم العمليات في فرع العمليات الخاصة بالقاهرة، وقد تألف من نواة من الأفراد ومستودع للإمدادات في أحد الجراجات بالاسكندرية، وقد جمع شتاتها من مخلفات الفرع دال بوزارة الحرب، وكان مقصودا بها التخريب في منطقة البلقان (قبيل استسلام فرنسا كان واحد من آخر الزوارق التي عبرت البحر المتوسط مليئا بالمزيد من الإمدادات للمستودع المذكور) .

استخدم جورج بولوك سكرتيرة في غاية من الكفاءة، حملت بالمولد اسم هرموين للولين، وكانت قد تزوجت دانييل نوكس (إيرل رانفورلي السادس) عام ١٩٣٩، وعندما كلفت بالعمل في الشرق الأوسط جاءت للحاق به. وكان ليدي رانفورلي هذه تتحلى بصفات ممتازة في أعمال السكرتارية دون أن يتاح لها أي عمل عندما قرر الجيش إجلاء زوجات العسكريين في أغسطس ١٩٤٠، ومن ثم اضطرت إلى ركوب قطار الإجلاء المتجه إلى جنوب أفريقيا. ولم تمكث هناك طويلا إذ أبلغت السلطات أن لديها وظيفة من السرية لدرجة أن لم يسألوها عنها، وهكذا استطاعت ليدي رانفورلي العودة إلى مصر.

ربما تكون الليدي قد جندت في فرع العمليات الخاصة في جنوب أفريقيا، وربما تكون قد انضمت للمنظمة في أعقاب ظهورها من جديد في القاهرة، وأيا كان الأمر فقد تعين عليها أن تراعي مقتضيات الأمور بحيث تبقى بعيدا عن أنظار السلطات العسكرية. عادت إلى القاهرة في منتصف الليل واتجهت مباشرة إلى شقة صديقيها الكابتن باتريك وباميلا هور روثفن، وظلت طيلة الأسابيع القليلة الأولى بعيدة عن الظهور ولكن وجودها بدأ يعرف تدريجيا في أوساط القاهرة. وفي بدايات ديسمبر ١٩٤٠ اتصل الجيش مع سير مايلز لامبسون طالبا المساعدة لإخراج ليدي رانفورلي من مصر إذ أرادو منه أن يطلب إلى الحكومة المصرية ألا تعطيها تأشيرة إقامة، لكن لامبسون كان مؤيدا

لها تماما، وكتب في مذكراته يقول إنه لم يكن مستعدا أن يطلب من الحكومة المصرية أن تنوب عن الجيش في أداء تلك الأفعال الدنيئة.

من الأفراد الذين عملوا في فرع العمليات الخاصة في ذلك الوقت كان الكولونيل ثورنيل (الذي سيصبح بعد ذلك على صلة بقصة الهروب الذي لم ينجح لعزيز المصري). وظيفة ثورنيل انصبت على تنشيط الدعاية المضادة للفاشست في مصر وخاصة بين صفوف الإيطاليين، كان قد كتب دراسة تقصد إلى تحويل السجناء الإيطاليين إلى متعاطفين مع الحلفاء، وتصور أن من بين الآلاف من أسرى الحرب الذين يحتجزون في المعسكرات حول القاهرة والدلتا، ربما يكون هناك من أصبحوا بالفعل في حال من خيبة الأمل إزاء الفاشستية وربما يكون من بينهم من على استعداد بأن يصبحوا عملاء لفرع العمليات الخاصة ويعودون إلى إيطاليا للعمل على إسقاط موسوليني.

وقد أسندت عملية تجنيد وتدريب العلماء الإيطاليين إلى بعثة "ياك" وهي مجموعة من إثني عشر رجلا يقودهم بيتر فلمنج [شقيق آيان فلمنج - كاتب قصص الجاسوسية الشهير - الذي كان يعمل وقتها مساعدا شخصيا لمدير مخابرات البحرية في لندن.] الكابتن فلمنج كان قد حقق شهرة بوصفه كاتب رحلات عندما نشر كتابه "المغامرة البرازيلية". وقد اكتسب خبرة في الأعمال السرية بانجلترا حيث كان قد شكل ودرب مجموعات صغيرة "للعمل خلف الخطوط" في حالة غزو العدو. وقد انخرط مع رجال بعثة "ياك" في دورة تدريبية مكثفة على عمليات الاغتيال والمتفجرات ثم أرسل إلى مصر ومعه كميات كبيرة من أجهزة التفجير والبنادق و ٤٠ ألف جنيه استرليني من فئة الخمسة جنيهات، ولكن بعثة "ياك" كان محكوما عليها بالفشل، ففي جميع معسكرات الاحتجاز الإيطالية لم يوفقوا إلى تجنيد فرد واحد.

على أن فرع العمليات الخاصة حقق نجاحين في ربيع عام ١٩٤١. كانت اتصالات المنظمة في أثينا قد أتاحت للجنرال ويلسون الاتصال مع الحكومة اليونانية في وقت كاد يكون من المستحيل أن يتم ذلك من خلال القنوات

المعتادة للمفوضية، ثم في يوغوسلافيا أنشئت صلات جيدة مع حزب الفلاحين الصربي وعن طريقها جرى التشجيع على تدبير انقلاب للإطاحة بوصي العرش الأمير بول. مع ذلك فإن الانتقاد الذي وجه إلى المنظمة فاق بكثير المنجزات التي حققتها. وقد ظلت تعمل لما يقرب من عام وقد أعاقتها قلة الخبرة وعداوة دوائر العمل السري الأخرى واستمرار الضغط عليها لتحقيق نتائج. ولم تكن عملية بيتر فلمنج هي الأولى من عمليات المنظمة التي لا تحقق شيئا، وقد شعر عدد من أرباب دوائر الحكم في بريطانيا بذلك في ضوء العدد الكبير من الموظفين المستخدمين والمبالغ الكبيرة المنفقة من الأموال، ومن ثم لم يكن لدى هذه المنظمة الكثير لكي تستعرض به مناقبها.

ثمة سخط مماثل ساد الشعور في القاهرة إزاء المنظمة، وباستثناء حفنة من كبار الضباط لم يكن هناك في دوائر الأركان بالقاهرة من يعرف أي شيء عن فرع العمليات الخاصة بل ولا يعرف ماذا يقصد هذا الاسم على وجه التحديد، ولكن هذا الوضع لم يحل دون توجيه اتهامات حول سوء الأمن وقلة الكفاءة والتبذير في الإنفاق. والشخص الذي كان يشعر أكثر من غيره بأن هذه المنظمة بدأت تخرج عن السيطرة كان الجنرال سير آرثر سميث، رئيس أركان حرب الجنرال ويفيل، ويحتمل أن يكون تجنيد ليدي رانفورلي في هذه المنظمة بالذات قد تم بناء على طلبه إذ كان يشكو من أن مركز القيادة في القاهرة لم يكن يزود بالمعلومات فضلا عما أوضحته المنظمات السرية الأخرى من أن العمل سوف يتعرض بالحتم إلى نوع من الازدواج.

وكان هناك بالتأكيد حفنة من الرجال في مكتب القاهرة بفرع العمليات كانوا يتعاملون، فيما يبدو، بطابع الاستقراطية والاستعلاء إزاء العمل الذي يؤدون. معظمهم كانوا مستخدمين على أساس مؤقت، وكانوا يتصورون أن المتعة في أن تؤدي عملا يحوطه السرية ويكتنفه الغموض. وكانوا يتحركون هنا وهناك، يأكلون في شبرد، يضحكون ويشربون في الحفلات بصورة منفلتة وربما لم يكن تصرفهم يزيد أو يقل عن تصرفات أي شباب آخرين في المدينة،

لكن الإشاعات كانت تقول بأنهم يشكلون خطرا أمنيا لا سبيل لقبوله، وأن من العار أن يعكفوا على إزجاء فراغهم بالتسلية مستخدمين حسابات مصاريف غير محدودة بينما الرجال يحاربون ويموتون في الصحراء. في مارس ١٩٤١ كان الإيرل رانفورلي واحدا من رجال قوة الصحراء الغربية التي استنفدت كثيرا تحت قيادة أوكونور وقد وقع في الأسر. وبالنسبة لزوجته هيرمولين استبد القلق بأعصابها وكان سلوك "شلة الأنس" في مكتب العمليات الخاصة مسيئا إلى حد كبير فشعرت أن المنظمة تخرج عن نطاق السيطرة على نحو ما شعر به أيضا بيل سترلينج شقيق ديفيد سترلينج الأكبر الذي كان مشاركا في بعثة "ياك" السيئة الطالع.

في أعقاب غذاء يوم ٢٤ مارس (اليوم الذي استولى فيه روميل على أغيلا وبدأ تقدمه الصاعق غربا)، كان سير مايلز لامبسون وبيتر فلمنج وأنطوني إيدن، الذي كان في القاهرة لمعالجة الأزمة اليونانية، جالسين في شرفة السفارة البريطانية ووصلت رسالة هاتفية من ليدي رانفورلي التي طلبت رؤية وزير الخارجية وحده لمسألة مهمة تتعلق بأمر الحرب، وفي تلك الأثناء سرب بيتر فلمنج نبأ أنها تعمل لحساب نفس المنظمة السرية مثله سواء بسواء، ورأى لامبسون أن من سوء الحظ أن يشهد فلمنج فردا من تابعيه يتاح له الاجتماع الفوري إلى وزير الخارجية وقد سجل الحادثة في مذكراته فقال:

"وصلَتْ في الموعد وأصرت على أن ترى أ. أ. (أنطوني إيدن) على انفراد. وقد باحت له بإحساسها بأن هذه المنظمة السرية بأكملها لا تشهد فقط حالة من الفوضى، ولكن أي مبالغ من نقود الشعب هي عرضة للتبديد فيها. وهذا الأمر هو الذي أكد ما كان أ. أ. يشك فيه طويلا بالفعل [وقد أبلغني به بعد ذلك]".

العسكريون كان لهم بدورهم شكوكهم. في ذلك الصيف، كان الجنرال سير آرثر سميث يساوره قلق بالغ بسبب ملف كان قد تلقاه حول حالة هذه المنظمة السرية بالقاهرة، وبناء عليه استدعى سير فرانك نيلسون رئيس مكتب لندن

الذي يعمل تحت رئاسة هيو دالتون إلى مصر. وكان برفقة نيلسون مساعده بيكن سويت إسكوت الذي كتب فيما بعد كتابا حول تجاربه في المنظمة السرية وكانت مهمته في تلك الفترة تقييم المادة الواردة في الملف "التي ادعي بأنها تثبت قطعيا سوء منظمتنا وتدهور أحوالها".

لكن وجد أن القرائن أبعد ما تكون حاسمة. وشكّ في أن المسألة من تدبير ليدي رانفورلي وبيل سترلينج إذ كانت المعلومات مستقاة من ملفات المنظمة ذاتها فرع القاهرة. مع ذلك لم يكن ثمة شك في أن فرع القاهرة كان قد فقد ثقة رفاقه وبدأ تنفيذ أولى عمليات تطهيره المتوالية.

عاد جورج بلوك إلى انجلترا، وتم وضع فرعي المنظمة كليهما تحت سقف واحد في عمارة ضخمة تسمى عمارات رستم، وتحت إدارة رجل واحد هو الكولونيل كيرينس ماكسويل. عملية التطهير تركت فرع القاهرة مجردا إلى حد كبير من الأفراد مما حدى بالقيادة العامة أن تقترح دمجه مع هيئة موظفي عملياتها الخاصة. وانطوى هذا الترتيب بغير شك على مزايا، لكن فرع القاهرة سيقدر له أن يواصل تلقي توجيهاته السياسية من الوزير في لندن، بينما ستظل عملياته تحت سيطرة القادة العامين بالشرق الأوسط، ولم يكن بوسع أحد أن يتنبأ بمدى ما سيفضي إليه هذا الترتيب من متاعب يندلع لهيبها في مدى سنتين.

أفكار أخرى نبتت في تلك المرحلة المبكرة والجديدة من مراحل الحرب وتمثلت في تجربة نوعية جديدة من الدعايات المقنعة والمفصلة خصيصا على مقاس الشرق الأوسط، وهو منطقة أراد البريطانيون أن يبقوها هادئة محايدة وودية.

عندما قدمت فريا ستارك خدماتها إلى وزارة الإعلام في خريف عام ١٩٣٩ كانت في منتصف الأربعينات من عمرها وكانت قد نشرت أربعة كتب عن العالم العربي: بعثتها الأولى للدعوة إلى قضية الحلفاء كانت إلى اليمن حيث كان الشعب مستجيبا للغاية وخاصة إزاء أفلام الدعاية التي عرضتها لأن

الأفلام كانت بمثابة الفاكهة المحرمة التي اجتذبت الاهتمام باعتبار أن حكام اليمن وهم مسلمون متزمتون كانوا يرفضون أي عروض لأشكال أو صور طبيعية.

بعد شهرين في اليمن، وفترات أمضتها في عدن بوصفها مساعدة لزوجها في المستقبل ستيوارت بيروني، حصلت فريا لنفسها على مأمورية في القاهرة وضوعف مرتبها السنوي إلى ١٢٠٠ جنيه. ولدى وصولها في يونيه ١٩٤٠، كان أول ما فعلته أن وبخت الرجال الذين كانوا يعملون في مكاتب التحرير التابعة لإدارة النشر. لم ينهض أي منهم واقفا عندما دخلت الغرفة، وما كان لها أن تتسامح مع مثل هذا السلوك المعيب! كانت تسخط كذلك على راندولف تشرشل الذي أولاها ظهره عند تقديمه إليها. وفي رسالة إلى والدتها وصفته بأنه شاب عديم الشعور، وأضافت قائلة "يقولون إنه يلحق الكثير من الضرر وكأنه إثنان من الألمان في رجل واحد، وهذا الضرر ناتج عن وجوده، مجرد وجوده".

ولأن الأفلام لم تكن جديدة على مصر، ولأن أسلوب فريا كان شخصانيا إلى حد كبير، فقد تقرر أن تقيم نوعا من صالونات الحلفاء التي تضم أقرب المقربين. هكذا بدأت فريا تحتسي الشاي أربع مرات في الأسبوع مع السيدات المصريات محاولة بالكلمات والأفكار أن تحض على زيادة ضيوفها ليتجاوزا حدود الطبقة الوسطى ذات الاعتبار في البلاد، ولهذا انتقلت إلى شقة تطل على الكوبري الأعمى، فرع النيل الذي يجري عند ضفة النيل الغربية من الجزيرة، تخلد إلى شرفتها كي ترقب أبو قردان طائرا إلى الشمال في المساء وتتأمل قرص الشمس في الغروب "خلف خط رقيق من الصحراء ومجموعة من شجرات النخيل التي يغطيها كلها رماد في لون الذهب".

ولم يطل الأمر حتى جاء لرؤيتها واحد أو اثنان من شباب المصريين الذين كانوا يحملون مشاعر التعاطف مع الحلفاء موفدين من كريستوفر سكيف الممثل والشاعر، وكان مدرسا طموحا في قسم اللغة الانجليزية بالجامعة، وهذا

الطالبان شجعتهما على إحضار أصدقائهما وكانت المناقشات التي تلت تغطي كل جانب من جوانب الحرب وأحداثها وآثارها على مصر، وهذه الحركة الجديدة حملت اسم "إخوان الحرية"، وكانت رسالتها أن العرب والبريطانيين لهم قضية مشتركة: وما هو خير لطرف منهما يفترض أن يكون فيه خير للطرف الآخر.

ومع اتساع المجموعة انقسمت إلى خلايا التي انقسمت بدورها عندما أصبحت تشمل أكثر من عشرة أفراد وأصبح كريستوفر سكيف رئيسها، أما فريا فكان لها مساعدان أولهما باميلا هور روثفن (التي كانت قد آوت ليدي رانفورلي بعد عودتها سرا من جنوب أفريقيا) ولولي أبو الهدى التي كانت فتاة مصرية من أصل تركي درست في أكسفورد وعاشت مع والدتها وأختها في الشقة المجاورة لفريا. وكان من متشددي أعضاء أسرتها من أغضبهم أن يرونها وهي تعمل لحساب الانجليز، أو فلنقل تعمل شيئا على الإطلاق، وكانت المنظمة تدار من غرفة مائدة فريا، وفي كل أسبوع يوزع منشور يحوي الأنباء والمعلومات التي ستجري مناقشتها في الاجتماعات.

في الوقت نفسه كانت فريا متفانية في العمل: تسافر من قرية إلى قرية وترحل أيضا إلى المدن الكبرى وكانت أحيانا تحاضر عشر ساعات في اليوم مما كان له أثر ضاغط على صحتها خاصة وأنها كانت تعاني من انخفاض ضغط الدم.

والحاصل أنه قد نشأت خلايا جديدة في كل أنحاء مصر، وفيما بعد ادعت في كتابها "غبار في مخلب الأسد" أنه "قبل مضي سنة واحدة كنا قد انتشرنا في طول النيل وعرضه وكان تحويل جامعة الأزهر يتم من خلال تشكيل سبعين لجنة "ديمقراطيين" صغيرة في داخلها. وفي الاسكندرية، التصق بنا عشرة آلاف خلال غزو روميل في الأحياء التجارية وفي أوساط عمال ميناء وطبعوا المنشورات على حسابهم الخاص".

في خصلة البراءة المباشرة التي اتسمت بها فريا كان يكمن ضعفها وقوتها على السواء، وبرغم أنها بالغت في إنجازات إخوان الحرية [الأزهر مثلا ظل إلى حد كبير مؤيدا للمحور برغم ادعاءاتها عن "تحويله"]، إلا أن حقيقة أنها لم تجادل قط في عدالة قضيتها أو في إخلاص مستمعيها لا بد وأن تثبت أنها كانت متحدثة مؤثرة. وكانت فريا تعلم، كما كان كل امرئ في مصر يعلم، أن المصريين قوم عاطفيون ودافئو الأحاسيس، وما أسهل التأثير عليهم بالعبارات النبيلة. ومع ذلك فما كان لها أن تشك قط في سهولة تحقيقها للنجاح، ولسوف تعود من زيارة خلية جديدة وقد أفعمت برضا بالغ عن النفس مقتنعة أن كل فرد حضر اللقاء أصبح من وقتها فصاعدا مؤيدا ثابتا لقضية الحلفاء.

لكن كان هناك كثرة من الناس الذين رأوا في "إخوان الحرية" مجرد ممارسة في فن الحديث إلى من تبغي تحويله لاقناع المقتنعين فعلا بأفكارها، وأنها مؤلفة من شباب الأفندية الجادين [الموظفين الكتبة المستخدمين في معظمهم بمصالح الحكومة] وقد وضع ريجي سميث أبيات الشعر الهازلة التالية لكي ينشدوها على وزن "تحن بحارة الملك":

أحسن من القعدة على القهوة

ومن صالات السينمات

نبحلق في النجمات

جينا نهتف: دي مو ... قراطيا

احنا بتوع الست "فريا"

فريا كانت تجيب على أي انتقاد بقولها أنها كانت تعامل مستمعيها المصريين كأنداد وحلفاء وكانت تلك تجربة جديدة عليهم وقد تجاوبوا معها بعواطف دافئة، وكانت تزودهم أيضا بحجج يستخدمونها ضد الذين كانوا يظاهرون المحور.

وبعد زيارة لبغداد في أبريل حيث حوصرت ومعها ٣٠٠ آخرين في السفارة البريطانية في حوادث الثورة العراقية، طلب السفير سير كينان كرنواليس من فريا أن تبدأ في تشكيل فرع لإخوان الحرية هناك. وبما أن رسالة الخير البريطاني في الشرق الأوسط كانت بحاجة ماسة إلى تأكيد، فقد وافقت وعادت إلى مصر لإنهاء أعمالها وتركت إخوان الحرية بيد روني فاي وباميلا هور روثفن وكريستوفر سكيف ولولي أبو الهدى، الذي شعروا أنهم في أيديهم طفل كبير صعب المراس ترك أمره لهم دون سابق إنذار معقول. إلا أن فريا كانت متأكدة أن الأمور ستجري على ما يرام، وغادرت القاهرة وحدها في سيارة صغيرة باتجاه الصحراء ترتدي قبعة كبيرة زرقاء وخمارا من المخمل الأحمر مطرزة حافته بحروف رومانية*. والحقيقة أن جماعة إخوان الحرية• بكل ما بذلته من جهود لم يكن متوقعا لها أن تصل إلى كل فرد في مصر، ولكن في ضوء قوة دعاية العدو كان إحراز المنظمة أي هدف في الأساس أمرا له قيمته. كانت كل من إيطاليا

---

* أقامت فريا في بغداد على مدى السنتين التاليتين، وخلال هذا الوقت قامت بزيارة عائلة ويفيل بالهند في فبراير ١٩٤٣، وبناء على أوامر ويفيل دبروا لها سيارة لرحلة عودتها التي اجتازت فيها نيودلهي إلى طهران حيث باعت السيارة، وكانت تقول دائما أنها كان من حقها بيع السيارة باعتبار أنها أعطيت لها ولكن المسؤولين في القاهرة وعدن كان لهم رأي سيئ فيما تصوروه تصرفا في أموال الحكومة وقت الحرب. وفي وزارة الإعلام أصر أحد الأطراف على أن تكون فريا مسؤولة عن هذه الفعلة وجاء ردها على شكل عبارات مقتبسة من (الشاعر) رديارد كبنلج: "لو تسنى لك أن تجمع كل ما كسبته في كومة واحدة فضعه موضع الرهان وألق بزهر القمار ..." هنالك ساد صمت محير في أوساط وزارة الإعلام.

• "أخوان الحرية" محكوم عليها – وطنيا وفي التحليل الأخير – بأنها كانت جماعة من السذج والانتهازيين وعملاء الانجليز. "المترجم"

وألمانيا قد بدأت إذاعات اللغة العربية منذ عام ١٩٣٦ وأصبحت الإذاعة الألمانية الناطقة بالعربيّة منتشرة بصورة خاصة وتحوز الشعبية إذ كان لها مذيع ممتاز• كان يؤكد أن المحور صديق لجميع القوميين العرب، بينما يسلق بألسنة الحداد الحلفاء الذين يتهمهم بالعدوانية والاغتصاب. وكانت الإذاعة تبث قدرا كبيرا من الموسيقى والغناء مما شكل عنصر جاذبية أكثر من جانب العرب، كما كانت ترسل برامجها على ترددات من السهل التقاطها على اي جهاز راديو عادي. كانت المقاهي تفتحه من الصباح وحتى الليل. أما برامج الإذاعة البريطانية الناطقة بالعربية التي بدأت في يناير ١٩٣٨ فكانت تقصد جمهورا أعلى ثقافة كما كانت برامجها تبث فترة أقصر. وبالمقارنة مع منافساتها - راديو برلين - كانت منمقة وأرستقراطية. وفي محاولة لإحاطة مستمعيها العرب بمعلومات عن بريطانيا كانت تقدم بين حين وحين أحاديث عن مواضيع من قبيل: "مرض السل بين قطعان البقر البريطاني". هكذا جاءت هذه الإذاعة العربية لتضيف خيبة جديدة إلى العجز عن تناول قضية القومية العربية إذ كانت هذه القضيا بالنسبة لمصر، مثلا، تنطوي على عداء واضح لبريطانيا. وكما يقول جون كونيل في كتاب "المنزل الواقع عند بوابة هيرود": "كنا قد استخدمنا القومية العربية للإطاحة بالإمبراطوية العثمانية، ثم ها هم الألمان والإيطاليون وقد صمموا على استخدام القومية العربية أيضا للإطاحة بالامبراطورية البريطانية".

وبالنسبة للقاهري العادي كانت الحياة بعيدا عن وسط البلد في الأحياء الفقيرة لا تتيح مشاهدة أحد الجنود البريطانيين - الانجليزي كما كانوا يسمون، وكانت الحرب بعيدة جدا لا يكاد يلمحها أحد فيما وراء حدود الحياة اليومية هناك. الصلة الوحيدة مع الحرب كانت عن طريق الراديو والإشاعات التي تنتشر من حول القاهرة وكانت تؤكد دائما حقيقتين ثابتتين يعرفهما ابن القاهرة

• المذيع العراقي يونس بحري. "المترجم"

عن البريطانيين: أنهم مسؤولون عن ارتفاع تكاليف المعيشة، ثم أن جيوبهم (شأنهم شأن كل الأجانب) مليئة بالأموال:

هل سمعت مثلا؟ أن البريطانيين أعادوا من جديد تشكيل فرقة العمال؟ (كما كانت في الحرب العالمية الأولى). إنهم يدفعون مبالغ مجزية مقابل تلال من الحبوب التي يأكلها جنودهم ويقومون بتخزين السكر والكيروسين ولم يبق شيء من هذا كله في مدى ثلاثة أيام؟ تتصور أن الانجليز يدفعون كثيرا؟ إنهم يدفعون لك أكثر إذا كنت قبطيا أو يهوديا، ولكن كل شيء سيتغير عندما يأتي الألمان.

كان المحور مسؤولا عن كثير من تلك الشائعات، وكانوا كخبراء دعاية يتمتعون بخيال أخصب بكثير للغاية من نظرائهم الانجليز. ومن الشائعات التي نشرها المحور أن هتلر مسلم (وهي خدعة سبق إلى استخدامها نابليون منذ ١٤٠ سنة سبقت ولكن بغير كثير من نجاح) وإنه - هتلر - يتوق إلى تحرير مصر من الانجليز الكفار. وفي عيون كثير من الأميين المصريين كان هتلر أو "محمد هيدر أو حيدر" قد أصبح شبه بطل في حال انتظار دائم لكي يسفر عن نفسه وقد حقق الانتصار، في إحدى المناسبات سار طابور طويل من الأسرى الألمان من محطة سكك حديد القاهرة إلى معسكرات الاعتقال وهذا الدليل الدامغ على انتصار الحلفاء ما لبث أن دمرته الإشاعة بأن المسألة كلها من تدبير وتنظيم محمد هتلر كوسيلة لتسلل أتباعه إلى دواخل المدينة!!

الشائعات التي كان لها فعلها ضد البريطانيين أذكى حدتها المتشددون الإسلاميون والوطنيون المتطرفون داخل المجتمع المصري، أما من الخارج فقد سهر عليها أعضاء السلك الدبلوماسي الأصدقاء للمحور وكانوا يشملون أفرادا من مفوضيات استونيا والمجر ورومانيا. هذا الطابور الخامس سرعان ما اكتشف أفراده في مجال الدعاية أن من الأسهل تحطيم فكرة ما بدلا من الترويج لفكرة خاصة إذا كان هذا الترويج فاترا. وقد كتب آلان مورهيد أن

"الامبراطورية البريطانية كانت قد مرغت في أوحال قرى الدلتا وكأنها عربة قديمة متهالكة نصف عمر".

من جانبه، فإن قسم الدعاية بالسفارة البريطانية كان يصف الأصوات المتآزرة العاملة لحساب المحور بأنهم فاترينة الهمس. وفي محاولة للتصدي لتلك الحملة باستخدام أساليب مماثلة لها بدأ لورانس جرافتي سميث وهو دبلوماسي كان يعرف القاهرة والشرق الأوسط معرفة جيدة عملا من هذا القبيل وكان قد أجبر على مغادرة ألبانيا حيث كان يعمل قنصلا عاما عندما اجتاحها الإيطاليون.

جرافتي سميث كان يعرف أن الأهالي يستطيعون أن يصدقوا ثم يكررون ما يقال لهم على سبيل الإفضاء والسرية الكاملة أكثر مما يفعلون بالنسبة لما قد يقرأونه في صحيفة. هكذا قام بتشكيل هيئة من ٣٥٠ من العلماء المصريين من شتى مناحي الحياة ليعملوا على نشر الشائعات والمقولات المؤيدة للحلفاء، كما كانوا يفيضون في تقاريرهم عن أحدث شائعات ينشرها المعارضون، وكانت الشبكة تضم عددا من قارئي الطوالع والمجاذيب الذي يجلسون إلى جوار المساجد يوزعون الحكمة ويقرأون البخت، وكانت أقوالهم تحمل وزنا وسط فقراء المدينة، وكانوا يتقاضون مبالغ زهيدة ولكن بوسعهم أن ينشروا نبوءات تبشر بقرب انتصار الحلفاء!

وطنيون أم طابور خامس؟

بينما عجزت دعايات الحلفاء عن ممارسة أي نفوذ وخاصة بعد عام ١٩٤٢ عندما بدأت الحرب تسير في الاتجاه الصحيح، فلم يكن لها أي تأثير بالذات على العناصر ذات القناعات العميقة ولا سيما بين صفوف الوطنيون الشباب بكل مثاليتهم. كانوا يرون مصر من الناحية السياسية واقعة في أيدي ملاك الأراضي من الباشوات الأغنياء. حقيقة سادت أحاديث عن الانتخابات والديمقراطية ولكن نظامهم في هذا الصدد كان قائما على الشخصيات وليس السياسات، ثم كان هناك حديث عن الإصلاح، ولكن الفلاحين ظلوا يعيشون في ربقة الفقر والبؤس. وكان هناك حديث عن إخراج الانجليز، ولكن برغم المعاهدة المصرية البريطانية (١٩٣٦) بدا البريطانيون وهم يتمتعون بسيطرة أكثر من أي وقت مضى وكانت كل أنحاء مصر مزدحمة بالآلاف من الجنود ذوي السحن الحمراء.

الغالبية العظمى من الطلاب في القاهرة لم تأت من طبقة الباشوات، هذه الصفوة الموسرة التي كانت تختلط اجتماعيا مع البريطانيين. معظم الطلبة شعروا أن مصر ما كان لها أن تحقق المجد أو الاستقلال يوما ما إلا إذا ما توافرت لها حكومة وطنية قوية تستمد جذورها الراسخة من تقاليد الإسلام. وكان الملك فاروق يسيطر على ولائهم الملتهب عاطفة، بل كان يمثل رمزا لجميع طموحات المصريين. ثم كانت المنجزات الشخصية التي حققها هتلر قد شكلت رسالة عميقة المغزى من الأمل لهؤلاء الشباب المتحمسين المصريين.

ها هم بإزاء رقيب سابق في جيش مهزوم تحدى بقية أوروبا بأسرها ليرفع بلاده وقواتها المسلحة إلى ذروة المجد من جديد. ثم كان يحارب البريطانيين والفرنسيين الذين يراهم المسلمون والعرب أعداء لهم، وكما رأى الطلاب فإن بريطانيا وفرنسا وعدتا بالاستقلال للبلاد العربية التي تحررت بعد انهيار الخلافة العثمانية، ولكن هذه الوعود ما لبثت أن نكثت بخيانة من جانب الدولتين اللتين قامتا بتقسيم بلاد الشام فيما بينهما.

هذه الأفكار شجعتها جماعة الإخوان المسلمون وخاصة مرشدها البليغ حسن البنا. الإخوان المسلمون كانوا منظمين في شُعب صغيرة تقسم يمين الولاء المطلق للإسلام، وكانت الحركة تسيطر على حياتهم ذاتها. فإلى جانب العكوف على قراءة القرآن وتفسيره، كان الاهتمام شديدت بالرياضة البدنية والتدريب على الأسلحة بالنسبة لشباب الحركة، وكانت الممارسات الأخيرة تجري سرا في حين كانت أقسام القاهرة في الحركة تمارسها في تلال المقطم شرقي المدينة.

وإذ اتجهت جماعة الإخوان المسلمين لدعوتها إلى العودة للمجتمع الإسلامي النقي، متحررا من فساد المؤثرات الغربية، فقد كانت تستغل الهوة الشاسعة الفاصلة بين الصفوة من المصريين المتغربين الذين كانوا يملكون المال والجاه، وبين الناس العاديين الذين لم يكن في يدهم لا هذا ولا ذاك. بالنسبة للفلاحين كانت تعد بالعدل الاجتماعي وإنهاء الفقر، وبالنسبة لسكان المدن بكل مغالاتهم في التمسك بالتقاليد وعدتهم بإعادة إقرار القيم الإسلامية الصارمة ووضع نهاية للسيطرة الأجنبية. ثم كان للجماعة أتباع كثيرون في الكلية الحربية وفي الجامعات، وذلك في بلد يرتفع فيه صوت الطلاب ويحسب لهم حساب في المجال السياسي بأكثر من ما توحي به أعدادهم. ذلك لأن المصريين من غير المتعلمين يكنون احتراما كبيرا للتعليم، ومن ثم كانوا يصغون إلى الطلبة بوصفهم قادة المستقبل.

وحتى قبل اندلاع الحرب، كان الضابط الألماني نموذجا يحتذى: في عام ١٩٣٨ لم يكن الملازم أنور السادات هو الضابط الشاب الوحيد الذي كان يعمد إلى تقصير شعره ويمسك بيده عصاه ويضع على عينيه مونوكل، وما عدا ذلك لم يكن يملك سوى مرتبه ومأوى في شقة والده حيث كان يسكن الوالد ومعه ثلاث زوجات وتسعة أولاد، فضلا عن جدة السادات نفسها. في ذلك الوقت كانت مصر بلدا يتوقف فيه الرقي على المال والاتصالات إلى حد كبير، أما السادات فكان جزءا من أول دفعات من طلبة الكلية الحربية الذين لم يملكوا شيئا، وبرغم الاهتمام الكبير بالملكات الشخصية فإن الذين كانت لديهم هذه المواهب التي يعتمدون عليها كان يستشعرون بدورهم الحاجة إلى الوساطة. لهذا السبب انتهز عزيز المصري (وكان وقتها المفتش العام للجيش المصري) وعلي ماهر الفرصة لكي يشكلوا جمعية سرية للضباط سواء في الجيش أو سلاح الطيران كانت تعرف باسم القبضة الحديدية أو "الحرس الحديدي" وكان من شأن هذا توسيع نطاق حماية السراي ليشمل شبابا بعينهم في مقابل طاعتهم وإخلاصهم التام.

إن المشاعر المعادية للبريطانيين التي زرعها عزيز المصري في كل أسلحة الجيش تعززت كثيرا بعد تسريحه من الخدمة في عام ١٩٤٠. أما السادات فما من شك أنه كان جزءا من تلك المجموعة، في حين أن أهدافها كانت تتمثل في التآمر والتخريب ضد الاحتلال البريطاني بدلا من طرح خطة طويلة الأجل للحصول على السلطة السياسية. وهذا هو الفارق الجوهري بينها وبين حركة الضباط الأحرار التي قادها جمال عبد الناصر والتي تمثل تطورا لاحقا كان له بدوره اتصالات فضفاضة مع الحرس الحديدي. عبد الناصر وزملاؤه أصيبوا بخيبة الأمل في مسلكية الحكومة بعد حرب فلسطين سنة ١٩٤٨، ومنذ ذلك الحين فصاعدا كرسوا أنفسهم للإطاحة بها.

ربيع ١٩٤١

التقى السادات مع عبد الناصر في عام ١٩٣٨ عندما كان كلاهما يخدم في منقباد في الصعيد، وكان التزام جمال عبد الناصر بالوطنية المصرية من الجدية بمكان، ولكنه كان يعرف أن البريطانيين لا سبيل إلى إخراجهم من البلاد في يوم وليلة. لقد شعر السادات بالإعجاب إزاء عبد الناصر ولكن لأنه كان مندفعا أكثر منه بمراحل، فقد كان حريصا على العمل ضد البريطانيين بأسرع وقت ممكن.

مؤسسة الجيش المصري في ذلك الوقت تألفت من إحدى عشرة كتيبة مشاة وفيلق خفيف للدبابات وفيلق آخر للعربات المدرعة وفصائل مختلفة للمدفعية المضادة للطائرات والمدفعية المضادة للدبابات. وكان البريطانيون على بينة تماما من السخط الذي أثاروه بين صفوف الجيش المصري، ومن ثم كانوا يعتبرونه عنصرا لا سبيل للتعويل عليه من قريب أو بعيد إذ أن ضباطه يمكن في آخر لحظة أن يرفضوا الخدمة تحت إمرة البريطانيين. وعلى ذلك قررت الحكومتان المصرية والبريطانية أن تكتفيا بدور دفاعي تسنده إلى هذه القوة، وشمل هذا الاتجاه التزويد بعناصر تشغيل المدافع المضادة للطائرات والقيام بمهمات الدفاع عن الطرق والاتصالات والمنشآت وقناة السويس.

كذلك كان هناك بعض نقاط الحدود تحت سيطرة الجيش المصري، وفي هذه المخافر القصية، كان الانضباط والروح المعنوية منخفضين إلى حد بالغ إذ كانت المرتبات تستند إلى فكرة أن كلما ابتعد عمل الفرد عن القاهرة أو الاسكندرية فإن حاجته تقل إلى النقود. وكثيرا ما كانوا ينظرون إلى الانتداب لأداء مأموريات على الحدود وكأنه عقوبة، كما في حالة ابن عم الملك، الأمير اسماعيل داوود، الذي كان واحدا من قلة من ضباط الجيش المصري الذين كانوا موالين للبريطانيين. وكان هذا كافيا لنفيه إلى مرسى مطروح وبعد ذلك جاء اتهامه باللواط بشهادة خمسة من رجاله، وساد الشك على نطاق واسع بأن هذه الفرية لم تكن سوى محاولة من جانب السراي للتخلص منه كلية.

في أبريل عام ١٩٤١، عندما كان روميل يتقدم نحو مصر، أمر البريطانيون وحدات الجيش المصري بالانسحاب من الحدود وأحلوا محلها جنود الحلفاء [القيادة البريطانية في مصر رأت في ذلك أيضا فرصة طيبة لوقف سرقة البنادق التي كانت جارية على قدم وساق في تلك المخافر البعيدة بين الجنود المصريين وبين عناصر الإخوان المسلمين]. وشعر السادات يومها بالاشمئزاز إزاء الطريقة التي استسلم بها الجيش المصري وسمح بها للبريطانيين بأن يستولوا على أسلحته.

قبيل هذا الوقت كان عزيز المصري قد اتصل بالألمان، وبعد ذلك كتب السادات في سيرته الذاتية بعنوان "ثورة على ضفاف النيل" يقول إنه حاول إقناع أستاذه بدفع الجيش المصري إلى الثورة: "كانت تلك فيما يبدو فرصة ذهبية أمام الفريق عزيز المصري، ولم يكن هناك فرد يستطيع أكثر منه للعمل على تماسك القوات المصرية وكسب مؤازرة الألمان الحيوية لقضية العرب ...". لكن عزيز المصري لم يكن ليقدم على مثل هذه المحاولة الحمقاء، وبعد شهر قرر أن يقبل العروض الألمانية.

ومن الصعب تقدير المدى الذي كان السادات مشاركا به في هذه الأمور إذ أن سيرتيه الذاتيتين تتناقضان مع بعضهما البعض. ففي الأولى، "ثورة على ضفاف النيل" (١٩٥٧)، يعترف السادات بأنه زود عزيز المصري بسيارة تعطلت على الطريق إلى المطار البعيد حيث كان الألمان قد خططوا لالتقاطه. وفي الكتاب الثاني "البحث عن الذات" (١٩٧٨)، يقول إنه كان في مرسى مطروح في ذلك الوقت! وأيا كانت مشاركة السادات فإن الهروب الأول لعزيز المصري لم يسفر عن أي شيء، أما هروبه الثاني الذي اكتسى صورة أكثر درامية فأدى إلى اعتقاله شخصيا، ومع ذلك ظل السادات مطلق السراح ينتظر بصبر نافد فرصة أخرى تسنح لتوجيه ضربة إلى البريطانيين.

ومع تدهور الأحوال بالنسبة للحلفاء في ربيع عام ١٩٤١، كان وجود علي ماهر بكل عواطفه الموالية للمحور والتي لم تكد تختفي تحت أي ستار، يهدد مصالح كل من سير مايلز لامبسون ورئيس الوزراء المصري حسين سري.

وكان حسن البنا قد نفي إلى الصعيد، لكن علي ماهر ظل على اتصال بجماعة الإخوان المسلمين وكذلك مع منظمات شبه عسكرية أخرى كان بوسعه الاعتماد على مؤزراتها. في عام ١٩٤٠ كان عبد الرحمن عزام بك قد بدأ تكوين قوات الجيش المرابط التي جند أفرادها من تدفق الرديف الذين كانوا مجندين في الجيش المصري. أما السفارة البريطانية فقد أقلقها هذا التطور لأن عزام بك كان صاحب آراء قومية عنيفة متطرفة ومعروفة، ولكن المنظمة لم تكتسب شعبيتها في البلاد فيما كان تدريب أفرادها ضئيلا للغاية. ثمة منظمة أخرى شجع على وجودها على ماهر وهي البوليس المخصوص التي أشرف عليها طاهر باشا وهو ابن أخت الملك فؤاد، وكان معروفا بعلاقاته الوثيقة مع الألمان. وهذه المنظمة بدورها لم تحرز شيئا ذا بال برغم أنها كان يمكن أن تنجز شيئا لو ظل علي ماهر في السلطة ولكنه أطيح به بعد أيام من إكمال أولى كتائب تلك المنظمة تدريباتها. ثم ها هو علي ماهر يبذل قصاراه لبناء تلك المنظمات في حين كان لامبسون يعتقد أنه مشارك في إعداد وتوزيع عدد من المنشورات التي تحوي مادة دعائية ملتهبة ضد البريطانيين. ولكن فيما يتعلق بكل من السفير وحسين سري، فإن أخطر أنشطة علي ماهر كان النفوذ الذي عمل على بنائه بين أروقة السراي.

في تقرير لاحق كتب سير مايلز يقول "إن هجوم سري باشا ضد علي ماهر باشا وعصبته أدى إلى نجاحات جزئية ومن ثم بدا على ماهر أقل نفوذا في الوقت الحاضر ... ولكن هذا ما لبث أن ثبت عقمه فقد استطاع علي ماهر أن يستعيد تدريجيا ما فقده من نفوذ ويرجع ذلك أساسا إلى قدرته على إقناع

الملك بأن ولاء حسين سري لنا (الريطانيين) إنما يشكل عمالة للمصالح البريطانية".

وبما أن ملك مصر يستمتع بسلطات لم تستمتع بها يوما الأسر المالكة البريطانية منذ أيام جورج الثالث، فقد أصبح سير مايلز من القلق بشأن النفوذ المتزايد لعلي ماهر على فاروق لدرجة أنه بحث إمكانية اختطافه. "لو أمكننا فقط أن نبعد علي ماهر من المسرح فلسوف يسهل بصورة هائلة معالجة الوضع السياسي الداخلي، وأنا أتساءل إذا لم تكن تلك مأمورية يكلف بها فرع العمليات السرية؟" وفي أبريل ١٩٤١ أقدم حسين سري على محاولة غير مدروسة لإزاحته عن المسرح عندما عرض عليه خيارا بين العمل سفيرا لمصر في واشنطن أو الإبعاد إلى عزبته في الريف، وأخطأ أيضا عندما أخبر علي ماهر أنه يفعل ذلك بناء على طلب البريطانيين. ولم يكن ثمة غرابة في أن علي ماهر عارض هذا بوصفه اعتداء على حريته كعضو في البرلمان وهدد بأن يعرض المسألة على مجلس الشيوخ، مما أجبر حسين سري على تطمينه بأن الاقتراح ما كان سوى بادرة من مشورة صديق لصديق.

صيــــف ١٩٤١

الجنود

كم تعلمت الاغتسال في صفائح النفط والحلاقة في مياه الشاي.

أن أوازن كسرة المرآة فوق الركبتين لتتقي خطر السقوط.

أن أراوغ طلقة المدفع وتحليق الشظايا الهائمات عن يمين أو شمال.

أن أباعد بين رأسي وبين طائرات "مستوكا" ولو قدر ذراع من رمال.

وتعلمت أن أطهو نصيبي من لحوم الضأن على كعب الشموع.

وأخيط عقدا من صفائح فارغات أو من أي شيء في يدي.

سكينتي هي كل شيء شفراتها طوع بناني وآمرها تطيع.

سكين خبز، سكين قطع، أو لنشر الجبن فوق الخبز.

والتذكرات أجمعها وأصونها وأروم أسألها حيث الأحبة في الوطن.

وتمر أيام الزمان فلا التذكار يبقى ولا الذكرى تدوم.

تلك القدابات .. سوف يضحكنني يوما سيأتي في غد إذ تصبح هذه الحرب المستعرة طيفا من خيال.

ولسوف أضحك خاليا في زورق يختال مجتازا أديم البحر في ظل السكون.

لكنني هنا أمضي حياتي قابعا من أجل ذاك اليوم المرتجى.

أو أرتضي باللحم المعبأ والأرز والبرقوق ثم الكرى .. أمضيه في حضن خيمة.

(قصيدة) فأر الصحراء يشكو

من مجموعة "واحدة إلى إيطاليا"

الشريط الشمالي من صحراء ليبيا عبارة عن هضبة من الحجر الجيري التي تكتنفها الرمال وتحدق بها الصخور. وقرب الساحل يأتي الشتاء بسيل من الأمطار ومن الرياح العاتية التي ما تلبث أن تحول الغبار الرمال إلى طبقات كثيفة من الأوحال. وفي الصيف بعيدا عن الشاطئ ترتفع درجة الحرارة إلى ما يزيد على ٤٤ درجة مئوية والعواصف الرملية في هذا الطقس كأنها سياط غير مرئية تؤذي بشرة الإنسان. أما ليالي الشتاء والصيف فكأنها متشابهات من حيث البرد القارس في كلا الفصلين.

كل من حارب في الصحراء قاسى نفس الأحوال المتطرفة من حيث الحرارة القائظة والبرد الزمهرير فضلا عن السأم والضجر، ومكابدة الرمال الناعمة التي تتخلل مسام الجسم وقد علته أسمال من الملابس المتسخة مما يؤدي إلى تقرحات كانت تعرف باسم جروح الصحراء. كانت حبات الرمال تشق طريقها إلى كل ثنية ونأمة من جسم الإنسان، فإذا ما نفذت إلى تحت المسام، وهو ما كانت تفعله في غالب الأحيان، فإن بوسعها ألا تسبب فقط ألما بل ينتج عنها عجز كامل. يسجل إيريك ديموني البطولة العملية التي كان يبديها ضابط في السرية الطبية النيوزيلندية كان قد قرر التصدي لمعالجة هذه المشكلة. بدأ متسلحا بمشرط جراح وكمية كبيرة من البنج الموضعي ثم اتخذ موقعه خارج مركز الإسعاف التابع لفرقته وبدأ يلقي حديثا موجزا عن فوائد الختان (للذكور). وأعلن كذلك أنه أقل إيلاما بكثير مما يتوقعه المرء وللتدليل على رأيه، أجرى العملية على نفسه في الحال والتو.

لم يقتصر الأمر على الرمال، بل أضيف إليها أيضا الذباب. إن ذبابة الصحراء (باللاتينية اسمها موسكا سوربنز) هي حشرة أصغر بكثير وأنكى عدوانا من قرينتها ذبابة المنازل العادية التي يعرفها الأوروبيون. إن عملية هش الذباب عن العيون والشفاه وأقداح الشاي وآنية الطعام أصبحت لازمة مستمرة من حركات البشر. وفي بعض الأحيان كان ثمة دافع يحث الرجال على الإيقاع بالذباب بأعداد كبيرة وحرقها بالبنزين ثم إلقاؤها وكأنهم يتشفون

لأنفسهم حتى تفوح الرائحة الفظيعة من أجساد الذباب المحروق كأنما تذكر قاتليها بأنهم يستمتعون برائحة لحم نتن!

كان الإيطاليون يكرهون الصحراء، وكانوا يبتعدون عنها بتشييد منازل حجرية داخل معسكراتهم وتفضي إليها ممرات وحدائق صغيرة. الألمان كانوا يحاربون الصحراء بالعلم. مخازنهم حافلة بمساحيق معالجة الأقدام وقطرات العيون ومبيدات الحشرات وسوائل تنظيف الفم والمطهرات. أما البريطانيون والاستراليون والنيوزيلنديون فكل ما كانوا يفعلونه أن يتجاهلوا الصحراء وهم في وسطها يحاربون ثم ينامون تحت بطانيات على الأرض وإن كانوا ينتابهم قلق له مبرره بشأن الجراثيم.

تعيين (غذاء) الجيش البريطاني كانت تتألف من لاخ (لحم وخضر) وكميات من لحم الخنزير السمين والجبن والمربى ولحم البقر المحفوظ. كل هذه الأطعمة كانت محفوظة في علب من الصفيح وكانت تؤكل مع الخبز أو مع نوع من البسكويت المقدد الذي كان يتحول في الفم إلى ما يشبه جبس باريس المشهور. يحتسون الشاي ساخنا بالسكر وإذا ما توافر لهم كميات من الشاي المجهز وحسوات من الويسكي كان بوسع القوات أن تسيغ أي شيء في فمها، وكانت أغذيتهم تسخن على مواقد بنغازي عبارة عن صفائح كبيرة للبنزين مملوءة بالرمل ومغموسة في البترول. أما صفائح البترول الأخرى فكانت تملأ بالرمل لاستخدامها كمصاف (فلترات) وخاصة في تلك اللحظات النادرة التي يتوافر فيها كميات من المياه تكفي للاغتسال أو للحلاقة.

كانت تأتيهم المعلومات أساسا من مصدرين: مجلة باريد وهيئة الإذاعة البريطانية. وقد تأسست المجلة عام ١٩٤٠ على يد الكولونيل هوارد روستون المراسل السابق في القاهرة لكل من مورننج بوست وديلي اكسبرس. وكانت صور الجنود وقد علاهم غبار المعارك ورسموا على وجوههم ابتسامات تزين أحدث أنباء الحرب وتتخللها مقالات حول الأعمال الباهرة التي تنجزها النساء المخلفات هناك في الوطن. وكانت تنشر إعلانات عن أحدث حملات لجمع

الأموال للأعمال الخيرية للحرب، وفي غلافها الأخير تنشر صور الحسناوات [ريتا هيوارث كانت فتاة الغلاف الأكثر شعبية على مستوى منطقة الشرق الأوسط].

بيد أن هذه النغمة الدعائية الزاعقة للمجلة ما لبث أن اعتراها انضباط واضح، فقد دخل مصورها العسكري بيلا زولا يوما في مقصف للجنود بالقاهرة فواجهته صيحة من الجنود تقول: أهلا أهلا، هل أتيت لتعرض على الناس كم نحن سعداء في مجلتك السخيفة؟ على أنها لم تنشر أنباء كثيرة إلى أن تحدثتها أولى المنشورات التي أصدرها راندولف تشرشل سنة ١٩٤١ مؤكدة أن المقاتلين لم يكن لديهم رغبة في واقع الأمر كي يعرفوا تطورات سير الأمور، وكانت تلك فكرة جديدة ومخيفة لدرجة أن ضابطا أحرق المنشور على مرأى من رجال. كما أكد ضابط آخر لراندولف نفسه أن مختلف الرتب كانوا سعداء بالأعداد التي تأتيهم من مجلات الوطن العادية مثل تاتلر وكانتري لايف.

كان مذيع الإذاعة البريطانية الذي يقرأ نشرة الأخبار من لندن بصوته العميق الهادئ المثقف يتمتع بأهمية هائلة بالنسبة للبريطانيين في الصحراء بوصفه همزة الوصل المباشرة مع الوطن برغم أن الأخبار كثيرا ما جاءت متخلفة عن الحوادث وقت وقوعها. ولدى العودة من عملية ناجحة، كان الجنود في غالب الأمر يسمعون آخر نشرات للأنباء تبث في لهجة مهمومة ولكن في حال إنهاك الهزيمة كانوا يغيرون المؤشر ليستمعوا إلى أي تقرير مبهج يقول بأن كل ما في الصحراء هو على ما يرام، وأن جيري الألماني قد تلقى ضربة هائلة. على أنهم كانوا يستمعون إلى الإذاعة الألمانية من أجل الموسيقى التي تبثها وخاصة "ليلي مارلين" التي كانت الأغنية المحببة والمطلوبة على كلا الجانبين في حرب الصحراء.

"ليلي مارلين" سجلتها امرأة اسمها لالي أندرسون في برلين قبل اندلاع الحرب ولم يكد يوليها أحد أي اهتمام في تلك الفترة، ودخلت الأغنية إلى زوايا النسيان حتى الليلة التي استولى الألمان فيها على محطة الإذاعة في بلجراد

في ربيع عام ١٩٤١. كانوا بحاجة إلى أي شيء يملأ فراغا في برامج الإذاعة وساعتها أخرج جندي اسطوانة متهالكة من أغنية "ليلي مارلين" وما كان منهم إلا أن أذاعوها على الهواء فلم يكن لديهم شيء آخر. وجاءت ردود الفعل مدهشة فقد تلقوا خطابات من آلاف من الناس يطلبون سماعها مرة أخرى. أما المغنية لالي أندرسون التي كانت قد استسلمت للمقادير وفقدت كل أمل في تحقيق النجاح فقد انتشلوها من المجهول لتصبح نجمة لامعة، ووصل الأمر بطلب المستمعين أغنيتها إلى درجة أن كانت تذاع ثلاث مرات في الليلة الواحدة.

كانت أشد الأمراض المعدية التي أصابت جنود الحلفاء في مصر وبرقة هي الملاريا والدوسنتاريا والتهابات الغدة النكفية والأمراض السرية. مع ذلك فلم يقدر للملاريا أن تصل يوما إلى نسب معدية على غرار ما أصيبت به القوات في شرق أفريقيا [التي دمرتها الكوليرا أيضا] وبرغم الذباب وقلة المياه فإن هواء الصحراء النظيف الجاف جعلها مكانا صحيا بصورة نسبية، أما الفظائع فكانت كلها من صنع الإنسان ومنها مثلا تعثر في لغم ينفجر أو الأسر عندما تغرس دبابة في الصحراء. ولم يقدر للكثيرين أن يعيشوا بعد إصابتهم بمثل هذه الأخطار والذين عاشوا منهم أصيبوا بإعاقات وتشوهات مدى الحياة. كان الجرحى ينقلون إلى مستشفيات الاسكندرية والقاهرة، وكان ثمة وحدة للجروح في المستشفى العام الاسكتلدي، وتذكر سيدة مصرية كانت تعمل كمتطوعة كيف أن عنبر الجروح كان معبأ برائحة نتن اللحم البشري المحروق وخاصة في الطقس الحار، ولم يكن ثمة طريقة لتنظيف أجساد المرضى حسب الأصول. على أن متطوعي الصليب الأحمر وغيرهم كانوا يجوبون أروقة المستشفيات وفي جعبتهم الشاي والسندويتشات والسجائر والكتب. السيدة لو [والدة الروائية بني لوب ليفلي] بدأت في تكوين مكتبة تحوي روايات بوليسية وقصص رعاة البقر فنالت شعبية ذائعة، ومع ذلك فلم يكن بوسع الأفراد القراءة طيلة الوقت، ومن ثم فكرت السيدة المذكورة في

طريقة أخرى لدفع ساعات السأم عنهم، ولذلك رتبت للحصول على قماش لشغل الإبرة وأحضرت كرات الصوف الملونة وإبر التريكو واقترحت على الأفراد شغل أنفسهم بالتطريز، وبدا الرجال في أول الأمر متأففين حيث يقول قائلهم: ماذا: أنا أشتغل إبرة يا آنسة؟ لكن قال آخر إنه سيفعل، ومن ثم بدأت عملية التطريز تنتشر وتشيع. وكان مالكو الفيلات الكبيرة يعيرون غرفات فسيحة لديهم للجنود الناقهين حيث تسهر على تسليتهم نساء انجليزيات ومصريات يقدمن لهم الشاي، ويصاحبنهم للفرجة على مختلف الأماكن.

مع هذا كله كان الأفراد أكثر ترويضا إذا ما قورنوا بأيام الإجازات القليلة لأي جندي عادي كان يأتي إلى القاهرة لقضاء وقت طيب وإضفاء ظمئه إلى البيرة وشوقه إلى النساء. كانت الحانات والمواخير تكلف نقودا، ولكن بما أن الصحراء لم تكن تشمل شيئا يشترى أللهم إلا بيضة هنا أو هناك من صبي بدوي فقد كان الرجال يصلون إلى القاهرة وفي حوزتهم مبالغ كبيرة من المتأخرات في حساباتهم. بعضهم كان يرسل نقودا للوطن وبعضهم بدأ يشارك في مدخرات الحرب ولكن معظمهم كانوا ينفقون الأموال عن آخرها.

في بداية الحرب، كان لدى ويفيل ما بين ثمانين ألف إلى مائة ألف من الرجال. وبحلول نوفمبر ١٩٤١ كان لدى أوكينلك ٧٥٠ ألف فرد بين ليبيا والعراق وأكثر من ١٤٠ ألف في القاهرة وما حولها. الزي الأساسي كان قميص الخاكي وطاقية رقيقة كان يسميها البريطانيون "طاقية الجبهة" ثم شورت طويل منتفخ يصل حتى الركبة. كذلك كانت شوارع القاهرة تشهد ما يرتديه البولنديون من أزياء تشبه الألماظ اسمها ذاباكا، أما الاستراليون فكانوا يرتدون قبعات عريضة [يضعون على يسارها علامات في المناسبات الرسمية] فيما ارتدى النيوزيلنديون قبعات منتفخة مثل الاستراليين ولكن حوافها كانت عريضة. قبعات جنود جنوب أفريقيا كانت مثل واقيات الشمس فيما كانت أغطية الرأس عند الهنود تتباين لكي تدلل على الطائفة والديانة التي ينتمي إليها لابسوها، الفرنسيون ارتدوا الكابات، البريطانيون والكنديون ارتدوا

بيريهات وخاصة لفيالق الدبابات. اليونانيون ارتدوا كابات زيتونية فاتحة ومعها الصديريات السماوية والبيضاء وأحيانا كانوا يرتدون بدلة بومباى. كل جنسية تضيف إلى هذا كله سمات خاصة وعلامات الرتب ورموزها جنبا إلى جنب مع زي الخاكي المترب الذي يحمل لون الصحراء.

الميجور سانسوم الذي عين حديثا كبيرا لضباط الأمن في منطقة القاهرة أمر بأن يرتدي اثنين من رجال دورياته البزة الألمانية لكي يتم من خلالهما رسم صورة عن الوعي الأمني بين صفوف جنود الحلفاء مع أوامر بكتابة قائمة لمن حاولوا القبض على "الألمان" ولكن بعد أن تجولا في شوارع القاهرة يومين كاملين دون أن يثيرا أي ردود أفعال من قريب أو بعيد، صدرت الأوامر بالكف عن المحاولة.

كانت القوات تأوي إلى معسكرات من حول المدينة: جنوب أفريقيا في حلوان والهنود في منطقة مينا هاوس ومعسكر محدد جيدا في المعادي لجنود نيوزيلندا، أما البريطانيون فكان معظمهم في مصر الجديدة. ثكنات العباسية كانت مباني متينة يسكن فيها المتزوجون، ولكن معسكر الحلمية بل ومعسكر ألماظة الأكبر كان يتألف من صفوف متوالية من الخيام المربعة ذات النافذة الواحدة وكل منها تؤوي ثمانية رجال. وتتراوح درجة الحرارة في القاهرة بين ٣٨ و ٤٢ صيفا، ويزيد الإحساس بالقيظ بفعل الرطوبة التي تسببها المزروعات المحيطة بالمدينة فضلا عن نهر النيل نفسه، وكان الرجال ينامون خلال الليالي الحارة كما كانوا يفعلون في الصحراء: على الأرض مستخدمين أحذيتهم كوسائد.

تزويد هذه الآلاف المؤلفة بما يلزمها من طعام وخلافه، وقد أصبحوا بمثابة أجهزة هضم غربية حساسة، دون تسميمها. كان مصدر قلق لا ينقطع بالنسبة إلى السلطات الطبية. الحليب كان يجب غليه باستمرار حتى ولو كان طازجا، وكثيرا ما كان تكتنفه الشوائب ويتم غشه بالماء. واللحوم لقوات الشرق الأوسط كانت تأتي من السودان والحبشة، كما عملت السلطات على

استئجار مواقع لائقة للذبح والتخزين، ولكن بقية السلخانات التي كانت يستخدمها السكان المحليون ومن ثم المطاعم التي كان يرتادها الجنود كانت في حالة يرثى لها، وبقيت كذلك برغم كل الاحتجاجات المنتظمة. وفيما يتعلق بأنواع السجق المحلية لم يكن من سبيل للثقة بها تحت أي ظروف. وفيما عدا الإقامة والغذاء فإن التسهيلات في المعسكرات لم تشمل سوى القليل من ملاعب كرة القدم، فضلا عن بار واحد مزود بمقعد أو مقعدين وصندوق تثليج متهالك يحوي زجاجات بيرة ستلا المحلية و [إذا ما أسعفك الحظ] يحوي أيضا بيرة انجليزية. ومن يريد المزيد عليه أن يستقل الترام إلى القاهرة.

كان البار هو أسبق الأولويات عادة وقد اشتملت المدينة في السنتين الأخيرتين من الحرب على كثرة من تلك الحانات التي كانت تبيع البيرة والويسكي والعرقي. الكباريهات التي كانت تقدم فتيات وموسيقى، كانت رائجة ولكن غالية باعتبار أن مرتادها كان يتعين عليه أن يفتح زجاجات المشروب للفتيات أيضا. في باب الحديد كان يقوم ملهى البوسفور الأقرب ما يكون إلى مقر البوليس الحربي، ولكنه كان مريحا باعتبار قربه أيضا من محطة الترام والقطار الرئيسية وكذلك من حي الأمسيات الحمراء. وشهدت المدينة كذلك ملاهي وكباريهات تتجمع حول شارع عماد الدين، وكانت المطاعم تحمل أسماء من قبيل "كافيه بار أولد انجلاند، أو هوم سويت هوم" وتحرص على تقديم أقرب ما تحصل عليه مصر من الأطعمة الانجليزية، والذين كان يأكلون لحم الجاموس مختلطا بالبيض والبطاطس وعلى موائدهم العتيقة كان يمكنهم التذمر بأن الذوق ليس كما تعودوه، ولكنه كان أفضل بكثير من لحم البقر المحفوظ إياه.

الرجال الذين جاءوا من المدن الصناعية القاسية البرودة في انجلترا، ممن لم يروا في حياتهم أجمل من صباع موز، كانوا يجتازون صدمة ثقافية عميقة. أذواقهم كانت تهاجمها طائفة من الروائح النفاذة والأصوات الزاعقة وفيما احتوى المكان على تشكيلات مدهشة وحافلة من الفاكهة والخضر

والحبوب في المحلات، كان الفقر يطل من كل مكان تترامى عيونهم إليه. يأكلون وقد أحدق بهم أطفال الشحاذين، بينما يطاردهم الباعة الجائلون والصعاليك محاولين أن يبيعوهم منشات وأمواس حلاقة أو مجلات قذرة مثل مجلة "زيب و لاف و وام أو سوسي سنبس" بينما يتصايح من حولهم القوادون الصغار: هاي جورج! عاوز بنت؟ جميلة جدا، نظيفة جدا لحم أبيض من الداخل مثل الملكة فيكتوريا "•

من ناحية أخرى كانت القوات شيئا جديدا على المصريين. فعلى خلاف الجاليات اليونانية والإيطالية التي كانت متواجدة كأفراد داخل طبقات اجتماعية متعددة، لم يكن هناك مثلا جرسونات انجليز ولا بقالون أو سائقو تاكسي انجليز في مصر، بل اقتصر الأمر على مهنيين انجليز متكبرون ومتعلمون. المصريون من جانبهم كانوا في غاية الحرص على متابعة الجنود بوصفهم نماذج من الانجليز العاملين والعاديين. اعتادت الجموع أن تلتئم أمام ثكنات قصر النيل لمراقبة منظر عجيب إلى حد الصدمة هو منظر الجنود الانجليز يجلسون على حواف النوافذ وهم يقرأون المجلات ويحتسون البيرة بينما لا يرتدون شيئا على الإطلاق سوى الشورتات والفانلات.

وإذا ما استدعي ضباط السرايا الطبية لإلقاء محاضرات على الجنود حول الوقاية من الأمراض السرية، فقد كانوا حريصين على أن يؤكدوا أنه فيما كان الدافع الجنسي طبيعيا تماما، إلا أن بالإمكان الاستعلاء عليه دون إلحاق ضرر بالصحة، وهذا من خلال التركيز على ممارسة الألعاب الرياضية، والحرص على اللياقة البدنية العامة وأداء الواجبات والالتزامات العسكرية وقراءة الأعمال الأدبية ومزاولة الهوايات وما إلى ذلك بسبيل. لكن الجيش البريطاني كان يحاول أن يتظاهر - رسميا على الأقل - بأن هذه الناحية يمكن تجاهلها بأمان، ومن ثم عمدوا إلى إنشاء سبعة من مراكز الأمراض السرية ملحقة بالمستشفى الرئيسي بمنطقة القاهرة [ويبدو أن هذه المراكز كان يرتادها الكثيرون]، فبين أكتوبر ١٩٤١ ومارس ١٩٤٢ عندما كانت البلاد تحوي

١٢٧ ألف في المتوسط من جنود الحلفاء في القاهرة وما حولها، كان المركز رقم ١ من المراكز المذكورة يعتني بما يصل إلى ٩٥٤ حالة كل منها كانت بحاجة إلى علاج يتراوح بين عشرة أيام وعشرين يوما في السرير. وبذلت محاولة أخرى لفرض قواعد منظمة على بعض المواخير، بيد أن الأمر بدا وكأنه يقصد إلى إخماد الرغبة بدلا من إثارة الحواس. واحد منها كان عبارة عن مبنى كئيب له سلم حجري عريض وقد وقفت في وسطه طوابير طلبا لأجمل البنات، وعند الطابق الأرضي كان يجلس على كرسي بلا مساند مندوب السرية الطبية يسلم كل زبون واقيا ذكريا وعلبة مرهم ثم كراسة بالتعليمات.

ويورد التقرير الطبي لمنطقة القاهرة بالنسبة إلى الربع الأول من سنة ١٩٤١ ملاحظة كئيبة مفادها "حدوث زيادة في الأمراض السرية في شهر مارس الذي ترافق مع عودة الفيلق المدرع السابع من برقة". إن الجنود الجائعين إلى الجنس يأتون من الصحراء لكي يحولوا أقدم حرفة في القاهرة إلى صناعة خدمية كبرى مع التركيز على حي البغاء في كلوت بك الواقع شمالي حدائق الأزبكية مباشرة. ومن مفارقات الزمن أن "أنطوات بارتليني كلوت" الذي أدخل المُثل الغربية في الصحة العامة والخاصة إلى مصر، وكوفئ بمنحه رتبة بك من جانب ولي نعمته محمد علي باشا يحكم عليه الزمن فلا يذكر إلا في أشد أحياء المدينة وضاعة. الشارع الذي يحمل اسمه يوازي منطقة وش البركة المعروف للناطقين بالانجليزية باسم البركة.

كانت المومسات يجلسن بمراوحهن على مئات من البلكونات الصغيرة التي تطل على ذلك الشارع الضيق الطويل وهن ينادين على الرجال السائرين بينما كانت تقوم على الأرض أكشاك صغيرة كل منها تغطيه ستارة واحدة وحمل أحدها لافتة تقول "نحن نتكلم الاسبرانتو - اللغة العالمية" كانت الأكشاك تفضي إلى أزقة تتشعب في البركة وتحوي معارض لاختلاس النظر وكباريهات للمناظر الفاضحة وكان أشهرها في "دارلينج ستريت"، يقدم عملية جماع فاحشة تضم امرأة بدينة برفقة حمار!

البِركة كان يحدها علامات بيضاء مستديرة في وسطها حرف X بالخط الأسود بما يشير أنها ممنوعة على الأفراد من جميع الرتب. وزيارتها كان معناها المخاطرة بمواجهة الشرطة العسكرية، ولكن لا هذه اللافتات ولا المخاطرة الشديدة بالإصابة بمرض سري كانت تبدو رادعا بما فيه الكفاية، من ثم ازدهرت منطقة البركة حتى خريف عام ١٩٤٢ عندما قتل استراليان مما دفع السلطات إلى إغلاق المنطقة بأكملها (بين صفوف المصريين لم يقتصر الأمر على أن الاستراليين كانت لهم سمعة السلوك الأسوأ بين الجنود، ولكن يقال إنهم كانوا يقذفون البغايا من الشبابيك بعد أن يقضوا منهن وطرا). هكذا طردت البغايا من البركة وكانت تلك مشكلة تغلبن عليها إلى حد ما بأن مارسن مهنتهن في المقاعد الخلفية في عربات الحنطور، ولكن السلطات الطبية ساورها الابتهاج باعتبار أن إغلاق البركة أنزل إلى النصف حالات الإصابة الشهرية بالأمراض السرية التي كانت تلم بالقوات في القاهرة.

كانت زيارة أي ضابط للماخور تعد أمرا سيئا وإن كان ارتياده مرة أو مرتين لمجرد التجربة كان يمكن التجاوز عنه برغم ما يضربه من مثل سيئ أمام الجنود. ولكن كقاعدة عامة كان من الأمور المهينة لأي ضابط أن يدفع مقابل شيء من حقه أن يحصل عليه مجانا! في تقارير الإصابة بالأمراض السرية، يذكر معظم الجنود أنهم أصيبوا في ماخور ارتادوه، بينما يذكر معظم الضباط أن الأمر تم في بيت خاص. على أن هذا الالتزام بالخصوصية سرعان ما اعتوره استغلال شديد يتمثل في تقديم فتاة جميلة غالية الثمن إلى الضباط وفور أن يخلعوا ملابسهم كانوا يضربون حتى يغمى عليهم ثم يتعرضون للسرقة. ومضت المسألة على هذا النحو وقتا إذ لم يكن أي ضابط على استعداد للإفادة بأنه تعرض للسلب تحت طائلة مثل هذه الظروف المهينة.

بالنسبة إلى الجندي البريطاني العادي كان المصريون عبارة عن "ووج" أو فلنقل هم "وشم" وهي كلمة (بالانجليزية) تصوروا أنها اختصار عبارة "ويلي الشرقي المهذب"، ولكنها في حقيقة الأمر كانت موروثة عن أيام لورد كرومر

وتشير إلى طبقة الأفندية من الكتبة والموظفين أو هم "ملح" وهي اختصار لعبارة "مستوظف لدى الحكومة". مع ذلك كان ثمة عمال من صنف ووج أو ملح يقوم بأدنى الأعمال في قواعد المعسكرات والمستشفيات وكانت أطعمتهم تباع في الشوارع وأصبحت الكلمة - ووج مرادفة لوصف أي شيء مصري ثم أصبحت بمثابة شتيمة. وقد صدرت المنشورات تؤكد أهمية الحفاظ على علاقات طيبة مع المصريين، ولكنها لم تتطرق كثيرا إلى كيفية تحقيق هذا الهدف.

ومع كثرة أفراد القوات في الشوارع وكثير منهم كانوا إما سكارى أو ضجرين، بدأت حوادث الشغب تنتشر، ولكن عندما شاركت مجموعة من السكارى العصبجية من الجنود بمشاجرة في مقهى لم يدفع تعويض لصاحبه لقاء الأثاث الذي تحطم، وظل المصريون يشتكون من أن الجنود الانجليز كانوا يخطفون طرابيشهم [برغم أن لعبة الطربوش هذه كانت أسوأ بكثير قبل الحرب عندما كانت أزواج من شباب الضباط يتنافسون من سياراتهم المكشوفة حول من يستطيع خطف أكبر عدد من الطرابيش في مدى عشرين دقيقة]. ولم يكن من غير المألوف أن تختطف سيارة مصرية على يد جنود سكارى كانوا يجبرون صاحبها على توصيلهم في أي مكان يريدون. المصريون كثيرا ما تعرضوا أيضا لحوادث السرقة والضرب، وما كان من سواقي التاكسي إلا أن أعلنوا الإضراب مؤكدين حقهم في أن يركب إلى جانبهم صديق للسائق وتلك عادة كثيرا ما أثارت حمق الأجانب وكانت ممنوعة منذ بضع سنوات. تلك كانت حكايات لم تجد طريقها للنشر قط إلى الصحف التي كانت الأمر يقتصر على تشجيعها كي تنشر صور الجنود وسائقي عربات الحنطور وهم يتبادلون الضحكات!

كتبت أوليفيا ماننج تقول "مضى وقت طويل منذ أن رأينا الانجليز للمرة الأولى في غمرة مثل هذه الجموع". وكانت الكاتبة قد سافرت من بوخارست إلى أثينا ومنها إلى القاهرة منذ عام ١٩٣٩ دون أن تعود إلى الوطن في ذلك

الحين "لا أقصد طبعا الجموع الحاشدة من الانجليز العاديين بل أقصد الشباب فقط الذين كانت الشوارع ملأى بهم وقد لمعت حبات العرق على أجسادهم، تكاد حلاقة شعرهم تتشابه كفرد واحد بينما تخفي البشرة الانجليزية الحمراء التي لوحتها الشمس مدى الاختلافات والفروق فيما بينهم: معظمهم أميل إلى البدانة وأبعد عن الطول. كانوا أكثر انجليزية من الناس الذين نلمحهم في شوارع لندن. لقد جاءوا من شتى انحاء انجلترا حيث يقل الاختلاط بالدماء الأجنبية. وكان الخاكي المهترئ الرقيق الذي بات باليا من كثرة الغسيل قد تكرمش بفعل الحرارة، بينما تظهر بقع العرق على أكتافهم وتحت آباطهم".

لاحظت أوليفيا مانتج أيضا أن الأفراد الأكثر حياء وارتباكا بين الجنود وضباط الصف هم الذين كانوا حريصين أشد الحرص على التزام جادة الأمن من أجل الاحترام. ما أسهل ما كانوا فريسة لمرشديهم العرب الذين كانت تميزهم طلعة مرموقة وهم يتسكعون حول الخنادق الفاخرة في جلابيات نظيفة ويتوكأون على عصي لزوم المهابة وحسن السمت الذي يليق بناظر مدرسة. لاحظت أيضا أنهم كانوا يعاملون المدنيين الانجليز بأقصى قدر من التوقير.

هناك مثلا مسز ديفون شاير التي يمكن للمرء أن يحكم على مهابتها من خلال مطالعته صورة التقطت لها وهي تخاطب مجموعة منتبهة من الرجال والنساء يرتدون الزي العسكري حيث يحيطها هالة من احترام تعودت عليه. هذه المرأة الفرنسية المرموقة كانت من كبار الخبراء في العمارة الإسلامية، وكان من شأن جولة بصحبتها بين مساجد القاهرة أن تكون واجبا مفروضا يليق بأي زائر مثقف للمدينة: أصبحت وكأنها أحد المعالم التاريخية مثلها مثل جرترود ستاين في باريس أو برنارد برنيسون في تاتي (آثار السند الإسلامية). في عصر ثلاثة أيام من الأسبوع، إبان الحربين العظمى الأولى والعالمية الثانية دأبت مسز ديفون شاير على أن تصحب أفراد الخدمات المختلفة - مجانا - في جولة حول الصروح الإسلامية الجليلة في أنحاء المدينة.

كل امرئ كان يريد أن يشاهد الأهرام، وكانوا يشكلون مجموعات بين خمسة أو ستة أفراد يكتروت عربة حنطور ساعة العصاري حينما تصبح درجة الحرارة أكثر احتمالا. وكانت تدرج بهم عبر الكوبري الانجليزي وهم يراقبون المدينة إذ تنتهي أرباضها لتسلم إلى قرى من الطوب اللبن وإلى ترع وغيطان حصدوا منها لتوّهم محاصيل الفول والشعير والقمح. ويذكر "دليل القاهرة" الذي أصدره شندلر عام ١٩٤٣ أن "الهرم الأكبر يمكن تسلقه في نحو ١٥ دقيقة بمساعدة اثنين من العرب (المصريين) حيث يمسك كل منهما بإحدى يدي المتسلق". وبطريقة أو بأخرى كان المشاهدون يتسابقون إلى إبداء الإعجاب بالمنظر ثم يحفرون الحروف الأولى من أسمائهم على القمة تماما كما سبق وفعلت قوات نابليون منذ مائة وخمسين سنة من عمر الزمن. بعدها يتوجهون لمشاهدة أبو الهول الذي لم يكن يظهر في أبهى صوره، فمن أجل حمايته من التلف بفعل القنابل فكر البريطانيون عن حق في بناء حائط وقاية فيما بين مخلبيه، وفي أعلى الجدار وضعوا دعامات من أكياس الرمل لكي تستند إليها ذقن التمثال التي يرجع عمرها كعمره أربعة آلاف سنة.

ومن أجل الهروب من الضوء الصارخ والحر الخانق بعد الظهر، كانت هناك دائما متعة التردد على السينما، وفي عامي ١٩٤٠ و ١٩٤١ شملت الأفلام الممكن رؤيتها في القاهرة عناوين من قبيل "سيريناد برودواي" و "إليزابيث وإسكس" و "ثورة على السفينة بونتي" و "ذهب مع الريح" و "الدكتاتور العظيم". وكان العرض ينتهي بعزف النشيد الوطني المصري الذي ألفه فيردي*. وفور بداية النشيد ينهض جميع الجنود البريطانيين بين

* . تقول الرواية إن فيردي دون النغمة بسرعة وأعطاها هدية إلى الرجل الذي قدم له مكافأته عن تأليف أوبرا عايدة التي كان مكلفا بوضعها وإن لم ينجزها في الوقت المحدد من أجل افتتاح دار الأوبرا في القاهرة.

الجمهور واقفين على أقدامهم ويشرعون في أداء أنشودة في غاية الوقاحة تقول:

"الملك فاروق! الملك فاروق: تسرق م العيون الرمش

في الشارع يشوفوك في بدلة بخمسين قرش

والملكة فريدة العايقة، عن كل العيلة ماتفرقش...." .

محمد نجيب الذي أصبح فيما بعد رئيسا لمجلس الثورة في مصر كان برتبة أميرالاي في الجيش المصري، وفي مذكراته كتب يقول: إن فاروق لم يكن محبوبا قط إلا عندما كانت تهينه الجنود البريطانية إذ كنا نعرف، كما كانوا هم يعرفون، أنهم بإهانتهم ملكنا التعيس فإنما كانوا يهينون الشعب المصري بأكمله.

بيد أن هذه الوقاحة البريطانية لم تكن تغتفر باستمرار: محمد نجيب مد يده مرة فألقى بجندي بريطاني من الأتوبيس، وهناك باشا أيضا عندما تلقى إهانة لم يحتملها من ضابط بريطاني لعبت الخمر برأسه إلى حد بعيد فقرر أن يكون انتقامه مشهودا، ودعا الضابط على العشاء وكان صاحبنا في ذلك الوقت قد نسي تماما الرجل الذي كان وقحا معه، ولكن لم يكن ثمة سبب واضح لرفض مثل هذا العرض غير المتوقع لتناول وجبة مجانا، فوافق وعندما دق جرس دار الباشا في الليلة الموعودة إذا به بدلا من أن يفتح له سفرجي مهذب، ألفى نفسه أمام اثنين من عتاة النوبيين الذين اجتذبوه إلى غرفة حيث وجد مضيفه يقول: "لقد أهنتني في إحدى الأمسيات وعليك الآن أن تدفع الثمن"، وسرعان ما أنزلوا سراويله وقيده النوبيان حيث تبادل الاعتداء عليه جنسيا ستة نوبيين آخرين قبل أن يلقوا به خارج البيت. معظم الرجال كانوا يبقون مثل هذه الحوادث المذلة بينهم وبين أنفسهم، ولكن في اليوم التالي شرع هذا الضابط بالذات في إبلاغ كل فرد قائلا: عمرك ما تتصور ما حدث لي بالأمس، كانت ليلة رهيبة لقد ضاجعني ستة نوبيين!".

لم يكن بوسع الجنود أن يتحملوا الرياش الفاخر والتكييف المريح الذي كان مهيأ في دور السينما الفاخرة، ولذلك كان بوسعهم أن يشاهدوا الأفلام في السينمات الصيفي المكشوفة (منها سينما حدائق الأزبكية التي كانت تشكل مصدر إزعاج للنزلاء الذين كانوا يحاولون مغالبة النوم في غرفات الجهة الشرقية من فندق شبرد). في مرحلة مبكرة من الحرب، حصل رجل أعمال اسمه توماس شافتوه على امتياز بإقامة دور سينما في جميع المنشآت العسكرية. من هناك كانوا يعرفون الأفلام الموزعة بهذه الطريقة بوصفها "شفتي شافتوه". جابربيلا باركر زوجة سيرير باركر (عائلة باركر كانت من أقدم عائلات سماسرة القطن في الاسكندرية) قامت بتشكيل فرقة موسيقية من المتطوعين تحت اسم ملائكة الصحراء، وقامت بجولات مع الفرقة في المعسكرات والمستشفيات. وقد تعاقدوا مع الفنانة جريسي فيلدز لافتتاح حفل ترفيه على المسرح في القاهرة لصالح الجنود، ولكنها لم تأت قط. أما أول فريقين للموسيقى فكانا يحملان اسم الأضواء وأهلا بالسعادة وقد اندمجا معا وقدما أول حفل موسيقي في دار الأوبرا بالقاهرة في أكتوبر من عام ١٩٤١ تحت اسم رابطة الترفيه للخدمة الوطنية.

سيدات المجتمع المضيفات في القاهرة، ولا سيما ليدي رسل باشا، نشطن في إنشاء النوادي التي يستطيع الرجال أن يخلدوا مرتاحين إلى ظلالها الوارفة بعد أن يتجولوا في أنحاء المدينة وهم يرتدون الجوارب الصوفية وأحذية الجيش الساخنة. أما الجنود الذين كانوا يختلفون إليها فكانوا يعتبرون في عيون زملائهم الأكثر شقاوة وشهوة وكأنهم في حكم المؤنثين، ومع ذلك فقد كان يستخدم هذه المنتديات آلاف من الأفراد كل أسبوع. نادي "تبراري" كان يتميز بشرفة طويلة تطل على الأزبكية حيث يقدم الشاي والتوست والبيض والكعك بأسعار زهيدة للغاية. وكان يحوي كذلك صنابير للاغتسال وحمامات وقاعة للمطالعة ودكان حلاق. كان المقهى تديره السيدات اللاتي كن يمضين الصباح عاملات متطوعات في المستشفيات. ذات مرة كانت ليدي ويفيل التي

بلغت وقتها منتصف الخمسينات من عمرها تقدم الشاي في واحد من تلك المقاهي حنيما سألها أحد الجنود عما تفعله في بلد كالقاهرة، فأجابت أنها إنما جاءت لتصحب زوجها الذي يعمل "جنديا". ساعتها أتاها الرد على الفور: "أليس من المخجل لرجل بلغ هذه السن أن يظل نفرا محاربا حتى هذه المرحلة؟!".

ليدي رسل باشا التي بدأت برنامج موسيقى للجميع كانت ترتب حفلات الكونسير للقوات في سينما قديمة. لم يكن لديها أو مساعداتها سوى جراموفون واحد وبضع اسطوانات وبيانو كبداية ولكن الموسيقيين المحترفين والممتازين بدأوا في الظهور بعد أن باشرت جمعية الترفيه السالفة الذكر نشاطها في مصر. وكانت حفلات الموسيقى أيام الآحاد تضم أوركسترا القاهرة السيمفوني بقيادة قائد السرب هوجو ريجنولد حاشدة باستمرار بالمرتادين. وفي عصاري الاثنين كانت شركة فنادق مصر تقدم حديقة مجانا سطح الكونتننتال لكي يقدم فيها الهواة عروضهم وموسيقاهم وكانت تلك هي الفترة الوحيدة التي يسمح فيها للرتب الأخرى بزيارة الفندق.

إن الفصل بين الضباط والأفراد كان أمرا واضحا في كل مكان. وبالإضافة إلى فندق الكونتننتال، لم يكن يسمح للجنود بدخول فندق شبرد ولا نادي التيرف أو نادي الجزيرة، فضلا عن المطاعم والنوادي الليلية الأغلى أسعارا. من ناحيته كان الجندي الانجليزي يتقبل مثل هذه الأمور وقد نشأ على فكرة "نحن وهم". لكن هذا الوضع سبب استياء بين صفوف جنود استراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا، وبعضهم جاؤوا من عائلات موسرة من ملاك الأراضي وقد تم تجنيدهم كأنفار عاديين، ذلك لأنهم كانوا أشد حرصا على خوض القتال ولم يكن لديهم وقت يضيعوه لدخول دورات التدريب كضباط. وكانت حقيقة أن حماسهم الوطني هذا منعهم من دخول شبرد تبدو أمرا بعيدا عن الإنصاف بكل مقياس. ثم زاد الانتقاد إزاء هذا الفصل بين القوات عندما بدأ يفد على القاهرة الضباط والملاحون الجويون الأمريكان، ومن ثم بدأت

القواعد المعمول بها تخف إلى حد ما، ولكن شبرد ظل متمسكا بها حيث لم يكن أي سيد عائد من الصحراء، على نحو ما يذكره سيسيل بيتون، يسلك باستمرار سلوكا حضاريا سليما. لقد نزل صاحبنا ذات صباح ليجد بهو الفندق في حال من الفوضى، حيث تناثرت في أرجاء المكان قطع الأثاث وأصص النباتات وكانت الأرضيات مغطاة بالطين وشظايا الزجاج ورغاوي سائل إطفاء الحرائق. وكان البواب الليلي على وشك البكاء وهو يقول: "امبارح بالليل كلهم يلبسوا البنطلونات الحمراء، وكلهم من نفس الفرقة ولاد الذين. كل مرة ياخدوا الكراسي ويحطوها في الأتوموبيل، وأنا آخد الكراسي أرجعها، ياخدوها تاني وأنا أرجعها يقولوا "حطها على الفاتورة" وبوم! حطها على الحساب، طاخ. وكلهم اتجننوا على الست السمراء، رايحين الصحراء تاني بكره، وكل مرة يقولوا حطها على الفاتورة!".

كان جروبي واحدا من ألطف الأماكن القليلة المتاحة للكل، برغم أن أسعاره لم تكن زهيدة، ومع ذلك كان معظم زبائنه من الضباط. كان هناك اثنان من محلات جروبي: الأول في ميدان سليمان باشا، والثاني في شارع عدلي باشا، وكان ملحقا به حديقة تمتد فيها زهور النباتات المتسلقة على الجدران كما وضعت موائده وكراسيه الصغيرة فوق أرضية من حصا الرمال. ومهما كانت تلك الحديقة حافلة بالرواد، إلا أنها كانت تفوح دائما بجو من الألفة. الباشوات كانوا يأتون لرشف القهوة وتناول الكعك بالزبد مع عشيقاتهم الآتيات من شرقي المتوسط اللاتي كن يضعن فراءهن فوق الكراسي بينما كان الضباط المجازون يتطلعون بحثا عن رفقة أنثى هنا أو هناك، وقد ظلوا يرمقون بحسد ذلك الرجل الذي يجلس على المائدة المقابلة ثم فجأة ينهض واقفا وعلى وجهه ابتسامة ثم يسحب كرسيا لتجلس عليه المرأة التي جاءت لتنضم إليه. وعند حلول الظلام كانت الحديقة تضاء بخيوط من لمبات ملونة من الضوء الخفيف.

لم تكن الحاجة إلى رفقة امرأة تتكلم الانجليزية مقتصرة على الأفراد القائمين بإجازات فحسب، بل زادت الحاجة بصورة درامية إلى توفير موظفات

للأعمال الكتابية باعتبار أن العام السابق شهد نساء غير مستخدمات مثل ليدي رانفورلي وقد تم اجلاؤهن من المكان. من هنا بدأ استخدام كثير من اللاجئات الناطقات بالانجليزية في أعمال الشفرة والترجمة الفورية والرقابة، ولكن الأمر ظل بحاجة إلى المزيد من النساء من أجل إخلاء الرجال العاملين في المكاتب كي ينخرطوا في سلك الخدمة الميدانية. هكذا تم استدعاء متطوعات من الجيش المساعد من نساء جنوب أفريقيا لملأ هذه الثغرة وفي ٢ أغسطس احتفلت مجلة باريد على صفحتها الأولى بوصولهن إلى القاهرة حيث أعلنت قائلة: "الواسيس هنا [وهو الاسم المختصر بالانجليزية لعبارة نساء الخدمة المساعدة من جنوب أفريقي"].

طبقوا عليهن نظاما صارما حيث تنام أربع منهن في غرفة واحدة فوق مخادع كان ينبغي تبخيرها ضد الحشرات مرة في الأسبوع، وكن ينتظمن في دورات تدريبية يقوم عليها اسكتلندي برتبة سيرجنت. ولكن كان لديهن بعض سبل الراحة: كل شهر كان يأتي طرد من أوما وهي مسز سمطس (من جنوب أفريقيا)، وكان الطرد يوصف بأنه أكياس المجد إذ كان يشمل الحلوى والجوارب وأزواجا من الصديريات الخاكية المطاطة وعلب من سجاير سبرنج بوك. وفي إحدى المناسبات تم تسليم أكياس المجد إلى فصيلة من جنود جنوب أفريقيا في الجبهة مما أشاع موجة من التندر عندما تناول الجنود الصديريات وكانوا بها يلعبون. في أول الأمر أسندت إلى هذه المجموعة من نساء جنوب أفريقيا أعمال المكتب التي لا تتطلب أي ذكاء، وبعد ذلك تحسن الموقف. وعندما وصلت أولى نظيراتهن من النساء البريطانيات بعد أشهر قليلة ولم يشعرن بالارتياح إذ ألفين أن نساء جنوب أفريقيا كن قد تولين أفضل الأعمال. كذلك أتيح لهن أن يرتدين جوارب حريرية بينما كانت نظيراتهن الانجليزيات مضطرات لارتداء أسوأ أنواع الجوارب المصنوعة من القطن الخاكي الملون.

لم يكن يسمح للجندي النفر بالحياة خارج الثكنات، وكان يتعين عليه أن يعود إليها قبيل منتصف الليل وهو التزام لم يكن مفروضا لا على الضباط ولا

أيضا على أولئك الذين كانت وظائفهم لا تشمل الانخراط بالجيش. وكانت أفضل منطقة للسكن هي الجزيرة حيث يشارك عادة في الشقة الواحدة اثنان أو أكثر من الأصدقاء في ضوء ارتفاع الإيجارات. ومع ذلك فلأن الملاك المصريين كانوا يميلون إلى نقل أفضل قطع الأثاث والسجاجيد قبل التأجير، ظل مرأى الشقق عبارة عن فضاءات تبعث على الكآبة: أرضيات عارية، ومقاعد شبه نادرة، وشيش النوافذ المغلق دائما في وجه الشمس مما ظل يؤكد على الطابع المؤقت للسكن. ومع ذلك فكل شقة منها كانت تشمل على الأقل اثنين من الخدم – سفرجي وصبي. وكان هذا الفريق الأساسي يضاف إليه في غالب الأحيان طباخ [الخادمات كن عملة نادرة إذ أن معظم المصريين كانوا يتصورون أن من العيب خروج المرأة للعمل خارج بيته].

وكان بوسع النساء اللاتي يعشن في هذه الشقق ولا يرتدين اليونيفورم العسكري أن ينفقن جانبا قليلا من نقودهن على بند الملابس حيث يتوافر بكثرة ملابس القطن المطبوع والحرير فضلا عن وجود الكثير من الخياطات اليونانيات والشاميات اللاتي كان بمقدورهن صنع معجزات باستخدام ماكينات الخياطة العتيقة التي يملكنها. ساد وقتها جو من التدبير المبهج في الموارد مما كان يعني أيضا حرية إعارة واستعارة الملابس، وإن كانت هذه الأمور تتم أحيانا عن طريق شبكة علاقات السفرجي ذاته دون معرفة صاحبها أصلا. وكم كانت امرأة تنظر أحيانا بدهشة شديدة إلى فستانها شخصيا إذ يتحرك وحده من المغسلة (صبي المكوجي الذي يحمله كان من القصر حتى يكاد لا يراه المشاهد)، ومن ثم يتجه الفستان إلى وجهة غير معروفة تماما!

في المنشآت العسكرية البريطانية كان يوم العمل يبدأ في التاسعة وينتهي في الساعة الواحدة ظهرا. بعد ذلك يتجه الضباط إلى نادي الجزيرة يلعبون التنس ويسبَحون ويعقب ذلك الغذاء من بوفيه حاشد بألوان الدجاج والفطائر ولحم البقر المحمر والمسلوق ولحم الخنزير وقطع الكستليتة. ولأن النادي لم يكن متاحا أمام جميع الرتب فيما كانت مجموعة نساء جنوب أفريقيا ممنوعة

بدورها من الظهور بالزي العسكري حتى في المساء، فقد حلت المشكلة بارتداء معاطف وكابات الكاكي عند المدخل وبعد ذلك إزاحتها لتكشف عن الفساتين النهارية (كان اكتشاف الأمر يعني حبس قشلاء لمدة خمسة أيام). ثم كانت أعمال المساء تبدأ في الرابعة أو الخامسة عصرا.

من الجدير أن نتذكر أن معظم الناطقين بالانجليزية في القاهرة في ذلك الوقت كانوا تحت سن الثلاثين وكانوا مشغولين إلى حد رهيب بمهمة صعبة تتمثل في كسب الحرب وكانت هذه المهمة هي التي أعطت حياة هؤلاء البشر لمسة من البهجة وكأنها من صنع الصحافة ووسط هذه البهجة كانت المرأة أقلية ممتازة. لهذا فعند انتهاء العمل في الثامنة أو التاسعة كانت تلتئم مجموعة صغيرة من الضباط خارج ثكنات فصيلة نساء جنوب أفريقيا في شارع شامبليون بعضهم بانتظار صاحباتهم والآخرون يعللون أنفسهم بالأمنيات!

تبدأ الأمسيات بعشاء في مطاعم فلورنت أو سان جيمس أو لو بتي كوان دي فرانس، ويعقبه رقص في السكرابيه أو ديك كلوب أو ملهى الكيت كات. والآخران يقومان في عوامتين على شط النهر. ملهى الكيت كات كان مفترضا باستمرار أن يكون حاشدا بالجواسيس وكان الضباط يحذرون بأن يتبعوا منهج الحذر بالذات أمام الراقصات المجريات ولكن هذا التنبيه وصل في بعض الأحيان إلى حدود مبالغة شديدة.

من الأماكن المفضلة أيضا كان مطعم روف فندق الكونتيننتال الذي كان مزودا بصالة رقص وكباريه كان مخيبا للآمال، إذ كان يشمل الرقص البلدي والأكروبات وملاعيب الكوتشينة من مستر كارد مان. وكان تقدم البرنامج شقراء جميلة أمريكية في فستان من الشيفون الطويل، تلف العرض كله برقصة فردية تبدأها بعبارة "والآن أقدم لكم نفسي، بيتي لك شخصيا في رقصة كذا"، ولهذا عرفها كل معجبوها باسم بيتي لك شخصيا.

لم يكن متوقعا من أي فتاة أن تدفع نظير أي من هذه العروض وكان يمكن أن تمضي شهورا دون حتى أن تدفع ثمن عشائها، فإذا ما كانت لطيفة اجتماعيا وجذابة ولو حتى بصورة معقولة ستجد نفسها باستمرار مدعوة سبعة أيام في الأسبوع. على أن الأمر كان يشمل فتيات لم يعجبهن استمراء هذه الأحوال بل أصبح بعضهن في حال من الاستهانة بالرجال الذين يترامون عليهن لدرجة أن نمت بينهن عادة الإشارة إلى هؤلاء الرجال بوصف "تذاكر الوجبات".

في رواية أوليفياماننج بعنوان (شجرة الخطر)، وبذات المجلد الأول من ثلاثية الليفانت، تسأل هاريت برنجل الحسناء إدوينا إذا ما كانت تشعر كثيرا بالسأم. "طبعا ولكن ماذا يمكن أن أفعله بخلاف ذلك؟ أما أنت محظوظة لديك زوج لطيف ولديك شيء تعيشين من أجله".

هكذا كان الباب مفتوحا أمام موسم اصطياد الأزواج. ولم تكن الكثيرات يظهرن نفس العزم والتصميم الذي أظهرته فتاة قائد التدريب العسكري التي أخرجت من قاع حقيبتها ثوب زفاف من الستان الأبيض المكرمش وهي تقول: لأتزوجنه في النهاية؛ ومع ذلك فالشابات اللائي وجدن أنفسهن في القاهرة كن يعرفن أن ليس بوسعهن قط التمتع بمثل هذا الخيار مرة أخرى وبالذات في بريطانيا ما بعد الحرب.

إن التواجد في الخارج بصفة عامة وفي المشرق بصفة خاصة كان له أثره الفعال والمستمر على إزالة قيود التحفظ بين البريطانيات ومن هنا كم شهدت القاهرة أزرارا تفتح بطريقة أو بأخرى. فالحرب لم تقتصر على أنها أتاحت أولى الفرص الرومانسية الحقيقية أمام الشابات ولكن أتاحت الحرب أيضا أخطر مقولة تدفع الشابة إلى الاستسلام أمام ما يطلبه الرجل. فحقيقة أن الرجل المعني يمكن أن يقتل في الأسبوع القادم لم تكن تمثل فقط مجرد ضغط شديد ترزح تحته النفس، ولكنها كانت تكسب العلاقة الغرامية لمسة من النبل ورغبة في العطاء.

البنات العاديات وكن أقرب إلى روح الحزن وتفاقم اليأس عادة، ما كن يحصلن على الأزواج، ولكن قلما يكون هو شريك الحياة الذي طمحن إليه، ولذل فمئات الزيجات التي تمت في القاهرة جاءت لمجرد أن الرجل كان بحاجة إلى مرفأ يأوي إليه في ذلك العالم القرمزي الشديد التخبط الذي خلقته الحرب.

مع ذلك شهدت القاهرة نساء كانت الأسبقية الأولى عندهن هي العمل والترقي في المهنة: إيف كوري، ابنة العالمين الفرنسيين ماري كوري وبيير كوري، وصلت إلى القاهرة في نوفمبر سنة ١٩٤١ عاقدة عزمها على أن تصبح أول مراسلة صحفية تزور الجبهة في حملة الصحراء. لم يكن يسمح للنساء بالوصول إلى مسرح العمليات، ولكن بمساعدة من راندولف تشرشل، وكانت متعته هي تكسير القواعد، حققت إيف طموحها. لم تكن (الرحالة والكاتبة) فريا ستارك قد سمعت عن مكان تواجد إيف كوري إلا بعد أيام قلائل من ذهابها للجبهة، وكان ذلك في غذاء مع البريجادير إريك شيرر من المخابرات الحربية. سألت ساعتها إذا ما كان بوسعه أن يرتب لها زيارة مماثلة لكنه عمل على تسويف الأمر موضحا لها أن جميع المرافق الصحية عمومية لدرجة أن كل شيء يتوقف ببساطة عندما تتواجد في المعسكر امرأة واحدة. ولم يكن الأمر بمقتصر على هذا التحجيم لسلوك الرجال. إن الكسندر كليفورد مراسل دايلي ميل يتذكر أن راندولف تشرشل كان عليه أن يقود السيارة ومعه إيف كوري أربعة أميال داخل الصحراء ثم ينتظرها حتى تعود (من قضاء حاجتها). ومع ذلك فقد كانت فريا قمينة بأن تستمتع بمجرد فكرة وجودها كأمرأة واحدة داخل عالم متقشف مقصور على الذكور في الصحراء "كم من المرات في الصحراء التقيت صدفة بانجليزي متسخ الجسم ملوح من الشمس، لا يكاد المرء يتعرف عليه تحت هذا المكياج من الرمل والعرق و ... سمعت صوتا مهذبا يخاطبني بتأثر طفيف: فرصة سعيدة للغاية أن آراك هنا، لم نلتق معا منذ الغذاء في الريتز أو منذ أن رأيتك في حفل ديزي الراقص".

مشكلة إدارية

أول مقر لقيادة الجيش البريطاني في مصر وقت الحرب كان في سميراميس، وكان فندقا كئيبا ووخيما على الطراز الإدواردي ويطل على ضفة النيل، وظل مقر قيادة القوات البريطانية في مصر*، بينما كانت الإدارة الفعلية للحرب قد انتقلت إلى عمارة حديثة تعرف باسم جراي بيلارز في الحافة الجنوبية من منطقة جاردن سيتي مجاورة لشارع قصر العيني. والسرعة التي اضطرت بها قيادة الجيش البريطاني إلى التوسع هي التي شجعت على انتشار عدد المكاتب بدلا من كفاءة عملها: التخطيط والاتصالات والإمدادات والمخابرات والدعاية والرقابة كانت كلها موزعة على أقسام وهذه الأقسام كانت منقسمة بدوره إلى إدارات وكل منها انبثق عنها بالتالي إدارات فرعية تابعة!

سير مايلز لامبسون كان مرتاحا إزاء التعاون مع ويفيل في التخلص من علي ماهر باشا، وكان يأمل في أن باستطاعته التعويل على وزن قادة الأفرع المسلحة عندما احتاجهم بعد ذلك لممارسة الضغط على المصريين. ومع ذلك فقد بلغ الحذر بقيادة الجيش البريطاني في مصر من هذا التداخل من جانبها في السياسات المحلية مبلغا كبيرا: في واقع الأمر أرادت قيادة الجيش أن تتباعد

---

* كانت الحامية البريطانية التي تتولى وقت السلم حماية المصالح البريطانية وقناة السويس تعرف باسم القوات البريطانية في مصر، وفي وقت الحرب حافظت هذه القوة على شخصية مستقلة عن الجيش البريطاني في مصر.

كثيرا عن السفارة قدر الإمكان ومن ثم تعاونت عوامل متعددة منها هاجس السرية وعدم التحمس لإحاطة السفارة علما باستمرار إزاء الأحداث لكي تضع سير مايلز في أحيان كثيرة ضمن مواقف حرجة عندما كان يكتشف أن رئيس الوزراء المصري كان أكثر إحاطة بما يجري من السفير شخصيا بشأن الأعمال التي تقوم بها قيادة الجيش البريطاني في مصر. سيسيل كامبل الذي كان المستشار القانوني الأقدم للسفارة شعر أنه في موقع قوي لدرجة أن ينتقدها ومن ثم أخبر المستشار تيرينس شون أن التباغض الحاصل بين قيادة الجيش البريطاني والسفارة أمر لا يمكن السكوت عليه محذرا من أنه لو عاد إلى لندن فلسوف يبلغ لورد بيفر بروك (ملك الصحافة - الوزير المسؤول عن التسليح) عن الموضوع برمته.

المشكلة كانت تكمن في الهيكل الإداري القائم: قيادة الجيش البريطاني في القاهرة كانت مسؤولة أمام وزارة الحرب، والسفارة البريطانية كانت مسؤولة أمام وزارة الخارجية، وكلتا الوزارتين كانتا مسؤولتين بدورهما أمام مجلس وزراء الحرب (المجلس المصغر المنبثق عن وزارة تشرشل بأكملها). بعبارات أخرى فإن الهيئة الوحيدة ذات السلطة القادرة على تنسيق أعمال قيادة الجيش البريطاني في القاهرة والدبلوماسيين البريطانيين في العالم العربي كانت موجودة في الجانب الآخر من أوروبا المحتلة (يعني بريطانيا) وعند هذا المستوى الأولومبي كان من الصعب البت في الأعمال اليومية التي تجري وسط الأوضاع السريعة التغير في منطقة الشرق الأوسط.

في أبريل ١٩٤١ كتب ويفيل إلى وزارة الحرب قائلا: "لا يكاد يوجد شك في أن الأحداث في العراق وسوريا والخطط القائلة بإحياء التمرد في فلسطين وأنشطة الطابور الخامس في مصر كلها جزء من خطة ألمانية منسقة تبغي إثارة أقصى قدر من المتاعب في البلدان الناطقة بالعربية ... إن الألمان يتمتعون بميزة الاتجاه الموحد والقدرة الموحدة على تنفيذ هذه السياسة ... ولكننا من ناحية أخرى لا نملك سلطة أقرب إلينا من لندن التي يمكنها في

القضايا الكبرى أن تبت بشأن السياسات العامة فيما يتعلق بالاستراتيجيات وأن تعتمد بنود الإنفاق أو تباشر بتدابير مهمة تقصد إلى مواجهة أنشطة العدو أو دعاياته عندما تكون مطلوبة على مستوى الشرق الأوسط. ويستدعي الأمر في كل مشكلة شرق أوسطية تقريبا مشاورة الممثلين المحليين لما يمكن أن يصل إلى ست مصالح في حكومة صاحب الجلالة ثم الإبراق إلى الوطن بالآراء التي يبدونه.... ".

في منتصف يونيه زار القاهرة أفريل هاريمان بوصفه الممثل الخاص للرئيس الأمريكي روزفلت واتفق مع كل من ويفيل ولامبسون على أن الأمر يحتاج إلى "سوبرمان" يحمل رتبة الوزير يتولى تنظيم الأولويات المتصارعة في غالب الأحيان بين الدبلوماسيين والعسكريين. وقد استلفت نظر رئيس الوزراء إلى الفكرة ولكنه لم يتخذ إجراء إلا بعد أن تلقى برقية من ابنه راندولف الذي كان قد أمضى بالقاهرة ثمانية أشهر مؤكدا ما أبداه هاريمان وقتها.

اختار تشرشل أن يكون أول وزير دولة في منطقة الشرق الأوسط هو أوليفر ليتلتون، ألذي كان يثق فيه كثيرا. فقبل الحرب كان ليتلتون قد أبدى بُعد النظر عندما نبه الحكومة إزاء الانخفاض الخطر في مخزونات البلاد من المعادن الحيوية غير الفلزية. وقد تم تعيينه مراقبا لشؤون المعادن في إطار عملية تأميم في حالة الطوارئ للصناعات، فبذل جهده لشراء احتياطيات كبيرة بأسعار منخفضة إلى حد مرموق. وقد بلغ إعجاب تشرشل به لدرجة أن أصبح ليتلتون سنة ١٩٤٠ رئيسا لمجلس التجارة.

وها هو الآن رئيس الوزراء يبلغه أنه بصفته الجديدة كوزير للدولة في الشرق الأوسط سيكون عضوا بمجلس الوزراء ومن ثم سيمثل "أعلى سلطة في الموقع". وتصور ليتلتون أن هذا الأمر لن يعنيه كثيرا، فالسفراء والقواد سيظلون يقدمون تقاريرهم أولا إلى رؤسائهم المباشرين في هوايت هول - دوائر الحكومة البريطانية، أما سائر المصالح الحكومية التي كان يتوقع أن

ينسق فيما بينها فستظل بدورها في موقع المسؤولية أمام الجهات التي تتبوأ موقع أباطرة الحرب مثل وزارة النقل ووزارة اقتصاد الحرب أو وزارة المستعمرات.

أدرك ليتلتون أن كل هذه المجموعات سوف يتعين عليه إقناعها، بدلا من إصدار الأوامر إليها، بأن تتصرف في إطار من التناسق والتواؤم. وكان مركزه بوصفه أعلى مسؤول في الموقع دون أي سلطة يؤبه بها يعني أن يتعين عليه الاحتجاج بأبهة المنصب دون أن يضعه يوما موضع الاختبار.

انتقل وزير الدولة إلى مكتب في البناية رقم ١٠ شارع الطلمبات بجاردن سيتي، ومن ثم أصبح يعرف باسم "رقم ١٠" (أسوة بمقر الوزارة البريطانية في لندن) وكانت أولى المهام الكبرى التي واجهت ليتلتون هي وضع صياغة للهدنة مع سورية. كان ديجول قد شعر بالاستياء، عن حق، عندما قرأ شروط الاتفاق الموقع يوم ١٤ يوليه. وبرغم أن الجنرال كارتو ممثله الخاص كان عضوا في هيئة الهدنة إلا أن الوثيقة لم تأت على ذكر الفرنسيين الأحرار من قريب أو بعيد برغم دورهم المهم في الحملة. حينذاك اكتشف أن الجنرال ويلسون وجنرال حكومة فيشي دينتز كانا قد وقعا بروتوكولا سريا يمنع أي اتصال بين ضباط فرنسا الحرة وقوات فيشي. وجاء هذا ليؤكد أسوأ وساوس ساورت ديجول: أن البريطانيين ينتهزون فرصة الضعف الحالي لفرنسا لكي يستدرجوا دول الشام لتصبح داخل مناطق نفوذهم ويبعدوا عنها الفرنسيين الأحرار تماما.

هنالك اقتحم ديجول مكتب ليتلتون وفي يده ورقة تعلن انسحاب جميع قوات الفرنسيين الأحرار من تحت قيادة القائد الأعلى البريطاني، وما كان من ليتلتون إلا أن هب بشجاعة قائلا بالفرنسية إنها "تون أفينو" وهي عبارة دبلوماسية فرنسية تعني أنه لم يقر باستلامه للورقة ومن ثم قام بتمزيقها.

في تلك اللحظة جن جنون ديجول وظل يلعن ليتلتون والبريطانيين وكل أفاعيلهم، ولكن في الاجتماعات اللاحقة استطاع هو ووزير الدولة أن ينسجا

خيوط ما أصبح يعرف باسم اتفاق ليتلتون - ديجول الذي تخلى فيه البريطانيون عن أي نية لاستدراج دول منطقة الشام بعيدا عن النفوذ الفرنسي.

وكما جهد ليتلتون في إعادة النغمة الصحيحة للعلاقة بين السفارة وقيادة الجيش البريطاني في مصر، فقد عمل أيضا على إصلاح النظام المحلي لأحواض السفن والنقليات بعد اكتظاظ مثير للذعر. كان يتعين على السفن أحيانا أن تنتظر أياما بطولها قبل تفريغها، بينما تراكمت على الأرصفة عربات الجيش موضوعة في صناديق خشبية. واقتضى الأمر من مكتبه أن يعالج أيضا أمورا أقل جلالا ولكنها كانت تنطوي على شذوذ القصور في الكفاءة ومن ذلك مثلا مسألة المربى. كان زارعو البيارات الفلسطينيون يشحنون برتقالهم إلى انجلترا ليتم تحويله إلى مربى لزوم استهلاك الجنود، وبعد ذلك تشحن المربى عائدة إلى الشرق الأوسط ومعها رسائل من انجلترا كانت تصف تقشف الحياة هناك ونقص مستلزمات كثيرة منها المربى. وعندما كان الجندي يرسل علبة منها إلى الوطن، وهو ما كان يحدث كثيرا، كانت المحتويات تحتل مساحة ثمينة على متن السفن وللمرة الثالثة.

ليتلتون كان في غاية الفعالية وهو يؤدي عملا يتطلب مستوى رفيعا من المهارة الإدارية وحسن التصرف، ولكن لأن معظم أعماله كانت سرية فقد كان يمثل نوعا من خيبة الأمل في عيون الصحافة، وها هو الكاتب "ألان مورهيد"، الذي كان وقتها مراسلا في القاهرة لجريدة دايلي اكسبرس، يعترف بأن ليتلتون عمل بجد واجتهاد وكان موضع احترام زملائه، ولكن "كانت مؤتمراته الصحفية تبعث على ضجر بالغ، فعباراته كانت سخيفة ومراوغة لدرجة استحال معها تصويره في عيون الرأي العام بوصفه قائدا!".

كانت أهم وظائف مكتب وزير الدولة تتمثل في تولي كثير من الأعمال الإدارية المحلية للتخفيف عن كاهل رؤساء الأفرع المسلحة بحيث يتمكنون من تكريس جهودهم لإدارة شؤون الحرب. وتم هذا وبكفاءة كبيرة، ولكن قيادة الجيش البريطاني في مصر ظلت على حالها من التوسع، وما أسرع ما فاق

هذا التوسع مباني جراي بيلارز في جاردن سيتي، ومن ثم استولت على فيلا كبيرة وبعدها على شارع بأكمله، ولم يمض سوى وقت قليل حتى أصبح مجمع قيادة الجيش البريطاني في مصر يشغل ضاحية بأكملها في جاردن سيتي يحيطه نقاط التفتيش ولفائف السلك الشائك.

وفي أوائل يوليه ١٩٤١ لم تكن قد وصلت إلى مثل هذه الأبعاد المشهودة من التوسع، ولكن في ضوء الصباح الغائم كان موظفو قيادة الجيش يحولون الشارع إلى نهر من الخاكي العسكري إذ يمضون في مشيتهم السريعة إلى العمل ويبرزون تصاريح الدخول أمام أعين الحراس. وفي داخل جدران مباني جراي بيلارز حيث مركز أعصاب الحرب في الشرق الأوسط كان كل شيء يحمل طابع العجلة والارتجال، وعلى رأس كل طابق من السلم كانت تقع بطارية مركز للتوقيع لا يميزها سوى كميات مختلطة من الأسماء والتوقيعات وكان المعمار الداخلي للمبنى قد تفسخ إلى عنابر وأبواب وتقسيمات في الممرات المعزولة بألواح خشبية حيث يدخل البشر ويخرجون من خلال حمامات متجاورة ربطوا بعضها ببعض ليشكلوا منها ممرات بين شقة وأخرى. وكان البريجاديرات بأكمامهم القصيرة والعرق يعلو جباههم يعملون في مكاتبهم التي كانت عبارة عن مطابخ تم تحويلها وغرفات نوم تم تقسيمها بحواجز. وقد وصف المراسل العسكري ألكسندر كليفورد الجو السائد في مقر قيادة الجيش البريطاني في مصر وكأنه أشبه بمحل تجاري كبير ومزدحم يجهد كثيرا في تكييف نشاطه أثناء إدخال التحويرات والتعديلات على المكان.

في صيف ١٩٤١ تولى جندي مرموق أمر حملة شنها على البيروقراطية المترهلة التي شابت قيادة الجيش البريطاني في الشرق الأوسط، وهذه الحملة وصلت في نهايتها إلى حد مصرعه هو شخصيا. كان تشارلس أورد ونجت قد حاز اهتمام ويفيل لأول مرة في فلسطين عام ١٩٣٦، وكان كمن رُكّب بين جوانحه معبود بيوريتاني صارم يدفعه دفعا إلى أن يأتي جلائل الأعمال. وقد تصوره ويفيل رجلا لامعا ولكن خطرا وخاصة مع آرائه الصهيونية المتأججة

التي كانت تردد هزيم الرعد من سطور العهد القديم، وكشأن جميع المتعصبين كانت بضاعة ونجت قليلة سواء من حيث اللياقة أو روح الدعابة.

في عام ١٩٤٠ طلب ويفيل من ونجت ترتيب مساعدة تقدم إلى مؤيدي هيلاسلاسي من أجل زيادة الضغط على الإيطاليين في الحبشة. ومن قاعدة في الخرطوم انغمس ونجت في العمل ولما يكن قد رقي بعد إلى رتبة كولونيل فخاض غمار معارك ضارية ضد بيروقراطية الجيش البريطاني. كان رجلا صعب المراس اشتهرت بين الناس غرابة أطواره، كان يحمل مثلا، منبها بدلا من ساعة يد ليضبط مواعيده، وبدلا من أخذ حمام للاغتسال كان ينظف جسده بفرشة شعر! في يناير ١٩٤١ كان الفريق الذي شكله من الجنود السودانيين والإثيوبيين والبريطانيين تحت اسم "قوة جدعون" قد رافق هيلاسلاسي وعبروا الحدود إلى الحبشة، وعندما شقت قوة جدعون طريقها عبر الجبال سقطت الحاميات الإيطالية والتف الوطنيون حول الامبراطور، وكانت تلك عملية عسكرية لامعة أتاحة لهيلاسلاسي العودة إلى أديس أبابا ظافرا على رأس قواته.

وبخلاف المقص الذي أضافه ونجت إلى نوط الشجاعة الذي كان قد فاز به في فلسطين، جاءت تهاني رؤسائه موجزة، وقد أبلغوه في "هرر" بضرورة حل قوة جدعون وبدا وكأنه تلقى هذه الأخبار بهدوء قائلا إنه سيعود إلى القاهرة للعمل على الحصول على إذن لإنشاء جيش يهودي في فلسطين!

وفي يونيه ١٩٤١ كانت قيادة الجيش البريطاني ما تزال تسترد عافيتها بعد الهزائم الثلاث في كل من برقة واليونان وكريت، ولم يكن لدى أي فرد وقت للتعامل مع بطل حرب العصابات في الحبشة، ولذلك صدرت الأوامر لإعادته إلى رتبة ميجور، وعندما حاول الحصول على العلاوات المستحقة لجنوده المتطوعين في قوة جدعون أبلغوه أن الأمر مستحيل لأن المطالبات لم تقدم في الموعد السليم، وكانت القشة الأخيرة التي قصمت كل الظهور أن

أبلغوه أن رجاله وقد حاربوا خلف خطوط العدو فهم لا يستأهلون استحقاقات "الوحدة العاملة في الميدان "٠

وما حدث بعد ذلك مر عليه ويفيل مرور الكرام عندما تهيأ لكتابة سيرة ونجت من أجل "قاموس السير الوطنية" ولكن الحادثة يرد وصفها مطولا في كتاب كريستوفر سايكس عن الرجل، إذ كان سايكس في موقع يتيح له أن يكتشف الأمور جيدا، فواحد من الأفراد الذين تشملهم القصة كان رئيس سايكس القديم وهو الكولونيل ثورنيل الذي كان سايكس قد عمل معه في الخدمة السرية، وكان ثورنيل رجلا لطيف المعشر حذرا وكثيرا ما كان يغشى البار في شبرد أو الكونتننتال، وإن كان الكارثة قد أحلت به عندما تورط في مسألة عزيز المصري.

والحاصل أن ونجت استأجر غرفة في فندق الكونتننتال حيث كتب تقريرا صاعقا حول ما عوملت به قوة جدعون وكيف أنها صادفت الصعوبات والعقبات من جانب الذين اختاروا أن يصفوا أفرادها بأنهم "القرود العسكريون"، بهذا التقرير لم يكسب ونجت أي صديق في مقر القيادة بل إن ويفيل، وإن كان قد أيد ونجت حول موضوع العلاوات، قد سمع وهو يقول إن التقرير كان يمكن أن يبرر وضع ونجت ذاته رهن الحجز بتهمة عصيان الأوامر.

سقط ونجت فريسة للمرض بالملاريا ولكنه رفض أن يرى طبيبا عسكريا خوفا من أن يحولوه إلى وظيفة في الأركان، ومع ذلك جهد في أن يزور طبيبا محليا وصف له عقار هو الأتبرين لتخفيض درجة حرارته، وما كان منه إلا أن ظل يتناول جرعات كبيرة منه ما لبثت أن هيجت أعصابه المتوترة أصلا بسبب انطوائه على نفسه وحيدا في غرفته. وفي غمار الكفاح الذي كان عليه أن يخوضه في تشكيل قوة جدعون، فضلا عن الطريقة التي عومل بها من جانب الإدارة العسكرية، رأى أن ثمة مؤامرة لاستيعاب إثيوبيا ضمن الامبراطورية البريطانية. وكان الأوان قد فات لفعل أي شيء، فها هو قد مني بالفشل، هو ورجاله والامبراطور هيلاسلاسي بل والرب المعبود أيضا(!).

وفي عصر ٤ يوليه زادت درجة حرارة ونجت عن الأربعين وكان قد نفدت مؤنته من الحبوب فشق طريقه خارج الأوتيل في محاولة للعثور على الطبيب والحصول على المزيد من الأتبرين، ولكن رجلا محموما كهذا لم يكن بوسعه أن يتذكر معالم الطريق وظن ساعتها أنه أصيب بمس من جنون فعاد إلى الكونتننتال مقررا الانتحار، وفي طريقه إلى غرفته التقى ونجت بخادم الطابق الذي أحضر له طعامه، وحتى لا يثير شك الرجل فقد أغلق باب غرفته بغير المفتاح، وكان قد طعن نفسه بالفعل في الرقبة مستخدما سكين الصيد الخاص به، ولحظتها ترنح عائدا إلى الباب ليحكم إغلاقه ثم انثنى إلى الحمام ليعاود المحاولة وغرس السكين فيما كان يأمل أن يكون وريد الرقبة، وبعدها تهالك على الأرض.

ويشاء حسن الحظ أن يكون شاغل الغرفة المجاورة هو الكولونيل ثورنيل الفضولي الذي كان قد سمع عددا من الأصوات الغريبة للغاية تتناهى عبر الحائط، فما كان منه إلا أن دق على باب ونجت، ولم يأت جواب فأبلغ ثورنيل المدير وفتحوا الغرفة بالمفتاح الرئيسي وأسرعوا بونجت إلى المستشفى الاسكتلندي العام وأجريت له عملية جراحية فورية، وبفضل ثورنيل ومهارة الجراح تم إنقاذ حياته.

أثارت القصة ردود فعل مختلطة في مقر القيادة، ولكن على حد قول بريجادير، فسواء حوكم ونجت عسكريا أو وضع في مستشفى أمراض عقلية فقد انتهى مستقبل الميجور ونجت بكل اضطرابه. الميجور سيمونز الذي كان جزءا من قوة جدعون، زار ونجت في المستشفى وسأل عن سبب محاولته الانتحار فجاءه الجواب: "كل ما أردته هو لفت الانتباه إلى ما نرتكبه من أخطاء."

كان ثمة شرفة في نهاية العنبر، وعندما بدأ ونجت يسترد عافيته كان يتمشى جيئة وذهابا يذرع الشرفة جيئة وذهابا، وذات مساء سمع صوت سيدة تناديه بالاسم من الجناح الخاص وكانت هذه السيدة هي ماري نيوول التي

صيف ١٩٤١

كانت قافلتها رقم ١١ سوف تندمج في القريب العاجل مع فوج المتطوعات وكانت مقيمة في المستشفى للمعالجة من قرحة.

بطريقتها المباشرة والجادة أخبرته أن أسرتها شهدت حالات انتحار وأنه إذا ما كان يريد الحديث فعليه أن يتكلم معها، ومنذ ذلك الحين ظل الضابط ونجت يقضي ساعات طويلة جالسا معها يتجاذبان أطراف الحديث ويقرآن سطورا من الإنجيل بصوت عال، وعندما أكمل ونجت قراءة سفر داؤود قال: "أليس هذا مدهشا"، فأجابته مسز نيوول: "لست أعرف فقد كنت نائمة طيلة نصف الساعة الأخير"، ولأنها كانت تستقبل كثيرا من الزوار عاود ونجت اللقاء مع الناس مرة أخرى وارتفعت معنوياته وبدأ يشعر أن الله، سبحانه وتعالى، قد غفر له، إلا أن زائرا انتابته الدهشة الشديدة عندما قال ونجت إن كل من يريد أن يذبح نفسه بيديه ينبغي أن يأخذ حماما ساخنا في أول الأمر وإلا سيجد نفسه وقد تيبست عضلاته فاستعصت على الذبح.

شجعته مسز نيوول فأرسل نسخة من تقريره المثير للخلاف عن قوة جدعون إلى وزير الدولة الذي عين حديثا، فإذا بالوزير أوليفر ليتلتون يساوره إعجاب فائق سواء بالتقرير أو بالرجل الذي كتبه، وإذا بدعوة توجه إلى ونجت لتناول العشاء، وكانت عائلة ليتلتون تعيش في فيلا على طريق مينا هاوس على مسافة أربعة أميال خارج القاهرة استعاروها من رجل الصناعة وجامع التحف شستر بيتي، كان القرميد الأزرق يزين الجدران مما أضفى على المكان اسم "البيت الأزرق". وكان حاشدا بروائع الفن الإسلامي ويحتوي على نافورة شرقية في الفناء هي التي ذكرت الكاتب نويل كوارد بالفصل الثاني من رواية "قسمت" وقد لاحظ أن سياج أشجار الجزورينة التي كانت تحيط بالبيت معناها ألا يسمح لأحد باختلاس النظر على الإطلاق بقدر ما أن معناها كثرة كاثرة من البعوض. كانت الشرفة الكبيرة تطل على الحديقة، وتحفها ستارة تحمي الجالسين من هواء المساء.

في الليلة الموعودة كانت نورا ليتلتـون جالسـة وحدها تقرأ فـي الشرفة وفجأة انزاحت الستارة من خلفها لتكشف عن وجه شاحب وعيون زرقاء تلتمـع من فوق ضمادات لا حصر لهـا: ميجـور ونجـت؟ وهنـا نـدت عن الشـبح كلمـة "نعم". ولم يكن صاحبنا بالضيف السهل، فلم تستطع صاحبـة البيت ولا الوزيـر ولا أي من المشاركين في العشاء إشراكه في أي حديث بل ظـل محافظـا علـى همهمة بكلمات من مقطع واحد إلى أن أتى أحد الجالسين في آخر الأمسية على ذكر إثيوبيا، وحينئذ انطلق ونجت في مناجاة للنفس ذكية ومنفعلـة دامـت أكـثر من ساعة.

ولم تنته قصة ونجت في ذلك الصيف، فبعد إجازة أمضاها في انجلترا مـع زوجته صدر أمر ابتعاثه إلى بورما من جـانب ويفيـل الـذي كـان القـائد الأعلـى للجيش في الهند، وهناك رافق رجال العصابات ليواصل وضع وتطبيـق نظريـة الحرب غير النظرية استنادا إلى تجاربه في فلسطين والحبشة ممـا جعلـه يفـوز بوسام جديد أضافه إلى قائمة أنواطه، ومن ثم ترقى إلى رتبة الجـنرال، ولكنـه قتل في سقوط طائرة فوق غابات بورما في عام ١٩٤٤.

آثار الحرب

بالنسبة للمصريين كان صيف عام ١٩٤١ فصلا يسوده القلق الاقتصادي من كل سبيل ومرة أخرى أدى المجهود الحربي إلى الحيلولة بين مصر وتصدير محصول قطنها ومرة أخرى اضطرت بريطانيا إلى شرائه ولكن على مضض شديد، وأبلغ سير مايلز لامبسون لندن أن "عدم تحديد المساحة المزروعة قطنا بشكل أكثر جذرية سببه في الحقيقة أن أعضاء البرلمان هم في معظمهم ملاك للأراضي ويأملون في كسب أموال من تجارة القطن، وهو محصول غير مرغوب به، أكثر من تجارة القمح، وهو محصول لازم لإطعام الشعب".

أشرف حسين سري على المفاوضات ولكنه فشل في تحذير البرلمان من أن البريطانيين لم يكونوا كرماء فيما يدفعون. وفي أوائل أغسطس قدم الأرقام المتحصلة كحقيقة واقعة دون أن يشفعها بتفسير أكثر من قوله أن البريطانيين لن يتزحزحوا عن موقفهم. وأدى هذا إلى مطالبات تشدد على ضرورة رفع أسعار القطن مع إلزام الحكومة المصرية بدفع الفرق، وعلى نحو ما يقول سير مايلز "... هكذا أنزلت عقوبات على كاهل دافع الضرائب المصري حتى تزيد عائدات مالكي مزارع القطن وتجاره". وانتهز النحاس باشا الفرصة لشن حملة عنيفة ضد البريطانيين متهما بريطانيا وحسين سري ألعوبتها بالتعدي على المعاهدة وتدمير اقتصاد مصر، وكان من الواضح أن فاروق يوافق على ذلك

وقد منح النحاس فرصة اللقاء به وتلك حادثة أثارت نقاشا واسع النطاق في ضوء علاقات الطرفين الباردة في العادة.

لم يكن من عجب أن يكون فاروق راغبا في تدعيم صلته لا مع المشاعر الوطنية في بلده فحسب ولكن مع أعداء بريطانيا ذاتها، وذلك على أساس التيارات التحتية السارية في مصر وخطى تقدم الحرب ومشهد الأسر المالكة اللاجئة التي تهرب من البلقان. وفي مذكراته، يلاحظ أوليفر ليتلتون أن "الملك ظل على بينة باستمرار من السياسة وتحركات الرأي وكان أكثر ذكاء وجدية مما يفترض فيه عادة". وكان ليتلتون في موقع يتيح له الحكم السليم باعتبار أنه كان يطلع على نصوص رسائل اللاسلكي التي تقوم السراي ببثها إلى روما بانتظام.

كان يمكن أن يغضب البريطانيون إزاء غزل فاروق مع المحور، ولكن كان عليهم أن يدركوا - ولو بينهم وبين أنفسهم - مدى صعوبة مركزه. فبعد سنتين فقط من الحرب اعترفت وزارة الخارجية أن "ثمة درجة من التواؤم كانت حتمية" من جانب فاروق، فالحرب التي حلت بمصر لم تكن من صنع يديه ومع ذلك فربما يصبح مستقبله متوقفا على نتيجتها.

وينبغي كذلك تذكّر أن خديوي مصر السابق عباس حلمي كان لا يزال على قيد الحياة، وكأنه بمثابة تهديد قائم - ولو من بعيد - لعرش فاروق. كان عباس حلمي قد قرر البقاء في اسطنبول والانحياز إلى جانب الألمان وقت نشوب الحرب العظمى الأولى، وبرغم أنه خلع عن عرشه ومنع إلى الأبد من العودة إلى مصر، إلا أن انتسابه إلى محمد علي باشا مؤسس الأسرة المالكة كان انتسابا مباشرا أكثر من فاروق نفسه. وثمة رسالة بتاريخ ٥ مايو واردة من مكتب الشعبة السياسية التابع لوكيل الخارجية الألمانية تقول إن "الخديوي السابق يبدو ... وكأنه يعتبر نفسه الوريث المحتمل للعرش، وفي هذا المضمار لا ينبغي لا تشجيعه ولا عدم تشجيعه".

هذه الرسالة كانت واحدة من الوثائق العديدة التي تم الاستيلاء عليها وخرجت إلى النور عام ١٩٤٧ ومنها وثيقتان توضحان بالذات كيف أن كثرة من أعيان المصريين كانوا جد حريصين على تقديم أنفسهم في صورة مقبولة لدى المحور. ففي أبريل سنة ١٩٤١، أبلغ العسال باشا سفير مصر في سويسرا السفير المجري فون ويتستاين أن كل وطني مصري يأمل من صميم قلبه أن ينتصر المحور في الحرب، لكن مصر لا تتوقع الاستقلال الكامل عندما ينهزم البريطانيون، وأراد العسال من السفير المجري أن يستطلع آراء السفير الألماني بشأن الموضوع مؤكدا أنه يبدي طلبه هذا بناء على مبادرة خاصة من جانبه تماما.

وقد أكد السفير المجري للعسال "أن قوى المحور سوف تأتي كقوى تحرير تخلص مصر من النير البريطاني، لكن تأكيداته تلك أحبطتها مقالة افتتاحية في صحيفة ريلاسيوني انترناسيونالي شبه الرسمية التي قرأها العسال في اليوم التالي فارتعدت منها فرائصه إذ أعلنت الغزو الوشيك لمصر، ثم قالت إن الحصن المصري سوف يقع بالحتم تحت السيطرة الإيطالية/الألمانية، وأن مصر سوف يتقرر مصيرها في روما وفي برلين إلى الأبد".

على أن أكثر الوثائق إثارة للاهتمام هي برقية كتبها إيتيل الوزير الألماني المفوض في إيران إلى الخارجية الألمانية بتاريخ ٣ يوليه ١٩٤١ يفيد فيها عن حديث دار بينه وبين يوسف ذو الفقار باشا صهر فاروق الذي كان وقتها سفيرا لمصر في طهران.

لقد أتى ذو الفقار باشا على فحوى رسالة من فاروق بتاريخ ٢٩ يونيه أوردت تفاصيل دقيقة عن خطة بريطانية لاحتلال حقول النفط الإيرانية. وقد رأى البريطانيون في هذه الخطوة أمرا حيويا إذا ما كان لهم أن يحموا أنفسهم ضد غزو ألماني لإيران والعراق عن طريق الأراضي الروسية، ومن هنا كان مقدرا الانطلاق في تلك العملية في وقت قريب. وقد كلف فاروق ذو الفقار باشا

لإطلاع الوزير الألماني المفوض على الخطة ومعه الشاه الذي كان ابنه محمد رضا بهلوي قد تزوج فوزية كبرى شقيقات لفاروق في عام ١٩٣٩.

ويمضي إيتيل قائلا "إن السفير طلب إليه نقل آراء الملك إلى وزارة الرايخ للشؤون الخارجية (رام) وأن يعرب في برقية من جانبه عن رغبة الملك في علاقات مفتوحة ومخلصة مع ألمانيا. بعد ذلك وصف السفير موقف الملك الذي كان يزداد، كما قال، صعوبة وخطورة حيث بات البريطانيون يعتبرونه عدو بريطانيا رقم ١".

كانت أعداد كبيرة من "السواح الألمان" تعبر على متن القطار من تركيا إلى إيران مما سبب قلقا متزايدا في لندن. كان أنطوني إيدن قد ذكر أن بريطانيا لن تسمح بأي تهديد لجبهتها الشرقية، ولكن دخل عدد من الألمان إلى إيران في يوليه يتراوح ما بين ثلاثة آلاف و خمسة آلاف فرد، وأصر الشاه على أن الأمر لا يزيد على ٧٠٠ فرد فقط، وثبت صحة التحذيرات التي أبداها فاروق، وفي ٢٥ أغسطس ١٩٤١ قامت قوة بريطانية كبيرة، سحبت من جيش الهند بغزو فارس من الجنوب والشمال وكانت الحكومة الإيرانية متعاونة فوافقت على إغلاق جميع مفوضيات دول المحور والدول المؤيدة لها. وتم اعتقال جميع الرعايا الألمان والإيطاليين والمتعاطفين معهم وكذلك المؤيدين للثورة العراقية على الرغم من تقاعس الشاه عن التعجيل بإصدار الاعتقالات وخاصة الفئة الأخيرة مما أفضى إلى اتهامات من جانب البريطانيين بسوء النية المستمر، وهكذا أجبر الشاه على التنازل عن العرش "لأسباب صحية" وتم إرساله إلى موريشيوس، وفي منتصف سبتمبر أعلن صهر فاروق امبراطورا على إيران. وكتب سير مايلز لامبسون يقول إن غزو فارس وخلع الشاه نجم عنهما أثر مفيد بالنسبة لملك مصر الذي بدأت تصرفاته تنم عن قدر من العصبية. وأضاف السفير قائلا "إن الخوف على العرش هو الورقة التي يجب أن نلعبها إذا ما واجهتنا مؤامرات أخرى وهذا ما أخشى أن يكون عليه الحال".

وفي ١٧ سبتمبر، قصف حي العباسية في شمال شرقي المدينة (حيث تقوم معسكرات كبيرة للبريطانيين ومطار حربي) مما ذهب ضحيته ٣٩ فردا، وكان القاهريون قد تصوروا أن العدو سوف يحترم القاهرة بوصفها مدينة "مقدسة" وهي فكرة شجعتها قيود تعتيم الأنوار غير الصارمة التي كان يتم بمقتضاها طلاء مصابيح السيارات الأمامية وفوانيس الشوارع باللون الأزرق، لكن الغارة لم تسبب قلقا كثيرا على النحو الذي تسببت فيه مثلا الارتفاعات المثيرة في الأسعار، فبين أغسطس ١٩٣٩ وسبتمبر ١٩٤١ ارتفع مؤشر تكاليف المعيشة بنسبة ٤٥ في المائة.

وبدأ شهر رمضان، شهر الصوم عند المسلمين في ٢٢ سبتمبر، وفي نهاية الشهر هدد عمال السكة الحديد والنقل بالإضراب، وكان كل من الوفد وعلي ماهر يأملون في أن تسنح لهم بذلك فرصة الإطاحة بحكومة سري، كما كان متوقعا من الملك أن يدعم علي ماهر في خطوة من هذا القبيل، لكن الملك كان قلقه أشد إزاء أنشطة قريبه الأمير (النبيل) عباس حليم.

كان عباس حليم قد قاتل في الحرب العالمية الأولى في الجانب الألماني وبهذا تخلى عن لقبه الملكي برغم ما كان لا يزال يحظى به من احترام بحكم كونه عضوا في الأسرة المالكة، وذلك في دوائر القاهرة إن لم يكن في البلاط ذاته. كان من أشد المعجبين بهتلر والاشتراكية الوطنية (النازية) وهذا هو السبب الذي دفعه إلى تأييد العمال، وهذا أيضا أدى إلى إقلاق مضاجع فاروق الذي رأى في عباس حليم تهديدا أكبر لعرشه في حالة انتصار الألمان مما يشكله الخديوي عباس حلمي، لدرجة أنه أيد علانية الخطوات التي اتخذتها الحكومة لوقف الإضرابات، وفي نهاية سبتمبر حاول النبيل عباس حليم تغيير ألفي جنيه استرليني إلى جنيهات مصرية عن طريق دار شيفيلد، وهم أحدث الجواهرجية بالقاهرة، وكان لدى البريطانيين ما يحملهم على الشك في أن هذه الأموال جاءت من مصادر ألمانية ولكنهم قرروا ألا يعتقلوه في ذلك الوقت.

هكذا أمكن تجنب الفوضى في مرافق النقل ولكن حكومة سري بدت عاجزة عن السيطرة على مقاليد الاقتصاد، وكان الجيش البريطاني ينفق ما متوسطه أربعة مليون ونصف جنيه في الشهر عام ١٩٤١، كما كان وجود ما يزيد على مائة ألف من القوات البريطانية وقوات الدومينيون المتعاونة معها في منطقة القاهرة وحدها لا يكاد يساعد على تجنب ارتفاع الأسعار في حين أن معظم الأموال المتولدة كانت تجد طريقها مباشرة إلى جيوب الوسطاء والسماسرة، وحتى إذا ما وجدوا سببا للشكوى فقد قيل إن الجانب المالي من أعمال قيادة الجيش البريطاني في الشرق الأوسط كان يديره اليهود الذين كانوا يمارسون التمييز ضد المقاولين المسلمين. واقتصر الأمر على الشباب الذين وجدوا أعمالا في ورش القنطرة والتل الكبير، وكانوا فيما يبدو في حال ميسور. كان متوسط ما يكسبونه قد ارتفع من ٣ إلى ٣٠ قرشا يوميا، ثم بمساعدة الجنود الذين كانوا على استعداد للمقايضة والمتاجرة في بضائع من مستودعات الجيش والنافي، استطاعوا أن يقيموا تجارة مربحة في السجائر والسكاكين والمفروشات والأحذية وأي شيء يمكن أن يقع في طريقهم. وكان بوسع السوق السوداء أن تطرح أي شيء ما بين لوازم المستشفيات إلى الأسلحة: مدفع الرشاش الأتوماتيكي الإيطالي كانت قيمته ١٥ جنيها مصريا، بينما كانت قيمة البندقية الانجليزية هي ثلاثة جنيهات مصرية.

شتـــاء ١٩٤١ - ١٩٤٢

هجوم أوكينلك

عندما وصل الجنرال سير كلود أوكينلك إلى القاهرة كان بمثابة كمية مهملة، إذ كان قد أمضى معظم حياته في فترة النضوج منخرطا في سلك الجيش الهندي، على أن أول الانطباعات عنه كانت في صالحه، كان طويل القامة، حسن السمت، يتمتع بخصائل تجمع بين الصراحة والمودة، فضلا عن استعداد ليستمع إلى الآخرين مما جعل الناس يحبونه منذ الوهلة الأولى. وكان أيضا حاسما في قراراته كما كان يتمتع بالقدرة على التواصل مع الآخرين على خلاف سلفه تماما. مع ذلك فبرغم تحفظه، أو فلنقل بسبب هذا التحفظ، فإن سلفه - ويفيل كان يوحي بجو من الإخلاص مما جعل كل جندي يشعر بأنه في حال من التواصل معه. أما أوكينلك فقد بقي متباعدا بصورة ما وكان هذا القائد الأعلى الجديد قد خلف زوجته الأمريكية الشابة في الهند مما أضفى على بيته المريح المجاور لمضمار السباق في الجزيرة جوا اسبرطيا قوامه التقشف وطابع العمل ليس إلا ... أين هذا من الحفلات التي كانت تقيمها فيه ليدي ويفيل وكريمتاها؟

لم يكد يصل حتى بدأ تشرشل يمطره بالبرقيات كي يحثه على شن هجوم فوري في الصحراء بقيادة جامبو ويلسون. وكان أوكينلك يختلف مع هذا الرأي وأبقى على الجنرال ويلسون في سورية بينما نصب الجنرال سير ألان كاننهام قائدا للجيش في برقة، وهو الجيش الذي أصبح يعرف من شهر سبتمبر باسم الجيش الثامن. وكان شقيقه الأكبر الأميرال سير أندرو كاننهام هو القائد الأعلى للجيش في البحر المتوسط، بينما زاد الطين بلة أن كان سلاح الجو

تحت قيادة مارشال الجو آرثر كاننهام. أدت انتصارات الجنرال كاننهام في شرق أفريقيا إلى جعله أشهر من الجنرال أوكونور. كان رجلا ذكيا واثقا من نفسه وكان جيشه أفضل جيش استطاع البريطانيون أن يجهزوه في الميدان، ومن ثم بدت احتمالات استرداده برقة وتخفيفه العبء عن طبرق أكثر من ممتازة.

كان روميل قد استبدت به طيلة الصيف فكرة التقدم المستمر فبذل محاولات متكررة لاجتياح التحصينات بقوة غير عادية ولكن هذه المحاولات صدتها الحامية الاسترالية، بينما جهدت مدمرات البحرية الملكية البريطانية من أجل الاستمرار في تزويد القوات. كانت السفن المكلفة بخط الإمداد تقدم على مخاطرات رهيبة إذ كان معظم الشحنات يحتوي على البترول والذخيرة من أجل بناء مستودع متقدم للإمداد والتموين.

ظروف المعيشة داخل دائرة قطرها ثلاثون ميلا كانت كئيبة وزاد من تفاقمها استمرار القصف بغير هوادة. أما ساعات السأم فلم يكن يبددها سوى الدوريات المتحركة والانغماس في أعمال الإصلاح أو تحمل وطأة هجوم ألماني. الماء كان مقننا ويميل طعمه إلى الملوحة باستمرار. وفي سبتمبر أجليت الحامية الاسترالية وحل محلها قوات بريطانية يزيد عليه لواء من البولنديين الذين كان رفاقهم ينظرون إليهم بقدر من الرهبة إذ كانوا يجمعون بين جاذبية الشخصية وحسن الأدب، ولكن بغضهم الرهيب للألمان الذين قتلوا منهم كل من استطاعوا قتله جاء على نقيض حاد للامبالاة الكاملة التي أبدوها تجاه الإيطاليين.

في الاسكندرية وبورسعيد كانت أرصفة الميناء تعمل ليل نهار، يتم إفراغ كميات كبيرة من المعدات وإنزال تدفقات لا تنتهي من الجنود. كان هجوم ويفيل الذي شنه ضد الإيطاليين قد بدأ تحت جناح السرية الكاملة، وكان السر الوحيد حول هذا الهجوم البريطاني هو بدايته فقط، وإذ شارف هتلر على شمالي القوقاز كان المصريون يودون لو يبدأ حركته بسرعة إذ كانوا يرون أن الألمان

سوف يزحفون نحو مصر في حركة كماشة واسعة. أما البريطانيون فكانوا من ناحية أخرى على ثقة مرموقة بالنفس.

كل مراسل حربي كتب تقريره عن حرب الصحراء عمد إلى وصف هذه الأحوال النفسية التي رأوها منذرة للغاية بالخطر على الأقل إذا ما تأملوها بعيون الماضي. ألان مورهيد قال "إنه كان ثمة شيء غلط بصورة قاطعة وعميقة بالنسبة للذهنية التي كانت عليها القوات البريطانية في الشرق الأوسط ... كانت هذه الثقة المفرطة في النفس أمرا معديا في كل مكان تذهب إليه فتلقى الرجال في روح طيبة، أو هكذا كان يبلغك الضباط، ربما كان هذه حقيقيا ولكنه كان أشبه بثقة الجهلاء: كريت واليونان كانتا تنسحبان بنعومة إلى خلفية الصورة، وكل فرد كان يتطلع إلى حملة الشتاء المرتقبة في الصحراء بقدر من الحماس ثم بروح مفعمة بالأمل على نحو خطير".

وبرغم التفاؤل العام، لم تخل الخطط الموضوعة لهجوم الشتاء من مشاكلها. كانت كتائب المشاة تتطلب دعم الدبابات ولكن قادة التشكيلات المدرعة رفضوا تشتيت وحداتهم. لا عجب أن أصبحت الخطة مجرد حلول وسط لا تبعث على الرضا في قليل أو كثير. الهجوم الثاني للحلفاء الذي حمل اسم "الغزوة الصليبية" بدأ بتقدم جهة الغرب من خلال وسط جميع أنواء الشتاء في شمال أفريقيا وضم مائة ألف من الأفراد و ٦٠٠ من الدبابات و ٥٠٠٠ عربة وشاحنة كلهم يتحركون زحفا عبر مصر، لكن تقدمهم تباطأ بسبب استمرار الأعطال وهبوب رياح قارسة ثلجية وهطول السيول. اشتغل الرمل مع البرد ومعهما ملابس الأفراد المبتلة مما جعل الأمر كله يزيد سوءا.

وقد استهل الهجوم بغارتين ليلتي ١٦ و ١٧ نوفمبر، وكانت ليلة ١٦ قد تميزت بهبوب عاصفة عاتية بلغت فيها سرعة الرياح ٣٥ ميلا في الساعة ومن ثم فلم تكن بالليلة المناسبة لإسقاط المظلات، وأول عملية لمجموعة كوماندوز مظلات الحلفاء الحديثة التشكيل نتج عنها مقتل أو أسر ٦٢ فردا دون أن يتكبد العدو أي خسائر على الإطلاق.

الغارات الأخرى التي حدث يوم ١٧ كانت بقيادة جيوفري كيس البالغ من العمر ٢٤ سنة وبهذا كان أصغر كولونيل في الجيش، وكان هدفها الرئيسي هو مهاجمة مقر قيادة الألمان في منطقة البيضاء وأسر روميل نفسه في فيلته غربي المدينة. وبرغم أنهم اقتحموا بعنف مبنى مقر القيادة وأحدثوا أضرارا كثيرة وقتلوا أربعة ألمان، إلا أن العملية أدت إلى كارثة فادحة قتل فيها كيس ولم يعد من الرجال الثلاثين الذين شاركوا فيها إلا اثنان فقط.

روميل لم يكن متواجدا في أي بقعة قرب البيضاء في تلك الليلة - في واقع الأمر كان في روما يستمتع بإجازة أيام قليلة مع زوجته. وكان غيابه عن شمال أفريقيا يرجع في جانب منه إلى ما ذكره الجاسوس الذي كان يثق به روميل أشد ثقة "جوليتيه أوف مانهايم" الذي حمله على أن يتصور أن البريطانيين صرفوا اهتمامهم في الوقت الحالي عن الصحراء وباتوا يتطلعون نحو القوقاز في الشمال الشرقي. لم يكن روميل يعرف وقتها أن "جوليتيه" كان قد وقع في الأسر فور وصوله إلى الشرق الأوسط ومعه جهاز اللاسلكي الخاص به، وكذلك الشفرات ومواعيد الإرسال وكل المعلومات التي يبثها هذا المصدر بعد ذلك لم تكن في واقع الأمر سوى رسائل من جانب مقر القيادة البريطانية في القاهرة تهدف إلى صرف الاهتمام بعيدا عن الهجوم التالي على منطقة الصحراء.

هاتان الغارتان المفجعتان كانتا تنذران بخطر محدق في المستقبل، ولكن بعد الأيام القليلة الأولى من القتال الضاري حول طبرق أصبح البريطانيون في غاية التفاؤل فقد استولوا على جوار سيدي رزق، وسرعان ما بدأ الأمل يحدوهم في الوصول حتى طبرق والانضمام إلى حامياتها، ولكن بحلول ليلة الثاني والعشرين أصبح كل شيء متغيرا.

في هذا الوقت كانت إيف كوري قد وصلت إلى الجبهة، وبينما ركبت هي وغيرها من المراسلين العسكريين ليتقربوا مسافة ١٥ ميلا من الاشتباكات ذكر لهم الرجال الذين التقوهم أن ثمة معركة دبابات حامية الوطيس تفوق فيها

الألمان تماما في قوة النيران على البريطانيين وتوقعوا حدوث "انسحاب استراتيجي" آخر، وفي هذه المرة كان الذي يسود هو روح التشاؤم ذاتها. وجدت إيف كوري نفسها وهي تقارن بين السعادة الرخية التي كان يعيشها أسرى الحرب الإيطاليون وبين عنجهية السجناء الألمان، ثم بين هؤلاء البريطانيين المنهكي القوة المتسخي الثياب والمحتقني العيون.

بالنسبة للطرفين جاءت معركة الأحد ٢٣ نوفمبر لتشكل واحدة من أكثر المعارك دموية وأفدحها في التكاليف في حرب الصحراء. وقد وقعت في موعدها بالضبط يوم توتنسونتاج – يوم الموتى (بالألمانية).

خسائر الدبابات البريطانية أصابت كاننهام بالإحباط لدرجة أن طلب من أوكينلك أن يطير من القاهرة لاستعراض الموقف، وكان أن وصل أوكينلك ليجد كاننهام مستعدا للانسحاب حتى الحدود المصرية، وهذا أمر أعلن القائد العام أنه مستبعد في كل حال. من هنا رسمت خطط جديدة واستمرت المعركة ولكن لدى عودته إلى القاهرة قرر القائد العام أن كاننهام بلغ به التعب والقلق مبلغا لدرجة بات معها يفتقر إلى الهمة والمبادرة اللازمتين لإدارة معركة حربية.

ليلة "توتنسنتاج"، استبد الإنهاك الشديد بالجيش الثامن وبدأت الفوضى تضرب أطنابها بين صفوفه، ولكن روميل كان يعرف أنه سوف يعيد تنظيم صفوفه ويعاود هذا الجيش هجومه مرة أخرى إذا لم تقطع مباشرة خطوط إمداده التي يتلقاها من مصر. وعليه، انطلق روميل في صباح اليوم التالي بسرعة فائقة في سيارة القيادة نحو الحدود المصرية وكان قد أمر جميع الوحدات القادرة على الاشتباك بأن تتبعه. هذه الحركة المسماة "الاندفاع نحو السلك" كانت حركة لامعة وجسورة كان يمكن أن تحدث تأثيرها وتؤتي أكلها، ولكن روميل لم يكن يفهم بالضبط مدى العطب الذي أصاب جيشه بفعل المعارك. من هنا بدأت المسافة الفاصلة بينه وبين قواته تزداد اتساعا باطراد، وفي يوم ٢٧ كان عليه أن يعود أدراجه.

صباح ٢٤ لم يكد البريطانيون وجنود جنوب أفريقيا يصدقون أعينهم عندما باغتتهم الدبابات الألمانية داخل معسكراتهم، ولم يكن لديهم من الوقت سوى أن يلقوا أنفسهم وأحذيتهم وإفطارهم نصف المأكول إلى أقرب مركبة ويبدأوا في القيادة بسرعة لا يلوون على شيء. ولم يكن لامرئ أن يعرف ما الذي يدور ومن ثم ساد الذعر في كل مكان، وجاء الأمر على نحو ما يعبر ألان مورهيد "مزيجا من الارتباك والخوف والجهل"، وكان هو ورفاقه في غاية من الارتياح عندما وصلوا إلى الجانب الآخر من أسلاك الحدود أي داخل مصر بعد تسع ساعات رهيبة من رحلة السيارات وانضموا من جديد إلى معسكر قاعدة المراسلين الحربيين في بورت مادالينا.

راندولف تشرشل الذي كان وقتها ملحقا بشعبة المخابرات كان قد أحضر عددا من البيض الطازج من القاهرة، وعندما سلقها قال الكسندر كليفورد مراسل دايلي ميل أنه سوف يصنع الشاي، أما سائقو الجيش الملحقون بخدمة المراسلين فقالوا إن المرء لا ينبغي أن يعيد استخدام ماء غلي البيض، إذ أنه يصيب المعدة بانتفاخ وكانوا يتجادلون في هذا الأمر عندما جاءت الأنباء التي كان لها وقع الصاعقة عليهم جميعا: إعفاء الجنرال كاننهام من مركز القيادة ليحل محله الجنرال نيل ريتشي.

لم يكن الجنرال ريتشي، نائب رئيس هيئة أركان حرب الجيش البريطاني في مصر متحمسا على الإطلاق لتولي المنصب. شعر أنه مستعد فقط للترقية إلى قائد فرقة وليس أكثر من ذلك. لكن أن يوضع على رأس الجيش الثامن ليصبح رئيسا لقائدي فرقتين كانا أقدم منه في الرتبة، شكلت مخاطرة تؤكدها الحقائق بأن ثمة معركة غير محسومة وينبغي خوضها وأن الأمور أفضل على الجبهة كلما قلت عملية التعطيل. أوكينلك كذلك تصور أن ريتشي يتمتع بالقدرة والإقدام اللذين افتقر إليهما كاننهام الذي بات مؤخرا يعاني من إنهاك عصبي شديد ومن ثم ركب الطائرة قاصدا المستشفى بالقاهرة، نفس الطائرة التي أمرت بأن تحمل على متنها بديله للجبهة. صحيح أن ريتشي كان يمتلك

الإقدام، ولكنه كان يفتقر إلى التجربة التي تتيح له إدارة شـؤون معركـة معقدة من هذا القبيل. كان عاجزا أيضا عن تحسين العلاقات بين بعض القـادة الذيـن يعملون تحت إمرته، بل وعاجزا عن رفع معنويات الرتب المختلفة. إن التشاؤم الذي سـاد المنطقـة علـى نحـو مـا لاحظتـه إيـف كـوري فـي نوفمـبر زاد تعمقـا خصوصا بعد حلول السنة الجديدة، فقد فقد الرجال الثقة في قادتهم مما انعكـس في إعجابهم بروميل بصورة لا تحدها حدود. لم يكن روميل فـي نظرهـم مجـرد عبقري في التكتيك، بل كان كذلك هو القائد الذي يدفع ويشجع ويلهم ثـم يقـود رجاله إلى المعركة بنفسه شخصيا - على خلاف الجـنرالات الانجليز الذيـن لـم يكن جنودهم يعرفون سوى أسمائهم فحسب.

ولكن لا قيادة روميل ولا تفوقـه فـي الـدروع يمكـن أن تنقذه مـن الدمـار الذي لحق خطوط إمداده فـي الشـهر الأول مـن الحملـة. وفـي كـل أيـام نوفمـبر ١٩٤١ كـانت "ألـترا" - دائـرة فـك الشـفرة قـادرة علـى إبـلاغ البحريـة الملكيـة البريطانية ومعها سـلاح الجـو البريطـاني بـالطرق التـي كـانت ستسلكها سـفن الإمداد الإيطالية التي تقصد شمال أفريقيا بـل وتحـدد هـذه الجهـات المقصـودة، ومن بين ٢٢ سفينة أرسلت في ذلك الشـهر تـم إغـراق ١٤. ومـا كـان روميـل باستطاعته الاستمرار في الحرب بعد ذلك، وفي ليلـة ٧ ديسـمبر بـدأ انسـحابه. وكان البريطانيون يتبعونه بحذر حتى توقف عند أغيلا التـي كـان قـد بـدأ منهـا زحفه المرموق في مـارس، ومنـذ ذلـك الحيـن لـم يكـد يلقـي كبـير اهتمـام إلـى الأمور التعبوية، كان قد رسم إيقاع الحركة وترك المسألة لمعاونيـه فـي مجـال الإمداد والتموين للاستمرار، وها هو روميل يمنـى بـالهزيمـة لا مـن خـلال قـوة تفوقت عليه ولا من خلال قيادة تميزت عنه، ولكن بسبب نقص الإمدادات.

إن حقيقة ما أجبر عليـه الإلمـان مـن التخلـي عن طـبرق التـي كـانت قـد صمدت بشجاعة ضد تسعة أشهر من الحصار - هذه الحقيقة أعطيت أكبر قـدر من الدعاية وجعلت تراجع روميل يبدو أقرب إلى النصـر ممـا كـان عليـه واقـع الأمور. إن غزو اليابـان للملايـو يـوم ٨ ديسـمبر كـان يعنـي أن ثمـة تعزيـزات

كثيرة واسعة النطاق كانت تقصد إلى الصحراء الغربية، ثم جرى تحويلها إلى الهند، ولكن لم يكن مطروحا على الإطلاق تكرار كارثة اليونان بتجريد الجيش الثامن من إمكانياته. لهذا كان أوكينلك مصمما على الإبقاء على الضغط، أما روميل فكان من ناحيته أيضا لا يعتزم الاستسلام إطلاقا. بل كانت الروح المعنوية عالية في الفيلق الأفريقي (أفريكا كوربس الألماني) الذي استطاع بمهارة فائقة أن ينفذ واحدة من أصعب المناورات في غمار الحرب ألا وهي الانسحاب في وجه العدو.

جاء شهر ديسمبر ١٩٤١ وجاءت معه وقفة في المعركة، ومع ذلك كان شهرا أسود بالنسبة للبحرية الملكية البريطانية، لقد فقدت السفينة "ريبلس" وكذلك السفينة "برينس أوف ويلز" في الشرق الأقصى، كما ضربت حاملتا الطائرات "آرك رويال" و "بارام" بواسطة زوارق طوربيد في البحر المتوسط، بينما دمرت كل من "فاليانت" و "كوين إليزابيث" بواسطة "طوربيد بشري" في ميناء الاسكندرية. [عند سماع إغراق آرك رويال قيل إن الملك فاروق فعلها على غير عادته فاحتفل بالحدث باحتساء نخب من الشمبانيا]. ها هي الموائد قد قلبت لصالح الفيلق الأفريقي الألماني، وها هو المحور وقد سيطر على البحر المتوسط، وها هي قوافل الدبابات والإمدادات التابعة لرومل تشق طريقها إلى شمال أفريقيا في أمان بعد أن كانت قد تكبدت خسائر فادحة في الشهر الماضي.

دائرة الشفرة – "ألترا" من جانبها أبقت القاهرة على علم بمسار القوافل الألمانية بما في ذلك رقم ٥٢ المتجهة إلى شمال أفريقيا ومعها إحلال للدبابات. ومن بين السفن التي حوتها هذه القافلة كانت السفينة "أنقرة" وحمولتها ٤٧٠٠ طن، وكانت قد نجحت في تسليم حمولتها البالغة ٢٢ من الدبابات الثقيلة في منتصف ديسمبر ١٩٤١. ومع ذلك فقد أخطر البريجادير ريك شيرر مدير المخابرات الحربية في القاهرة بأن ليس ثمة أوناش أو رافعات تقوى بما فيه الكفاية على نقل الأنواع الثقيلة جدا من هذه المدرعات الألمانية، واستند

ذلك إلى المعلومات التي جمعها قسم الاستخبارات المشارك في عملية تقييم نقليات وإمكانيات العدو وكان يترأسه شخصية صعبة المراس باسم الكولونيل كيبلي الذي كان يتمتع بمعرفة وخبرة تفصيلية في هذا الميدان، لكن الذي لم يكن يعرفه هو أن "أنقرة" كانت قد بنيت أساسا من أجل نقل قاطرات سكة حديد إلى أمريكا الجنوبية وكانت مجهزة برافعات معززة خصيصا بما يمكنها من التعامل مع أثقل الدبابات الألمانية وزنا.

ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى وصل تقرير عن جماعة استطلاع تعمل في الصحراء يصف الدبابات الألمانية مارك ٣ و ٤ وهي تتجه صوب الغرب على طول الطريق الساحلي. كذلك أفاد الجنرال "مسيرفي" الذي كان يتولى إمرة الفرقة الهندية الرابعة عن مشاهدة هذه الدبابات الألمانية الثقيلة ومع ذلك ظل شيرر متمسكا بما فهمه من أن هذه الدبابات الثقيلة لم يكن بالمقدور تفريغها. صحيح أن اثنتين وعشرين دبابة لا تبدو ذات أهمية فائقة ولكن المدافع والدروع الأكثر التي تتميز بها مارك ٤ كانت كافية بأن تعطي روميل ميزة كبيرة عندما شن هجومه يوم ٢١ يناير وهي ميزة أثبتت قيمتها الأكبر باعتبار أن القيادة البريطانية أخذت تماما على حين غرة. وبعد أن أمسك بزمام المبادرة وتمكن تماما من تدمير اللواء المدرع الثاني، انطلق روميل إلى قلب برقة وهو يسوق أمامه قوات الحلفاء.

من هنا جاء سوء تقدير شيرر وهو ما أدى إلى فصله من الخدمة في أوائل فبراير يسبب قلقا واسع النطاق في دوائر قيادة الجيش البريطاني في مصر على أساس أن مثل هذا الخطأ الفادح لا ينبغي تكراره من جديد وانتدب لهذه المهمة الميجور إينوخ باول.

باول كان قد أصبح أستاذا لليونانية في جامعة سيدني في عام ١٩٣٨ ولما يبلغ بعد الخامسة والعشرين، ثم أوضح وقتها أنه سوف يقوم بإجازة لكي يتطوع فور إعلان الحرب. ثم كتب له أن يترقى من مرتبة نفر إلى رتبة الميجور في غضون سنتين فقط، وأراد بعدها أن يشهد العمليات في الميدان،

ولكن رؤساءه قرروا أن ذكاءه وقدراته على العمل يمكن الإفادة منهما تماما في هيئة أركان الحرب، ومنذ خريف عام ١٩٤١ بدأ الميجور باول في العمل في قسم الكولونيل كيبلي بمقر قيادة الجيش البريطاني في القاهرة.

كان باول في الغرفة عندما نصح كيبلي البريجادير شيرر بتجاهل تقرير مجموعة الاستطلاع في الصحراء وأدرك أن شيرر قد توصل إلى سوء الفهم الذي اقترفه نتيجة لمنطق مغلوط ألا وهو استخدام معلومات سلبية (بمعنى أن الدروع الثقيلة لا يمكن تفريغها) لكي يدحض بها قرينة إيجابية جاءت في تقرير فريق الاستطلاع للصحراء وغيره من التقارير، وعليه فقد صمم أن يعرض منطقه الخاص مستقبلا على أساس محك المواد القادمة من شمال أفريقيا، وفي نهاية المطاف قرر كيبلي نقل المسؤولية عن هذا العمل إلى باول.

هكذا جرى تشكيل لجنة مخابرات مشتركة شملت أعضاء من الدوائر الثلاث ليقوموا بتحليل أحدث التقارير ونشرات فك الشفرة الصادرة عن هيئة ألترا. وأصبح باول هو ممثل الجيش وبوصفه رجلا يتمتع بدقة متناهية من الفكر وقوة التحليل والانضباط وصل الأمر في ربيع ١٩٤٢ أن أصبحت قوات الحلفاء على بينة طيبة تماما من إمدادات العدو وشؤونه التعبوية.

وفي مدى الأشهر القليلة من حرب الصحراء، كان باول (الذي تمت ترقيته إلى رتبة كولونيل) يعرف عما يدور في الصحراء من مكتبه بأكثر مما يعرفه معظم القادة الموجودين في الموقع، ولكن لأن العاملين في هيئة ألترا كان يتعين عليهم أن يقسموا على عدم المشاركة قط في العمليات الميدانية خشية أن يقعوا في خطر الأسر، فلم يقدر للرجل لا أن يشهد ميادين القتال ولا أن يطالع صفحة الأراضي التي دارت عليها معارك قرطاجنة والحرب البونية وتلك كانت من الأمور التي تهم بداهة عالما في الكلاسيكيات. ثم سنحت الفرصة عندما تعين على سرية باول العاملة من الجزائر خلال المراحل النهائية من الحرب في شمال أفريقيا العودة إلى القاعدة في القاهرة في شاحنة

حمولة ٣ طن وقد عاد فعلا بصحبة مساعده الميجور مايكل ستراشان. وفضلا عن أي شيء آخر كان يريد أن ينتهز الفرصة الطيبة كي يتعلم قيادة السيارات.

إن وصف ستراشان لرحلتهما يعطي فكرة يخالطها دفء العاطفة عن إنسان استثنائي، فمن بين غرائب باول نفسه ما كان يعمد إليه من ارتداء الزي العسكري الكامل بما في ذلك الياقة وربطة العنق والبنطلون الطويل والحزام المزود بالمسدس على امتداد ٣٠٠٠ ميل من الرحلة عبر الصحراء. ستراشان الذي اقتصر على ارتداء الشورت والقميص كان يفيق كل صباح من نومه على رائحة الشاي وورنيش تلميع الأزرار، إذ أن باول كان يعكف على تلميع الأزرار وعلامات الرتب وكأنه ذاهب إلى أحد الاستعراضات. بدا وكأنه لا يشعر بوقع الحرارة اللافحة وكان يعلن أن ارتداء المرء للزي العسكري الكامل يحفظ عليه روحه المعنوية.

وبرغم ما كان يتمتع به باول من ذكاء هائل وطاقة جمة وقوة في الشخصية إلا أن قدرته على التنسيق البدني كانت قليلة. كانت قيادته للسيارة مصدر توتر شديد لأعصاب ستراشان ومع ذلك كان يخفف الأمر بسلسلة باهرة من الأحاديث المرتجلة حول تاريخ اليونان أو الرومان وعن الفلسفة والفن والأدب التي كان باول يلقيها على مدار الطريق، وكان قد أصر على أن يعلمه ستراشان القيادة مقابل هذه الأحاديث، والمشكلة أن لم يكن ثمة موضوع يفهم فيه ستراشان كثيرا ويفوق فيه رئيسه اللهم إلا الجياد والصيد، وشد ما كانت دهشته عندما خلب هذا الموضوع لبّ باول الذي شاء قدره ألا يشهد المعارك مرة أخرى، لكن ها هو يكتشف "صورة الحرب دون أي إحساس بالذنب وفي إطار نسبة ٢٥ في المائة فقط من أخطارها" وعليه حزم أمره على أن يمتهن الصيد فور أن يتم كسب الحرب. وعبر الأسبوعين اللذين استغرقتهما الرحلة تحسن باول حتى في قيادة السيارة وشد ما دهش معلمه عندما قاد الشاحنة حمولة ثلاثة أطنان ليشق بها مرور القاهرة الحافل بالصعاب دون أن يصطدم بأي شيء في الطريق.

المبدعون•

بعد رحلتهم بالطائرة من اليونان في أبريل ١٩٤١ أقام لورانس دوريل وزوجته نانسي أسبوعا في الاسكندرية وبعدها انتقلا إلى القاهرة حيث أمضيا ليلتهما الأولى في لونا بارك، وهو فندق للاجئين قيل إنه كان ماخورا، إذ أن الواجهة المزخرفة اللامعة للكبارية كانت تفضي في أسفلها إلى حجرات عارية من كل زخرف بصورة كئيبة تقع على الطوابق العليا.

ولم يمض سوى وقت قليل حتى وجدا شقة في حي الجزيرة بفضل الدكتور ثيودور استيفانيدس، وهو صديق من كورفو كان قد عرّف دوريل على أعمال الشاعر السكندري كفافي، وها هو الآن عضو في السرية الطبية في الجيش البريطاني. وعلى مدى الأسابيع الأولى القليلة ظل دوريل يكتب الافتتاحيات بالإضافة إلى عمود اسبوعي ساخر لجريدة إيجيبشيان جازيت. وبعد ذلك التقى في أغسطس مع والتر سمارت المستشار الشرقي بالسفارة البريطانية الذي أعجب كثيرا بطلاقة دوريل في اللغة اليونانية وبمعارفه عن اليونان وقام بتعيينه ملحقا صحفيا أجنبيا.

وبعد أيام قلائل أمضاها في عمله الجديد عاد دوريل من غذاء طويل مع شاعر مصري ليجد رسالة تستدعيه إلى مكتب سمارت، وعندما اتصل بالتليفون متوقعا صاروخا من المفاجأة إذا به يلفي رئيسه عاكفا على قراءة بعض من شعر دوريل ويريد دعوته إلى بيته لمناقشة الشعر على قدح من شراب .

والتر سمارت، أو سمارتي كما كانوا يعرفونه، كان مثقفا ومستشرقا

• اخترنا هذه اللفظة بوصفها أكثر دلالة على الموضوع من لفظة الكتّاب الواردة في الأصل. "المترجم"

متميزا. وهذه الصفات التي كان يمكن أن تكون باعثة على الرهبة في رجل أقل مستوى، كانت في حالة صاحبنا يذكيها روح من المرح وحس من التواضع مما جعله واحدا من الشخصيات التي يشغف بها الجميع في القاهرة، وقد منح وسام الفارس في يونيه عام ١٩٤٢ وكان يمكن أن يرتفع إلى أعلى في سلك الخدمة الدبلوماسية ولكن وقوع حالة طلاق كانت أمرا كافيا في تلك الأيام لكي تحول بين الرجل وبين حصوله على رتبة السفير. وبعد طلاقه في عام ١٩٣١ تزوج آني نمر ابنه الدكتور فارس نمر باشا الذي كان قد أنشأ جريدة المقطم. واحد من أصدقاء آني، هو الكاتب باتريك كين روث يصفها بأنها "تتميز بعقل رجل في كثير من النواحي ولكنها في النواحي الأخرى تتسم بروح شرقية وأنثوية". كانت رسامة برغم أن لوحاتها ذات الألوان الباهرة والمثيرة لم تكن معروضة على الأنظار في المنزل ١٩ شارع ابن زنكي بالزمالك. كان المعروض هو مجموعات كاملة من أجمل السجاجيد الفارسية والخزف الصيني حيث كانت الجدران تحيط بها المكتبات من كل جانب. الكتب ذاتها كان كل منها مغلقا بغلال بني مانع للتراب، أو يحوطها تجليد مموه بالفضة أو الذهب. وكانت آني سمارت تهتم اهتماما كبيرا بأعمال شباب الفنانين مثل دوريل، كما كانت في غاية السخاء لكل من تسبغ عليهم رعايتها. من هؤلاء كانت الشاعرة اليونانية إيلي بابا ديمترو التي هربت من اليونان ولم يكن بحوزتها شروى نقير سوى قصيدتها الطويلة أناضوليا التي كانت تعمل فيها على مدى سنوات كثيرة. كانت متقشفة ولكنها شغوفة بالحياة، وكانت عميقة التدين وشيوعية في وقت واحد، ولم يكن لهاتين العقيدتين أي تناقض في اليونان في ذلك الوقت. كان لديها من المال النذر اليسير لكن كان لها سرير دائم في بيت آل سمارت. امرأة أخرى تذكرت عطف السيدة آني وهي زوجة دوريل التي كانت بدورها رسامة. نانسي ولورانس دوريل كانا قد تزوجا وهُما في شرخ الشباب، إذ كانا يدرسان في كلية الفنون ولكن علاقتهما ما لبثت أن أصبحت عاصفة فنانسي كانت تناضل ضد نزعته إلى التسلط، وفي مصر، حيث كانت مقيدة بالبقاء في

الشقة بسبب طلبات طفلها الصغير، ظلت تشعر باضطراد باختناق الأنفاس. الزوجان دوريل كانا ضيفين يترددان كثيرا على والتر وآني سمارت اللذين كانا بيتهما بحديقته التي تحفها أشجار النخيل فضلا عن بئر محفور فيها، من ألمع المواقع القليلة في بلد كان دوريل وزوجته يجدانه بلدا مقبضا. كتب إلى تامبي موتو رئيس تحرير مجلة الشعر في لندن (بيوتري لندن) يقول: "عواصف الغبار هي التي تنبئ بمقدم الربيع، بينما يأتي الصيف على جناح موجة من الرطوبة لدرجة تنتفخ معها عروق الدم في جسم الإنسان بل وتمتلئ بالمياه. وإن كتب المرء قصائد هنا فإنها لن تعدو أن تكو مجرد أقماع من الكوسة أو القرع".

كتب بنفس اللهجة كذلك إلى هنري ميلر الذي أجابه قائلا: "اسمع لقد رسمت لي صورة كريهة للقاهرة ولا تقل لي إنها لا تحوي أكثر من ذلك، فماذا عن حياة الليل؟". لكن حياة الليل في القاهرة مهما بلغت من الإثارة والبهجة إلا أنها لم تكن تحوي ما يمكن أن يحل محل جلسات التافرنا التي يشتاق إليها كثيرا عاشقو اليونانيات. إن بارات المدينة كانت حاشدة بالجنود بأصواتهم الزاعقة وسلوكهم المهزوز، بينما المقاهي المصرية لا تقدم أي مشروبات كحولية.

أقرب شيء لتافرنا اليونانية حيث يلتقى الأصدقاء لاحتساء الشراب وتجاذب أطراف الحديث كان الاتحاد الانجليزي - المصري الواقع في ١٧٩ شارع فؤاد الأول، وكان قد أصبح المرفأ الذي يأوي إليه من يهتمون بالحياة الأدبية الناطقة بالانجليزية في القاهرة. مقر نادي الاتحاد ومكتبته كانا يوما ما سكن السردار، وهو القائد الانجليزي للجيش المصري، وكانت حديقته تتمتع بأنساق رائعة من أشجار باسقة وعتيقة بشكل استثنائي. وخلال الصيف السابق، عندما جاءت الغارات الجوية على الاسكندرية لتجبر الأهالي على البقاء في حر القاهرة القائظ، أدت رطوبة الحديقة إلى رفع عضوية الاتحاد إلى أكثر من ٤٠٠ عضو جديد. كانت مكانا لطيفا ولكن تدفق الكتاب واللاجئين

والباحثين عن الظل الوارف جعلـه مضطربـا ومزدحمـا فـي أركانـه. وجـاء هـذا على خلاف صارخ مع الجانب الآخر من الحديقة الذي كان يخص نـادي الضبـاط المصريين حيث يتجمع المصريون في أحسن هندام عسكري وقد علت صدورهم صفوف من الميداليات لكي يلعبوا الطاولة والبكاراه.

في هذا الاتحـاد الانجليزي المصـري، قـام كـل مـن روبـن فيـدن وبرنـارد سبنسر ولورانـس دوريل بتأسيس "برسـونال لندسكيب" وهـي أكـثر المجـلات الأدبية نفوذا التي خرجت في سـنوات الحـرب. كـان فيدن وسبنسـر قـد أصبحـا محاضرين في جامعة فؤاد الأول، وما كانا بأول الشعراء الذين يحظى بهم قسـم اللغة الانجليزية بالجامعة، إذ أن مؤسس القسم كان روبرت جريفز نفسه الـذي جاء إلى القاهرة مع زوجته نانسي في عام ١٩٢٦ لمدة سنة، وكتـب عـن ذلـك في مذكراته "وداعا لكي ذلـك". وبرغم أنـه يذكـر أن لـورا جـوت شـولك (التـي تعرف باسم الشاعرة لورا رايدن) جاءت إلى مصر للإقامة معه، إلا أنـه يسـجل أن المصريين - برغم تساهل الإسلام في تعدد الزوجات - إصيبوا بصدمة إزاء هذا المنزل الذي يضم ثلاثي الزوج والزوجة والمرأة الأخرى.

روبن فيدن كـان داعيـة صلبـا للسـلام منـذ أن رأى أبـاه وهـو يعـاني مـن عذابات صدمات القصف من أيام الحرب العالمية الأولى. وفي ربيع عام ١٩٤١ أساؤوا فهم مواقفه فوصفوه بأنه داعية انهزام وحذرتـه السفارة مـن أن يـأخذ حذره باستمرار، وبرغم أنه لم يكن يريد أي مشاركة فعالـة فـي القتـال، إلا أن فيدن أمضى الصيف سائق إسعاف في سـورية ضمـن وحـدة مستشـفى هـادفيلد سبيرس التي كانت تشرف عليها مسـز سـبيرس. وكـم ارتـاح أصدقـاؤه عندمـا أزال من وجهه الشاحب الذي انحـدر مـن القـرن الثـامن عشـر لحيتـه الحمـراء الطويلة التي كانت تجعله واحـدا مـن المنـاظر المشـهودة فـي الشـرق الأوسـط، والمشكلة أن فصاحته الطبيعية كان يعوقها لعثمة شديدة.

كان فيدن يتمتع بدوائر عريضة من الأصدقاء، ولذلـك لـم يكـن يظـهر فـي الاتحاد سوى بين فينة وأخرى، في حين أن ظهـور برنـارد سبنسـر كـان أكـثر

انتظاما. في الوطن كان قد حقق شهرة بوصفه جزءا من الموجة الجديدة في الشعر الانجليزي التي ضمت ستيفن سبندر ولويس مكنيس. كان رجلا هادئا رقيق الحاشية، وخلال فترة إقامته في مصر نمت بينه علاقة عميقة وبين روث سبايرس التي ظهرت ترجماتها للشاعر (الألماني) ريلكه في مجلة "برسونال لندسكيب ".

وفي مذكراته عن تأسيس المجلة، كتب روبن فيدن يقول "جاء عنوانها "المنظر الشخصي" أو "تخومي" ليعبر عن رغبتنا في تأكيد أهمية الحياة والقيم الخاصة عندما كان التيار من حيث الفكر والمشاعر السائد من حولنا يتجه دائما وبقوة إلى مسارات الحرب، وعندما بدا من الصعب أكثر وأكثر أن يتواجد المرء خارج نطاق 'المجهود الحربي'". لقد أرادوا أن يبدأوا مجلة أدبية حقيقية وليس منشورا آخر يصدر في زمن الحرب وينشر أشعارا عن الحرب أو على نحو ما يقول تيرينس تيلر "تصبح مادة أشبه بمجلات الحائط المدرسية أو نشرات الكنائس المحلية". كان تيلر هذا قد وصل إلى القاهرة من كمبريدج في عام ١٩٣٩ لتدريس الأدب والتاريخ، وكان في بادئ الأمر يتكتم إبداعه للشعر، ولكن بفضل تشجيع قوي من جانب دوريل اقتنع بأن ينشر أشعاره في المجلة، وكان يتمتع بملامح حادة صغيرة وقد وصفه دوريل بأنه يتمتع بنفس السحر الذي كان يميز الشاعر فيليب لاركن" وكأنه شرطي مجنون".

عمل مؤسسو مجلة برسونال لندسكيب على استعارة مطبعة معهد الآثار الفرنسي، وظهر من مجلتهم ثمانية أعداد بين يناير ١٩٤٢ وعام ١٩٤٥، وكان كل عدد يباع بخمسة قروش (زجاجة البيرة كانت بقرشين)، أما العدد الأول فقد كتبوا على غلافه قائلين: "إذا كان الأمر يعنيك تستطيع الحصول على نسخة بالكتابة إلى برنارد سبنسر، ٢٧ شارع الملكة فريدة، القاهرة، وإن اهتممت بالاشتراك في عددين أو ثلاثة في وقت واحد فإن هذا سوف يساعدنا كثيرا".

وفي كل حال كان ذوق الحرب أمرا لا ينفصم عن حياتهم، ولكن الموضوع الذي كان الشغل الشاغل لشعراء المجلة المذكورة كان هو المنفى. هذا المنفى كان اختيارا مفروضا على النفس إلى حد كبير: فيدن ودوريل وسبنسر كانوا يعيشون خارج انجلترا بمحض اختيارهم قبل اندلاع الحرب. وبهذا لم يكن شوقهم يتجه إلى انجلترا ولكن إلى اليونان، وفضلا عن ارتباطهم بذلك البلد، فإن الحرب أنزلتهم كما يقول دوريل على الجانب الغلط من البحر الأبيض المتوسط.

وإذ كانوا ينعون ابتعادهم عن اليونان ويحاولون مؤازرة ثقافتها من خلال أعمال كفافي وجورج سيفيريس وإيلي باباديمترو، فإن جمعية "سالاماندر" كانت تتطلع من جانبها إلى فرنسا. بدأت "سالاماندر" بوصفها "دارا مفتوحة يغشاها الوافدون من الأدباء والهواة في مجال الفن في أوائل عام ١٩٤١". وكانت أكثر تمسكا بالتقاليد من قرينتها برسونال لندسكيب: وكما يقول روجرز بوين في مقالته الممتازة عن "الحياة الأدبية في القاهرة": "في الأعداد الخمسة من سالاماندر جاءت مبالغات إيليون وإميوت أودن مدعاة لأسف واضح وجلي بينما أمكن ترجمة هاوس مان وشستر تون إلى فرنسية رفيعة لا شائبة فيها".

كان "كييث بولن" هو الشعلة المتوهجة في مجلة "سالاماندر" وكان رجلا ضخما طيب القلب يعمل ناظرا لمدرسة الجزيرة التحضيرية. وكانت اجتماعات جمعية سالاماندر تتم بقراءة الشعر واحتساء شراب الجنَ القرنفلي في صبيحة الآحاد في منزله بالجزيرة، كما كان له مائدة يحتفظ بها في محل بقال يوناني قرب ميدان سليمان باشا. الفرق بين شعراء "برسونال لندسكيب" وشعراء جمعية "سالاماندر صوّره" غضب تيرينس تيلر عندما سمع أن كييث بولن قد أثنى بكل إخلاص على أعماله قائلا إنه كتب أفضل سونيتات منذ أيام اللورد ألفريد دوجلاس.

وبينما كانت "سالاماندر" وبدرجة أقل "برسونال لندسكيب" تشملان بالفعل قصائد كتبها جنود عاملون، إلا أنه لم يبذل جهد حتى حلول عام ١٩٤٣ لجمع

ونشر الشعر الذي اقتصرت كتابته على الجنود في الميدان. وكانت الفكرة قد طرأت على خاطر ثلاثة من الجنود العاديين هم دينيس سوندرز وديفيد برك وفيكتور سلوين في نادي النصر بالقاهرة، وبمساعدة من صديق يعمل في مخابرات الأركان العامة تمت تلاوة النداء الذي وجهوه على مسمع من الجنود وكذلك قرأوه يوميا لمدة أسبوع من إذاعة الحكومة المصرية، وظهر النداء كذلك في جريدة إيجيبشيان ميل وفي مجلات أفرع القوات المسلحة، وبعدها انهمرت ثلاثة آلاف قصيدة. وفي سبتمبر ١٩٤٣ ظهر ما يزيد على أكثر من مائة قصيدة من أفضل الأشعار مجموعة في كتيب بعنوان "الواحة: مجموعة الشرق الأوسط من أشعار الجنود". وكانت المقدمة بتوقيع الجنرال جامبو ويلسون ونال الصليب الأحمر ٢٥٠ جنيها مصريا من حصيلة المبيعات.

كان يمكن أن ينتهي الأمر عند هذا الحد. ولكن بعد جيل من الزمن عاد محررو "الواحة" للتواصل مع بعضهم من جديد واتصلوا أيضا بكاتبي قصائد مجموعتهم وبجمعية سالاماندر، وقاموا بتشكيل جمعية سالاماندر - أواسيس (الواحة) غير القابلة للربح التي استطاعت منذ ذلك الحين أن تصدر مجلدين من الأشعار والذكريات التي كتبها الرجال الذي حاربوا في الشرق الأوسط وفي إيطاليا.

كتبت أوليفياماننج ثلاثيتين حملتا معا اسم "حظوظ الحرب"، وفيهما تؤرخ لحياة جي وهاريت برنجل: الأولى بعنوان "ثلاثية البلقان" وتقع أحداثها في رومانيا واليونان، والثانية بعنوان "ثلاثية الليفانت" وتقع في مصر وفلسطين، والثلاثية الأخيرة تشكل واحدة من أشهر أوصاف القاهرة في زمن الحرب، وهي تستند إلى حد كبير إلى التجارب الشخصية للمؤلف وزوجها ر. د. سميث.

كانا قد تزوجا في انجلترا خلال شهر واحد من أول لقاء بينهما، وبعدها انطلقا إلى بوخارست حيث كان يعمل محاضرا من قبل المجلس البريطاني في الجامعة. ثم اندلعت الحرب بعد عشرة أيام من زفافهما، ومن المفارقات أن

البروفيسور سميث الذي كان يعرفه الجميع باسم "ريجي" يذكرونه جيدا بوصفه زوج أوليفيا ماننج والرجل الذي استوحته شخصية "جي برنجل". فعند حكايتها لبواكير زواجهما كانت أوليفيا هي التي احتفظت لنفسها بمكان الظل بينما ريجي كان هو الشخصية الرئيسية الفعالة بغير مراء.

كان رجلا ضخم الجثة قليل الهندام يتمتع بقدرة لا حدود لها على رفقة البشر إلى حد أنه كان يجتذب الجميع إلى رفقته. كان دائما محاطا بشلة من الأصدقاء والطلاب والكتاب والممثلين من ذوي الطموح، وكان بوسعه أن يلمح الموهبة في أي فرد وأن تظهر هذه الملامح في دفء تشجيعه وحماسه للآخرين. كان لديه دائما الوقت لكي ينظم لعبة أو يحرر مجلة، بل ويمارس بين حين وحين لعبة الشطرنج أو البوكر أو الكريكيت (كان يحلم بأن يلعبها لصالح نادي ووريك شاير). كان ابن عائلة فقيرة من طبقة العمال مما جعل منه شيوعيا متحمسا ولكن غير تقليدي. ولذلك كانت الأموال والرفاهية تعني له أقل القليل وما كان أسهل عليه أن يشرك فيه الآخرين وأحيانا يتنازل عنه لصالح الآخرين.

كل همه هو الكتب يحشو بها جيوبه، والبشر يجاذبهم أطراف الحديث، ولهذا تواصلت حياة ريجي سميث في أي مكان يأوي إليه. لكن زوجته ابنة الطبقة الوسطى حيث كان أبوها ضابطا بحريا كانت تشعر بقلق عميق إزاء تجربة اللجوء التي عاشتها وخاصة لأنهما جربا هذه التجربة مرتين، الأولى عندما هربا من بوخارست، والثانية من أثينا. صحتها التي لم تكن متعافية قط زادت ضعفا لدى وصولها إلى القاهرة حيث ظلت تشعر بالمرض والإنهاك بغير انقطاع.

من أوائل الناس الذي اتصلا بهم كان آدم واطسون الدبلوماسي الذي كانا قد شاركاه منزلا في بوخارست، وها هو قد أصبح السكرتير الثاني في القاهرة وضابط الاتصال بين السفارة البريطانية والجنرال (الفرنسي) كارتو. وقد قدم لهما غرفة في شقته في العمارة ١٣ شارع ابراهيم باشا نجيب التي تطل على

السفارة. تقول الروائية "كانت غرفتنا تطل على حديقة رجل أعمال موسر وكان بوسعنا أن نتبين الأشياء من خلال شجرات المانجو الكثيفة الداكنة الخضرة، فنرى النجيل ثم نسمع خرير المياه المستقاة من النيل بغير انقطاع". هذه الغرفة بل والشقة تظهر في ثلاثية الليفانت (أو الشرق) وفي شخصية "دوبي دوبسون" ابن المدينة المرفه الذي يحمل ملامح يمكن التعرف عليها من شخصية آدم واطسون.

ومضت الأسابيع لتصبح أوليفيا أشد توترا إزاء إهمال المجلس البريطاني، فلم يكترث القوم فيما يبدو بأن يجدوا لزوجها ريجي وهو من ألمع الأساتذة عملا يليق بمواهبه، لكن ما كان في يدها شيء تفعله لأن ريجي كان يفضل الحديث عن الشعر والسياسة مع الطلاب أكثر من محاولة إقامة صلات مع زملاء من ذوي النفوذ. ولم يطل الأمر كثيرا بهما حتى اكتشفا الحديقة الرطيبة في الاتحاد الانجليزي المصري حيث كانا الحاضرون شغوفين بريجي برغم إفراطه في الشراب، بل إن دوريل يتذكر أن ريجي كانت تحيط به دائما شلة من أفراد أقرب إلى الصعاليك.

أوليفيا من ناحيتها كانت أقل شعبية، فبينما كان زوجها ريجي مشجعا للآخرين، كانت هي حادة الطبع، قليلة المراعاة للناس و (باعترافها هي) كانت حقودة على البشر "لم يكن من همي أن أجرح أحدا - هكذا فسرت الأمر في حديث مع كاي ديك، ولكن لم أكن قادرة على مقاومة النفاذ بالبصيرة إلى دواخل البشر، وإذ كنت أفعل ذلك لم أكن أقاوم أن أحكي لهم عما رأيته فيهم. كان مرأها غريبا وقد وصفه الشاعر ج. س. فريزر الذي كان قد تطوع في القوات وبعدها شرع يعمل في مجلة باريد: "كانت نحيلة أقرب إلى الخيزرانة، وجهها بيضاوي يشبه وجه طائر وقد أكملت نمطه بارتدائها قلنسوة طويلة حتى أن فنانا من مدرسة ويندام لويس كان يمكن أن يرسمها على هيئة بيضة معقوفة ومعصوبة وقد وضعوها لكي تتوازن فوق اسطوانة". شعرت أوليفيا أنها وزوجها ينبغي أن "تستضيفهما آني سمارت وكانت راعية الحياة الثقافية

والأدبية في القاهرة بغير جدال، وكم شعرت بالمرارة لأن آني لم تكد توليها اهتماما وكأن الأمر وصل إلى رفضها أن تعترف بمواهب الروائية ذاتها.

أخيرا قدموا لزوجها عملا في أكتوبر كمحاضر في جامعة فاروق الأول الجديدة (برغم أن قسم اللغة الانجليزية لم يفتتح رسميا إلا بعد سنة من ذلك التاريخ وكان ذلك على هدير مدافع العلمين). هكذا انتقلا إلى الاسكندرية وتقاسما شقة مع روبرت ليديل الذي كان يعمل بدوره في الجامعة، وكانا قد تعارفا عليه في أثينا. وبعيد وصولهما سمعت أوليفيا بوفاة أخيها أوليفر الذي كان قد التحق بطيران الأسطول وجاءتها الأخبار كضربة صاعقة لأنها كانت تكاد تعبد أخاها بكل شقاوته ورعونته.

الاسكندرية كانت تلي القاهرة من حيث البرودة والطابع الأوروبي ولكن الحرب كانت ظاهرة أقرب وأوثق بصورة تدعو للقلق. صحيح أن الغارات لم تكن على نحو ما كانته في الصيف الماضي من العنف، ولكن الألمان كانوا يقصفون الاسكندرية بانتظام في إطار ما قصدوه من تصعيد هجوم الشتاء. كانت صفارات الأنذار تأتي على نغمتين: الأولى لإعلان وصول طائرات ألمانية في طريقها لقصف بورسعيد والثانية للتحذير من عودتها، حيث أن أي قنابل لم تلق على بورسعيد كانت تقصف بها الاسكندرية. وبرغم صلابة أوليفيا إلا أنها أصبحت متوترة الأعصاب مرهفة الحساسية بشكل بالغ وكم كان ليديل يضيق بالأمر عندما يبدأ عويل صفارات الإنذار فإذا بها تصر على أن يهرع الجميع إلى البدروم. ولكن قبل أن تنهار أوليفيا تحت وطأة هذه الغارات جهدت في العودة إلى القاهرة. في شتاء عام ١٩٤١ وجدت عملا كملحقة صحفية في مفوضية الولايات المتحدة حيث كانت في وقت فراغها تدون فيما يبدو مذكراتها عن "ضيوف الزفاف" وهي رواية غير منشورة شكلت أصول ثلاثية البلقان. كانت تكتب قصصا قصيرة أيضا وترسلها إلى صديقها "ستيف سميث" في لندن على أمل نشرها. في الوقت نفسه أصبح "ريجي" رئيسا لتحرير مجلة جديدة اسمها سيتاديل (القلعة)، وعلى مدى ستة أشهر من توليه المنصب نشر قصائد

بقلم كييث دوجلاس وروبرت ليديل وجوين ويليامز وتيرينس تيلر وعدة كتاب مصريين فضلا عن قطعة أدبية مهمة بقلم أ. م. فورستر* بعنوان "الفوضى الجديدة": "بالنسبة لي فإن أفضل فرصة لأي مجتمع في المستقبل إنما تكمن في مرارته وركوده وقصوره الذاتي، وإذا ما قيض لهذه الحرب، كما قد ينبغي لها، أن يتلوها إنهاك عالمي فقد يتاح لنا ذلك التغيير في الوجدان الذي ما برحت آلاف المنابر والوعاظ يبشرون به حاليا بكل حمية وحماس".

من قصص أوليفيا القصيرة، قصة بعنوان "الزيارة" ظهرت في عدد يوليه ١٩٤٢ [بعد أن خلف ديفيد هيكس زوجها ريجي في رئاسة التحرير]، والقصة مروية على لسان طفلة تأخذها أمها لترى ليدي موكسون الطريحة الفراش، وتقدم لها الليدي صندوق مجوهراتها قائلة: عندي شيء لصغيرتنا ولكن بعد أن تتحسس هذه القطعة أو تلك تغير رأيها أما الفتاة الصغيرة فيعذبها الحسد والإحباط وهي صورة لا شك فيها لأوليفيا الصغيرة أيضا لأنها قلما كتبت عن شيء خارج نطاق حياتها الخاصة، وفي هذا أسرت إلى كيي دينك قائلة: "أنا أكتب من واقع تجربتي لا من عالم الخيال، ولا أظن أن أي شيء عايشته قد تبدد أو ضاع يوما".

وثمة استثناء مهم من هذه القاعدة يتمثل في شخصية "سيمون بولدرستون" في "ثلاثية الليفانت". بعيون هذه الشخصية لا تقتصر أوليفيا ماننج على وصف حرب الصحراء والعلمين ولكنها تفعل ذلك بقدر مرموق من الدفء والمعايشة، إذا اعتبرنا أن الرواية قد كتبت بعد ثلاثين عاما من مغادرتها منطقة الشرق الأوسط. وفي هذه الفترة الفاصلة صدرت كتب عديدة لتصف حياة الجنود في الصحراء الغربية، ومن بينها كتاب "الثلاثية الأفريقية" تأليف ألان مورهيد (١٩٤٤) وكتاب "من العلمين إلى زمزم" تأليف كييث دوجلاس

---

* هو الروائي الكبير (توفي عام ١٩٧٠) صاحب رائعة "الطريق إلى الهند". "المترجم"

(١٩٤٦) وكتاب "خذ هؤلاء الرجال" تأليف سيريل جولي (١٩٥٥). ولقد تكون لهذه الكتب مساهماتها ولكن الكتاب الذي كانت تحتفظ به على طاولتها للإحالة إليه باستمرار كان مذكرات الفيلد مارشال مونتجمري.

إن محور تركيز ثلاثية (الشرق) "الليفانت" شأنه شأن "ثلاثية البلقان" التي سبقتها، هو شخصية "جي برنجل"، والطريقة التي أصبحت بها زوجته "هاريت" - الشخصية التي رسمت بها أوليفيا نفسها بكل وضوح قاطع - لكي تكيف حياتها مع رجل كان يحبها بالفعل، ولكن نزعته الاجتماعية جعلته يهمل احتياجاتها العاطفية، هي الموضوع الحقيقي للكتاب.

وهناك مجموعة كبيرة من الشخصيات التي تحيط هذين البطلين، بعضها يمكن ربطه بأفراد حقيقيين، ولكن لا ينبغي أن ننسى أن أوليفياماننج لم ترسم قط أي شخصية مباشرة من واقع الحياة، بل كانت تستخدم تجربتها الخاصة وشخصيات الأفراد الآخرين، لا كنماذج ولكن كمنطلقات يتم من بعد تطويرها في إطار إبداعها الروائي.

إن الرواية الأولى "شجرة الخطر" تصور الأيام الأولى لأوليفيا ماننج في مصر برغم أن الأحداث الرئيسية في القصة تشمل وفاة سير ديزموند وابن ليدي هوبر، وتلك أحداث تستند إلى مأساة حقيقية لم تقع إلا بعد أن غادر كل من أوليفيا وزوجها فلسطين. ففي يوم ١٧ يناير سنة ١٩٤٣ أتيح أمام والتر سمارت - الذي أصبح وقتها سير والتر - واحد من أيام الإجازات النادرة في حياته. وللاحتفال بهذه المناسبة رتب مع عائلته نزهة في الصحراء وتألفت المجموعة من سير والتر وزوجته آمي وابنهما "ميكي" البالغ من العمر ثمانية أعوام، وابنة أخت آمي، ثم ثريا أنطونيوس الروائية فيما بعد وأخيرا مربية الأولاد.

بعد الغذاء اضطجع سير والتر في نومة القيلولة، بينما تناولت آمي أدواتها وبدأت في الرسم، وبعدها سمع انفجار مكتوم: كان ابنهما الوحيد قد التقط إصبعا متفجرا فإذا به ينفجر بين يديه ليموت في الحال، وانتشرت أخبار

المأساة وقيل في القاهرة إن سير والتر وليدي سمارت وقد خرجا عن طورهما بسبب الحزن والصدمة، حملا الصبي الصغير إلى البيت وحاولا إطعامه من خلال ثقب في جانب من وجهه، وكانت آمي سمارت تعلم أن سنها لن يسمح لها بإنجاب مزيد من الأطفال، وهكذا ملأت بيتها بصور لميكي وفي الأشهر التي تلت بدأت تستعيد قدرتها على التحدث برشد وموضوعية حول ما حدث، ولكن كان ينبغي أن تنقضي سنوات قبل أن تحمل نفسها على معاودة الرسم من جديد.

لا بد أن أوليفيا كانت قد سمعت القصة عندما كانت هي و "ريجي" سميث مقيمين فترة قصيرة في القاهرة في نهاية الحرب، وفي رواية "شجرة الخطر" ثمة مقارنة بين إطعام الطفل المقتول وبين عادة قدماء المصريين في إحضار الطعام للموتى. وقد ظل والتر وآمي سمارت مخلصين لبعضهما البعض بعد وفاة وحيدهما، ولكن الحادث في الرواية يدفع ليدي هوبر المتوثبة والذكية إلى مفارقة زوجها وهي ستحاول نسيان جريرتها بالانغماس في اللهو والويسكي وتصاحب من بعد هاريت برنجل.

وبرغم أن والتر وآمي سمارت لم يعيشا حتى وقت نشر الكتاب، فقد شعر أصدقاؤهما بالغضب الشديد، إذ أن قصتهما ظهرت في ثنايا الروايا، ومن شأن القارئ أن يربط شخصية آمي بشخصية ليدي هوبر المستهترة. وغير مستبعد أن أوليفيا استخدمت الحادثة كشكل من أشكال الانتقام الأدبي إزاء حقيقة أنها وزوجها ريجي لم تسبغ عليهما حماية عائلة سمارت طيلة تلك السنوات التي انقضت في مصر.

انتقمت لنفسها كذلك من س. ف. دونداس الذي كان قد عين ممثلا أول للمجلس البريطاني في مصر عام ١٩٣٨ ولم يبد كبير حماس في العثور على عمل لزوجها ريجي سميث. كان فلكس دونداس رجلا دؤوبا على العمل له نزعة غريبة تجمع ما بين الرومانسية والبيوريتانية، وكان يكن إعجابا شديدا

للضابط ت. لورانس (لورانس العرب) وقد كتبت أوليفيا أبياتا من الشعر عنه بعنوان دونداس الصحراء تقول:

أنا مثل الصحراء

والصحراء مثلي أنا

في النعومة والعري والسخونة أيضا

كل هذا وما حصلنا على الوشاح الأكبر

[من ملامح قاهرة زمن الحرب كانت تلك التوريات والأشعار الفكاهية حول الشخصيات المعروفة وكان يحلو لأوليفيا وريجي أن يسهما في هذا المضمار].

من ناحيته كان دونداس لديه فكرة واضحة تماما عن نوعية المحاضر الذكي الكفء الذي ينبغي أن يلتمسه في المجلس البريطاني مما يرفع مكانة هذه المنظمة في أوساط الجالية البريطانية. لكن كان لديه أيضا تحيز واضح ضد الأفراد الذي يأتون من اليونان والبلقان، وقد كتب إلى لورد لويد يقول إن هؤلاء الأفراد من الموظفين إنما اكتسبوا سمعة سيئة حيث كانوا يوصفون أمامه بأنهم "رقعاء" "طويلو الشعر" أو "ناعمون". وكما توضح فرانسيس دونالديسون في كتابها عن المجلس البريطاني فإن هذه العبارات نفسها كان يمكن استخدامها على ألسنة الأفراد الأجلاف في الجالية البريطانية لوصف أي فرد تتبدى منه أقل نوازع الثقافة أو رقة الحاشية، وعليه فإن أفرادا مثل ريجي سميث، الذي لم يكن ليخفي آراءه السياسية ما كانت تصدق عليه إطلاق فكرة دونداس عن المحاضر النموذجي في المجلس البريطاني.

في ثلاثية البلقان، توجد شخصية كولين جراسي وهو رئيس المنظمة التي يعمل فيها جي برنجل، وهذا الرئيس جبان، استعراضي، مدع، وعاجز لا في العير ولا في النفير وكل ما يعرفه هو أن يمارس ألاعيب الموظفين بالمكاتب [جي برنجل في الرواية يؤلف عليه شعرا تحت عنوان "جريس

الجزيرة" وجريس هذا بلغ به قصر النظر لدرجة عجز معها عن تقدير مواهب جي وكل همه هو أن يتزلف باستمرار إلى شخصية أخرى في الرواية هي البروفيسور لورد بينكيروز] .

إن شخصية لورد بينكيروز التي لا يهدأ بالها في الرواية تستند بصورة فضفاضة إلى شخصية لورد دونساني الذي كان قد تم إجلاؤه مع ريجي سميث وأوليفياماننج في أبريل سنة ١٩٤١. كان البارون دونساني الثامن عشر شاعرا أيرلنديا ضخم الشاربين في منتصف الستينات من عمره، وقد ابتعثوه إلى اليونان في أكتوبر سنة ١٩٤٠ ليشغل كرسي بايرون في اللغة الانجليزية بجامعة أثينا. سأله أحدهم عن ما هية كرسي بايرون للغة الانجليزية، ويقال إن لورد دانساني قد أجاب أنه لا يعرف على وجه التأكيد ولكنهم دفعوا له لكي يشغل المكان الذي لا يستريح إليه بحال من الأحوال. وإذا كان اللورد الحقيقي يشارك لورد بينكيروز في الرواية ميلا معينا إلى الشجار والخصام إلا أنه لم يلق نفس مصيره العنيف: بينكيروز في الرواية جاءت نهايته عندما اغتالته يد مصري متعصب، بينما كان يلقي محاضرة عن لورد بايرون. ولأن أوليفيا سمعت نبأ وفاة شقيقها عندما كانت في مصر، فلا عجب أن "ثلاثية الليفانت" (شرق المتوسط) مشغولة كثيرا بالعلاقات الأخوية. إن سيمون بولدرستون يفقد أخاه هوجو وهو واحد من غلاة الشباب المتعلقين بهاريت برنجل لأنها تستطيع أن تهيئ لهم البلسم الأخوي الذي يحتاجون، وهم من جانبهم يهيئون لها صداقة الرجل التي لا تستطيع أن تحصلها من زوجها جي دون أن يكون في هذه الصداقة أي تهديد من ناحية نوازع الجنس. إيدان برات الذي يعرفه معجبوه بأنه الممثل إيدان شريدان يصبح أقرب ما يكون إلى هاريت ويصحبها إلى صعيد مصر، ولكن كان جي وليس هاريت هو الذي يحتاجه إيدان لمواساته لأن الحرب كانت قد دمرت تقدمه في مهنة التمثيل. وعندما يوفد برات إلى فلسطين يناشد جي أن يأتي ليراه ويرفض جي العرض فما كان من إيدان برات إلا أن يقدم على الانتحار في القطار بأن يطلق على نفسه الرصاص في الممر.

مرة أخرى ها هي أوليفيا ماننج تسجل موتا غريبا حدث بالفعل. إن شخصية إيدان برات تقوم على شخصية ممثل حقيقي وشاعر اسمه ستيفن هاجارد. قبل الحرب كان قد لقي من الثناء الكثير بوصفه واحدا من ألمع الممثلين الكلاسيكيين من أبناء جيله وأبهاهم طلعة. جاء إلى الشرق الأوسط في عام ١٩٤٢ والتحق بإدارة الحرب السياسية ومثل سميه في الرواية - إيدان شريدان - شعر هاجارد أن الحرب دمرت مستقبله الفني ووقع في غرام حسناء مصرية كان زوجها يعمل في فلسطين وقد زاره في شتاء عام ١٩٤٣. وإذ كان قد أشرف على الانهيار العصبي من فرط الإجهاد في العمل جاءت القشة الأخيرة التي قصمت ظهره عندما أبلغته المرأة التي أحبها أن علاقتهما قد انتهت، فما كان من ستيفن هاجارد إلا أن أطلق على نفسه الرصاص في ممر القطار المسافر بين القدس والقاهرة في شهر فبراير سنة ١٩٤٣ .

إن شخصيتها إذ تنطلق من محطات واقعية في الحياة، إلا أنها لا تلبث أن تعيش تجاربها الخاصة بها، في حين أن أماكن من قبيل الاتحاد الانجليزي المصري، أو محلات جروبي يرد وصفها كما كانت عليه بالضبط. إن الشعور بتواجدها في القاهرة في زمن الحرب لم يكن بالنسبة لها يمثّل الذكريات السارة عن الحفلات البهيجة حيث كل الرجال يرتدون الزي العسكري، إنه بالأحرى الإحساس الفعلي بذلك الضيق الشديد الذي ينجم عن القيظ اللافح مما يجعل كل شيء لزجا وهامشيا.

وبرغم أن أعمال أوليفيا ماننج تلقى ثناء وتقريظ النقاد، إلا أنها شعرت أنها لم تنل الاعتراف العام الذي تستحقه وقد ماتت في يوليه من عام ١٩٨٠ قبل شهرين اثنين من نشر آخر مجلد في ثلاثية شرق المتوسط (الليفانت) ولم يقدر لها قط أن تعرف مدى النجاح الباهر الذي حققه.

سقوط حسين سري

في يوم ٧ ديسمبر قصف اليابانيون بيرل هاربر وشعر سير مايلز لامبسون ومعه الكسندر كيرك، الوزير الأمريكي المفوض، بارتياح شديد لأن أمريكا قد انضمت في آخر المطاف إلى الحرب وظل "يغمغمان بسعادة" إزاء احتمال أن يصبح الطرفان حليفين حقيقيين. على أن بيرل هاربر كان موقعا نائيا لدرجة لم يثر الكثير من ردود الأفعال في مصر، ولكن برغم أن لامبسون لاحظ أن النكسات الألمانية في روسيا والنجاحات البريطانية في الصحراء التي تحققت في شهر ديسمبر كان لها "وقع مطمئن" في البلاد إلا أن ثمة قوى لها وزنها كانت تعمل ضد البريطانيين.

ثم جاء إبعاد حسن البنا زعيم الإخوان المسلمين إلى قنا في أبريل ليدوم بضعة أسابيع فقط، ولدى عودته تبين أنه نال حماية السراي: جفت تماما التقارير الواردة من مصادر مصرية بشأن تصرفات حسن البنا، وفي الوقت نفسه كانت المخابرات العسكرية البريطانية تكتشف أن البنا لم يكن مشاركا قط في نشاطات الدعاية، ولكن كان عاكفا أيضا على التجهيز لتخريب خطوط الاتصالات البريطانية بما يتزامن مع الهجوم الألماني القادم. وطلب سير مايلز من حسين سري اعتقال المرشد وتم ذلك في أكتوبر ولكن بفضل القسم المخصوص في بوليس القاهرة الذي كان لعلي ماهر أصدقاء أقوياء داخله أفرج عن حسن البنا من تحت ذقن الانجليز قبل انقضاء شهر واحد، واستبد

الغضب العارم بلامبسون، لكن رئيس الوزراء قال إن عاجز عن إيقاف الأمر وأنه فشل بنفس القدر في مسألة التموين.

وبعد قرار حسين سري الذي لم ينل أي تأييد بخفض المساحة المزروعة قطنا في الصيف، بدأ التجار يخزنون القطن الرخيص وكانت تلك من أوائل السلع التي تختفي من الأسواق المحلية وقد اتخذ الاتجاه إلى التخزين والإخفاء صورة العدوى، وكان مسؤولا في جانب منه عن اختفاء السكر والدقيق والكيروسين ثم جاءت أزمة النقود الفكة التي ارتبطت بحقيقة أن أسعار السلع الغذائية الأساسية مثل الفول والزيت والدقيق هي غذاء الفقراء الأساسي، أظهرت زيادة بلغت في المتوسط ٩٤ في المائة منذ أغسطس ١٩٣٩. وقد عمد المرابون إلى اكتناز العملات الفضية، في حين كانوا لا يقومون بتبديل الأوراق النقدية إلا مقابل عمولة، لكن هذه الألاعيب توقفت عندما طرحت ٢٠ مليون من العملات المعدنية الصغيرة التي جرى سكها في الهند، وشحنت إلى مصر التي كانت في أشد الحاجة إليها.

النقص الوحيد الذي تأثرت به الطبقات الغنية أكثر من الفقيرة هو إدخال نظام "أيام عدم بيع اللحوم" في نوفمبر باعتبار أنه لم يعد بالإمكان استيراد اللحوم من تركيا والبلقان، ولذلك كان الأمر يقتضي الحفاظ على ما تملكه مصر من رؤوس الثروة الحيوانية. وبخلاف ذلك فإن الهوة الرهيبة الفاصلة بين الغنى والفقر في مصر كانت تعني أن الميسورين لم يأبهوا قط بملاحظة وجود أي سلع ناقصة على الإطلاق. إن الأحياء التي كانوا يسكنونها في المدينة ظلت تحظى بإمدادات تموينية معقولة إلى حد كبير برغم أن الأسعار كانت تبدو وكأنها تزيد كل ساعة تقريبا.

وفي ظل عجز الحكومة عن السيطرة على مقاليد الاقتصاد زادت الأحوال سوءا مع تقدم أيام الشتاء. وبرغم تخصيص ٢٠٠٠٠٠ فدان من جديد لزراعة الحبوب إلا أن الخبز بدأ يندر في الأسواق. وقد ترأس الملك فاروق مجلس الوزراء الذي انعقد لمعالجة المشكلة وأمر بتوزيع كل مخزونات الذرة

من الصوامع الملكية، ولكن بحلول يناير ١٩٤٢ كان الأهالي قد اقتحموا المخابز واتهموا الخبازين بأنهم يخلطون الدقيق بنشارة الخشب، وصرح نائب وفدي لمندوب جريدة المصري قائلا: "عشية اندلاع الثورة الفرنسية كان أهل باريس يهتفون: نريد الخبز، وها هم أهل القاهرة يفعلون الشيء نفسه ويهاجمون شحنات القمح. إن الحالة في هذا البلد يمكن وصفها بأنها ثورة". من هنا بدأت حكومة حسين سري في التداعي ولم يكن لديه من يؤازره داخل البلاد، ونجح علي ماهر في تفتيت ما كان قد تمتع به من نفوذ في السراي.

على أن المسألة التي أطاحت بحكومة حسين سري تمثلت في علاقات الحكومة الدبلوماسية مع فيشي. كان سير مايلز لامبسون ما يفتأ يحث على قطع تلك العلاقات منذ شهر أكتوبر، وحاولت حكومة سري تأجيل الخطوة أسابيع قليلة إذ كان هناك ٣٠٠ طالب مصري يدرسون في فرنسا، ولم يكن بالوسع إحضارهم جميعا على الفور إلى وطنهم، بل إن بعضهم رفض مغادرة فرنسا على الإطلاق وكانت هناك احتجاجات قوية في البرلمان، ولكن حسين سري ما لبث أن رضخ أمام الضغط البريطاني في أوائل يناير. كان كل من لامبسون والملك في سياحة في الصعيد، الأول يمضي عطلة عيد الميلاد على نحو ما فعل في السنة الماضية مع زوجته، والرحالة الكاتبة فريا ستارك في الأقصر، بينما كان الملك في أسوان، وقد شغلت الحاشية الملكية طابقا بأكمله من فندق كتاراكت، في حين ذكر الأمير محمد علي الذي كان يبغض ابن أخيه ولم يكن ليضيع فرصة لنشر قصة حوله هنا أو هناك أنه علم أن فاروق كان يتسلى بإطلاق الرصاص على الصبية من النوبيين الذين كانوا يجدفون في قواربهم تحت شبابيك فندق كتاراكت طلبا للبقشيش. أما حياة الملك ذاتها فكانت قد أصبحت لا تطاق بسبب التوترات الناشبة بين والدته الملكة نازلي وزوجته الملكة فريدة.

نازلي كانت تصل متأخرة دائما إلى مائدة الغذاء، وهذا كانت تعتبره فريدة إهانة متعمدة، ومن هنا كانت الملكة الصغيرة تدعي المرض وتلازم غرفتها

التي كانت تعلو مباشرة قاعة الطعام، وفور أن تنزل نازلي إلى الغذاء كانت فريدة ووصيفاتها الشابات يشرعن في الغناء والرقص ويحدثن جلبة هائلة من فوق رأس الملكة الأم مباشرة، وقد وصلت الأمور إلى حال من السوء لدرجة اضطر معها فاروق أن يذهب إلى جولة على ساحل البحر الأحمر.

وعندما اقترح لامبسون أولا إغلاق مفوضية حكومة فيشي في أكتوبر، بدا فاروق "غير مهتم بالأمر"، ولكن عندما سمع الملك أن سري قد قطع العلاقات مع فيشي دون استشارته استبد به الغضب، وطبقا لما ذكره سير مايلز فإن هذه الغلطة من جانب سري باشا "سرعان ما استغلها علي ماهر باشا وعصبته الذين أوغروا صدر الملك عندما صوروا الإجراء الذي اتخذه رئيس الوزراء وكأنه تعد على السلطات الملكية، وتلك كانت أكثر النقط الحساسة عند صاحب الجلالة". وقد طلب الملك استقالة وزير الخارجية صليب سامي باشا، وقال حسين سري إذا ما استقال صليب سامي فإنه بدوره سوف يستقيل ولم يكن لا الملك ولا رئيس وزرائه مستعدين للتراجع على الإطلاق.

في الوقت نفسه استمرت الاضطرابات العامة، على أن المظاهرات التي حدثت في منتصف يناير لم تكن كبيرة، لكنها أشارت إلى خطر محدق يتمثل في توتر متزايد، وسيادة شعور بالأزمة. الإخوان المسلمون ساعدوا على تأجيج هذه المشاعر المعادية للبريطانيين وقد أبلغ أعضاء الجماعة تحديدا بأن ينشروا ما يفيد أن البريطانيين هم المسؤولون عن جميع أوجه النقص في التموين. أما طلبة الأزهر فقد انضموا إلى تلك الاضطرابات رافعين شكواهم المعتادة بأن خريجي تلك الجامعة لم يكن بوسعهم الحصول على وظائف في المدارس الأميرية، وانتشر سخطهم هذا إلى سائر المؤسسات الدينية في الأقاليم.

وجاءت حقيقة أن الملك أراد إعفاء وزير الخارجية لتعاونه مع البريطانيين لتجعل من الطبيعي أن يتعامل لامبسون مع المشكلة، ولكن الحادثة أشارت إلى نمط سياسي أعمق لم يكن بالوسع تركه ليستمر. وإذ كان السفير

يعمل جاهدا لكي يؤكد في تقاريره أن الأمر ظل متضحا لبعض الوقت بأن "ما من حكومة ... يمكن أن تأمل في التعاون بولاء معنا مع احتفاظها بتأييد الملك الذي لا يمكن، في غياب أي دعم شعبي، أن يتعامل مع برلمان لا يمثل أحدا، بينما يعتمد عليه بقاء الحكومة".

استهل سير مايلز حملته ضد الملك فاروق ومعلمه علي ماهر بأن طلب طرد الإيطاليين من السراي ومعهم عبد الوهاب طلعت الذي كان يعمل في الديوان الملكي، وكان بمثابة العميل الأكبر لعلي ماهر. هذه الخطوة قصدت توجيه ضربتها إلى قلب مركز القوة الذي يستند إليه علي ماهر في مصر. وفي يوم ٢٩ يناير، وفي محادثة مع حسنين باشا رئيس ديوان الملك، أورى لامبسون بأنه قد يكون مستعدا للتنازل في مسألة وزير الخارجية صليب سامي باشا إذا ما طرد هؤلاء الرجال من السراي في وقت معقول.

من ناحيته رأى علي ماهر أن غضب الملك اشتد في مسألة مفوضية فيشي بأكثر مما كان متوقعا، فقد غامر بشرفه الملكي في مسألة إعفاء صليب سامي، وقد يكون مستعدا بالتضحية للإيطاليين لتحقيق مأربه. وإذا ما استبعد وزير الخارجية فإن حسين سري سوف يستقيل على سبيل الاحتجاج، ومن ثم يصر البريطانيون على أن يسيطر الوفد على الحكومة الجديدة باعتباره الحزب الوحيد الذي يمتلك القوة في البلاد للوقوف بوجه السراي. هكذا حوصر علي ماهر في زاوية ضيقة، ولكنه لم يُهزم، وأدرك أن حكومة سري ينبغي الإطاحة بها بأسرع ما يمكن ولكن بطريقة تنال من سمعة الوفد نفسه في سياق العملية.

وبدعم غير معلن من جانب الملك اتصل علي ماهر مع الشيخ المراغي، شيخ الجامع الأزهر، في نهاية يناير لحشد المتطرفين الوطنيين في اتحاد الطلبة وزيادة الاضطراب العام إلى حافة الخطر، وكان الغرض من ذلك تحقيق هدف مزدوج: إسقاط الحكومة وزيادة السخط إلى درجة محمومة تصل بالعناصر المتطرفة المعادية لبريطانيا في حزب الوفد إلى درجة الغليان. حينئذ

لن يكون بوسع قيادة الوفد أن تمارس السيطرة على أتباعها، ومن ثم تخسر أيضا ثقة البريطانيين الذين سوف يضطرون حينئذ للاتجاه نحو السراي لتشكيل حكومة يمكنها استعادة الأمن والنظام.

فوق هذا كله فإن التقدم الألماني كان يسبب درجة معينة من الذعر، وقد ذكر راديو المحور أن الاستيلاء على بنغازي يوم ٢٨ يناير أدى إلى سقوط عدد كبير من الدبابات البريطانية في أيدي روميل. وقد أصبح معروفا على نطاق واسع أن التعزيزات التي كانت في طريقها إلى مصر تم تحويلها إلى الشرق الأقصى، وساد الشعور بأن البريطانيين سوف يعجزون عن الاحتفاظ بمصر تماما كما كان شأنهم بالنسبة لليونان. وفي الزقازيق قام الطلبة المتظاهرون بتحطيم واجهات المحلات وضربوا الأهالي المعروف أنهم قاموا بتوزيع دعايات الحلفاء.

وفي ١ فبراير انطلق طلاب الأزهر إلى الشوارع وقد تجدد هياجهم بتشجيع من علي ماهر والشيخ المراغي. وعندما اكتشف سري من الذي يقف خلف هذه المظاهرات، أدرك أن الملك قد تخلى عن تأييده وأن ليس أمام حكومته أي أمل في استعادة السيطرة، ومن ثم قدم استقالته يوم ٢ فبراير، بينما كان الطلاب في مصر يهتفون "تحن جنودك يا روميل"، "يسقط البريطانيون"، و "يحيا فاروق".

هكذا نجح علي ماهر في الإطاحة بحسين سري، ولكنه لم يستطع حمل الوفد على أن يشارك في الاضطرابات المدنية. وبرغم أن النحاس لم يكن يخشى إلقاء خطابات معادية للبريطانيين عندما يلائمه الأمر، فإن مسلكية الوفد منذ نشوب الحرب كانت تقصد إلى التدليل على شيئين: بالنسبة إلى مؤيدي الوفد كان التدليل على أنه الحزب الوحيد الذي يمكن أن ينتزع الاستقلال الكامل من أيدي البريطانيين، أما بالنسبة للبريطانيين أنفسهم فقد أوضح النحاس أنه حريص على التعاون ومستعد لتسلم السلطة في آن واحد.

هذه الاتجاهات كانت إلى حد ما متناقضة، ولكن الوفد كان في جوهره دعوة للتعبئة والمناداة بالوطنية والديمقراطية أكثر من كونه حزبا سياسيا يرتبط بمذهب أو برنامج محدد. وفي عبارات جين وسيمون لاكوتور "فأي محاولة لتعريف الوفد سوف تنطوي على وصف كامل لمصر ذاتها، بمعنى أن تحتوي على كل المروءات والخلط الثقافي والطبيعة الطيبة والتناقضات وتكريس الأساطير للملايين من اتباعه. كان يوحد بين فقر بلا حدود وبين ثروات منتفخة بلا حدود أيضا يجمع بين طلب التغيير ورغبة المحافظة بغير تغيير..." .

لهذه الأسباب كان الوفد أفضل في صفوف المعارضة منه في سدة الحكم، لأن قوته كانت تكمن فيما يرمز إليه بأكثر مما هو عليه فعلا، ولكن مصر ظلت تحكم بواسطة حكومات أقلية يفرضها القصر الملكي على مدى السنوات الأربع الماضية والذي كانت تحتاجه بريطانيا كان حكومة قوية منتخبة انتخابا حرا ومستقلة عن السراي وتؤيد تأييدا قويا قضية الحلفاء.

الدبابات في عابدين

فور استقالة سري طلب سير مـايلز لامبسون مـن الملـك استدعاء الوفـد لتولي الحكم، ومرة أخرى بدأ الملك في المراوغة مقترحا حكومـة انتقاليـة يتـم تشكيلها قبل دعوة النحاس إلى تشكيل ائتلاف، ولكن لامبسون كان متصلبا فـي الأمر. وقد أبلغ حسنين باشا رئيس الديوان سير مايلز بأن الملك سوف يستقبل النحاس في الساعة الثالثة من عصر اليوم التالي، الثلاثاء، ٣ فبراير.

في ذلك اليوم بذل علي مـاهر آخـر المحـاولات لهز ثقـة البريطـانيين فـي الوفد، فقد نظم مظاهرة قوية ضمت خمسة آلاف فرد وبدأت في جامعة القـاهرة لتثبت أن شعبية الحزب الديمقراطي (الوفد) آخذة في التضاؤل، ولكن لأن لهجة المظاهرة تميزت بعدائها للحلفاء على نحو ما كانت مظاهرة الأزهـر حيث كـان الطـلاب يهتفـون بحيـاة روميـل وفـاروق، فلـم تفعـل سـوى أن أكـدت رأي البريطانيين بضرورة أن يأتي الوفد إلى السلطة.

وعندما مثل النحاس باشا في حضرة الملك لم يطلـب منـه فـاروق تشـكيل حكومة، ولكن طلب إليه أن يرأس ائتلافا. وكـان النحـاس يتوقـع مـن قبـل هـذه الخطوة من جانب الملك، وكان قد أكد له سير مايلز صبـاح نفس اليـوم [عن طريق أمين عثمان باشا همزة الوصل بين الوفد والسفارة]بأنـه سـوف يستمر في نيل التأييد الكـامل مـن جـانب السـفارة إذا مـا رفـض العـرض. وعليـه أبلـغ الملك أنه لا يقبل بأقل من حكومة وفدية يختارها بنفسه. وعندما نمى إلى علم لامبسون مـا حدث، قام باسـتدعاء حسـنين، تشـريفاتي فـاروق وأبلغـه أن يخـبر الملك بأن عليه أن يطلب النحاس من جديد.

لم يكن لامبسون يسـاوره أي وخـز مـن ضمـير بشـأن تدخلاتـه الصارخـة على هذا النحو في الشؤون المصرية. إن التزام الولايـات المتحـدة والتطـورات التي استجدت في الشرق الأوسـط، كـل هـذا كـان يعنـي أن الحـرب كـانت تدخـل

مرحلة جديدة، في حين أن البريطانيين كانوا قد أجبروا في الصحراء على الانسحاب إلى غزالة. من ناحية أخرى فلم يسبق في أي مرحلة أن اقتضى الأمر بدرجة حيوية تأمين استقرار مصر، ولذلك كان لا بد من تحطيم قوة الملك فاروق وعلي ماهر مرة وإلى الأبد.

ولا كانت تلك هي المرة الأولى التي بحثت فيها وزارة الخارجية ولا سير مايلز لامبسون أمر عزل فاروق. ففي يوليه عام ١٩٤٠ كتب سير مايلز يقول: "قد نصل في أي لحظة إلى مرحلة يتعين علينا فيها أن نتخذ إجراءا صارما إزاء الملك، بما قد يعني [أو قد لا يعني] ... احتمال تنازله عن العرش". وبعد أشهر قليلة كتب سير روبرت فانسيتارت، وكان وقتها كبير المستشارين الدبلوماسيين لوزير الدولة للشؤون الخارجية يقول: "قلت على مدى سنوات إن حكومة جلالته (البريطانية) سوف يتعين عليها التخلص من فاروق، وطالما أعربت باستمرار عن أسفي لأن هذا الأمر لم ينفذ على نحو عاجل".

في الصباح التالي، الأربعاء، ٤ فبراير، وفي اجتماع للجنة الدفاع، التي كانت تتألف من أوليفر ليتلتون والسفير ورؤساء أفرع القوات المسلحة، وضع لامبسون مسودة إنذار موجه إلى الملك يقول: "إذا لم أعلم قبل الساعة السادسة مساء هذا اليوم أن النحاس باشا قد دعي لتأليف وزارة فإن الملك فاروق يجب أن يتحمل تبعة ما يحدث"•.

وأي مناشدات لتلطيف لهجة التعامل جاءت من صفوف العسكريين وكثيراً ما كان سير مايلز يصف موقفهم بأنه " مذنب " لم ترق لهم فكرة استخدام القوة العسكرية البريطانية لإجبار الملك على التنازل عن العرش. الجنرال ستون، القائد العام الذي تأتمر بأمره القوات البريطانية في مصر، وافق في تردد على

• رجعنا في نص الإنذار إلى ما أورده كل من الدكتور حسنين هيكل (مذكرات في السياسة المصرية جـ ٢) والدكتورة لطيفة محمد سالم (فاروق وسقوط الملكية في مصر). "المترجم"

وضع أوامر للعمليات، ولكنه حذر (الوزير) أوليفر ليتلتون وسير مايلز بأن الأمر قد يسفر عن إثارة مظاهرات عارمة في القاهرة وإضراب جميع العمال المدنيين الذين كان الجيش البريطاني يعتمد عليهم.

مع ذلك صمم كل من السفير ووزير الدولة على اتباع سياستهما إلى النهاية، وطيلة عصر ذلك اليوم وضعا خطط على أساس أن الملك فاروق سوف يرفض الإنذار، وإذا لم يتم استدعاء النحاس بحلول الساعة الثامنة مساء، فلسوف يفرض حصار عسكري حول السراي، وحينئذ يدخل لامبسون ويطلب من فاروق التنازل عن العرش، وقد أمرت بارجة حربية في الاسكندرية بالبقاء على أهبة الاستعداد لكي تحمل الملك السابق إلى سيشيل.

في الوقت نفسه قام سير والتر مونكتون، الذي كان قد عين حديثا مديرا عام لدوائر الدعاية والإعلام البريطانية بناء على طلب أوليفر ليتلتون، بوضع صيغة وثيقة التنازل عن العرش، وكانت تلك هي المرة الثانية التي يصوغ فيها مونكتون وثيقة من هذا القبيل، إذ كانت الأولى تخص الملك إدوارد الثامن (ملك انجلترا).

في الساعة السادسة والربع مساء، أي بعد ربع ساعة من انتهاء أجل الإنذار، وصل حسنين إلى السفارة ومعه ورقة كتبها ١٧ من أبرز الزعماء المصريين بمن فيهم النحاس باشا، الذين كانوا قد استدعوا إلى السراي لإسداء النصح للملك: "إن الإنذار البريطاني يشكل تعديا على استقلال مصر وتدخلا في شؤونها الداخلية وانتهاكا لأحكام المعاهدة الانجليزية المصرية، وعليه فمما يتجاوز سلطات الملك قبول الشروط التي تمس استقلال البلاد".

ولدى تلقيه الرد على الإنذار سأل لامبسون أمين عثمان باشا واسطته مع النحاس، ما إذا كان النحاس سوف يتولى الحكومة في حالة إجبار الملك على التنازل عن العرش أو عزله. وأقسم أمين بكل الأيمان المغلظة بأن النحاس سوف يفعل ذلك. وبدا هذا مؤشرا على أن زعيم الوفد كان على بينة من أن

البريطانيين ينتوون ارتكاب انتهاك أفدح بكثير للسيادة المصرية متمثلا في عزل الملك فاروق نفسه.

الخطة الأصلية كانت تقضي بأن يصل لامبسون إلى قصر عابدين في الثامنة مساء، ولكن في اللحظة الأخيرة أثار أوليفر ليتلتون مشكلة ما إذا كان ينبغي أن يصر على تنازل الملك عن العرش إذا ما رضخ الملك ووافق على استدعاء النحاس. وبعد مناقشة حارة، اضطر السفير على مضض إلى أن يعترف "أن ليس بوسعنا أن نطرده في التاسعة لأنه أعطانا ما كنا سنرحب به في السادسة".

كان بصحبة سير مايلز لامبسون لدى وصوله إلى القصر الجنرال ستون واثنان من الضباط المساعدين. وقد تبعت سيارة السفير فصيلة من مدرسة تدريب الضباط التي ربما جاءت اختيارا له مغزاه، فمرشحو الضباط ليسوا بأذكياء فقط، ولكن يمكن الاعتماد عليهم في تنفيذ الأوامر بحدة وصرامة. وصلوا قبيل التاسعة مساء، وهو الوقت الذي رابطت فيه حول ميدان عابدين كتيبة من القوات البريطانية (نحو ٦٠٠ فرد) واتجه عدد من العربات المدرعة من منطقة مصر الجديدة فعبرت المدينة عبر شارع عماد الدين لكي تغلق جميع الطرق المؤدية إلى القصر ذاته*. وفي الوقت الذي ظهرت فيه سيارة السفير كان الحرس قد أغلق بوابات القصر برغم أنهم أمروا بألا يبدو مزيدا من مقاومة. وتقدم ضابط بريطاني وأطلق الرصاص على الأقفال من مسدسه، ودخلت السيارة الأولى إلى ساحة القصر، وكانت سيارة الضابط الذي يقود

---

* معظم التقارير التي تجمعت حول حادثة عابدين تذكر أن البريطانيين استخدموا الدبابات، على أن إيان واستون سميث، الذي كان واحدا من الضباط المشاركين في العملية يقول إنها يمكن أن تكون قد شملت واحدة أو اثنتين من دبابات "هني" الأمريكية الجديدة التي حازها الجيش البريطاني، وكانت صغيرة وسريعة المناورة، ولكن معظم المركبات كانت من العربات المدرعة.

الفصيلة .على أن سائقه أخطأ في الدوران وحطم البوابة [بعد ذلك أعطى فاروق الأوامر بعدم إصلاحها وتركها كتذكرة للحادثة].

درجت سيارة السفير إلى المدخل الرئيسي ولاحظ السير مايلز في مذكراته أن السعاة والتشريفاتية كانوا يبدون وكأنهم "دجاجات مذعورة" عند اقترابه من المكان، ثم ارتقى ومعه الجنرال ستون السلالم، وبعد دقائق قليلة استقبله الملك في غرفة المكتب، وكان حسنين باشا يقف خلف كرسي الملك.

تلا السفير بيانا اتهم فيه الملك بمساعدة العدو وانتهاك التزامات مصر إزاء بريطانيا العظمى وبأنه اتبع مسلكا ينقصه الإخلاص ويسوده الاستهتار والرعونة، وأنهى سير مايلز قراءته بقوله إنه لم يعد مناسبا للجلوس على العرش، ثم سلمه صك التنازل عن العرش فقرأه فاروق في صمت وقد بدا مرتجفا.

"نحن فاروق ملك مصر، حرصا منا على مصالح بلادنا، نتنازل بهذا ونتخلى عن عرش المملكة المصرية لنا والورثة من صلبنا وعن كل حقوق السيادة وامتيازاتها وسلطاتها في المملكة المذكورة ورعاياها ونعفي الرعايا المذكورين من كل تعهداتهم إزاء شخصنا".

بعد ذلك لاحظ الملك أن الورقة مجعدة وكان عنده حق لأنها كتبت على ورقة من "بلكنوت" السفارة التي قطعت من أعلاها [هذا التعليق جاء لاحقا كتذكرة للسير والتر مونكتون بظروف توقيع الملك إدوارد الثامن لصك تنازله عن العرش عندما قال إن ليس ثمة حبر في الدواة] .

كان فاروق على وشك توقيع الوثيقة عندما مال عليه حسنين يهمس في أذنه في عجالة باللغة العربية، فتردد الملك وبعدها طلب من سير مايلز "منحه فرصة أخرى" ولم يكن لامبسون مستعدا لهذه الاستجابة ولا أراد منحها، ولكن الملك قال إنه على استعداد لاستدعاء النحاس باشا وتكليفه بغير توان. ولأن

لامبسون وليتلتون كانا قد قررا ألا يضغطا من أجل التنازل عن العرش تحت هذه الظروف فقد اضطر السفير إلى الموافقة على طلب الملك.

وطبقا لمذكرات سير مايلز فقد أصبح الملك في حال من الخور، وشكره بالفعل على المساعدة التي قدمها، وجاء هذا على تناقض حاد مع الوصف الدرامي الذي أعطاه فاروق لصديقه كابتن جون برينتون، مساعد الملحق العسكري بالمفوضية الأمريكية، عندما وقفا معا في نفس غرفة المكتب. فطبقا لما ذكره الملك قال إنه عامل سير مايلز طيلة الوقت باحترام يشوبه الجمود والبرود واطلع الكابتن على مسدسه الموجود في مكتبه زاعما أنه كان على استعداد لاستخدامه، وقائلا إن حرسه وبعضهم كان يختبئ من خلف ستار كان لديه أوامر بالقتل إذا ما لمسه أحد.

واعترف لامبسون بأنه استمتع طول الوقت بتلك الأمسية، ولكن خاب أمله بعد أن سمح لفاروق بالبقاء على عرشه "وبرغم كل أسف إلا أنه يبدو التصرف السليم". ولدى الوصول إلى السفارة تلقى مكالمة مذعورة من حسنين في القصر، فقد استدعي النحاس باشا ولكن كردون القوات البريطانية المحاصرة رفض السماح للرجل بالدخول إذ لم يتذكر أحد أن يأمر القوات المحاصرة بفك حصارها!

ومن بين الذين كانوا في السفارة ليلة ٤ فبراير كان كل من دف وديانا كوبر، اللذان وصلا إلى القاهرة يوم ٢٦ يناير في طريق عودتهما من سنغافورة، حيث كان دف وزيرا للدولة وكان ينبغي أن يسافر يوم ٢٨، ولكن تعقيدات الترتيبات في السفر اضطرتهما للبقاء مزيدا من الأيام ليصبحا شاهدين على واحد من آخر وأخطر تصرفات الامبريالية البريطانية.

كانت ديانا ضيفة الشرف في حفل عشاء أقامه الكسندر كيرك الوزير الأمريكي المفوض، وكان هو الشخص المفضل مجددا لديها، إذ كان طويل القامة بصورة ملحوظة، وجيه الطلعة، وكانت ثيابه المسائية البيضاء أو الرمادية تجعله أقرب ما يكون إلى نكتة القاهرة، ولكن باستثناء ذوقه الغريب

هذا، كان يتمتع بحكم صائب على الأمور ويحظى بموهبة في الكفـاءة الإداريـة. وقد استدعته أحداث عابدين قرب نهاية المساء وكم كانت ديانا ممتنة أن تعـود إلى السفارة لتسمع ما دار هناك.

"وجدت بهو السفارة وكأنه برج بابل حافلا بجماعـات مضطربـة مـن البشر - أوليفر ومورا ليتلتون، والتر مونكتـون، مستـر مـايكل رايـت، فضلا عن كثرة مـن الضبـاط المسـاعدين والسكرتيرين العسـكريين ... رايت و والتر اعتبرا النتيجة وكأنها ميونيخ أخرى (التي لم تقض علـى هتـلر) بمعنـى أن السـفير لـم يحقـق مـا أراده مـن توقيـع الملـك وثيقـة التنـازل عن العرش، ولكن أوليفر وصاحب السعادة السفير كانا موقنيـن بأنهما كانا على حق في إطار الترتيبات الحالية. صاحب السـعادة خـرج من عرينه يرتدي بدلة فراك رمادية وقد شبك ذراعه في ذراع النحـاس باشا وعلى وجهيهما ابتسامة عريضـة". (بعـد أن تلقـى النحـاس تكليفـا بتشكيل الوزارة من الملك جاء مباشرة إلـى السـفارة بنـاء علـى أوامـر فاروق .وفي تلـك الأثنـاء اجتمـع كـل مـن لامبسـون والنحـاس وأوليفـر ليتلتون في إطار ما أسماه سير مايلز محادثة مُرضية).

دف كوبـر يتذكـر شـعورا بـالتخبط الممـزوج بالابتهـاج "... وجدنـا معظـم اللاعبين الرئيسيين في بهو السفارة يناقشون ما حدث في ذلـك المسـاء، تمامـا شأن الذين يناقشون الليلة الأولى من عرض إحدى المسـرحيات حيث لا سـبيل للتأكد ما إذا كانت المسرحية ناجحة أم فاشلة ".

وكـان هنـاك أيضـا مـن شـعروا أن انقـلاب عـابدين الـذي حـدث لا ينبغـي السماح له بأن يتكرر ثانية، وقد كتب الجنرال ستون ورقة موجهة إلى الجنرال جامبو ويلسون، الذي كان وقتها القـائد العـام للقـوات البريطانيـة فـي سـورية، يذكر فيها مدى خطأ سياسة من هذا القبيل. كان ستون يتمتع بتـاريخ عسـكري غير عادي ويبدو شـابا بالنسبة للأوسـمة التـي حصـل عليهـا مـن حملاتـه فـي

الحرب العظمى الأولى ولكنه كان قد حصل أيضا على ميدالية من حرب جنوب أفريقيا (في أوائل القرن نتيجة عطلة مدرسية أمضاها مع والده في جبهة القتال). وقبل أن يصبح قائدا للقوات البريطانية في سورية كان آمرا للبعثة العسكرية البريطانية في مصر. وكان له أصدقاء من الضباط المصريين ومن ثم تعاطف مع الطموحات الوطنية التي كانت تراودهم وهو شعور ما لبث أن تعمق من خلال حادث قصر عابدين (٤ فبراير). وقد وصف السفير لاحقا الجنرال ستون بأنه "تربطه صلات وثيقة على نحو غير مناسب مع الدوائر المصرية المحلية"، وأضاف أن الرجل لم يجهد نفسه كثيرا في أن يخفي مدى اختلافه مع السياسات التي اتبعتها السفارة.

سير توماس رسل باشا حكمدار شرطة القاهرة لم يكن قد أخطر بالخطوات النهائية في حادثة عابدين وراءه تماما ما حدث، وطبقا لما أدلى به صهره كريستوفر سايكس فقد "كان ينعي كثيرا على أولئك البشر (في السفارة) الذين رأى أنهم دمروا كل ما استطاع انجازه هو وزملاؤه وأسلافه من المسؤولين الانجليز".

أفادت هيئة الإذاعة البريطانية وآلة الدعاية البريطانية أيضا بأن تغيير الحكومة في مصر إنما تم من خلال موافقة إجماعية من جانب الملك والبرلمان وأجبرت الرقابة الصحف المصرية على ذكر الشيء نفسه، ولكن كثيرا من الأشخاص كانوا قد شاهدوا بأم عيونهم المدرعات تحيط قصر عابدين ولم يكن سرا أن سير مايلز أجبر الملك على تعيين النحاس رئيسا للوزراء، وقد كتب أنور السادات يقول: "كيف يتسنى له أن يوافق على تلقي الأوامر من الدولة المستعمرة؟". أما اللواء محمد نجيب، أول رئيس لمصر بعد الثورة، فقد كتب مذكرة إلى الملك فاروق يقول فيها: "بما أن الجيش لم تتح له فرصة الدفاع عن جلالتكم فإنني بت أخجل أن أرتدي بدلتي العسكرية، وبهذا أطلب منكم الإذن بالاستقالة من الجيش المصري" (أرسل الملك رسالة يقول فيها إنه منع الحرس الملكي من مقاومة البريطانيين ولذلك فليس بوسعه أن يقبل استقالة نجيب).

جمال عبد الناصر كان في السودان في ذلك الوقت، وعندما أبلغوه بما حدث في رسالة شعر بدوره بالمهانة والغضب الشديد: "إن الاستعمار يلعب بورقة واحدة في يده بقصد التهديد فقط، ومع ذلك فلم يكن ثمة مصري على استعداد للتضحية بدمائه لمجابهة هذا التحدي، وبعد أن كنت ترى الضباط لا يتكلمون إلا عن الفساد واللهو أصبحوا يتكلمون على التضحية والاستعداد لبذل النفوس في سبيل الكرامة ... والواقع أن هذه الحركة ... إن هذه الطعنة ردت الروح إلى بعض الأجساد وعرفتهم أن هناك كرامة يجب أن يستعدوا للدفاع عنها"•.

ولم يقتصر الأمر على غضب العناصر الوطنية إزاء ما حدث. إن لامبسون يقول في تقاريره "لقد تسببت إجراءاتنا في كثير من الحنق بين صفوف الأمراء والأميرات، وبين الطبقات العليا وخاصة في القاهرة والاسكندرية، وساد اتجاه نحو المقاطعة الاجتماعية". كان ثمة سيدة مسلمة تعمل في المستشفيات وتدعو إلى الحفلات الخيرية للمجهود الحربي، وكانت أيضا تحمل تأييدا عميقا للحلفاء، ولكنها ذكرت أنها تشعر بعدم القدرة على التحدث إلى أصدقائها الانجليز. بعض المصريين أعادوا بطاقات عضويتهم في الاتحاد الانجليزي المصري ونادي الجزيرة. وقال سير مايلز إنهم لو فعلوا ذلك فلن يسمح لهم قط بالعودة ثانية. وبرغم أن المقاطعة الاجتماعية ذاب جليدها بمضي الوقت، إلا أن العلاقات الانجليزية المصرية لم تعد أبدا إلى سابق عهدها.

أبلغ السفير لندن أن "الملك فاروق طلب بالذات، في لقائي معه يوم ٤ فبراير، أن تبقى قضية التنازل عن العرش سرا بين الأفراد الأربعة الذين حضروا المقابلة". ومن واقع الوصف الذي أوردته ديانا كوبر فإن الأمر لم يكن سرا في السفارة بل انتشرت القصة، ولكن ثمة تقرير إيطالي عن الحادث كتب

• عبد الناصر تعليقا على الحادث من "فلسفة الثورة". "المترجم"

بعدها بأحد عشر يوما لا يذكر مسألة التنازل عن العرش، ولا ذكرها كذلك التقرير الموجه إلى وزارة الدفاع في واشنطن من الكولونيل بونر فيلرز، الذي كان الإيطاليون عاكفين بانتظام على فك شفرة برقياته. جاء يوم ١١ فبراير، عيد ميلاد الملك فاروق، ولكن سير مايلز لم يتوجه إلى السراي لتقديم تمنياته إلى صاحب الجلالة بطول العمر والسعادة، ولم يقدر لأحدهما أن يرى الآخر حتى مضت ثمانية أيام وعندما توجه لامبسون وزوجته إلى المطار لتحية شقيقة الملك، وهي امبراطورة إيران. وقتها بدت إمارات الاستياء الملكي واضحة، فقد وضعا في غرفة انتظار صغيرة دون إبلاغهما بأن الملك والملكة نازلي والملكة فريدة والأميرات والسفير الإيراني كانوا جميعا ينتظرون في حظيرة الطائرة. وبعث سير مايلز رسالة تقول إن من اللائق دعوة ليدي لامبسون للانضمام إلى سيدات العائلة المالكة، وجاءت الدعوة ولكن ليدي لامبسون استُقبلت بصورة باردة للغاية، وعندما غادرا المكان، تجاهل الملك سير مايلز تماما. أما امبراطورة إيران فقد صُدمت خلال زيارتها إزاء التغير الذي طرأ على فاروق، وعندما وصفته إلى الشاه دفعه ذلك إلى كتابة رسالة إلى صهره الملك يحثه فيها على إصلاح الأمور.

لدى مناقشة حادث ٤ فبراير في عابدين، لم يتورع حتى المصريون الممالئون للبريطانيين الذين عايشوا تلك الفترة عن إدانة سير مايلز لفعلته التي لا يمكن أن تغتفر، ولكنهم شعروا أيضا أنه ما أن حاصر لامبسون السراي بالعناصر المسلحة وشق طريقه إلى الداخل حتى كان ينبغي عليه أن يمضي لتنفيذ نيته الأصلية ليجبر الملك فاروق على التنازل عن العرش، وهم يعتقدون أنه لو كان قد فعل ذلك لكان في ذلك ما قد يحول دون قيام ثورة جمال عبد الناصر [الأمير محمد علي، وريث العرش وقتها، كان بدوره يود خلع ابن أخيه وقد أمضى يوم ٤ فبراير في بيته وقد حزم حقائبه بانتظار أن ينتقل إلى قصر عابدين]. هكذا قدر للملك فاروق أن يبقى على عرش مصر عشرة أعوام أخرى، وكان قد بدأ ولايته من منطلق أفضل النوايا، ولكن هذه النوايا ذبلت

وذوت إذ لم يكن من سلطة أحد من حوله أن يكبح جماح فاروق الميال بطبيعته إلى اللهو والنزوات.

وفيما نال فاروق انتقادا واسع النطاق لاستسلامه بكل هذه السهولة يوم ٤ فبراير، فقد رئي أن العمل البريطاني يومها كان شديد الفظاظة لدرجة أنه جمع بالفعل صفوف الوطنيين من حول الملك، الذي بات بعدها يتمتع بمساندة "جميع العناصر الإسلامية والساخطة"، إلا أنه ظل يعاني من آثار إهانة لا تنسى، كما أصيبت معنوياته بجروح لم تندمل.

الإهانة لحقت كذلك كل من كان في دوائر البلاط، ولكنهم كانوا يتوقون إلى الإطاحة الوشيكة بالبريطانيين. كتب سير مايلز يقول لوزير خارجيته: "لعلك ستجد تقريرا من المصادر السرية يصف الجو السائد في السراي، حيث يقال علانية إن المرء ليس بحاجة إلى القلق إزاء هذا النجاح المؤقت في العودة بحزب الوفد إلى الحكم من جديد، إذ أن هجوم الربيع الألماني سوف يبدأ في غضون أسابيع قليلة، وبعدها تطرد انجلترا إلى خارج مصر".

ربيـــع وصيـــف ١٩٤٢

حديث اللهو في الدوائر العليا

ظل حادث ٤ فبراير في قصر عابدين بمثابة نكبة أصابت السياسة المصرية لسنوات قادمة. لقد رسمت وتعمقت خطوط المعركة بين الملك وحزب الوفد لدرجة كاد التعاون المشترك بينهما يصبح مستحيلا. وقد الوفد كثيرا من مصداقيته بين صفوف المتطرفين الوطنيين بسبب ممالأته المتواصلة للبريطانيين وقدر لمكانته أن تزوي على مدار السنوات القليلة التالية لدرجة أنه لم يقدر له قط أن يستعيد قوته السابقة. وبدأت خلايا صغيرة من اليساريين الراديكاليين المصريين تتوسع من هذا الوقت فصاعدا، وأصبح يوم ٤ فبراير هو أكثر الشعارات الفعالة في منظومة حادة من الكلمات والعبارات كان يتلخص فيها البغض للبريطانيين، كما شكل أولى الحلقات في سلسلة الحوادث التي أدت إلى قيام ثورة ١٩٥٢.

أولى التدابير التي اتخذتها حكومة النحاس باشا الجديدة شملت مجانية التعليم الابتدائي، وإنشاء مكتب ديوان المحاسبة ليتولى الإشراف على التصرف في الأموال العامة ومراجعة حساباتها. وصدر قانون كذلك يوجب استخدام اللغة العربية في جميع معاملات الشركات التجارية، وقد قصد بهذا إصلاح صورة الوفد بين صفوف العناصر الوطنية ثم قصد بالتحديد مضايقة البريطانيين بشدة، وقد حقق هدفه في هذا الشأن.

وبرغم هذا القانون الأخير (الذي لم يدخل حيز النفاذ حتى أغسطس)، فقد كان سير مايلز لامبسون في غاية الارتياح إزاء النتائج الثورية التي نجمت عن ٤ فبراير. علي ماهر حددت إقامته في عزبته قرب الاسكندرية تحت حراسة مشددة، وجميع الاضطرابات والمظاهرات المعادية للبريطانيين التي شهدتها الأسابيع السابقة توقفت، ثم كانت هناك في الحكم وزارة قوية وشعبية سرعان ما وضعت تحت سيطرتها الحالة التموينية وجاءت القروض من

المخزونات الكبيرة من القمح من الجيش البريطاني لتخلق انطباعا إيجابيا. أما النحاس الذي عمل على تأكيد أن دافعه الأساسي في تصرفاته إنما كان إنقاذ مصر من ويلات الحرب، فقد أعلن بكل حزم عن تعاطفه مع قضية الحلفاء وعن عزمه التعاون مع بريطانيا. وفي عيد الفصح قدم هدية تشمل علبة سجائر وبيضتين ملونتين حلوى لكل جندي محارب في صفوف الحلفاء رمزا لتقدير مصر.

من جانب آخر لم يتحقق "هجوم الربيع الألماني" الذي كانت تستبقه السراي في الأسابيع التالية. لقد نجم عن تقدم روميل المباغت في يناير دفع البريطانيين إلى الوراء حتى خط يفصل بين غزالة وبير حكيم، حيث شيدوا سلسلة من التحصينات والاستحكامات وقاموا بتعزيز طبرق. في الوقت نفسه كانت قوات المحور تركز على تدمير مالطة، وكان ذلك بمثابة الخطوة الأولى في "الخطة العظمى" التي شملت حركة كماشة هائلة حول الشرق الأوسط، ذراع يأتي من روسيا عبر القوقاز، والذراع الأخرى من الصحراء الغربية تضرب في عمق مصر حتى شمال بلاد ما بين النهرين (العراق). ساعتها يصبح هتلر سيد قناة السويس، وسيد الدول المنتجة للبترول في الشرق الأوسط. هكذا ظل السكون الطويل الذي ران على حملة الصحراء يعكس ربيعا هادئا نسبيا في القاهرة وإن لم يخل من عوامل الإثارة هنا أو هناك.

أول هذه العوامل تمثل في هروب علي ماهر الدرامي من عزبته الريفية في شنطة سيارة نجله، فقد كان علي ماهر محروما من استكمال الزوار أو المكالمات الهاتفية، إلا أن النحاس سمح لأفراد أسرته الأقربين برؤيته. وما أن وصل إلى القاهرة حتى أخذوه إلى منزل صديقه الشوربجي باشا الذي كان وزيرا للعدل في وزارته، وأحاط البوليس بالمنزل ولكن في ذلك الوقت كان علي ماهر قد شق طريقه إلى البرلمان، وفي ٨ أبريل اقتحم جلسة مكتملة لمجلس الشيوخ وأدلى بخطبة ملتهبة يناشد فيها أن يكفل له العدل والأمان وما

كان من النحاس باشا إلا أن أعطى الأوامر باعتقاله فور مغادرته المبنى الذي ظل فيه حتى الساعة الثامنة مساء، ولكنه ما لبث أن سلم نفسه بعد ساعتين.

قامت الحكومة الجديدة بتشكيل لجنة لمعالجة أمر اعتقال "الأفراد غير المرغوب بهم بدرجة أقل" على نحو ما سماهم سير مايلز. ومن أعضاء هذه اللجنة كان الميجور سانسوم من الأمن الميداني. وسرعان ما اكتشف أن تدابير الطوارئ تؤدي إلى حالة تختلف كليا عن ما كان يتصوره. فبدلا من أن يجد نفسه بإزاء مكتب حاشد بالنسوة الباكيات يناشدن الإفراج عن أزواجهن، وجد غالبية الملتمسات يردن إبعاد رجالهن، بل ويبدين الاستعداد لدفع المقابل. ثمة امرأة قدمت ٥٠٠٠ جنيه مصري إلى سانسوم لاعتقال زوجها، بينما جاء رجال بنفس المبالغ محاولين أن يوضع إخوتهم أو شركائهم في التجارة رهن الاعتقال!

هذه النغمات الختامية لحكاية قصر عابدين فاتت أوليفر ليتلتون، الذي غادر مصر نهائيا في ٢٦ فبراير لتولي منصب وزير الإنتاج في انجلترا، وفي الوقت نفسه كان سير والتر مونكتون قد بقي بوصفه وزيرا للدولة واستخدم "البيت الأزرق" الذي كان يشارك فيه عائلة ليتلتون منذ وصوله إلى القاهرة. وقبيل وقوع حادث عابدين، كان مونكتون قد التقى مع مسز ماري نيوول، الآمرة الرشيقة لسائقات عربات الإسعاف وكتب في مذكراته أنها "أضافت كثيرا كثيرا إلى مباهج الحياة"، ومن ثم تطورت علاقتهما بسرعة. وفي أوائل مارس كانت مسز نيوول قد انتقلت إلى "البيت الأزرق"، وهكذا بدأت القاهرة تتحدث عن الفضيحة الجديدة.

وبرغم أن سير والتر مونكتون كان رجلا يتمتع بذكاء غير عادي، إلا أنه في غمار الحب كان رجلا ساذجا، فأول شيء فعله بعد ذلك هو تعيينها مساعدة شخصية له في مكتب وزير الدولة. وكم كان منظر ماري نيوول وهي ترتدي زيها العسكري الجميل ومسدسها كأنما تحرس مكتب والتر مونكتون، يؤذي كثيرا مشاعر الزائرين من أعيان المصريين.

في ٢٤ مارس جاء مونكتون لرؤية سير مـايلز لامبسون يبلغه أنـه ظل مرتبطا بزواج تعيس على مدى عشرين سنة وأنه طلب الطلاق. كان على بينـة تماما من الفضيحة التي سببها الأمر وقال إن مسز نيوول سوف تنتقل قريبا جدا خارج "البيت الأزرق" برغم اعتزامه الإبقاء عليها في وظيفتها، ثـم أضـاف إنه سوف يتزوجها بأسرع ما يستطيع. يقول سير مايلز "لم أشعر أنـه زارنـي لكـي أبلغه بأن هذه المسألة هـي من الحماقـة بمكـان. فرغم كل شيء من الواضح أن هذا أمر يخصه شخصيا، والنـاس لا يستسيغون نصائح من هـذا القبيل، وخاصـة عندما يكون الأمر قد ملك عليهم مشاعرهم من قمة الرأس إلى أخمص القدم...." .

وصل وزير الدولة الجديد، الاسترالي ريتشـارد كاسي إلـى مصر يوم ٤ مايو، وبصحبته أرثر روكر مدير مكتبه الذي كان قد أنشأ مكتب القـاهرة مـع أوليفر ليتلتون. أصيب روكر بالذعر إزاء الفضيحة التي كانت قد اختمـرت منذ رحيله، وذلك إزاء الشكاوى التـي أبداها موظفو المكتـب الحـانقون. وأبلـغ مونكتون أن مسز نيوول ينبغي أن تذهب أو أنه هو سوف يستقيل. ومـا كـان من مونكتون إلا أن قال بغير حياء أنها لا تعدو أن تكون "مجرد صديقـة" ولكن مسز نيوول تركت وظيفتها بعد أيام قلائل.

وانتقل والـتر مونكتـون خـارج "البيت الأزرق" لكـي يفسح الطريق أمام عائلة كاسي لسكناه، ثم أقام هو ومسز نيوول مـع إيشر ومـايكل رايت [كـان وقتها السكرتير الأول في السفارة]، وكان مونكتون يعاني من ارتفاع في درجة حرارة الدماغ بسبب الإفراط فـي العمـل برغم أن سير مـايلز قـال إنـه يعـاني بالأحرى "من شيء يكاد يصل إلى درجة الوسواس" على أنه مـا لبث أن غـادر القاهرة ومعه مسز نيوول في ٢٦ مايو دون أن يقدر لهم أن يتزوجا فـي يوم من الأيام.

الهدف الثاني للثرثرة التي سادت الجالية البريطانية في ذلك الربيـع، كـان شقيق الملك جورج السادس، وهو الدوق جلويشستر، الذي وصل إلـى القـاهرة

في منتصف أبريل، ولكن زيارته لم تكن ناجحة برغم كل ما اكتنفها من مشقة وتكاليف. البريجادير سير جون ماريوت، الذي اصطحبه إلى الصحراء الغربية ذكر أن جولته في منطقة القتال كانت مربكة ومحرجة، إذ ظل يتشكى من عدم توافر وسائل الراحة، ولم تتوفر لديه أي معرفة عما يجري هناك، ولا توقف قط ليقول أكثر من "صباح الخير" لأي فرد قدموه إليه. وبما أنه لم يبد سوى أقل القليل من الاهتمام بأي شيء صادفه، فقد كانت جولاته تنتهي مبكرا بغير استثناء. وكل ما كان يهتم به الدوق هو الحفاظ على مواعيد وجبات الطعام ثم يأكل بشراهة قائلا إن الصحراء قد جعلته جائعا!

من ناحية أخرى كانت خياباته قد أصبحت أسطورية، ذات مساء أخذوا الدوق، في صحبته مجموعة من الضباط العسكريين المساعدين إلى كازينو بديعة، الذي كان محل إقبال بالذات من البريطانيين لأن مدام بديعة كانت تحرص على تقديم نمر كوميدية معادية للنازي ضمن عروضها التي كانت تشمل كذلك تحية كاريوكا الراقصة الشرقية الأسطورية التي تظهر ومن حولها كوكبة من الراقصات الحسناوات الثانويات. وعندما ينتهي العرض تتحول الراقصات لارتداء فساتين السهرة كي يجالسن الزبائن ويجاذبنهم الحديث أو يشاطرنهم الرقص. وكان الزبائن يتألفون في معظمهم من ضباط بزيهم العسكري. من أجمل هؤلاء الفتيات، فتاة كانت تتكلم لغات عديدة من بينها الانجليزية وقد اختارها المساعدون العسكريون للرقص مع صاحب السمو الملكي، وأثناء المراقصة طرحت عليه الأسئلة اللائقة المعتادة: أهذه أول زيارة لمصر؟ هل شاهد الأهرام؟ هل أحب القاهرة؟ وكل ما تلقته كانت إجابات من مقطع واحد، ومن ثم ساد صمت بينهما وهما يدوران في الحلبة إلى أن استدار إليها الدوق فجأة يقول: أتعرفين كيد وورث؟

دوق جلويشستر لم يتصرف أفضل من ذلك في غذاء أقامة تكريما له الملك فاروق يوم ٢٥ أبريل، وقد أعلن فاروق أن سراي رأس التين في الاسكندرية سوف تسلم إلى البريطانيين لاستعمالها كمستشفى. ورغم أنها لم

تكن بالموقع النموذجي، إذ كانت على حافة الميناء معرضة للغاية أمام الغارات الجوية، ولكن جميع البريطانيين الحاضرين أعربوا باغتباط فائق عن امتنانهم إزاء العرض السخي، اللهم باستثناء صاحب السمو الملكي الذي ظل ينظر مرتبكا بكل معنى، فلم يكن قد فهم خطاب الملك الذي كان بالفرنسية، وعندما شرحوا له الأمر كان كل ما قاله: "أوه، نعم نعم نعم. مظبوط، كلام جميل جدا".

هذه القصة مسجلة في مذكرات سيسيل بيتون، الذي كان وقتها في الصحراء الغربية يعمل مصورا فوتوغرافيا رسميا في الحرب، وفي مكتب وزير الدولة قام أوين تويدي مسؤول الدعاية بتذكير بيتون بأن "نحن نريد "قوة" في دعايتنا هنا وخاصة إزاء المصريين، لا تلتقط صورا لطائرة واحدة، بل صور ٦٠ طائرة في وقت واحد. لا تصور أربع دبابات بل مائة". وقد تولى الأمر مرة أخرى ريتشارد كاسي نفسه عندما رأى بيتون بعد ذلك بأسابيع قليلة، فذكر له أن الصور الفوتوغرافية ينبغي أن تبرز الجندي البريطاني عريض الصدر ومفتول العضلات، ذلك لأن من شأن "ظهور شخص ضئيل الحجم ضعيف البنية مهما كان شجاعا وجسورا كالمجانين إنما يعطي من الصورة انطباعا ليس بالمطلوب".

وبعد أيام عدة انتظر فيها بيتون بطاقة تحقيق الشخصية للقوات البريطانية الخاصة به، انطلق نحو الصحراء التي وصفها بأنها "يغيب منها اللون لدرجة أنك يمكن أن تقول إنها تم تثبيتها بواسطة مهندس ديكور داخلي في عام ١٩٢٨". وعلى مدار الأسابيع القليلة التالية التقط مئات من الصور في الصباح الباكر وقبيل الغروب عندما يكون الضوء في أحسن حالاته، واستطاعت صوره أن تعكس بأمانة كميات كبيرة من المعدات العسكرية وأعدادا غفيرة من الجنود الأشداء، ولكن أفضل صوره هي تلك التي تسجل الحياة اليومية في الصحراء إلى جانب أطلال طبرق المتداعية المحطمة. وقد عاد بيتون إلى القاهرة في منتصف مايو ليؤدي مهمة تحميض صوره وكتابة التعليقات عليها، فضلا عن تدوين مذكراته الخاصة.

كانت القاهرة بلدا مستحيلا بالنسبة له، لم يقتصر الأمر على ما استبد به من غضب، بل ومن تخوف شديد إزاء حالة قيادة الجيش البريطاني في مصر، وقد تورمت وازدادت بالعناصر البيروقراطية غير المبالية "يتساءلون هل تتحدث عن ساعات العمل، أنت تضحكني لقد كنت هناك معظم اليوم، ورأيت كيف يعمل الناس هناك". هذا الاتجاه كان مستمرا في ظل وجود رقابة شديدة على الصحف الناطقة بالانجليزية وهو أمر كان يراه بيتون خطرا على التحقيق: فإما أنها تشجع الوهم بأن الحرب ستضع أوزارها خلال شهرين، أو أنها تؤدي إلى تعميق روح التشاؤم. "إن سياسة التغذية بالوهم والأكاذيب والتعلل بالأمنيات (وقد ثبت أنها كانت كارثة لفرنسا) تهدف كما قيل إلى تسكين خواطر المصريين. لكن مثل هذه السياسة يمكن أن تهزم نفسها إذا ما أذكت روح الغرور بين صفوف البريطانيين".

كانت الرقابة المفروضة على الصحف الناطقة بالانجليزية تنزع إلى تجريد الأخبار الواردة من الجبهة لكي تصبح إما نصرا مدويا أو انسحابا تكتيكيا، ولصالح الروح المعنوية كان محظورا نشر جميع المواضيع المثيرة إما للخلاف أو للذعر. من هنا لم يرد أي ذكر لوصول لاجئين من اليونان أو إلى حالات النقص التموينية أو المظاهرات التي ميزت الأيام الأخيرة من حكومة حسين سري، كما لم يرد بالتأكيد أي إشارة إلى حادث ٤ فبراير. ولم يكن يسمح بمناقشة وضع القاهرة بوصفها مدينة مفتوحة، ولا يرد أي إشارة لحركات تنقلات الأفراد الرسمية أو السياسية ولا إلى الإخوان المسلمين أو مصر الفتاة* أو مفتي عموم فلسطين.** كذلك لم تكن ترد أي تقارير عن

---

* مجموعة راديكالية وطنية أسسها أحمد حسين الذي كان ممثلا متعصبا فاشلا.

** الزعيم الديني الحاج أمين الحسيني، مفتي القدس، كان قد انحاز إلى هتلر بدلا من تأييد البريطانيين، الذين كان ينظر إليهم بوصفهم أعداء العرب.

الحوادث التي تتعلق بالقوات الامبرطورية، أما البيانات عن الغارات الجوية فلم تكن لتظهر في عناوين بارزة، أما اسم روميل فلم يكن له أن يحظى بنشر لا لزوم له، ويفضل بدلا من ذلك الحديث عن قوات المحور أو القيادة الألمانية.•

كلير بوث لوس الصحفية الأمريكية تجاهلت هذه التعليمات على فرض أنها كانت تعرف بها أصلا. ولم تبذل أي محاولة لإضفاء طابع الاعتدال على انطباعاتها العميقة التي كونتها عن الجيش البريطاني. لا عجب أن أوقف برقياتها مكتب التلغراف، وكانت قد زارت الجبهة في شهر مارس وصدمها انحطاط معنويات الرجال وبغض الجنرال ريتشي للحياة في الميدان حيث واصل أصراره على أن تكوى قمصانه في القاهرة، ثم ترسل إلى الجبهة، مع ذلك وجدت مسز بوث من يتكلم معها بوضوح وعن مواضيع أهم من غسيل ومكوى الجنرال ريتشي. وربما شعرت أن تلك كانت فرصتها الوحيدة لكي يعرف الأمريكيون ما الذي يجري على أرض الواقع.

مسز بوث لوس حاولت أن تخرج مذكراتها من مصر في حقيبة مدموغة بخاتم الرقيب البريطاني مما يضمن سلامة وصولها إلى الولايات المتحدة، لكنها أخطأت عندما كسرت الخاتم كي تبدأ كتابة تقريرها على متن الطائرة، فأوقفوها في ترينيداد حيث وضعوها رهن الحجز خمسة أيام في أول مايو، وكانت أوراقها تشمل معلومات سرية للغاية عن الدفاع عن مصر، ورسالة إلى زوجها تقول إنها كانت مؤيدة بشدة للبريطانيين إلى أن اكتشفت عجزهم الخطير. وقد صودرت هذه الأوراق وأرسلت إلى السفير البريطاني في واشنطن، بينما ظلت القاهرة تطن بالشائعات عما تكون قد سمعته أو كتبته.

• غريبة تلك الإشارة إلى زعيم مصر الفتاة – أحمد حسين بوصفه ممثلا .. وفاشلا!! "المترجم"

وسمع سيسيل بيتون أنها أشارت إلى سلاح الجو الملكي البريطاني على أنه " العرائس الطائرة".

كان من شأن مراسلة أجنبية تمر في القاهرة مثلا كلير لوث بوس أن تتمتع بقدر أكبر من الحرية بالنسبة إلى المراسلين البريطانيين في الموقع، وهؤلاء كانوا يضمرون أشد البغض بطبيعة الحال للرقابة. ففضلا عن أنها داست على المبادئ التي يشغف الصحفيون بالحفاظ عليها، كانت تهدر كثيرا من الوقت باعتبار أن كل مقالة يتعين أن يجيزها ثلاثة ضباط رقابة كل على حدة قبل إرسالها. ألان مورهيد، مراسل دايلي اكسبرس، نصبوا من أجله سباق دربي للرقابة: كل مراسل كان عليه أن يهرع في عربة حنطور من شبرد وفي جعبته آخر مقالاته، ثم يحصل على ختم الموافقة ثلاث مرات وبعدها يصل إلى مكتب التلغراف قبل انتهاء الدورة، وكانوا يعتبرون أن أربع ساعات فترة معقولة.

على أن الحالة النفسية المهتاجة والمحبطة التي عاشها سيسيل بيتون بسبب ما رآه من إهمال في قيادة الجيش في مصر، فضلا عن الأزمة التي عاشتها الصحف، إنما زادتها تفاقما آلام المعدة المعروفة باسم "عراك البطن" وقد زادت هذه الآلام بدورها بفعل الإفراط في الطعام الدسم والشراب، وهي عقوبات الكرم الزائد عن الحد .

ظلت مومو ماريوت هي أكثر سيدات القاهرة لطفا بأظافرها الحمراء الطويلة وفساتينها التي تجمع بين البساطة وجمال التفصيل. وحضور حفلاتها في صحبة الجنرالات ورجال الكوماندز ونجوم المجتمع كان معناه أن يتواجد المرء في قلب مجتمع قاهرة الحرب. كان البريجادير سير جون ماريوت غائبا عن الحفلات في العادة بوصفه جنديا عاملا، في حين كان راندولف تشرشل هو الظاهر دوما فيها. عاشت مومو مع والدتها مسز أوكي أو سيدة العتاقي، كما كانوا يعرفونها، في بيت فخم بدرجة سخيفة مستأجر من أحد أغنياء المصريين، كان يحفل بكثرة من الساعات وأجهزة الراديو والتليفونات

والأضواء التي تحيط بالفراش، فضلا عن حمام هائل يليق بكليوباترا. وقد اضطرت مومو إلى تركيب بانيو متواضع داخل أعماقه المرمرية، إذ لم تكن الغلاية قد شيدت على نفس المقاس.

كتب بيتون: "ثمة حياة اجتماعية هنا هي من الكثرة لدرجة تضايق المرء، هناك الكثير الكثير من الشخصيات والأفراد المرموقون، ولكنني مشغول أكثر بعملي وأشعر كأنما تناولت قدرا كبيرا من القشطة والسكر والبهارات. ومع ذلك فلا أستطيع أن أصد نفسي عن تناول حلوى الزبيب اللذيذة كلما وجدتها". وقد أورد ملاحظاته هذه الحزينة في رسالة إلى جولييت دف. كان يتناول غذاءه مع والتر وآمي سمارت "الدار كلاسيكية أكثر، وآمي مرهقة عندما تسترسل في حديثها الهادئ الذكي فتحول دون أي ثرثرة مريحة". وكان يتغدى مع ماري رياض، وهي بدورها واحدة من أغنى وأنجح صاحبات الصالونات في القاهرة "كانت تعيش في بيت يضم بين جدرانه كثرة من الأشياء الجميلة، ومعها أيضا كثرة من الكراكيب الأوروبية. كان الجو السائد عالميا وعالي الثقافة....".

مع ذلك فيبدو أن أدنى مستويات الديكور الداخلي في مصر حققته مسز نورا بيل، الزوجة النشيطة لإدوارد بيل ملك القطن وقتها، الذي كان منزله في شارع أبو قير بالاسكندرية يحمل اسم البنجالو. وصفها بيتون بأنها تتمتع بقوام فتاة صغيرة وتمتلك جواهر دوقة ويندسور، منزلها هائل أبيضُ اللون، ولكن يحوي أسوأ الأثاث والستائر من حيث النوعية والقياسات - مائدة هائلة تعلوها كميات خبيثة من الفضيات، وتأوي إليها حفلة عشاء ضخمة تتصف بالتصنع والسخف الذي يميز مثل هذه النوعية من التجمعات، وبعدها يكون الانطلاق إلى ناد ليلي حيث فرقة الرقص ماهرة لدرجة يدرك الإنسان معها ندرة العزف الجيد لموسيقى الرقص، وكيف أن مثل هذا العزف يمكن أن يكون فاتنا. هكذا يسود جو رهيب من المرح والسعادة حيث الضباط الانجليز الشبان

وهم في إجازاتهم لا يسكنون لحظة عن التوهج، بل يواصلون الرقص ساعات دون لحظة من راحة أو سكون.

وجد الكثير مما يعجب به في شخص الكسندر كيرك الوزير المفوض الأمريكي "كان يرتدي حلة ذات أزرار مغطاة بنفس قماش الحلة، وقيل لي إنه كان مؤثرا للغاية، ويعاني عقدة أوديب (التعلق بالأم) ويتمتع بذوق جيد تماما. توقعت أن أرى فيه ما يزعجني، ولكن كانت تنتظرني مفاجأة حقيقية. لم أكن لأعرف أن شخصا من هذا القبيل ما زال موجودا، فهو ذلك النوع المنقرض من السادة المهذبين الذين كنا نراهم على المسرح في بدايات هذا القرن". حضر بيتون حفلا أقامه كيرك على ظهر دهبية في النيل: "كانت الدهبية التي طعمنا فيها مطلية باللون البيج والأبيض، بينما انبعثت الأنوار من أسفل الطاولات النحاسية الذهبية اللون. صحيح أنني ألفيت قدرا من المبالغة في وسائد من ريش النعام، ولكن لم يكن ينقص الوضع شيء، وخاصة ونحن في إحدى الحفلات التي جئناها للمتعة". على أن سيسيل بيتون لم يكن يعرف أن الكسندر كيرك كان يستبد به كراهية الخوف المرضي إزاء الزهور، وكانت كل الزخارف التي يرتبها صناعية. أما عقدة أوديب فكانت من أجلى ما يكون في شخصيته، ثمة شمعة مشتعلة ليل نهار أمام صورة والدته، كما أن الجاموسة التي كانت تمده بالحليب الطازج يوميا، كانت تحمل اسم الوالدة نفسها! ومن الواضح أن الصحفية كلير بوث لوس وجدت في الوزير الأمريكي المفوض رجلا نادرا، فعندما أطلعها من منزله على منظر الأهرام الخلاب لم تستطع أن تقاوم رسم تعبير مرتبك على محياها وسألته عن جدوى إقامة الأهرام. هنالك ارتسمت على وجه الكسندر كيرك نظرة من يدفع الثمن وهو يرى أمامه مخلوقا من عشاق المادة.

أدى سيسيل بيتون دوره في القاهرة: شهد فعاليات مختلفة في السفارة وزار المستشفيات مع ماي كاسي، زوجة وزير الدولة، التي أعجبت بمروءته واهتمامه الأصيل بالجرحى. وكتب بيتون يقول: عائلة كاسي كانوا يتمتعون

بنشاط جم هو يزودني بالحماس، وأنا أشعر أن الرجل قادر على أن يقدم الكثير مما يحتاجه الموقف هنا. أما أكبر مدائحه فظل يحتفظ بها من أجل ليدي لامبسون: "استطاعت أن تخلق انطباعا طيبا للغاية في نفسي نزيها وغير متحيز، لا يلقي بالا إلى ما يأخذه عليها أعداؤها. ليدي رسل تكرهها، كما أعلم، ولكن الأعمال الخيرية شأنها شأن مسرح الهواة تستدعي من الإنسان أسوأ ما فيه".

عنصر الأعمال الخيرية هذا أدى إلى تجميد كثير من العلاقات التي كان يمكن بغيره أن تظل ودية. في أواخر الصيف ساء سير مايلز أن يجد أن زوجته لم توجه لها دعوة لحضور محاضرة مسز كاسي بعنوان "أطرف من عرفت" في جمعية الشبان المسيحيين، خاصة وأن ليدي لامبسون كانت من مؤسسي فرع القاهرة، ولكن سير مايلز كانت لديه شكوكه بشأن مسز كاسي، التي كانت رغم نشاطها الجم أميل إلى الغرابة على خلاف مورا ليتلتون، التي كانت دائما تراعي الأصول.

كما كان يروق لبيتون كثيرا أن يستمع لعبارات ليدي لامبسون وهي تصف تقديم مسز كاسي رسميا إلى الملكة فريدة "... تلك مراسم رسمية ومخيفة للغاية، وقد أعدوا مسز كاسي جيدا - عليها أن تلبس فستانا أسود طويلا، وأن ترتدي قفازات تخلع واحدا منها، ولا تضع ساقا على ساق، وتنحني ثلاث مرات لدى دخولها إلى قاعة العرش. وقد دخلت ليدي لامبسون أولا وكانت الملكة تجلس مرتدية ثوبا أبيض، شعرها مصفف على هيئة عمامة منمقة (ليس لديها الكثير مما تفعله سوى أن يصففوا لها شعرها) جلسوا في صف على مقاعد وثيرة، فجأة شعرت ليدي لامبسون بالرعب عندما لمحت مسز كاسي وقد وضعت ساقا على ساق، ثم زاد ذعرها عندما رأتها ترفع ذيلها وتقول للملكة "تريدين رؤية قرصات الناموس في جسمي؟ وبدا على الجميع أن يخرجوا متراجعين بظهورهم من القاعة، ومن الحيل المفضلة لدى الملك أن أمر بفرش سجادة هائلة على رسم نمر مفترس فوق الأرضية الزلقة".

طبرق

بحلول مايو ١٩٤٢ بدا الخط البريطاني من الغزالة إلى بير حكيم غير قابل للاقتحام، فقد تألف من سلسلة من الاستحكامات كل منها معزز بمدفعية قوية ووحدات من المدرعات وملاجئ تحت الأرض وأسقف مسلحة تقاوم هجمات الغارات الجوية، وكمية سخية من إمدادات الأغذية والمياه والأدوية والذخائر. وبين هذه المخافر زرعت الصحراء بأكثر من مليون لغم. وكما أوضح روميل، فقد ضحوا بكل سبل الحركة السريعة لحساب إنشاء خط دفاعي جامد وستاتيكي يتلاشى جنوب بير حكيم.

عمد روميل إلى أخذ قوام قوات البانزر التابعة له ليتوغل داخل الصحراء جنوبي بير حكيم، ورابط شمالا ثم شق طريقه بقوة اندفاع داخل المدرعات البريطانية يوم ٢٦ مايو. وبعد ثلاثة أيام لم يكن قد نجح في تدمير البريطانيين من المؤخرة، ولكنه استطاع أن يحفر لنفسه شقا وسط المواقع البريطانية في منطقة تسمى كولدرون. هناك وقعت المعارك وسط رياح ترابية شديدة كانت تشوي صدور البشر وتكوي جلودهم وتؤذي عيونهم إلى درجة الألم الشديد، وكانت تلك العواصف من أكثرها دموية في حرب الصحراء.

كان البريطانيون يأملون في إبقاء روميل في كولدرون، بينما يهاجمون من ناحيتهم في دوائر متناقصة ولكن مخافرهم الحصينة أصبحت معرضة للهجوم والتدمير واحدا بعد الآخر، واستسلم مركز اللواء ١٥٠ يوم ١ يونيه، أما بير حكيم التي كان يسيطر عليها الفرنسيون الأحرار في أول اشتباك كبير

لهم في الحرب فقد سقط في ١٠ يونيه بعد معركة ضارية، وبعد ثلاثة أيام تم سحق مركز نايتس بريدج وعاد روميل مرة أخرى ليصبح على مشارف طبرق.

تكبد الجانبان خسائر هائلة بينما استمر القتال يوما بعد يوم، ولم تكن نتائج المعركة مؤكدة، ولكن الجيش الثامن بدا ينهار من الداخل. التخطيط الإداري شرع يفقد التجانس تدريجيا تاركا الإمدادات والتعزيزات تحت رحمة اللحظة. أما مقار القيادة فبدت أكثر وأكثر وكأنها لجان مضطربة حائرة، والعلاقات بين القادة انهارت تماما، وامتدح روميل جنود الحلفاء الذين واصلوا القتال بشجاعة وإقدام عجيبين في ظروف يائسة ترجع أساسا إلى انعدام الكفاءة العسكرية. وفيما يتعلق بالرجال أنفسهم كانوا قد فقدوا كل ثقة في قادتهم.

هنالك شرع الجنرال ريتشي في بدء الانسحاب، وكان أوكينلك قد ضلل في بادئ الأمر بفعل تقارير ريتشي المتفائلة، ولكن حتى عندما تحقق من خطورة الموقف أصر على الاحتفاظ بطبرق بأي تكاليف. وقد أسند الدفاع عن الميناء والقلعة إلى فرقة جنوب أفريقيا. وبحلول ١٥ يونيه لم يبق غربي طبرق أي جنود للحلفاء.

ليلة ٢٠ يونيه، عندما اندلعت معركة طبرق، أعلنت الإذاعة البريطانية أن طبرق يمكن أن تضيع، وأنه في كل حال ليست على قدر فائق من الأهمية، وكانت تلك أخبار لها وقع كالصاعقة على الرجال الذين كانوا يوشكون على القتال من أجلها مضحين بأرواحهم. وكتب ألان مورهيد يقول: "... الرسالة الأخيرة التي وردت من الجنرال كلوبر [قائد فرقة جنوب أفريقيا الثانية داخل طبرق] كادت تقول لا أستطيع أن أواصل القتال إذا ما سمحتم للإذاعة البريطانية بأن تذيع هذه البيانات".

على أن القصف الذي تعرض له الميناء كان أخطر وأشد قصف من نوعه على الإطلاق حيث تدافعت عليه أمواج إثر أمواج من طائرات "ستوكا"، وجاء الهجوم من الجنوب الشرقي وحقق ما كاد يكون مباغتة كاملة، إذ أن الجنرال

كلوبر وفرقة جنوب أفريقيا الثانية التي كان يقودها افترضوا أن الهجوم سوف يأتي في القطاع الجنوبي الغربي. في اليوم التالي أصبح الألمان سادة طبرق، وما كانوا ليصدقون كمية المواد والأسلاب التي أصبحت ملكهم. وجاء شعورهم بالارتياح ليتناقض بصورة حادة مع نفسية قائدهم الذي كان قد انتابه الغضب الشديد لأن جنود جنوب أفريقيا كانوا قد أحرقوا كل البنزين وسمموا كل صهريج مياه صادفوه في طريقهم.

في نفس الليلة سمع روميل أنه قد رقي إلى رتبة فيلد مارشال، لكن لم يكن ثمة وقت للاحتفال، إذ كان الأمر يقتضي مواصلة التقدم، وطلب التصريح له بأن تصاحبه الفرق الإيطالية حتى نهر النيل وما وراءه. ساعتها شعر موسوليني بالغبطة الغامرة وأبلغ روميل أنه عندما يتمكن من الوصول إلى الدلتا فسوف يكون بوسعه التنحي كي يخلي مكانه للدوتشي (موسوليني) نفسه، الذي سوف يتولى الأمر من بعد!

حتى مجلة باريد تخلت عن شعاراتها المعتادة بعد سقوط طبرق. ففي ٢٧ يونيه أعادت نشر مقالة بقلم ألاريك جاكوب نشرها من قبل في دايلي اكسبرس وذكر فيها أن القوات كانت تشعر إزاء الأنباء التي تسمعها "بشعور من الكآبة والتشاؤم والواقعية". وقد نقل عن شاويش في هيئة أركان الجيش الملكي البريطاني قوله "إذا ما سمعت أي نصاب يورد تبريرات حول هذا الأمر فلسوف أذيقه الأمرين". ويمضي الكاتب قائلا "الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقض مضاجع قواتنا في الصحراء هو أن يعمد سياسي أو مذيع راديو جالس في ظل وارف ويلوك الشعار القائل إن طبرق لم تعد مهمة، وإن خطوط اتصالاتنا أصبحت، يافرحتي! أكثر. إن قواتنا لم تعد في نفسية لقبول مثل هذه النزوات."

من ناحيتهم وقعت أنباء سقوط طبرق وقع الصاعقة على البريطانيين في مصر، وفي انجلترا نظروا إلى سقوطها على أنه لا يقل عن حجم الكارثة بحال من الأحوال. وعانت حكومة تشرشل من هبوط حاد في ثقة الجماهير بها، وقد أوكل إلى ستافورد كريبس مهمة تدارس هذا الأمر، فكتب تقريرا ذكر فيه

إن من العوامل الكبرى المسؤولة عن ذلك، ذلك الإفراط في الأنباء المتفائلة التي كانت تأتي من القاهرة.

وفي تقدم عريض مكتسح نحو الجنوب من أجل تحاشي حقول الألغام، ظل فيلق البانزر، المسمى "أفريقيا"، يضغط باتجاه الحدود التي وصلها بالفعل يوم ٢٤ يونيه، ولم يلق سوى مقاومة قليلة من الجيش الثامن المشتت لأن ريتشي تصور أن أسبق الأولويات هي الابتعاد عن روميل قدر الإمكان. وفي اليوم التالي أعفاه أوكينلك من القيادة وطار إلى معطن باجوش لتولي الأمر (في كتاب "أزمات حرب الصحراء" يقول الفيلد مارشال لورد كارفل إن الجنرال ريتشي لم يكن تنقصه الكفاءة كقائد على النحو الذي صوروه في التاريخ، ولكنه لم يلق معاملة تليق به في مذكرات أوكينلك. مع ذلك فقد بلغ ولاء ريتشي تجاه أوكينلك لدرجة أنه لم يحاول قط أن يكتب مدافعا عن نفسه. ولا شك أنه يلام على ارتكاب عدد كبير من الأخطاء التي كان المسؤول عنها أيضا مستويات القيادات العليا في الجيش البريطاني).

الذي شاهدوا مرسى مطروح وقد تم عزلها يوم ٢٨ يونيه وعاينوا تدفق الألمان إلى عمق مصر، لا بد وقد تصوروا أن أوكينلك إنما وصل بعد فوات الأوان. لقد كان تقدم روميل من السرعة لدرجة أن وحدات كلا الجيشين بعد مرسى مطروح كانت تقصد نفس الاتجاه في زاويتين متناقضتين في محاولة لتجنب بعضها بعضا.

قال أحد الأفراد من الصحراء: "أنا أعرف كيف سيتقبل الشعب في الوطن كل هذا، وأتصور أن ليس في العالم كله من يستطيع تقبل أنباء الشؤم كما نستطيع نحن، لكن ألم نتعود عليها ونمارسها؟ وإذ شرعت وحدات الجيش الثامن في التدفق نحو مصر في حال من الانسحاب الكامل، قرر بعض الرجال أنهم قد اكتفوا بهذا التدريب والممارسة. كم رأوا من كثرة من أصدقائهم يلقون حتفهم بسبب قيادة مرتبكة. ولم يجدوا سببا يدفعهم إلى معاناة نفس المصير إذ يرون روميل في غمار قدرته على كسب المعركة. هكذا بدأ هؤلاء الفارون

الذين ربما وصلت أعدادهم إلى ٢٥ ألفاً يتسللون زرافات ووحدانا من وحداتهم إلى الدلتا، لو قبض عليهم يمكن أن ينزل بهم عقاب قاس وعار صارخ، لكن الأرجح أن الأمر سينتهي به أسرى في معسكر ألماني ومعهم من تبقى من الجيش البريطاني الثامن، وساعتها لم يكترث آمر المعسكر بأن يعرف من هم على التحقيق. ثمة كابتن من جنوب أفريقيا عمد إلى تحويل المسألة إلى سلب ونهب مربح فاستخدم عصابات منظمة من هؤلاء الجنود الفارين لسرقة مخازن الامداد والتموين - النافي في الدلتا، وحقق من النجاح لدرجة أن دائرة المخابرات الحربية أصدرت تعليمات بأنه لو قبض عليه ينبغي تسليمه لها، فقد كانت بغيتها هي البحث عن مثل هذه المواهب بالذات. ومن سوء حظ هذا الضابط من جنوب أفريقيا أنه تفادى الأسر حتى نهاية الحرب عندما لم يعد أحد بحاجة إلى خدماته، وبعدها أقتيد إلى الصحراء وأعدم رميا بالرصاص.

يوم ٢٩ يونيه طار موسوليني نفسه إلى درنة ومن خلفه جاءت طائرة نقل كبيرة تحوي أشياء كثيرة من بينها الفرس الأبيض الذي خطط الدوتشي أن يمتطيه وهو يدخل القاهرة ظافرا. وعلى امتداد ٤٠٠ ميل كان أفراد جيش البانزر الألماني منهكين للغاية إذ عاشوا طيلة الأسبوع الذي انقضى على أدرينالين أعصابهم، وكان روميل يسوقهم أمامه كالشياطين. وفي اليوم التالي توقفوا قرب محطة صغيرة للسكة الحديدية تسمى العلمين، وكانت الاسكندرية تقع على مسافة ٦٠ ميلا بعدها.

الورطـة

تقع الاسكندرية علـى مسير ثـلاث سـاعات بالسيارة مـن القـاهرة، ونحـو ساعة ونصف بالقطار. ولم يكن من غير المعتـاد أن يذهـب المـرء للعشـاء فـي هذه المدينة أو الأخرى ويعود، وفي كل صيـف كـانت موجـات مـن المصطـافين تنزح إلى المدينة الشمالية هربا من القيظ الخانق في العاصمة. مع ذلك وبرغـم هذه الحركة المكوكية المستمرة ظلت كل مـن المدينتيـن تحتفـظ بصـورة ممـيزة بطابعها الخاص. القاهرة كانت مدينة إسلامية تتطلع نحو الشرق، فـي حيـن أن الاسكندرية كانت مدينة إغريقية – متوسطية تواجه البحر الأبيض المتوسط.

كان المصريون المسلمون يـتركزون فـي القطاعـات الدنيـا مـن الموظفيـن والمواطنين في المجتمع، يعملون كتبة وخدما وعمالا في الترسانة، بينما كـانت الاسكندرية تحت سيطرة الجاليات الأجنبية وخاصة اليونـان. عاشوا في المدينـة أجيالا مـن بعد أجيـال، وكـانت العـائلات المهمـة منهم مثـل عائلـة زرفوداكـس وبيناكس وسلفاجوس قد وصلت إليها وهم يعملـون فـي تجـارة مربحـة. ولذلـك ظل كل سكندري غير عربي يشعر بأنه ارستقراطي بالنسبة إلى من وفد عليهـا من بعد من موجات اللاجئين وصائدي الفرص الذين استقروا في القاهرة، وكـم كان يعتز بأنه أكثر ثقافة وأشد جاذبية وأبهى طلعة وأفضل زيا من أي قـاهري. أما الأحياء الفقيرة فكانت تقع في غرب المدينـة. وفـي تقريـر نشـر فـي بدايـات الحرب، كتـب كـابتن بـيرت سميث، المشرف الفنـي علـى عمليـات الإنـذار مـن الغارات الجوية في وزارة الداخلية يقول "إن الوضع في الاسكندرية ليس أسـوأ

منه بالنسبة إلى إغراء أي مهاجم لها: هناك صهاريج بغير حصر تحوي البترول الخام والبنزين وكلها مجمعة مع بعضها في منطقة صغيرة يحيطها حي بلدي مزدحم بالسكان وتتقاطع معه مغالق الخشب ومخازن المواد". والذين عاشوا في هذه الأحياء كانوا يخافون الظلام، وقد وصف بيرت سميث قيود التعتيم بأنها من أسباب القلق العميق بأكثر من أي قيد آخر في زمن الحرب، ومع ذلك كان لدى المصريين إيمان كبير في قدرتهم على أن يستخفوا من عيون العدو، وكم يثور غضبهم إذا ما عمدت القوات البريطانية المهملة أثناء الدوريات، فتركت ضوءا مكشوفا بعد غروب الشمس.

ثم جاء دفق الجنود ليضيف شعورا بالإثارة إلى ما كانت تحفل به الاسكندرية الكوزموبوليتية من حيوية طبيعية. هواؤها كان منعشا وعليلا بالمقارنة مع غبار القاهرة، والبحر لم يكن بعيدا عن النظر في أي موقع، وثمة أماكن أنيقة مثل فندق سيسيل وباستروديس ويونيون بار ومطعم مونسنيور والذين لم يكن بوسعهم تحمل كلفة هذه الأماكن كانوا يستأجرون الكبائن على شواطئ ستانلي وسيدي بشر، وكانوا أيضا ينطلقون في السباق أو يلعبون الجولف، وإذا كانوا من أصحاب اليسار والنفوذ فهم يستمتعون دون غيرهم بالترف الذي يشع من نادي اليخت الملكي في الاسكندرية.

الاسكندرية كذلك استطاعت أن تلبي مطالب الذين افتقروا إلى المال أو الجاه على السواء. على الكورنيش كنت ترى أكشاكا صغيرة بغير حصر تذهب إليها عائلات بأكملها لكي تحتسي البيرة وتأكل المزات وترقب المغنين من رومانيا وحواة جلا جلا مقابل قروش معدودات. وفي كازينو سان ستيفانو على الشاطئ كانت أجرة دخول واحدة تتيح للزبون أن يشاهد السينما وأن يرتاد المقهى والكازينو فضلا عن نزهة على الأقدام في الممشى برغم أن معظم هذه الساحات استخدمها في زمن الحرب المدرسون والطلاب من كلية فيكتوريا الذين تحولت مؤسستهم إلى مستشفى. وبغير ذلك كان بوسع المرء أن يستقل

القطار إلى أبو قير حيث مطاعم خشبية صغيرة تقع على الشاطئ وتقدم صيد اليوم الطازج.

وكما في القاهرة نظموا للقوات سبل الترفيه ومرافقه، فقد عمد أصحاب الفيلات الكبيرة إلى إعارة حجرات زائدة لديهم لصالح الجنود والضباط الناقهين الذين كانوا بحاجة إلى سرير يقضون فيه ليلة أو اثنتين. جورج دي منشة، وكان رأس إحدى أهم العائلات اليهودية في الاسكندرية، كثيرا ما كان يقدم حفلات عزف على البيانو لصالح القوات، ولكن بسبب وسواسه المرضي حول مصافحة الأيادي كان دائما يعزف من خلف ستار، وكان نادي الأسطول بحديقته الوارفة ثم نادي جاك يونيون قد وضعا تحت تصرف البحرية الملكية، وإن كان يسمح لأفراد الجيش بارتياد النادي الأخير الذي كان مجهزا بالذات بكل شيء ما بين طاولات البلياردو وما بين الحمامات والمكتبة.

أما حي الملاهي الحمراء فكان يقع في الجزء القديم من المدينة قرب الميناء في حارة متعرجة اسمها شارع سستر وكانت عبارة عن نسخة من وش البركة في القاهرة، لكن بصورة أشد قذارة وأوخم تعاسة، وعلى نقيض صارخ لنظافة وكفاءة ملهى ماري، أشهر ماخور في الاسكندرية، حيث يقال إن الفتيات كن يتعاملن كل ليلة مع خمسة وثلاثين رجلا. في إحدى المناسبات سقطت قنبلة لتقسم المكان قسمين تاركة مخادع الزنا دون مساس، بينما دمرت البار البريء نسبيا من الخطيئة. وتورد أوليفياماننج في رواية "شجرة الخطر" نكتة الممرضة التي وجدت أن كل فرد في العنبر قد أصيب بجروح عند الست ماري، فإذا بها تقول إن ماري هذه لا بد أنها كانت تقيم حفلة رهيبة العنف.

عائلة لامبسون انتقلت إلى الشاطئ يوم ١٧ يونيه وكان سير مايلز غاضبا للغاية لأن موتوم كبير الخدم في السفارة كان قد فقد اثنين من المايوهات التي يملكها وخشي أن لا يستطيع شراء مايوه على مقاسه الكبير في الاسكندرية. وحتى اليونانيين بكل مهارتهم في إدارتهم السوق السوداء، كان يمكن أن يتعبوا في هذا الأمر برغم ما بذلوه من جهد جهيد لإبقاء المدينة

مزودة بجميع السلع من كل الأصناف. في سنة ١٩٤١ جاءت لحظة سيئة بالنسبة لشقراوات الاسكندرية عندما نفدت مؤنتها من البيروكسايد. ومن حسن الحظ اكتشفوا رصيدا من هذا العنصر الكيميائي في مالطة، التي كانت في ذلك الوقت تتعرض بالذات لقصف عنيف من جانب طائرات "ستوكا" الألمانية. كانت مالطة تكابد نقصا حادا في الكحوليات، وهذا جعلها منفذا نموذجيا لصناعة التقطير البلدية بالاسكندرية التي سرعان ما زودت مالطة بالوسكي المصنوع منزليا ثم الزبيب وهو المشروب القوي المحلي. وشرعت السفن اليونانية الصغيرة وعلى متنها طواقمها بكل شراهتهم في تسيير الشحنات حتى تونس والجزائر ومنها كانوا يجلبون في العودة الجبن والاسباجتي الإيطالي واللوازم الطبية والجوارب والواقيات الذكرية!

إن الحياة البهيجة والبعيدة أحيانا عن الواقع التي عاشتها الاسكندرية ظلت متواصلة برغم الحرب. صحيح أن صفارات الإنذار كانت تعوي بانتظام، لدرجة أن يمكنك ضبط ساعتك عليها. لكن كانت الهجمات المباشرة قليلة لأن القاذفات كانت تركز على الميناء غربي المدينة، وعلى مطار الدخيلة، أما الميناء فكان محميا بصورة جزئية من خلال أنشطة دوريات المتطوعين بالاسكندرية التي رابط أعضاؤها كل ليلة في قوارب مصممة خصيصا للقيام بخفر للسواحل وأحيانا للصيد في عطلة نهاية الأسبوع. وإذ كانت تتساقط القنابل والشظايا في كل مكان، كان المتطوعون يراقبون مواقع الألغام التي يتم إسقاطها في الميناء، ومن ثم استطاعوا بأمان استعادتها بعد ساعات قليلة.

ثم جاء اليوم الذي وصلت فيه مدرعات روميل إلى العلمين، وبعث راديو ألمانيا برسالة إلى نساء الاسكندرية تقول: "جهزن فساتين الحفلات، نحن في الطريق"، ساعتها لم يعد لدى خياطات المدينة وقت لإجراء تعديلات وتغييرات على فساتين الزبونات الانجليزيات، لقد أصبحن مشغولات لشوشتهن من أجل تقييف فساتين النساء التي سوف تزين "حفل النصر الراقص". وإذ كان أصحاب المحلات يتأكدون سرا من أن بحوزتهم صورا لهتلر وروميل جاهزة لوضعها

داخل إطار، كانت زوجاتهن مشغولات بدورهن في حياكة الأعلام والرايات ذات اللون الأحمر والأبيض والأسود. بل إن هناك من الأسر التي كانت قد أجرت غرفا للضباط الذين كانوا وقتها بالجبهة بدأت تحرق الملابس العسكرية البريطانية التي كانت مودعة في تلك الحجرات كأنما تحرق دليل إدانتها.

. قطع لامبسون إقامته في الاسكندرية فور سماعه بسقوط طبرق، وهرع عائدا إلى القاهرة يوم ٢١ يونيه حيث وجد الكسندر كيرك، الوزير الأمريكي المفوض في حال من الغضب الجامح بشأن عدم كفاءة قادة الجيش البريطاني. وقد أعجب سير مايلز بثبات النحاس باشا وحزمه، ففي يوم ٢٤ يونيه، اليوم الذي قال فيه لورد هاو هاو (المذيع البريطاني العميل من راديو برلين) أن القاهرة سوف تهاجمها ٢٠٠ من قاذفات المحور، أدلى النحاس باشا بخطاب في البرلمان المصري يقول إن زارعي الخوف سوف يعاقبون بلا شفقة أو رحمة. ثم بقي رئيس الوزراء المصري على حاله من الانشراح والثقة ولكن انتشرت مزاعم تقول إنه كان قد حصن مراهناته، إذ قيل إن رسالة تم وضعها موجهة لروميل تطمئنه على أن عواطف الوفد هي في حقيقة الأمر باتجاه المحور ولكن الظروف هي التي أجبرتهم على التعاون مع البريطانيين.

في نهاية يونيه وصل التهديد للاسكندرية إلى ذروته. وتعين على الأميرال هاروود، الذي كان قد تولى قيادة منطقة البحر المتوسط من الأميرال كاننهام، أن ينظر في احتمال تعرض المدينة لغارات جوية أشد وطأة بل وسقوط المدينة نفسها، من ثم قرر تقسيم السفن الراسية في الاسكندرية بين بورسعيد وحيفا وبيروت. ولم يعط أهل الاسكندرية أي تحذير ومن ثم تصاعدت المخاوف عندما بدأت السفن في التحرك تاركة الميناء المزدحم عادة فارغا بصورة منذرة بالخطر.

هذه الحادثة جاءت وكأنها إشارة لبدء ما أصبح يعرف بوصف "الورطة" أو "الصفعة". كان ثمة صفعات من قبل، لكن هذه لم يكن لها مثيل. شعرت الجاليات الأوروبية أن تقسيم الأسطول معناه التخلي عنها تماما، أما نشرات

الإذاعة البريطانية فلم تفعل سوى زيادة الطين بلة، إذ ذكرت أن نجاح الألمان إنما يرجع إلى التفوق الكبير في تكتيكاتهم وأسلحتهم، وأشارت إلى القتال الدائر حول العلمين بأنه "المعركة من أجل مصر" بما أعطى الانطباع من أن البريطانيين إنما يعلنون بذلك آخر موقف بطولي من جانبهم. وفي تقرير كتب بعد هذا التاريخ بشهر واحد يشير أ. ليفينج [الذي أصبح أول مدير لمكتب هيئة الإذاعة البريطانية في القاهرة] إلى أنه "بينما يمكن للنفسية البريطانية أن تقف بوجه نبوءات لا سبيل إلى التلفظ بها حول وقوع أزمات خطيرة كالإخلاء المحتمل مثلا للدلتا، إلا أن هذا الأمر لا يصدق على السكان المحليين".

بل إن الأمر شهد قلة من البريطانيين الذين يبدو أنهم تصدعت نفوسهم تحت وطأة التوتر، فالضابط البحري المتقاعد الذي كان مسؤولا عن إدارة المواني والمنائر في مصر وهو الأميرال المساعد سير جيرالد ويلز، غادر الاسكندرية "دون تصريح بإجازة" وحاولت السفارة إقناع وزير المواصلات المصري بعدم فصله من الخدمة لأن البريطانيين لم يريدوا أن تتحول هذه الوظيفة إلى أيدي المصريين في وقت حاسم كهذا. وعاد الأميرال ويلز إلى وظيفته وأمكن بهدوء إبقاء المسألة في طي الكتمان.

وفيما بدأ الضباط العسكريون والمسؤولون القنصليون في الاسكندرية في إحراق ملفاتهم، شرعت النساء البريطانيات والأطفال في حزم أمتعتهم والانضمام إلى الجموع التي ازدحمت في المحطة، وبدت بقية المدينة مهجورة فلم تحو شوارع سوى قلة من السابلة وظلت التليفونات تدق بغير انقطاع في المنازل الخاوية على عروشها. توجه لورانس دوريل إلى الاسكندرية ليجد أن مكتب خدمات الصحافة تعرض للقصف ولم يجد شيئا يفعله سوى أن يتمشى هنا وهناك ويحصي قائمة بالمتاجر التي تمت زخرفتها بعلامات الترحيب بالألمان، وتدوينها لكي ينزل بها العقاب بوصفها معادية للقوات البريطانية. في الوقت نفسه شقت النساء البريطانيات طريقهن إلى الجزء الغربي من المدينة لتشكيل لجنة الترحيب برغم أن الشخص الوحيد الذي كان يمكن أن يرحبن به

لم يكن سوى قائد دراجة ألماني واحد أمكنه أن ينجز انطلاقته البطولية إلى الاسكندرية لكي يحمل معه الأنباء السارة حول الوصول الوشيك لجيشه إليها، وقد اقتادوه على الفور تحت حراسة مشددة.

وقام الأهالي بتحميل عرباتهم وعمدوا إلى وضع حاشية فوق أسطح العربات كتدبير احترازي ضد الحطام المتساقط ثم انطلقوا نحو الدلتا. وهنا انتشرت الشائعة تقول بأن الانجليز وهم ينسحبون فلسوف يحرقون كل شيء في طريقهم مما تسبب في عمليات إخلاء جماعية من القرى. أما خطط الطوارئ البريطانية فكانت محدودة في واقع الأمر بعملية تدمير محطات القوى "باستثناء تلك التي تعمل لتشغيل شبكات الري والصرف الصحي" وكذلك تدمير كل النقل الميكانيكي الذي لم يتح استخدامه في الانسحاب، فضلا عن تدمير كل مخزونات الأدوات والبترول والمشحمات. وقد استثنت الخطة إتلاف المؤن الغذائية كما نظر البريطانيون في أمر إغراق المساحات المزروعة، وكان هذا من السهولة بمكان باعتبار أن النيل كان قد شارف على الفيضان، لكن إشعال النار في كل شيء لم يكن موضع تفكير على الإطلاق.

عانت الاسكندرية غارات جوية شديدة الوطأة يوم ٢٩ يونيه، ولكن الكثيرين في القاهرة تصوروا أن الألمان خططوا لتجاوز الاسكندرية كلية واحتلال العاصمة في غضون الساعة الأربع والعشرين القادمة. وقيل إن القاهرة في تلك الليلة سوف تشهد غزوا جويا يقارب ما حدث في كريت. وسمع الكسندر كيرك هذه القصة من مراسل حربي أمريكي وانطلق بها ليبلغها إلى سير مايلز الذي لم يقبلها لأنها حمقاء وحاول أن يرسم صورة أكثر تفاؤلا للموقف، إلا أن آلاف اللوريات الحاشدة بالجنود كانت تتدفق إلى القاهرة من الصحراء ولم يكن فيها ما يشجع على الإطلاق، ومع ذلك فكان مرأى هؤلاء الرجال المنهكين والمحبطين يدفع إلى مشاعر التعاطف بين صفوف السكان المحليين الذين كانوا يقدمون لهم المشروبات الخفيفة والسجائر.

يوم ١ يوليه أصبح مشهورا في القاهرة بأنه أربعاء الرماد، كان هذا هو اليوم الذي بدأت فيه السفارة البريطانية وقيادة الجيش البريطاني في مصر في إحراق كميات ضخمة من الملفات، وأصبح الهواء ثقيلا بالدخان وتطايرت ندف الأوراق المحروق فوق منطقة قصر العيني مثل تطاير ندف الجليد الأسود. ثم أدت حرارة النيران إلى تطاير بعض الأوراق إلى ارتفاعات عالية في الجو قبل أن يتم حرقها حسب الأصول، وبعد أيام من هذا التاريخ كان باعة الحمص واللب يصنعون قراطيس صغيرة من أوراق نصف محروقة تحوي معلومات في غاية السرية. الجنرال ت. كوربيت، رئيس أركان أوكينلك وّجه إليه الانتقاد بعد ذلك بشأن طريقة معالجته هذه للورطة. لقد اعتبروا أن المسألة كانت حالة من حالات المبالغة الشديدة في ردود الفعل، ولذلك أمر جميع الضباط بحمل المسدسات وقطع الطريق في وسط القاهرة من الساعة الثامنة مساء إلى السابعة صباحا دون أي تفسير أو تطمين للسكان المحليين. كذلك تسرّع كثيرا في الأوامر التي أصدرها بإعدام الملفات. وبرغم أن كتبة التقارير في مقر قيادة الجيش شعروا بأسف ممرور على ضياعها، إلا أن المخضرمين بحرب الصحراء وهم واقعيون أكثر من غيرهم قالوا إنها لم تضف إلى تفاقم الأمر الكثير بل ربما تحسن الأحوال إلى حد ما.

وكما كان الحال في الاسكندرية بدأت طوابير تمتد على طول شوارع كثيرة من حول البنوك. وكان النحاس باشا قد وضع خططا لنقل حكومة مصر واحتياطياتها الذهبية إلى الخرطوم، ولكنه كان في معنويات عالية ولم يتخذ أي خطوة في هذا الأمر. وأخبر سير مايلز الملك فاروق أن المسألة المتعلقة بمغادرته العاصمة أو بقائه فيها ترجع إلى الملك تماما، وأعلن فاروق أنه ليس "ملكا ألعوبة" وبقي في البلاد.

وصف سيسيل بيتون القاهرة بأنها كانت "تعيش أسوأ حالة من القلق حيث شوارعها مزدحمة بحركة المرور، وكانت الورطة هي شعار اللحظة، كل

فرد كان يحاول أن يكبح ذعره بوصف الحالة بأنها ورطة" وكانت المحطة مكتظة بالنساء والأطفال بانتظار من يأخذهم إلى جنوب أفريقيا وفلسطين.

مستر سترلينج كان واحدا من مجموعة سكرتيري السفارة الذين أوكل إليهم مهمة كئيبة هي توزيع الأماكن التي تتراوح بين ٣٠٠ و ٤٠٠ مكان على متن القطار اليومي المتجه إلى فلسطين، حيث كانت الأولوية تعطى للنساء والأطفال وللذين "ساعدونا" ومن ثم ستكون أسماؤهم مدونة في الكتاب الأسود للمحور. ولقد وصل الذعر إلى حد أن الناس كانوا يقدمون رشاوى هائلة لكي يحصلوا على مقعد في القطار. وكم شعر أحد الموظفين بالصدمة إذ رفض الرشوة فإذا بهم يقدمون له على الفور بديلا هو زوجة صاحب الالتماس!

كانت ليدي لامبسون قد أحضرت ابنها من الاسكندرية ورتب قطار خاص لنقل سير مايلز وعائلته وموظفيه إلى مكان آمن في اللحظة الأخيرة. وأبلغوا آدم واطسون، أفضل من يتكلم الألمانية في السفارة أن من الأفضل له أن يتخلف لكي يصبح ضابط الارتباط مع الألمان. ومع ذلك فلم يكن سير مايلز ولا ليدي لامبسون في تلك اللحظة لديهما أي نية لمغادرة القاهرة. إن السفير الذي تبدى منه بوضوح رباطة جأش كاملة أمر بإعادة طلاء أسوار السفارة الحديدية، وتوجه مع ليدي لامبسون للتسوق في الموسكي في عصر ذلك اليوم، ثم تناولا العشاء في كلوب محمد علي حيث كان حاضرا في تلك الأمسية النبيل عباس حليم الذي شرب نخبا في صحة روميل وسُمع وهو يقول "والآن وبعد أن وصل إلى هذا الشوط البعيد فلنأمل ألا يقع عند السور الأخير". ولم تمض أيام حتى تم التحفظ على النبيل شخصيا.

وانتشرت النكات المرحة بين سواقي التاكسي بالقاهرة من قبيل "اليوم أسوق بك إلى جروبي، وبكرة أنت الذي تسوق بي". وكان للبريطانيين نكاتهم أيضا، فلأن أكثر فنادقهم كان معروفا ببطء الخدمة قالوا "كل ما عليك هو أن تنتظر حتى يأتي روميل إلى شبرد، وساعتها سوف تتعرض مسيرته للبطء الشديد". وقيل أيضا إن الفيلد مارشال (الألماني) كان قد خابر تليفونيا لحجز

أفضل الغرف، ولكن الذين حرصوا على الاطلاع على سجل الفندق لم يجدوا فيه ما يرضي فضولهم.

من ناحية أخرى كانت الاحتمالات بالنسبة لليهود إزاء احتلال المحور احتمالات رهيبة لدرجة يعز التندر عليها. فبرغم أن أخبار معسكر اعتقال النازي "أوشفيتز" لم تكن قد انتشرت بعد، إلا أن سياسة هتلر بشأن إيجاد حل أخير للمشكلة اليهودية كانت أمرا معروفا. وكان تقرير "بوند" حول مصير اليهود في بولندا حيث يتم كل يوم إحراق ١٠٠٠ منهم في أفران الغاز بين شتاء ١٩٤١ ومارس ١٩٤٢ قد حظي بنشر واسع النطاق في الصحافة في انجلترا وفلسطين، فضلا عن تغطية من هيئة الإذاعة البريطانية بجميع اللغات. وقد شعر كريستوفر سايكس بالاشمئزاز إزاء سلوك الإدارة في فلسطين التي لم تكن تسمح بفيزات لمجموعات قوامها مائة أو أكثر أو أقل من يهود ألمانيا وإيطاليا ممن كانوا يعملون في وظائف عالية في سلك الأمن في القاهرة وهي عادة وظائف المترجمين. كانت السلطات البريطانية في القاهرة قد طلبت إعطاء الأولوية بصورة خاصة لهؤلاء الأفراد وعائلاتهم، ولكن الإدارة (البريطانية) في فلسطين رفضت التخفيف من التمسك بحصص الهجرة، وعليه ففيما انتقلت هيئة الخدمة السرية وبعض الأفرع من قيادة الجيش البريطاني إلى القدس طلبا للآمان فإن هؤلاء الموظفين اليهود الذين لم يكن بوسعهم سوى توقع أسوأ الأمور من المحور أجبروا على التخلف في أماكنهم. وقد جاء وقت الورطة ليشهد مئات من رجال الأعمال اليهود يبيعون ما يملكون بأبخس الأسعار. إلا أن كثيرا من اليهود لم يروا جدوى من الانتقال وبقوا حيث كانوا برغم أن صعود موجة معاداة السامية (كراهية اليهود) كانت منذرة منذ نشوب الحرب، فقد أظهرت الجماعات الإسلامية تضامنها مع العرب الفلسطينيين من خلال معاداتها لليهود الذين اتهموا بأنهم يحتكرون الأقوات ويمارسون الربا.

المصريون من جانبهم ظلوا يرقبون الورطة الكبرى بدرجات مختلفة من الخوف والتوقع. وضع أنور السادات ومجموعة من العناصر الوطنية معاهدة

يقدمونها إلى روميل، وفي المقابل يضمن لهم استقلال مصر التام في حين أن يكون بوسعه التعويل على تأييد جيش مقاومة كبير كانوا يخططون لتشكيله. ويزعم السادات أنه ذهب إلى سوق الزجاج في الموسكي واشترى عشرة آلاف مناسبة لصنع كوكتيل مولوتوف. والتقطت صور جوية للمنشآت العسكرية البريطانية وطارت إلى العلمين ومعها مشروع المعاهدة. وما أن وصل الطيار فوق الخطوط الألمانية حتى أعطى إشارة صداقة، ولكن لأنه كان يحلق بطائرة جلادياتور بريطانية فقد أسقطه مدفع. وتم اعتقال عدة أفراد من الجيش المصري بتهمة نشر الذعر وممارسة أنشطة تخريبية، وحل ٢٥٠ من الجنود البريطانيين محل نظرائهم المصريين في المواقع الدفاعية الحيوية .

وبرغم أن المدنيين البريطانيين كان يمكن أن يستشفوا، على نحو ما ذكر تيرينس تيلر، "عيونا تلمع وشوارب وأسنانا حادة، تتجمع من خلف المشربيات أو حتى صناديق القمامة" فإن غالبية الطرق والجسور ومواقع الاتصالات ظلت بيد الجيش المصري ولم يجر استدعاء جنود بريطانيين من الجبهة للتعامل مع التمرد. وحتى المظاهرات جاءت منظمة وكانت معادية للنحاس أكثر منها مؤيدة للألمان. كتب لامبسون يقول "من أبرز ملامح الأزمة أنه فور ظهور العدو على أبواب مصر ساد إدراك عام لمدى بغض الاحتلال الألماني وحدث تحول في الشعور لصالحنا نحن. وهذا الإحساس، وكذلك الشعور الوطني لدى المعارضة، وهو ما ينبغي الاعتراف به، الذي أملاه الدكتور أحمد ماهر هو الذي سهل كثيرا مهمة النحاس باشا". وعلى نقيض حاد من شقيقه علي ماهر، كان الدكتور أحمد ماهر يحث على المزيد من التعاون مع البريطانيين ودخول مصر الحرب منذ سبتمبر سنة ١٩٣٩.

ولقد أدت الجموع التي هرولت إلى البنوك إلى رفع إصدار البنكنوت من ٥٧،٩ مليون جنيه مصري يوم ٢٥ يونيه إلى ٧٦ مليون جنيه مصري في ٤ يوليه. وسرعان ما عقد اجتماع لمجلس إدارة البنك الأهلي في مصر في يوم الثاني من يوليه عندما بدا وكأن الكميات من البنكنوت يمكن أن تنفد فعلا قبل

أن تصل الكميات الجديدة التي طلبت من انجلترا. والخيار سيكون بين إصدار أوراق مالية منقوصة وملغاة وتظل بانتظار الحرق، أو استخدام مهارات مصلحة المساحة لصنع بعض الأوراق المالية الجديدة، وقد رئي أن الخيار الأخير هو الأفضل. وفي غضون أربعة أيام استطاعت مصلحة المساحة أن تنتج ستة ملايين جنه مصري على شكل ورقات مالية من فئة المائة جنيه.

مع ذلك، فقد صمد الخط الدفاعي في العلمين، وبحلول يوم ٦ يوليه أصبحت الورطة في خبر كان، ولم يتم إطلاقا إصدار ورقات البنكنوت الجميلة التي صنعتها مصلحة المساحة، ولا ميداليات الحملة الإيطالية التي سكوها خصيصا من أجل غزو مصر. وهذه الميداليات كانت تصور موسوليني والأهرام على وجه، بينما تضع على الوجه الآخر رمزا للنصر وشعار "في سبيل الفضيلة والشجاعة".

هكذا طرد أوكينلك الجنرال ريتشي وتولى شخصيا قيادة المعركة في نهاية يونيه. ومنذ ذلك الحين لم تغب عنه لحظة حقيقة أن روميل إنما كان يختنق بخط إمداداته الذي طال ليصل إلى ١٠٠٠ ميل، وكان سلاح الطيران البريطاني يواصل هجماته على طول هذا الخط. ليس هذا فقط، ولكن جبهة شمال أفريقيا عادت من جديد لتفقد أولوياتها لدى القيادة العليا في ألمانيا حيث كان الانتباه قد تركز على هجوم الصيف في روسيا، ومع ذلك فقد أبدي أوكينلك قدرا مشهودا من رباطة الجأش والشجاعة عندما استطاع تحويل انسحاب مندحر إلى حرب استنزاف، قيض لروميل في النهاية أن يخسرها.

محطة السكة الحديد الصغيرة في العلمين كانت تقع بعيدا عن الساحل، وكانت محصنة وكأنها طبرق الصغيرة حيث المتاريس الدفاعية وحقول الألغام، خارج أسوارها إثنان من هذه المتاريس كانا يقعان على حافة الرويسات وهي قضيب ضيق يمتد من الشرق إلى الغرب أميالا قليلة جنوبي خط السكة الحديد، وعلى مسافة ٢٠ ميلا جنوب الرويسات يقع منخفض القطارة الذي يبدو وكأن يدا عملاقة قد امتدت إلى سبعة آلاف ميل مربع من هضبة الصحراء فغاصت

بها تحت السطح، ولأن جدرانه الشمالية كانت منحدرة بشدة، وسطحه الملحي كان من النعومة لدرجة تخشاها الدبابات أو النقل الثقيل، أصبح منخفض القطارة يشكل حاجزا طبيعيا ويمثل عنق زجاجة في الصحراء يفصل بينها وبين البحر.

في الثالثة صباح يوم ١ يوليه، شن روميل هجومه ولكن الدفاعات داخل العلمين وما حولها صمدت أمام الهجوم، وبسبب نقص الإمدادات والإرهاق الذي حل برجال روميل فضلا عن الضغط المستمر بفعل القصف من سلاح الجو البريطاني، فإن كل محاولة لشق الصفوف كانت تكلف القوة الألمانية والإيطالية جهدا هائلا وتتركها فريسة ضعف أكثر وأكثر. وبحلول ٥ يوليه عرف روميل على وجه اليقين أنه لن يصل إلى الاسكندرية. هكذا ظل يلتزم الدفاع بين يومي ١٠ و ٢٦ يوليه، فيما حاول أوكينلك أن ينهك العدو من خلال هجمات متكررة مضادة.

لكن الجيش الثامن كان بدوره فريسة للإنهاك، وقبل المحاولة الأخيرة لإزاحة روميل من مواقعه يوم ٢٦ يوليه كان أوكينلك قد أصدر أمر قتال ينتهي بهذه العبارة: "علينا ألا نلين وإذا صمدنا فلسوف نكسره، فلنصمد"، وقد صمدوا. لكن الطاقات كانت قد أنهكت لدرجة النفاد، وفي ٢٧ يوليه بدا واضحا أن تحقيق أي تقدم آخر أمر غير ممكن، وأوقف أوكينلك الهجوم وأرسل سير مايلز لامبسون برقية إلى لندن تقول إن المصريين أصيبوا بخيبة أمل إزاء هذا التوقف في المعركة، مما نجم عنه أثر سيء للغاية على المعنويات المحلية. هكذا تملك الغضب الشديد من أوكينلك الذي لم تكن علاقته يوما طيبة مع لامبسون، وكان كثيرا ما يختلف مع سياسات السفارة.

وصل تشرشل إلى مصر بعد ثلاثة أيام لكي يرفع معنويات الجيش الثامن ويدرس الموقف العسكري بنفسه. وفي ٤ أغسطس عقد اجتماع في القاهرة وضم ٢ ٠٠٠ مارشال سمتص والجنرال ويفيل، الذي استدعوه من الهند، وفي الاجتماع كشف تشرشل عن خطط لعمليات إنزال أنجلو - أمريكية في شمال

أفريقيا أعطيت اسما كوديا هو "الشعلة" وحث على عودة الجيش الثامن إلى الهجوم فورا، وكم كان غضبه مشتعلا عندما أصر أوكينلك على أن ذلك ليس بالأمر الممكن لمدة ثمانية أسابيع على الأقل. في فجر يوم ٥ أغسطس توجه تشرشل إلى الجبهة، ورغم أن أوكينلك كانوا يحمدون له أن لم يعف نفسه من مكابدة أي متاعب يتحملها رجاله، فلم يكن من الحصافة في كل حال أن يعرض ضيفه رئيس الوزراء لهذه المتاعب في واحد من أشد شهور السنة قيظا. لذلك لم ينعم تشرشل إطلاقا بإفطاره الذي تناوله فيما يكاد يشبه قفص سلكي مليء بالذباب، ولم يتحسن مزاجه ولا أدى سيجاره إلى تلطيف الجو في مكتب أوكينلك، الذي كان عبارة عن كارافان شديد الحرارة لا يحوي حتى مروحة كهربائية. لهذا فارق أوكينلك قرب الظهر، وتوجه بالسيارة إلى قاعدة سلاح الطيران البريطاني في برج العرب حيث تحسنت معنوياته إلى حد كبير، فقد تناول غذاء فاخرا (جاءوا به من شبرد) على شط البحر، وحيث مدت مائدة عليها مفرش أبيض نظيف وفوقه أدوات مائدة فضية تلمع في الضوء.

كان تشرشل يدرس ويناقش إجراء تغييرات محتملة في قيادة الشرق الأوسط على مدى فترة من الوقت، ومن الخطأ تصور أن يومه هذا في الصحراء لعب دورا في القرار الذي ما لبث أن اتخذه. ومع ذلك فالأمر على الأرجح هو أن كبار ضباط سلاح الطيران الحاضرين معه وجدوا أذنا مصغية لهم بقدر من التعاطف، في حين أنهم لم يفوتوا من جانبهم فرصة التعبير عن آرائهم إزاء افتقار الجيش إلى الكفاءة.

في مساء ٦ أغسطس وصل تشرشل إلى قراره وكان يقضي بأن يحل الجنرال سير هارولد الكسندر (وكان وقتها نائب قائد خطة الشعلة) محل أوكينلك في القاهرة، بينما يتولى الجنرال سترافر جوت القيادة الميدانية. بيد أن سير آلان بروك رئيس هيئة الأركان الذي تولى منصبه بعد سير جون ديل في ديسمبر أعرب عن اختلافه مع القرار، فمثلا، الجنرال جوت، رغم كل شيء، ظل يقاتل في الصحراء منذ نشوب الحرب، وربما بلغ به الإنهاك لدرجة

لا يجوز معها تحميله عبء مهمة من هذا القبيل. لذلك اقترح تعيين الجنرال برنارد مونتجمري. ولكن تشرشل كان مصرا على قراره، على أساس أن جوت حصل خبرة عالية وبرز بوصفه قائدا في الصحراء وهو واحد من قلة من القادة في حرب الصحراء الذين ما زال الرجال يحتفظون بثقتهم الكاملة فيه، وكانت المأساة أن طائرة جوت قصفت وأسقطت بواسطة طائرات العدو وهو في طريقه إلى الجبهة.

هكذا استدعى تشرشل مونتجمري، وكان هو والكسندر قد عملا معا في مايو سنة ١٩٤٠ وبعدها يتذكر سير آلان بروك فعالية الشراكة التي جمعتهما رغم حقيقة أن كلا منهما كان شخصية مختلفة تماما عن الآخر. مونتجمري كان شغوفا بالخطر، حيث كان الخطر يبقي ذهنه في حالة توقد كحد الموسى، بينما الكسندر كان من الهدوء ورباطة الجأش لدرجة أنه يبدو متناسيا الخطر تماما.

في اليوم التالي تلقى أوكينلك رسالة من تشرشل تبلغه بالتغيرات في قيادة الشرق الأوسط، وأنه عرضت عليه قيادة جديدة هي أن يكون آمرا للجيش العاشر في العراق وفارس، ولكنه رفض على أساس أن رجال الجيش العاشر لا ينبغي أن يقدم لهم قائد يكون في عيونهم على الأقل موسوما بالفشل، وهكذا عاد إلى الهند.

عاد سكان الاسكندرية والقاهرة، الذين كانوا قد هربوا إلى الدلتا، واستؤنفت الحياة الطبيعية ورفع حظر التجول الذي كان يحظر على الجنود البريطانيين التواجد في المساء بالقاهرة، ومن هنا عادت الشوارع من جديد لتكون مملوءة بالجنود.

حينئذ ساد شعور بخيبة الأمل، وران هدوء ثقيل زادت من حدته وثقله درجة الحرارة المرتفعة، ومع ذلك فإن عقابيل الأزمة شهدت تغيرات في حياة أفراد كثيرين، أوليفيا مانتج غادرت مصر في الموجة الأولى من عمليات الإجلاء في أوائل يوليه، واستقرت في فلسطين، ثم بدأت الكتابة لصحيفة

"باليستاين بوست"، وريجي سميث زوجها انضم اليها في ذلك الخريف لتولي منصبه الجديد كمراقب البرامج الانجليزية والعربية في محطات الإذاعة بفلسطين.

لورانس ونانسي دوريل وصل زواجهما إلى مراحله النهائية، كان دوريل قد غادر شقته وانتقل لفترة موجزة ليعيش مع برنارد سبنسر قبل الانتقال إلى الاسكندرية يوم بدء الورطة إياها، وفي إطار عمليات الإجلاء الشاملة للزوجات والأطفال في شهر يوليه، رتب آدم واطسون أن تسافر نانسي دوريل وابنتها إلى القدس في عربة تابعة للفرنسيين الأحرار.

كانت نانسي مصممة على عدم العودة إلى زوجها، ولكن لم يكن لديها عمل، وكانت أموالها شحيحة، وقد أعارتها أوليفياماننج غرفة ووجدت نانسي عملا في إدارة الرقابة وسوف يستخدمها في بعد جريشون أجرونسكي، رئيس تحرير "باليستاين بوست"، في وظيفة محرر مساعد ولن يمضي وقت طويل حتى تقدمها أوليفيا ماننج إلى أيدان فيليب الذي كان حريصا على أن يسمع أكثر وأكثر عن هنري ميلر، الذي كان قد أمضى فترة مع عائلة دوريل في كورفو باليونان، وكان يشاركهم منزلا في باريس. كان أيدان فيليب مدير محطة إذاعة الشرق الأدنى في يافا، وقدم لنانسي عملا وفيما كانت تعمل هناك التقت بثاني أزواجها وهو الصحفي "هود جين"، الذي خلف فيليب كمدير للإذاعة عام ١٩٤٥، وقد تزوج ونانسي في سنة ١٩٤٧.

في أواخر يوليه ١٩٤٢، وبعد سلسلة طويلة من الحفلات، كان على مجتمع القاهرة أن يزجي تحية وداع حزينة لمومو ماريوت. كان البريجادير سير جون قد استدعي إلى انجلترا وكتب سير مايلز لامبسون يقول "القاهرة لن تصبح تماما هي نفس المكان الذي كانته بغير وجود مومو وصالونها". جوليان آمري استدعي أيضا إلى انجلترا، أما راندولف تشرشل، الذي كان قد أمضى الشهرين الأخيرين في المستشفى بكسر في الترقوة، فقد عاد بدوره إلى الوطن، كان قد التحق بدائرة المخابرات في أبريل، وبعد شهر أقنع ديفيد سترلينج أن

يضمه إلى بعثة موفدة إلى بنغازي برغم أن تدريبه كان أبعد عن الاكتمال، ولم تحقق البعثة نجاحا بل تكبدت خسائر في الأرواح، حتى أصبحت على مقربة أميال قليلة من الاسكندرية. وفيما كان ديفيد سترلينج يحاول اجتياز الطريق سقط بسيارته في خندق وقتل نفر. بينما أصيب راندولف وفيتز روي ماكلين (وكان مجندا حديثا في الجيش الخاص) بجراح بالغة. وبعد أشهر ستة كتب سيسيل بيتون يقول "لم يستغرق راندولف وقتا لكي ينسى وجود مومو من أساسه، أخشى أن تكون المسألة مجرد غرام معبأ في صالة الضيوف أو تكون مجرد شهوة تبدت في حفلات الكوكتيل".

الجواسيس

دلوعة واسمي فيرا
عايشة في حي الجيزيرة
الفوهرر يدفع لي فلوس، وأنا أخدم بعينية
وكسبت وسام الحرب
بالليل وفي عز اللعب
على خط الجولف الأخضر مع ضابط قيمة ومنظر.

أغنية إلى حسناء الجزيرة، (مجهولة المؤلف)، واحة إلى إيطاليا

أدت الورطة إلى سلسلة جديدة من إجراءات الاحتجاز والتحفظ والاعتقال التي أشرف على تدبيرها الميجور سانسوم. كان صاحبنا قد ولد وتربى في القاهرة، ثم تبع خطى والده للعمل في مجال التأمين، وفي عام ١٩٤٠ التحق بفرع الأمن الميداني في الشرطة العسكرية بالقاهرة. وكان رؤساؤه مهتمين بالذات بموهبته في اللغات إذ كان سانسوم يتكلم اليونانية والفرنسية والإيطالية، فضلا عن عدة لهجات بعربية مصر.

على قائمته في ذلك الوقت، كان ثمة شخصان مشبوهان هما الأختان إندوزي وكانتا تعملان في المفوضية الإيطالية، وفي مداهمة في الفجر اقتحم سانسون ورجاله شقتهما فوجدوا أنفسهم بمواجهة سيدة طاعنة في السن تلزم فراشها في الغرفة الأولى ما لبثت أن أطلقت صرخة ثم سقطت مغشيا عليها، وهنا بادرت الأختان إندوزي إلى مجابهة سانسوم ووجهتا إليه الاتهام بأنه قتل أمهما العليلة، ولم يكن لديه خيار سوى أن يعود أدراجه وسط وابل من

الاعتذارات. مع ذلك اتخذ الاحتياط المعتاد بأن قدم رشوة إلى البواب الذي يحرس العمارة، والذي ما لبث أن أفاد بأن الأختين إندوزي وأمهما أيضا سمعوا وهن ينفجرن بالضحك إزاء السهولة التي خدعن بها الشرطة.

لهذا جاء سانسوم جيد الإعداد لشن مداهمته التالية على عائلة إندوزي، ومرة أخرى اقتحم الرجال الغرفة الأولى، وما أن سقطت السيدة العجوز في إغمائها وبعدها شرعت الفتاتان في الصراخ بألفاظ القتل، إلا أن الأم هذه المرة ما لبثت أن عادت بسرعة إلى رشدها بفضل جردل من الماء البارد. وأسفر التفتيش عن معلومات مهمة كانت مخبأة في بالوعة التواليت وكانت مجهزة من أجل قوات روميل المحتلة، وتتألف من قائمة من الإيطاليين الموالين وغير الموالين للمحور.

مثل هذه المعلومات كانت رغم كل شيء تافهة بالمقارنة إلى ما تسرب إلى الألمان عن غير وعي من جانب الكولونيل بونر فيلرز، الملحق العسكري الأمريكي. كان البريطانيون وقد زاد اعتمادهم كثيرا على الأسلحة الأمريكية يأملون في الإبقاء على الثقة وحسن الظن بفيلرز ورؤسائه من خلال تزويدهم باستمرار بكل خطوة يقدم عليها الجيش. واعتبارا من خريف عام ١٩٤١ كان فيلرز يرسل كل هذه المعلومات من جديد إلى واشنطن بواسطة شفرة تعرف باسم "الكود الأسود" التي كان الإيطاليون والألمان قد فكوها بالفعل. من هنا مضت أفرقة التصنت التابعة للمحور ترهف السمع بدقة، بينما كان فيلرز يعطي المعلومات عن أوامر القتال وموقف الإمداد والتمويل وقطع الغيار، وأوجه النقص، وخطة نشر الطائرات والعمليات المزمع القيام بها. ولم يقدر لهذه الشفرة أن تتغير حتى وصل روميل العلمين وساعتها حل محل فيلرز الكابتن الدكتور سيفلي، الذي حرص على التأكد من أن مساعده الجديد، كابتن جون بريتون يقوم بانتظام بتغيير شفرة المفوضية الأمريكية. وتعين كذلك على رينتون أن يخوض التجربة الصعبة التي تمثلت في إعادة ثقة قيادة الجيش البريطاني في المفوضية الأمريكية بعد ما حدث.

بعد أسابيع قليلة ضاع على الألمان الجاسوس الوحيد الذي جهدوا فعلا لكي يزرعوه في القاهرة، وكان اسمه جون إيبلر وقد جاء القبض عليه تتويجا لوظيفة الميجور سانسوم في زمن الحرب، والقرار بزرع جاسوس في القاهرة تم اتخاذه في أوائل عام ١٩٤٢ حين شعر الابوهر، وهو المخابرات الحربية الألمانية، بأن هذا هو الرجل المناسب في المكان المناسب. ولد جون إيبلر في ألمانيا قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى، وكان صغيرا عندما انتقلت والدته إلى الاسكندرية ثم تزوجت المصري صلاح جعفر، الذي تبنى ابنها ورباه مسلما ثم أعطاه لقب حسين جعفر وأرسله إلى المدرسة في أوروبا، في حين ظلت الاسكندرية وطنه.

وبفضل المصروف السخي الذي كان يتلقاه من زوج أمه، أصبح إيبلر واحد من كثير من الشباب العاطل والجذاب الذي يغشى منتديات المدينة حتى عام ١٩٣٧ عندما اقترب منه عملاء المخابرات الألمانية، وكان إيبلر وقتها في منتصف عشريناته، وكل ما اجتذب المخابرات فيه هو أنه رغم كونه ألمانيا إلا أن معظم الناس عرفوه كمصري. ويقول إيبلر إنه أجرى اتصالات في عام ١٩٣٧ بثلاث من الجماعات الوطنية في مصر التي كانت على استعداد للعمل لحسابه، وهذه الجماعات هي: الإخوان المسلمون، ومصر الفتاة بزعامة أحمد حسين، ثم أعضاء "القبضة الحديدية" التابعين لعزيز المصري في الجيش المصري، وتم إيفاده إلى ألمانيا لأغراض التدريب.

رحلة إيبلر المثيرة عائدا إلى القاهرة في ربيع عام ١٩٤٢ بدأت في ليبيا حيث كان رؤساؤه الألمان قد قرروا أنها هي أسلم الطرق لكي يتسلل إلى مصر وبحوزته جهاز اللاسلكي الخاص به، على أن يتخذ طريق البر في رحلة طولها ١٧٠٠ ميل عبر أصعب فيافي وبوادي الصحراء الكبرى. وكان على رأس هذه الحملة الكونت المجري لادي سالوس الماسي، وهو من أكبر رواد الصحراء في أيامه.

الماسي كان طويل القامة نحيلا بشكل غير عادي، له أنف منقاري هائل وسط وجه قاسي الملامح. قبل نشوب الحرب كان قد ارتاد الصحراء مع حفنة ممن شكلوا نواة فريق الصحراء الخاص: بانديريل وكلايتون وكلاهما كانوا في حملة متوجهة إلى الجلف الكبير الذي شكل فيما بعد واحدا من أهم اكتشافات الماسي، حيث كان هذا الجلف عبارة عن مسطح من كتل الجرانيت يبلغ حجم سويسرا ويقع في الطرف الجنوبي الغربي من مصر، وكان قد أصبح في جفاف كثبان الرمل المحيطة به، ولكن دراسات الماسي للتاريخ ولأساطير الصحراء الأفريقية قادته إلى الاعتقاد بأن المنطقة كانت قد حظيت في أزمنة سحيقة بمسطح من المياه. اكتشف كذلك المنطقة بين عامي ١٩٣٢ و ١٩٣٦ والتمس طريقه إلى الصخور والروابي حيث وجد الكهوف التي أثبتت نظريته، وكانت مزينة بالرسومات التي تصور البشر والحيوان والزراف والجاموس، بل وفيها قوم يسبحون.

كان الماسي شخصية مألوفة في قاهرة ما قبل الحرب، حيث كان من أصدقائه الكثيرين الملك فؤاد شخصيا وابن عمه الأمير كمال الدين حسين (وكان بدوره من مرتادي الصحراء) ثم رسل باشا. وعند اندلاع الحرب كان يعيش في بودابست، وعندما خف الألمان لمساعدة حلفائهم الإيطاليين في الصحراء، أعطوه إجازة من رديف سلاح الطيران المجري للعمل مستشارا لدى روميل. وكان على استعداد كبير - دون أن ينطلق استعداده من أي التزام شخصي بفكر الاشتراكية الوطنية النازية - ولكن من الرغبة في العودة إلى الصحراء التي عشقها. روميل ورجاله لم يكن لديهم أي معارف عن تلك البوادي الشاسعة المجدبة من المياه التي كان عليهم أن يغزوها، ولكن هناك ما يدل على أن الماسي عمل في وضع "دليل إلى الواحات" ليهتدي به فيلق أفريقيا الذي قاده روميل في الصحراء. هكذا انطلق إيبلر في رحلته (وكانت تحمل الاسم الكودي "العملية سلام") في منتصف مايو وكان بصحبته عامل اللاسلكي التابع له - ساندي والكونت الماسي وفردان آخران. أخطر مراحل الرحلة كان

جزءها الأول، ولكن الماسي كان ملاحا صحراويا ماهرا، ومن ثم وصلوا في أمان إلى الجلف الكبير بعد أسبوعين من المسير حيث يممت المجموعة وجهها شطر الشمال الشرقي صوب وادي النيل، ومن هناك أصبحت الصحراء أيسر وطأة برغم أن عملاء ومرشدي بريطانيا كانوا منبثين في كل مكان.

افترق إيبلر وساندي عن الكونت الماسي على بعد أميال قليلة خارج أسيوط، وسارا إلى المدينة يحملان حقائبهما التي كانت إحداهما مليئة بالجنيهات الانجليزية والمصرية، والأخرى كان بها جهاز الإرسال – الاستقبال قوة ٤٠ واط. وما لبث إيبلر أن خلع على نفسه من جديد اسمه المصري، حسين جعفر، بينما كان ساندي يتظاهر بأنه شاب أمريكي اسمه بيتر مونكاستر. هنا كانت نهاية "عملية سلام"، وفي نفس الوقت كانت بداية العملية "كوندور".

وعندما أقدما على إرسال حقائبهما مقدما مع خادم نوبي استخدماه في السوق، كانت تلك مخاطرة ألقت الرعب في فرائص ساندي، ومع ذلك فبفضلها لم يفتش الشرطة العسكرية هذه الحقائب التي كانت تدينهما تماما. وصلا إلى القاهرة في مساء يوم من أيام أوائل يونيه، وبدأ إيبلر في الاتصال بصديقته القديمة حكمت فهمي.

حكمت راقصة شرقية كانت مهنتها تجعلها على اتصال، حميم أحيانا، مع الضباط البريطانيين الذين كانت أحيانا تقيم لهم سهرات في عوامتها، ولكن فكرة إيبلر عن قيامها بالحصول على معلومات تكون من الأهمية بحيث تفيد روميل، إنما توضح ببساطة أن صاحبنا كان يعيش في عالم من وهم أفلام السينما. والحاصل أن إيبلر استأجر عوامة قرب عوامة حكمت فهمي على ضفة العجوزة من كوبري الزمالك، وعندما قام ساندي بتركيب جهاز اللاسلكي شرع إيبلر في إعادة الصلة مع الأصدقاء القدامى الذين كان يمكن أن يفيدوه في هذا الشأن.

يبدو أن عوامة إيبلر كانت من الفخامة بمكان حيث كان يتصدرها بار من خشب الماهوجني الفاخر الذي ركب بداخله جهاز استقبال البرقيات وتحته تم وضع جهاز البث اللاسلكي. وكان جارهما المباشر ضابطا برتبة ميجور في المخابرات، واستطاعت حكمت وهي تغمز له بعيونها بمهارة فائقة أن تخبره أن أصدقاءها لديهم مشكلة في استقبال الإذاعة من الراديو الكبير الذي يملكون. ولم يضيع الرجل وقتا فقد أهداها على الفور إريال هوائي كان يفخر بأنه ييسر الاستقبال لمدى ١٠٠٠ ميل.

استقر إيبلر لكي يستمتع بحياته في القاهرة، ولكن كان يشعر أن عليه أن يمارس شيئا من التجسس لكي يحافظ على رضا المخابرات الألمانية. وإن هي إلا جولات من التسكع حول مستودعات العباسية حتى كتب ملاحظات عما كانوا يفرغون ويشحنون من البضائع. وارتدى زي عسكري نفر في كتيبة البنادق لكي يختلط بالضباط البريطانيين ويشتري لهم المشروبات ويستمع إلى ما يروون من حكايات. وبرغم لكنته في الحديث بالانجليزية، إلا أن الحلفاء كانوا يضمون عددا من الجنسيات المختلفة، وبهذا لم يكن ليثير أي شك لا في شخصيته ولا في بدلته العسكرية. وكان يتصور نفسه ساحرا للنساء، وكم أنفق من الوقت والمال على أكثر من مونيك وسوزيت ونادية وليلى وأضرابهن ممن كن يتعيشن من الترفيه عن الضباط، وقد أبلغهن أنه سيقدم لهن مبالغ مجزية لقاء أي معلومات يفضي بها هذا الضابط أو ذاك عن غير قصد على الوسادة وغيرها.

الجاسوسان في القاهرة كانا يبعثان برسائلهما مستخدمين شفرة مأخوذة من سطور رواية "ربيكا" تأليف "دافني دي موربيه"، ولكن لم يكن لديهما فرصة طويلة لاستخدامها. وطبقا لإيبلر كان الإرسال الأول الذي بثه ساندي هو الوحيد الذي استطاعت محطة الاستقبال الألمانية المنصوبة في الصحراء أن تقر باستلامه. أما المحاولات الأخرى للوصول إليها في الليالي التالية فقد ثبت عقمها، وكان البريطانيون قد شرعوا بالفعل في التقاط الإشارة برغم أنها لم

يطل بها أمد البث حتى يتسنى تقصيها. ورغم أن الجهاز بدا على ما يرام، إلا أن إيبلر قرر أن يحصل من أحد الفنيين على رأي ثان في صلاحيته.

الرجل الذي جاء لفحص جهاز الإرسال كان أنور السادات، الذي كان وقتها ضابطا بسلاح الإشارة في ضاحية المعادي بالقاهرة، فأكد أن المعدات على ما يرام، وكم صدمته الحياة التي كان يعيشها إيبلر وساندي على متن العوامة، وتحفل بزجاجات الويسكي والنسوء المستهترات في كل مكان، أو كما وصفه السادات بأنه مكان خرج لتوه من ليالي ألف ليلة وليلة حيث كان كل شيء يدعو إلى الترف والفخفخة وشهوة الحواس، ووسط هذا الجو من الفسق والفجور نسي الشابان النازيان المهمة الدقيقة التي كانت قد أسندت إليهما.

قرب نهاية يونيه، ظن الجاسوسان أنهما قد حصلا على معلومات لها قيمة بالفعل تتعلق بتعبئة أسلحة الحلفاء ووصول قافلة كبيرة من الدبابات الأمريكية. وهذه الحادثة تعرض لها في إطارها العريض كتاب إيبلر فيما بعد، ولكن ثمة رواية أخرى في هذه القصة وردت عند ليونارد موسلي، والضحية فيها ضابط اسمه الميجور سميث، وكان ضابطا شابا يعمل في قيادة الجيش البريطاني في مصر، مغرم أشد الغرام براقصة هز البطن حكمت فهمي صديقة إيبلر، وقبل أن يغادر إلى الصحراء لكي يحمل معلومات سرية للغاية إلى الجنرال ريتشي موضوعة داخل حقيبته المحكمة الإقفال، أقنعته أن يأتي ويتناول معها كأسا في عوامتها. وكان من الطبيعي أن يأتي الميجور سميث وينتهي الأمر باحتسائه عدة كؤوس مع حكمت التي كان من الطبيعي أيضا أن تضع له مخدرا وتستدعي إيبلر وساندي، وفيما كان الميجور التعس يغط في نوم عميق، بدأوا تفتيش حقيبته ولكن المعلومات القيمة التي وجدوها لم يقدر لها أن تصل إلى روميل على الإطلاق، إذ ظلت إشاراتهما المحمومة باللاسلكي تبث بغير جواب.

لا بد أن يكون إيبلر وساندي قد استعرضا التقدم الألماني السريع صوب العلمين، وقد راودتهما مشاعر مختلطة ولو حتى لأسباب مالية. كانا قد أنفقا

كل العملة المصرية وكل ما بقي معهما كان بالاسترليني، وبقدر اقتراب روميل من المكان، بقدر ما ستسقط قيمة الجنيه الانجليزي، لدرجة أن يصبح ممنوعا تداوله على الأقل خارج السوق السوداء. ربما كانت هذه المعرفة بانتصار الجيش الألماني ودخوله الوشيك إلى القاهرة هي التي أدت إلى استهتار الجاسوسين حيث كانا يبعثران عن سعة علانية الجنيهات الانجليزية في بدايات شهر يوليه.

يوم ١٠ يوليه شنت غارة على وحدة روميل للتصنت في المنطقة المتقدمة، وبين الأسرى الذي أقتيدوا كان عاملا لاسلكي في حوزتهما نسخ انجليزية من رواية "دافني دي موربيه - ربيكا". ولم يكن أي من الرجلين يتكلم الانجليزية ومن ثم أقتيدا إلى مركز الاستجواب في المعادي، وبرغم أنهما لم يتعاونا من قريب أو بعيد فقد افترض البريطانيون أن الرواية تستخدم لأغراض الشفرة، وتأكد هذا من خلال رسالة تقول إنه تم بيع خمس نسخ من رواية ربيكا اشترتها زوجة الملحق العسكري الألماني في لشبونة في شهر مارس. وكل ما تبقى الآن هو العثور على الجواسيس وجهاز الإرسال.

ولأن العائلات في انجلترا كانت كثيرا ما ترسل أموالا إلى الأزواج والأبناء العاملين في القوات المحاربة، كانت القاهرة تحوي دائما كمية صغيرة من الاسترليني للتداول. ولكن بينما كان الجنيه الانجليزي مقبولا في الحانات والفنادق إلا أن قوات الامبراطورية والجيش البريطاني في مصر كانت تتقاضى مرتباتها بالجنيهات المصرية. من هنا زادت شكوك بيتر، البارمان في نادي التيرف، عندما لاحظ أحد الجنود يشتري مشروبات بما يبدو أنه مبالغ لا حد لها من فئة الخمسة جنيهات استرليني. وقد اكتشفت في أماكن أخرى مبالغ من نفس الفئة، في البارات والكباريهات وكذلك في فندق شبرد ومحل جروبي. ولدى فحصها ثبت أنها عملة مزيفة بإتقان خبير، ربما مصنوعة بالذات في ألمانيا. من هنا بدأ الأمن الميداني بإشراف الميجور سانسوم تحريات حصيفة للعثور على مصدر هذه الخمسات المضروبة. وكان اقتراب الألمان يعني أن

مئات من الناس كانوا يقتادون للاستجواب والتحقيق في كل يوم. من هنا فلم يكن البحث أو التحري يجذب اهتمام أحد - فما بالك باهتمام ساندي أو إيبلر الذين واصلا حياتهما اللاهية بل والعابثة المستهترة في مرابع اللهو والترف

وطبقا لإيبلر، فإن المخابرات الألمانية لم تبلغه قط بأن النقود الاسترليني كانت مزيفة. والذي أبلغه بذلك الشخص الذي كان يتولى تغيير الأموال في السوق السوداء، الذي حذره من خطر استخدام هذه الجنيهات. وبمساعدة من هذا الرجل عمل إيبلر على ترويج ما تبقى من جنيهاته الاسترلينية مقابل ربع القيمة المكتوبة عليها، كما حذره سمسار العملة من فتاة كان على علاقة بها، وكان إيبلر يعرف أنها يهودية، لكن لم يكن يعرف أنها على كشف المرتبات عميلة للأمن الميداني.

حاصر رجال سانسوم العوامة في ساعات الصباح الأولى من منتصف يوليه، وأفاق إيبلر ليدق جرس الإنذار، وبينما كان ساندي يحاول إغراق العوامة من أسفل، تصدى إيبلر لدفع المهاجمين، وما أن اقتحم رجال الشرطة باب الممشى حتى توفرت لحظات قليلة أمام إيبلر لكي يلوح أمامهم بزوج من الجوارب المطوية التي اتخذت شكل قنبلة يدوية، ولكنه لم يكن ليتهرب من المسدس الذي شهره بوجهه الميجور سانسوم.

تم القبض على إيبلر وساندي وجرى استجوابهما، وبعد ذلك قبض على السادات لدوره في المؤامرة، أما سبب عدم إعدام الجاسوسين فتمثل في أن البريطانيين كان يتعين عليهم إعدام السادات أيضا، وكان إعدام ضابط في الجيش المصري يعد أمرا شديد الخطورة والاستفزاز، وتلك مخاطرة لم يقدم عليها أحد في يوليه من عام ١٩٤٢، وعندما ذهب إيبلر وساندي لقضاء بقية سنوات الحرب في معسكر للأسرى جرد السادات من رتبته وأودع في سجن الأجانب، ثم نقلوه إلى معتقل المنيا في ديسمبر.

إيبلر والسادات والميجور سانسوم كتبوا جميعا روايتهم للعملية "كوندور"، وبرغم الاختلافات فيما بينهم فليس من سبيل إلى إخفاء مستوى

الهواة المتهالك للمسألة برمتها، مع ذلك فقد قيض للقصة أن تلهم روايتين وفيلمين: جحر الثعلب في القاهرة (١٩٦٠) عن رواية القط والفأر تأليف ليونارد موسلي، ومفتاح ريبكا (١٩٨٥) المقتبس عن الرواية التي تحمل نفس الاسم تأليف كين فوليت•. على أن دورة القبض والاعتقال التي شهدها صيف عام ١٩٤٢ لم تشمل اثنين من الألمان اللذين واصلا الحياة في القاهرة، كان أولهما هو الدكتور لويس كيمر، وهو عالم مصريات مرموق، والذي أنقذ الدكتور كيمر من الاعتقال هو صداقته مع سير والتر سمارت، وقد أمضى سني الحرب مقيما في شقة صغيرة حافلة بالكتب ومجموعة عظيمة من المخطوطات المصرية القديمة وتقع في شارع الحواياتي. الشخصية الثانية كانت ميتزي تورينج، وهي صاحبة صالون فوج الهادئة الذي يقع في ٣٧ شارع قصر النيل، وكانت تصفف شعر أشهر الشخصيات في مجتمعات القاهرة بمن فيهن ليدي لامبسون، ولكنها تدين بحريتها إلى أشهر زبوناتها وهي الملكة فريدة شخصيا.

كان المهندس والتر دورينج وزوجته ميتزي قد رفضا الانضمام إلى الحزب النازي وأفضى بهما هذا الرفض إلى أن نبذتهما معظم قطاعات الجالية الألمانية فضلا عن ضياع عدد من العقود الهندسية على زوج ميتزي. وكان قد أودع رهن الاعتقال في عام ١٩٤٠ دون أن يسمح له بالاتصال بها، بينما تعين عليها من جانبها أن تلتزم جانب الحذر الشديد. كان عملها في السراي والصالون يستدعي منتهى الحصافة: أي زلة لسان كان يمكن أن تسوقها إلى الاعتقال وإلى تصفية مصدر رزقها. ولم يكن سير مايلز لامبسون يحب فكرة وجود مواطن أو مواطنة ألمانية تصغي إلى الثرثرة المليئة بالمعلومات التي كان من الواضح أنها تنتشر في أرجاء صالون فوج المعطر، وكان يشك في

• وقد نضيف أيضا، بكل التحفظات الفنية والفكرية اللازمة، فيلم حكمت فهمي، الذي عرض في القاهرة في عام ١٩٩٤. "المترجم"

أنها جاسوسة تعمل لحساب السراي وكثيرا ما حاول أن يودعها رهن الاعتقال. في الصيف الماضي كان قد سأل رئيس الوزراء وقتئذ، حسين سري عما تم اتخاذه من إجراء بحق فراو دورينج، وأجاب سري بأنه ما دام الزوجان يعتمدان على نفوذ الملكة فريدة القوي لدى الملك فمن الأفضل ترك الكوافيرة لحالها.

مدام ذو الفقار، والدة الملكة وشقيقة زوجة حسين سري، كانت قد حذرت ميتزي دورينج بأن هناك من يتابعها، وكانت ميتزي على بينة من الأمر فأدركت أن البريطانيين سوف يصرون على اعتقالها عاجلا أو آجلا، وفي محاولة منها لإنقاذ صالون فوج من المصادرة رتبت مبايعة صورية للمبنى لصالح واحد من صبيانها الحلاقين وكان يونانيا.

وكان الأجانب الأعداء المقيمون في الأرض المصرية يصدر لهم جوازات سفر خاصة وعند فتحها يبرز منها شريط من ورق سميك يبلغ طوله عدة أقدام وتغطيه الشعارات المصرية والبريطانية والأختام وطوابع الدمغة والتواريخ والتوقيعات والاستمارات المصغرة بالإضافة إلى صورة حزينة وحيدة، وعندما ذهبت ميتزي دورينج إلى البنك لسحب نقودها من "الصفقة" كان عليها أن تقدم جواز سفرها، وكم شعرت بالخجل الشديد عندما لم يسترع الأمر انتباه مدير البنك فقط، بل تحلق من حولها الصرافون لكي يلقوا نظرة على هذا الشيء.

لم تودع فراو دورينج رهن الاعتقال حتى شهر أكتوبر وعندما أفرج عنها مع زوجها في نهاية الحرب لم يكن الزوجان يملكان شيئا على الإطلاق، كان اليوناني الذي أعطته الأموال لكي "يشتري" محلها قد هرب بالنقود تاركا الصالون حطاما، بينما كانت كل أموال زوجها قد تعرضت للمصادرة لدفع تعويضات الحرب.

خريف وشتاء ١٩٤٢

العلمين وما بعدها

كان أوكينلك قد ذكر أنه سوف يسلم قيادة الجيش الثامن يوم ٥١ أغسطس ولكن مونتجمري أراد أن يعطي الانطباع بأنه عبارة عن "مكنسة جديدة" بإزاء كومة هائلة من غبار بغير لزوم. يوم ١٣ أغسطس توجه إلى الجبهة حيث بعث بإشارة في الساعة الثانية بعد الظهر إلى القاهرة تقول إنه تولى بالفعل قيادة الجيش وأمر بأن يتم فورا إعدام كل خطط الانسحاب. وكانت تلك إهانة تافهة غير مهذبة وجارحة بالنسبة إلى أوكينلك، لكن شخصية مونتي الخشنة ما لبثت أن خلقت روحا تخللت صفوف الجيش الثامن وكأنها نسمة من هواء نقي. وسرت الحكاية بأن الرقباء فتحوا رسالة من ضابط تقول "المشكلة أنك إذا أردت أن تتعامل مع كائن وسخ مثل روميل فأنت بحاجة لواحد من نفس النوعية. وحتى الآن كان جميع قوادنا أفرادا مهذبين بدرجة مخيفة، لكن حمدا لله لقد حصلنا أخيرا على مونتي".

قال مونتجمري "لن يكون هناك بعد ذلك أي زحف على البطون ولا انسحابات على الإطلاق". كان معلما بالسليقة لا يكل ولا يتعب من طرح أفكاره التي كان يتعامل معها بأقصى قدر من الثقة. لم يقتصر الأمر على أن القائد الجديد أراد أن يلتقي بأكبر عدد ممكن من الرجال، وأن يتكلم معهم ولكنه شرح بالفعل أبعاد المعركة القادمة. لم تكون مجرد هجوم ولكنها ستكون عملية الرمق الأخير التي تقصد إلى أن يلحق روميل من الضرر بنفسه بأكثر مما يلحقه أعداؤه به.

هكذا جاءت معركة علم حلفا لتتخذ الشكل الذي تنبأ به مونتجمري. كان روميل عاجزا عن اختراق الدفاعات البريطانية. من هنا ظل جيشه وإمداداته تحت رحمة هجوم شرس من جانب سلاح الطيران البريطاني، وفي يوم ٢ سبتمبر أجبر على الانسحاب نظرا لافتقاره إلى البترول.

إن الأنباء التي تحدثت عن مجيء قائد إلى الصحراء يعرف بالضبط طبيعة عمله انتشرت بسرعة وها هو الأمر يبدو وكأن الحلفاء سوف يفوزون ومن ثم أصبح موقف الذين تسللوا في غمار الانسحاب الطويل من غزالة أكثر سوءا. فبدلا من أن يقبض عليهم ويعاقبوا من جانب صفوفهم بوصفهم هاربين من الخدمة بدأوا في العودة إلى وحداتهم، وكانت الغالبية العظمى منهم أنفارا من الجنود وقد حياهم زملاؤهم باهتمام ممرور ولم يتعرضوا لأكثر من نظرات حامية من جانب الشاويشية، فضلا عن إسناد أقصى قدر من الأشغال الشاقة ليقوموا بها، وكان مقررا تنزيل رتبة ضباط الصف والضباط المرشحين، ولكن كان أمامهم فرصة الحفاظ على الرتب إذا ما دللوا على بلاء استثنائي في المعركة.

بالنسبة إلى المجموعة الصغيرة من الضباط الذين هربوا من الصفوف، لم تكن المسألة على هذا النحو من السهولة، فلم يكن من سبيل لقبولهم من جديد ضمن المجموعات التي تغشى ميس الضباط. والذي حدث أن بادي ماين، وهو القائد الثاني لدائرة الأمن بعد ديفيد سترلينج، أخذ عددا من هؤلاء الضباط ليعملوا في الدوريات على أساس أنهم إذا ما تميزوا في العمل فقد يكون في هذا ما يقنعه بتصحيح ملفاتهم. هناك آخرون ممن التحقوا بصفوف جماعات الصحراء الانتحارية تحت نفس الشروط، ومن المهم أن نرى أن هاتين الفئتين من القوات الخاصة في حرب الصحراء أصبحتا فيما بعد بدائل عن الفرقة الأجنبية الفرنسية، وهي التي كانت بمثابة المطهر الحربي الذي اعتاد الأبطال أن يستردوا فيه شرفهم المثلوم.

جاء وصول مونتجمري إلى الميدان ليخلق اضطرابات في مقر القيادة بالقاهرة، وعندما أصبح ويفيل قائدا عاما في الشرق الأوسط كان لديه جيش صغير للغاية، وكان أيضا يواجه عدوا منتشرا على جبهات عديدة مختلفة. وعلى ذلك فقد عمل على توظيف وتجنيد عدد كبير من القوى العاملة في مقر قيادة الجيش بالقاهرة لدراسة كل زاوية ممكنة من زوايا الحرب، وإعداد العدة لأي احتمال. وعندما تولى القيادة أوكينلك تغير الموقف لدرجة أن أصبح هناك عمالة زائدة، وبذل أوكينلك ما يستطيع لتنحيف قوام هذه الإدارة، ولكنه بعد أن أمضى معظم حياته العملية في الجيش الهندي لم يكن لديه سوى فكرة غامضة للغاية عن شبكة مراكز القوى المعقدة التي كانت تفعل فعلها في الجيش البريطاني. فلم يكن سرا أن العائلات ذات النفوذ كانت تستطيع أن تمارس تأثيرها لكي تسند أعمال مريحة في هيئة الأركان إلى أبنائها. وبرغم جهود أوكينلك فإن مقر القيادة في القاهرة ظل بمثابة المرفأ الآمن لعدد من الضباط الذين كانت مواهبهم تتلخص في شيء واحد هو أنهم واصلون إلى فوق. كل هذا تغير تحت الكسندر، فجأة أصبح مطلوبا من كل فرد أن يعمل، وفي إطار الاندفاعية إلى العلمين كان هذا معناه العمل عشر ساعات يوميا وسبعة أيام في الأسبوع، وأي فرد يقصر في هذا الخصوص كانوا يرسلونه فورا للالتحاق بكتيبته في الجبهة.

لم يشهد الجيش الثامن وجيش البانزر الألماني في أفريقيا مثل هذا الالتحام الطويل بينهما الذي حدث في سبتمبر سنة ١٩٤٢. صحيح أن الصحراء لم تنكمش، ولكن إمكانية المناورة قلت بفعل خطوط سميكة من الدفاعات الساكنة التي تمتد من الساحل إلى منخفض القطارة، وأدى ذلك إلى أن جميع الاستعدادات المتخذة للمعركة القادمة كان يتعين أن تتم تحت سمع العدو وبصره، ولهذا السبب استخدم مونتجمري مساعدة أخصائي الخداع والتمويه الشهير "جاسبر ماسكيلين".

خططوا للهجوم أن يتم في النصف الشمالي من دفاعات العدو، والاستعدادات في هذا القطاع من الجبهة كانت من التفصيل والعمق لدرجة أنها اكتسبت اسما رمزيا خاصا بها هو العملية "برترام". كان هدفها هو الزج بما يصل إلى ألفي مدفع وألف دبابة بالإضافة إلى جميع صنوف الدعم التعبوي لمعركة تدوم ١٢ يوما دون أن يلحظ العدو ذلك. وقد تحقق هذا من خلال تحريك آلاف من هياكل الدبابات والشاحنات والمدافع إلى المنطقة المتقدمة قبل الموعد بفترة طويلة، وهذه القوة برغم أنها كانت كافية للهجوم، كانت من السكون لدرجة أن العدو لم يكن ليتصور أنها من أجل الاستخدام الفوري. وعندما اقترب الموعد جرى نقل الدبابات والمدافع الحقيقية لكي تحل محل الهياكل المزيفة وتم هذا كله تحت جنح الليل، بينما كانت الدوريات الراكبة تحدد المسارات خلال حقول الألغام. هذه الاستعدادات بكل أهميتها القصوى هي التي كفلت رأس الحربة التي كانت الفرصة الوحيدة لاختراق دفاعات العدو.

في مساء ٢٣ أكتوبر كان رسل باشا وعقيلته يتعشيان في القاهرة مع مارشال الجو سير آرثر تيدر، وخلال العشاء سلموا تيدر مذكرة فاستدار إلى ليدي رسل وطلب منها أن تتابع الوقت في ساعتها من أجله. وفي العاشرة تماما أعلن مارشال الجو أن ألفا من المدافع البريطانية فتحت النار في تلك اللحظة، ومعنى هذا أن معركة العلمين الثالثة قد بدأت.

هذا الوابل من قصف المدفعية العظيم أخذ الألمان تماما على حين غرة، ولكن برغم كل التدريب والبروفات فإن الجزء الأول من الخطة الذي كان يقضي بأن يفتح المشاة الطريق أمام دبابات الفيلق العاشر بدا طموحا أكثر مما ينبغي، إذ أن الستارات الثقيلة المضادة للدبابات أغلقت المسارات المحددة خلال حقوق الألغام مما نجم عنه سقوط كثير من القتلى أمامها، فضلا عن حدوث اكتظاظ لا يصدق خلفها. كان روميل مريضا للغاية على مدى الأشهر القليلة التي انقضت وذهب إلى الوطن في نقاهة بعد معركة "علم حلفا"، وها هو يطير مباشرة عائدا إلى شمال أفريقيا.

في ضوء الدروس المستفادة من الهجوم الأول، عمد مونتجمري إلى تغيير خططه يوم ٢٦ أكتوبر فقام بتنظيم هجوم أكثر يسرا تحت اسم "الشحنة الفائقة" وشنه ليلة ١-٢ نوفمبر، وقد نجح هذا الهجوم في فتح ثغرة في الدفاعات الألمانية، وجاء ليل ٢ نوفمبر فإذا بروميل يقرر الانسحاب.

ورغم أن مونتجمري كان يتفوق من حيث الدبابات والمدافع والأفراد على العدو إلا أنه لم يدع قط أن العلمين كانت معركة من السهل كسبها، فمن بين ما مجموعه ٢٢٠ ألف من الرجال وصلت خسائر الحلفاء نحو ١٠٠٠ فرد يوميا، وبرغم انتصاره إلا أن مونتجمري كان لا يزال قائدا جديدا يواجه خصما صعب المراس ما برح قائدا على نفس الفرق الألمانية الماهرة والمحنكة على مدى ثمانية عشر شهرا. لم يكن بوسع مونتجمري أن يخاطر بالاشتباك معه مرة أخرى في العراء المكشوف حيث من المعروف جيدا قدرة روميل على شن هجمات مباغتة وفظيعة، ولا كان يمكنه المخاطرة بحدوث أي نكسة في صفوفه. وكان من المحتم أن تظل مطارات غربي برقة التي تبعد ٤٠٠ ميل عن المكان في يد الحلفاء بحلول يوم ٧ نوفمبر، وهو الموعد الذي تقرر فيه إنزال قوة الغزو الأنجلو أمريكية الضخمة في شمال أفريقيا.

من الذين شاركوا في معركة العلمين الثالثة، كيث دوجلاس، الذي قد يعد أعظم شاعر مقاتل في الحرب العالمية الثانية برغم أنه لو كان قد تبع الأوامر لما قدر له أن يشهد أي عمليات ميدانية على الإطلاق. كتب دوجلاس الذي كان برغم شاعريته يتمتع برباطة جأش استثنائية وبنيان رياضي يقول "إن تجربة المعركة هي الشيء الذي ينبغي لي أن أكتسبه". كان دوجلاس في سنته الثانية بجامعة أوكسفورد عندما اندلعت الحرب فانضم إلى مجموعة شيروود فورستر في فلسطين ومن ثم انتقل إلى مصر: في إهابه ضابط ممتاز بفضل ما كان يتمتع به من حرص وذكاء وشجاعة، لكن نفاد صبره الذي كاد يصل أحيانا إلى حافة التمرد جعل رؤساءه من الضباط لا يتحمسون لإرساله إلى الميدان، ولذلك

كانت الأوامر التي أعطيت له تقضي بأن يظل في مقر قيادة الفرق في حين أن الأمور كانت تفضي إلى خوض معركة حرب الصحراء الحاسمة.

بعد ستة أيام من بدأ المعركة لم يستطع كيث دوجلاس أن يتحمل الأمر، ركب شاحنته وقادها شاقا الخطوط وقدم نفسه إلى آمر كتيبته قائلا إنه إنما يتصرف بناء على أوامر من قيادة الفرقة، وكما كان يعلل نفسه فإن الكولونيل كيليت كان مشغولا لدرجة لم يدقق معها في الأمر، كما أن الكتيبة كانت قد فقدت عددا من ضباطها الأصاغر في الاشتباكات الأولى، وعليه ففي الصباح التالي وجد دوجلاس نفسه في برج دبابة مارك، وساعتها قال له المساعد الذي صحبه في الشاحنة من الاسكندرية: "أنا معجب بك يا سيدي، بصراحة إما أنك زفت أو أنك قفل".

والمهم أن كيث دوجلاس كان من أفراد القوة التي اكتسحت روميل خارج مصر وعبر ليبيا ثم إلى تونس، وهي رحلة صورها في وصف "من العلمين إلى زمزم" وكان النصف الأول من الوصف قد كتب في مذكرة يومية لسنة ١٩٣٤ وقد لاحظ جي. فريزر أنه عندما عاد إلى القاهرة في سبتمبر ١٩٤٣ (كانت كل أحاديثه تدور حول الدبابات المحترقة والأجساد المشوية) ولكن في "من العلمين إلى زمزم" فإن دوجلاس يتابع بملاحظاته وجود الأحياء بنفس الاهتمام والعمق، وعلى الصفحة الأولى من مخطوطته يكتب دوجلاس:

كم أحن إلى فترة أمضيتها فوق القمر

كأنما هي حياة قصيرة ذات بعد جديد

هذا البعد هو الحرب، وفي إطاره يتسم كل سلوك إنساني بالتلقائية، وفي الوقت نفسه يتصف بطابع استثنائي وأحيانا غريب الأطوار: رجل يعاني الألم، مثلا، تجده "يرفس بساقه مثل رضيع"، رجل آخر يتصور أن هناك من سيطلق عليه الرصاص فإذا به يقعى على الأرض مثل جرو يؤنبه صاحبه. كان دوجلاس واحدا من قلة من الجنود الذين ساهموا في تحرير (مجلة) "برسونال لندسكيب". التقى مع لورانس دوريل وتيرينس تيلر مرتين وترك في نفس كل

منهما انطباعا قويا، ثم أودع معهما معظم القصائد التي كتبها في الصحراء، وعاد كيث دوجلاس إلى انجلترا في ديسمبر، وعلى مدى الأشهر القليلة التالية ظل يعاود النظر في قصائده وكذلك في نص كتاب "من العلمين إلى زمزم" وكم كان متأكدا أنه لن يعيش حتى نهاية الحرب، وقد قتل فعلا في نورماندي غداة يوم الغزو الأكبر للحلفاء.

"حزام الأحبة"

ومضيفة مصرية غضبى
من نصرنا في ساحة العلمين
بلسان باريس المنمق في دلال تنثني:
قد صار يكفي ما تحقق منكم في الخافقين.

تشارلس هيبورن جونستون، في مدح الذوق السليم

لقيت أخبار انسحاب روميل من العلمين استقبالا قوامه البهجة والارتياح والسعادة الغامرة. ولكن الاحتفالات جاءت بعيدة عن الرسميات، فرغم كل شيء لم يكن القتال قد وضع أوزاره بعد، ولا كان بوسع قيادة الجيش البريطاني في مصر أن تسترخي في جهودها إلا بعد التنفيذ الكامل والآمن لعملية الشعلة، ذلك أن هذه لم تكن أول عملية مشتركة للحلفاء يعجزون عن تصعيدها إلى نهايتها، ولا كان لدى القادة خبرة لإنزال هذه الأعداد الهائلة من القوات على شواطئ معادية.

على أن أول إحساس حقيقي بالنصر جاء يوم ١٢ نوفمبر عندما استعاد الجيش الثامن طبرق وأعلن أمر العمليات الصادر عن مونتجمري: "لقد استكملنا سحق الجيوش الألمانية والإيطالية". وبعد ثلاثة أيام، في يوم الأحد الخامس عشر، بدأت الأجراس تدق في كل أنحاء انجلترا وكذلك في الكاتدرائية الإنجيلية بالقاهرة.

أفاد سير مايلز لامبسون بأن النصر كان له وقع جميل على الملك، فلم يكتف بأن التزم جانب اللطف واللياقة الشديدة، ولكن الذي حدث هو إصدار الأوامر إلى الإيطاليين وعبد الوهاب طلعت (العميل الأكبر لعلي ماهر) بمغادرة السراي. على أن سير مايلز لم تكن له ثقة كاملة في دوافعه لأن العلمين لم تغير بغض فاروق نحو الوفد "بصرف النظر عن الخوف الصحي من سخط

المنتصر، فإن الملك فاروق ... ربما يكون واقعا تحت تأثير الفكرة القائلة بأن طرد الوفد في آخر المطاف يمكن أن يصبح أسهل إذا ما قدم إلينا بديلا صديقا "

هذا الموقف من جانب الملك انعكس بدوره في مشاعر النخبة من المصريين ذوي الأصل التركي الذين بدأوا يبادلون البريطانيين مشاعر شديدة الحرارة، وقبل شهرين من ذلك التاريخ كانت أميراتهم الأنيقات يأبين مشاركة أي ضابط بريطاني في حلبة الرقص، أما الآن فها هن يقبلن عن طيب خاطر.

من الأوصاف الدقيقة للغاية للحياة في انجلترا بعد العلمين، وصف يأتي من جانب دبلوماسي شاب هو تشارلس جونستون، الذي كان قد جاء من طوكيو حيث كان وبقية الدبلوماسيين البريطانيين قد وضعوا رهن الاعتقال في مجمع السفارة طيلة الأشهر الثمانية الفائتة. لكن ها هو الآن معيّن في هيئة مساعدي سير مايلز حيث كان صديقه بيتر سترلينج يعمل منذ عام ١٩٤٠، وها هما يتناولان العشاء ليلة وصوله في ١٨ سبتمبر.

كان بيتر سترلينج أكبر سنوات من أخيه الأشهر ديفيد، لكنه كان محبوبا من الجميع، ظريف المعشر بصوته البطيء الفخم، فضلا عن درايته الواسعة بالكباريهات أو بحفلات حديقة السفارة. كانت اهتماماته الرئيسية هي الجياد والمقامرة، ولأن معظم أصدقائه كانوا الآن يعملون في الصحراء أو في مقر قيادة الجيش، فإن ساعات الفراغ لديهم كانوا يقضونها بنفس الطريقة التي كان يمضون بها أوقاتهم الرخية في انجلترا باستثناء أنهم الآن بدأوا يتكلمون عن هليوبوليس أو الجزيرة بدلا من حديث الماضي عن صن داون ونيو ماركت في انجلترا. وعلى سبيل التعويض فإن البطء الذي كان يشوب العمل في الشرق الأوسط كان مفيدا إلى حد كبير، سترلينج واثنان آخران كانا مشاركين في حساب مصرفي في حلب، وكان الشيك المسحوب على ذلك الحساب يستغرق دائما أسبوعين على الأقل لصرفه، ومن ثم يعطي للمدينين بضعة أيام سماح لجمع النقود المطلوبة التي كان يمكن إرسالها مباشرة بالبرق إلى سورية.

عاش سترلينج في شقة كبيرة وعتيقة تطل على السفارة في ١٣ شارع ابراهيم باشا نجيب، تقع مباشرة تحت الشقة التي ظل يسكنها آدم واطسون وإلى فترة متأخرة أوليفياماننج. وكان يقوم على شؤون الشقة محمد عبده السفرجي، الذي كانوا يعرفونه باسم "مو"، وهو رجل قوي البنية ظريف الشخصية، وكان قد جرد اللغة الانجليزية ليستخدم أساسياتها الأولى فقط، ومن هنا جاء حديثه مباشرا وحيويا ولكن يفتقر إلى أي بناء لغوي. وكانت هناك أكثر من دراما منزلية مستمرة تدور فصولها بين مو السفرجي ومحمود الطباخ، الذي كان بالفعل طاهيا ممتازا، إذ تدرب في بيت رئيس الوزراء السابق علي ماهر باشا، وكان له ذوق رفيع في الطعام، ولكن صاحبنا أصابته آفة تعاطي الحشيش وهو أمر كان مو السفرجي يعارضه بقوة.

كانت الآرائك في غرفة الاستقبال يعلوها لون رمادي كالح وتتخللها ثقوب من حرق السجائر وتعلوها بقع على شكل خط أسود قاتم عند رأسها. وكانت تتناثر في أنحاء المكان صور الملك جورج والملكة إليزابيث مقتطعة من مجلة، وقد ألصقت على عجل بصمغ إلى الحائط قبل أن يأتي صاحب البيت إلى الغذاء - حتى تختفي آثار التدريب بالمسدس داخل الجدران. وفوق مائدة في الصالة كومة من الرسائل الموجهة إلى الضباط ومنهم من يكون قد لقي حتفه، أو وقع في الأسر أو من قد يعود في أي لحظة.

في الممر المفضي إلى غرف النوم والحمام كان ثمة تليفون من فوقه تبدو الجدران رمادية أيضا وقد علتها البقع وأرقام تليفونات محفورة. أما الحمام فكان مكتظا بأكوام من حقائب البدلات العسكرية والذخائر الألمانية المستولى عليها بالإضافة إلى زوج من أنياب الفيل، بينما تناثرت في زوايا غرف النوم تشكيلات مختلطة من الوسائد وحقائب الميدان ومخادع المعسكرات.

كان سترلينج يحب جونستون وقد قدم له غرفة رغم أنه أوضح أن صديقه سيوضع*"تحت الاختبار" إذ خشي من الضيف أن يكون من شدة

السذاجة والشغف بالكتب والقراءة لدرجة ألا تلائمه الحياة في الشقة، وعلى سبيل الاختبار طلب من أحد عتاة المقامرين في القاهرة أن يأتي ليقيم معهم أيضا.

كان جوليان "ليزي" ليزارد رجلا بهي الطلعة حقا في شبابه، وكان معروفا بأنه لاعب تنس أكثر من كونه محاميا، وهي مهنة لم يكن قد مارسها لفترة طويلة. تزوج من امرأة واسعة الثراء اسمها هيلدا واردل، وعندما قامر بجانب كبير من ثروتها وضعته على جناح المسافر الميمون إلى كينيا حيث كان من الطبيعي أن يسعد إزاء مجموعات الأصدقاء الذين كانوا يعيشون في أراضي كينيا العالية (الخاصة بالمستوطنين) الذين ما لبثت إحباطاتهم الغريبة أن أصبحت موضع اهتمام الرأي العام بعد مقتل لورد إيرول في يناير ١٩٤١، وكان ليزي شاهدا في محاكمة سير ديلفيس بروتون، ثم جاء بعدها إلى القاهرة.

كم كان مغرما بالقول إن أباه كان يحتفظ بمجموعة من أوراق اللعب في ليخيث تشاير، وكان جانب من سحره الشديد هو أنه كان واقعيا بشدة في نظرته إلى نفسه "الكسول هو ذلك الذي يستخدم المتبطلين، ولو تسنى لي أن أعثر على واحد من هؤلاء الكسالى لانصلح حالي مدى الحياة"، مع ذلك لم يكن ليزي مجرد بلاي بوي، إن إكسان فيلدنج يكتب قائلا "كان قد نقل من وحدة إلى أخرى ربما بأكثر من أي فرد آخر في مجمل القوات البريطانية المسلحة، ومع ذلك فبرغم أنه كان لا يزال برتبة كابتن في سن الأربعين إلا أنه اكتسب خبرات متنوعة بالأفرع المختلفة أكثر من معظم الكولونيلات. من الواضح أنه لم يكن مناسبا كضابط نظامي، كان قد تطوع لعدد من المهام شبه العسكرية في كل "قوة خاصة" تقريبا تعمل وقتها في الشرق الأوسط، وكل واحد من قادته الضباط الذين كانوا يتصورونه ببساطة مجرد شخص استعراضي سرعان ما اكتشف ما يتمتع به الرجل من ذكاء ثاقب، وكل ما هنالك أن النكات والطرائف

الرقيقة التي تعرف عنه إنما هي وسيلة تخفي سجية يبدو أنه يستحي من الإعلان عنها حياء إيجابيا - تلك السجية هي "الشجاعة".

التحق بالقوات الخاصة وأكمل تدريب الهبوط بالباراشوت في مايو ١٩٤٣، وفي السنة التالية عندما أسقطوه مع فيلدنج في جنوب فرنسا أصيب بكسرين في الترقوة عند الهبوط، وجاءت الأخبار إلى القاهرة بأن ليزي حقق قصب السبق عندما حمل لقب الرجل الذي كسر ظهره في مونت كارلو. وكان بيتر سترلينج وليزي يحاولان دائما اقتراض النقود من بعضهما البعض أو من جوني فراسانتيس وهو دبلوماسي يوناني شاب وقد أعلن أصدقاؤه القاهريون أن شغف جوني بالانجليز جعله النمط النموذجي للجنتلمان الانجليزي.

من رسائل جونستون التي بعث بها إلى الوطن ما يصف ليزارد بأنه دخل في شجار بمكتب مدير أوبرج الأهرام حول الدفع بالأجل الذي ينبغي أن يناله قبل ليلة قمار في حفلة راقصة للأقباط "طيلة ذلك الوقت كانت الفرقة الموسيقية تعزف فالس الذهب والفضة، وكانت حسناوات الأقباط يخطرن هنا وهناك خارج باب المكتب الصغير الذي كانت تدور فيه الدراما. اقتربت من المكان ومعي بيتر بوفيري وسميحة وهبة، وخمنًا حجم المشكلة من واقع ما كنا نراه بالداخل من وجوه عابسة وجبين مقطب، فالاقتراض بالأجل شيء لا يمكن الهزر بشأنه، وعندما خرج ليزي بوجه عابس وعيون منذرة بالشرر جاهدت في محو البسمة من على وجهي وشعرت بمدى خفتي وبعدي عن معايشة الواقع الحقيقي".

كان دفق مستمر من الضباط الآتين من الجبهة بالإضافة إلى ظهور ديفيد سترلينج بين فينة وأخرى بعد أن أصبح يدعى بوصف "الميجور الشبح" هو الذي يعطي للشقة تلك الإثارة التي تنبع من أنها أصبحت محور الأشياء. حفلاتها كانت شهيرة تعطي لكل ضيف أحساسا مريحا بأنه في غاية اللياقة إذ يحيطه شلة من أشد سكان المدينة رقة وأكثرهم أهمية، الطعام كان لذيذا والشراب بغير حدود، وبرغم اسطوانات الرقص التي عف عليها الزمن، ورثاثة

الأثاث، كانت الشقة تعد بمثابة أحد أطرف الأماكن التي يمكن رؤيتها في القاهرة.

مع ذلك لم تكن تلك بالصحبة التي يمكن أن تروق مباشرة لدبلوماسي شاب من ويكهام كان قد درس أولا في أوكسفورد وراودته طموحات بأن يصبح شاعرا ولم يكن يكترث بالقمار، ولكنه - تشارلس جونستون لم ير أي مخلوق على شاكلة ليزي ليزارد أو مجتمع الكافيه الذي يرتدي الخاكي، ومن ثم سحرت هذه المخلوقات لبّه تماما.

أما المذكرات والرسائل التي كانت تصل إلى الوطن فكانت تخصص لوصف كوميديا السلوك في القاهرة: كيف كان شباب الضباط يصفون تعليمهم مثلا بأنهم خريجو "إيتون وبرقة" أو "هارو وسيدي رزق"، وكيف أن فتيات الشرق الأوسط كن على ما يبدو يفضلن نوعيات بعينها، فمنهن من تفضل كولونيلات الحرس الملكي البريطاني، والأخرى يروق لها بريجاديرات قيادة الجيش، ناهيك عن تفضيلات مستوى الكتائب من نوعية آني جرين جاكيت أو ميلي كولد ستريم. لكن الرواية التي كان تشارلس جونستون ينوي كتابتها لم تر النور قط، إلا أنه استطاع أن يستقطر من ذكرياته في القاهرة ومن حصيلة الحياة في زمن الحرب ليكتب مجلد موجزا يحمل عنوان "مو ومخلوقات أخرى".

كان عمل جونستون في مستشارية السفارة يجعله مشغولا باستمرار، ولكنه لم يكن من الصعوبة لكي يتداخل مع وجبات الغذاء الطويلة التي كان يتناولها ويتلوها نومة قيلولة في الشقة، فضلا عن الحفلات الأخرى التي كانت تمتد حتى ساعات الصباح الأولى. وكان يقول "إن صداقات القاهرة تتعيش على الأبهة ولكنها لا تنتقل من إنسان إلى آخر. أنت مثلا تعيش وسط "حزام الأحبة": تصل إلى هناك قادما من ذلك التقشف المادي والعاطفي الذي تعيشه انجلترا، وقبل أن تعرف مكانك الذي تأوي إليه إذا بك وقد حفك مائتان من أقرب الأصدقاء الذين يتعشون معك تحت ضوء الشموع على موائد صغيرة

وسط حديقة". لكن بعد انصرام الأسابيع بدأ القلق يساور جونستون لأنه يكسب لنفسه حق التمتع على نحو ما كان الجنود يفعلون إذ يعودون إلى القاهرة بعد أشهر قضوها وسط الخطر وشظف العيش في الصحراء، وكان من دواعي الخجل أن يكون المرء شابا متعافيا ثم يجلس إلى مكتب، ومن ثم ظل يبذل محاولات دؤوبة لكي يطلق سراحه للعمل في الميدان، ولم يكن لدى وزارة الخارجية أي نية للسماح بذلك، ولكن قبيل الكريسماس بدا الأمر وكأنه على وشك النجاح، ومن ثم ذهب إلى حفلة الكريسماس عند السيدة ماري رياض فرحا خلي البال.

ماري رياض واسمها الأصلي كافاديا تزوجت عدة مرات، وكان آخر الزيجات هو ممدوح رياض باشا زوجها الحالي، الذي كان مديرا لواحد من أكبر مصانع تكرير السكر في مصر. حفلاتها الباذخة كانت تغشاها أفضل شخصيات القاهرة، وكانت يخالطها كذلك الفنانون والمؤلفون لأنها كانت تفضل صحبة هؤلاء على صحبة البورجوازيين. كانت تقرض الشعر وتضمر إعجابا كبيرا للشيوعية، بل كانت في فينة وفينة تشبك قبضتها تحية إلى ستالين وهي حركة كانت تبعث في أساورها الذهبية صليلا بطوليا.

في رسالة إلى والديه وصف تشارلس جونستون الحفلة التي أقيمت في دار رياض في شارع المنصور محمد بالزمالك وكانت:

" ...حافلة بالصور الإيطالية ورسومات الجياد ومن شبابيك قاعة الرقص كان بوسع المرء أن يطل على صالة هائلة مضاءة بالشموع تعلوها أبسطة حمراء وسوداء وتنبث في زواياها موائد منخفضة ووسائد تتجمع من حول حمام سباحة ونافورات تنفث ماءها. ها أنت تدرك فجأة أنك في حديقة الباشا التي سوروها في خيمة من أجل السهرة ووصلوا بينها وبين المنزل لتصبح قاعة طعام. كان الأمر أشبه بشيء يخرج من سطور ألف ليلة وليلة، أو في أي حال من صفحات رواية بقلم دزرائيلي، المكان مزدحم بأكمله بوجوه المجتمع الأنجليزي المصري الذي ازدهر

خلال الحرب، ضباط الحرس وسلاح الفرسان، أميرات مصريات من أصل تركي، باشوات من أثرياء الحرب، ثم أشتات من الدبلوماسيين الأجانب، الكل سعيد للغاية، والكل يعرف بعضه بعضا حق المعرفة، والانجليز والمصريون على أحسن وجه من التراضي، ها هم أهل البلد وقد رأوا أننا على وشك أن نكسب الحرب. وبعد أحداث دقيقة وحساسة سبقت هذا العام [وتلك طريقة مستترة لوصف حادث ٤ فبراير في عابدين] عادت العلاقات لتصبح أفضل بكثير وما برحت في تحسن. واحتوى المكان كذلك أوركسترا من الدرجة الأولى واثنتين من الراقصات الشرقيات، فضلا عن كميات من الويسكي بغير حدود، وهو المشروب الوحيد الذي بقي حتى الآن في القاهرة ....".

ويمضي جونستون بعد ذلك ليحصي شريكاته في الرقص: مدام لطفية يسري التي تزوجت مرة من حسنين باشا، مدام ملَك فوزي التي سبق لها الزواج من الوصي على عرش العراق، بيتي لامبسون ابنة أخ السفير، بيلاي ويصا وهي حسناء قبطية ذات وجه شاحب وشعر فاحم، سيبيا سكيزونوفيسكا التي كانت متزوجة من السكرتير الأول البولندي، ومادو فوني لوسينج وهي مانيكان باريسية كان متزوجة يوما من أمير فرنسي.

"أخشى أن تكون هذه السطور أقرب إلى عمود الثرثرة الاجتماعية، ولكن القاهرة هي على هذه الشاكلة والأفضل أن تعامل هذه السطور على أنها مجرد نكتة دون أن تؤثر عليكم ... وأرجو إبقاء هذه الأوصاف دون إذاعتها لأنني أتصور أن أهل الوطن سيشعرون بالفزع عندما يعرفون كيف أن القاهرة تعيش في بحبوحة وبغير تقشف "

تميز الشهران الأخيران من عام ١٩٤٢ بوصول الأمريكيين إلى القاهرة، صحيح كان هناك باستمرار عدد قليل من الجنرالات والمستشارين في مصر منذ بداية العمل بقانون الإعارة والتأجير، فضلا عن حفنة من طياري السلاح الجوي للولايات المتحدة ممن شاركوا في المعركة الجوية فوق العلمين، ولكن

جنودهم لم يصلوا إلى القاهرة بأي أعداد كبيرة إلا بعد عمليات الإنزال التي تمت في نوفمبر في شمال أفريقيا، وحتى هؤلاء الجنود كانوا قليلين في بداية عام ١٩٤٣ كان العدد لا يزيد على ألف من الجنود الأمريكيين بالقاهرة، بينما وصل عدد الجنود البريطانيين وجنود الدومينيون إلى ١٢٦ ألف، ومع ذلك فإن الأثر الناجم عن وجود الأمريكيين فاق بكل مقياس عددهم الحقيقي.

وكان السبب في ذلك إلى حد ما اقتصاديا. إن نقص سبل الإقامة كان مشكلة معروفةجيدا لضباط الأركان في القاهرة فيما بدأت الإيجارات بالارتفاع، ولكن ما أن اكتشف أصحاب العقارات في مصر أن الضباط الأمريكيين كانوا على استعداد لدفع أي شيء، وكانوا أيضا يقبلون عادة أول سعر يعرض عليهم دون اكتراث بالمساومة، حتى ارتفعت الأسعار ثلاث مرات بين عشية وضحاها. وفوق ذلك كله كان الأمريكيون يتصورون أن الريطانيين يدفعون لموظفيهم مرتبات مخزية من حيث تدنيها، ولذلك فخدم المنازل الذين عملوا لدى الأمريكيين لم يكد يصدقون حسن حظهم، بينما كان الموظف الإداري المحلي يتلقى ما يصل إلى ٥٠ في المائة زيادة على ما يمكن أن يحصل عليه في مكتب بريطاني.

وفضلا عن الضيق الذي تسبب عن رؤية أفضل العاملين لدى البريطانيين وقد أغرتهم بعيدا الدولارات الأمريكية، كان ثمة عواقب خطيرة ينبغي بحثها، وهكذا عمد البريطانيون إلى تذكير حلفائهم الأثرياء بأن نفقات القوات المتحالفة كانت تمثل أحد العوامل الرئيسية التي تساهم في التضخم، وأنه بالنسبة للمصري فأي فرد يقبل السعر الأول المعروض يوصف بالحماقة، ولم يطل الأمر بالأمريكيين إلا وقد وافقوا على تشكيل جبهة متحدة ضد ارتفاع الأسعار ومع ضرورة الالتزام بالجبهة، ولكن في غياب أي تفاهم متبادل ظل التعاون أمرا غير ميسور.

وكان من أسبق الأولويات العثور على موقع مناسب لإقامة معسكر أمريكي، واستغرق الأمر وقتا طويلا حيث شعر الأمريكيون أن البريطانيين

كانوا يجمعون بين قصور الكفاءة وإثارة العراقيل. ومن جانبهم تصور البريطانيون أن من الحماقة أن تأوي القوات الأمريكية في كبائن بدلا من خيام، وأن يكون مصروف المياه لكل فرد يوميا هو ٤٠ جالون بينما لم يحصل أي جندي بريطاني في أي وقت على أكثر من ٢٠ .وفوق هذا كله فإن أصرار الأمريكيين على شبكة صرف محمولة بالمياه جعلهم يرفضون موقع الاستاد الذي كان مناسبا للغاية، وترامت شكاوى أكثر عندما شحنت مواد البناء اللازمة للمعسكر من الولايات المتحدة فسببت اكتظاظا في أرصفة الموانى المنهكة أصلا بالعمل.

وعلى أساس شخصي أكثر فإن التحفظ الطبيعي في الشخصية البريطانية لم يتفهم تماما سهولة التصرفات والبعد عن الرسميات لدى الأمريكيين، ومن هنا ساد شعور بأنهم على غير استعداد للتعلم من التجربة البريطانية، ليصف أحد ضباط المخابرات العمل مع الحلفاء من الجانب الآخر من الأطلنطي (الأمريكيين) بأنه أشبه بممارسة الحب مع فيل: "هو ليس بالأمر الشديد الصعوبة ولكن أنت معرض لأن يطأك شريكك تحت قدمه، ثم أنت لن ترى أي نتائج لأمد طويل."!

بين صفوف الرجال ساد قدر كبير من السخط بسبب المستويات المرتفعة للغاية من أجور القوات الأمريكية، وفي ديسمبر سنة ١٩٤٢ كان الجندي البريطاني العادي يتقاضى ٣،٦ جنيه أسبوعيا ويتقاضى جندي نيوزيلندا ٣ جنيهات أسبوعيا بينما كان يتقاضى الجندي الأمريكي ما يعادل ١٠ جنيهات كاملة تشمل ٢٠ في المائة علاوة الخدمة في الخارج. إن جنود الولايات المتحدة لم يصلوا إلى مصر ومعهم الأموال فقط، ولكن كان بصحبتهم أيضا سجائر فرجينيا وباكوات اللبان وأقمشة النايلون وأحدث اسطوانات الرقص، ومن خلال المستودعات الأمريكية كان يمكن أن يحصل على كماليات مثل الحقائب الفاخرة والشامبو. وفي غمار المنافسة على الفتيات كان يتمتع بالتالي بمزايا لم يكن ليحلم الجندي البريطاني أن يباريه فيها لا هو ولا رؤساؤه من

الضباط! الجنرال بارني جيليس من القوة الأمريكية الجوية الرابعة سرعان ما ربطته علاقة مع تحية كاريوكا، أشهر راقصة في القاهرة (التي يعرفها عشاقها بأنها الوسط المخلوع). وكان لديه كذلك كميات من الويسكي في شقته بالجزيرة حتى يغمس فيها قطعا من الخبز ثم يقذف بها إلى القطط التي كانت تتقافز إلى أعلى لاصطياد الطعم اللذيذ، وعندما تصبح القطط في حال سكر فإنها كانت تسلي الجنرال بأن تتطوح هنا وهناك وتقع من فوق الأشجار. بالنسبة للبريطانيين كانت البيرة ولو ساخنة أمرا طيبا، لكن الأمريكيين أصروا على أن يتناولوا بيرتهم مثلجة، وتلك كانت تسهيلات تحتويها معسكراتهم. وكم كان البريطانيون يزدرون الطريقة التي تبدو فيها القوات الأمريكية وهي توزع النياشين والميداليات كمن يوزع الشيكولاتة، لدرجة قيل معها إن سبيلك الوحيد إلى الحصول على وسام القلب القرمزي (الأمريكي) هو أن تحضر عرضا لفيلم "نصر الصحراء" الذي يصور، مجرد تصوير، معركة العلمين!

من ناحيتهم كان للأمريكيين انتقاداتهم الحادة أيضا، في رأيهم كان البريطانيون مدّعين وغير ودودين ولا مهتمين بالتعلم في مجال التكنولوجيا الجديدة، بل كل اهتمامهم كان منصبا على الترقيات والميزات. ثم أن الثغرة الاجتماعية الفاصلة بين الضباط والجنود في جيش الولايات المتحدة كانت أضيق بكثير عن نظيرتها بين صفوف البريطانيين، وكان الجنود العاديون الأنفار لا يكادون يصدقون أن هناك فنادق أو مطاعم بعيدة عن متناول الرتب الأخرى، وأدى هذا إلى سخط بين صفوف الأمريكيين يكاد يتساوى مع سخط البريطانيين حول الرواتب. من ناحية أخرى كان الأمريكيون يعتزون بما قر عليهم عزمهم الفعال بأن يسحقوا هتلر تماما، وهذا العزم كانوا ما يفتأون يستعرضونه أمام الآخرين فلا يلقى من جانب البريطانيين سوى نظرات الاستغراب وهم الذين بدا موقفهم إزاء الحرب حذرا ومتشائما بصورة تدعو للنذير. كذلك كان الأمريكيون يستغربون الطريقة التي كان البريطانيون يعاملون بها أسرى الحرب الألمان بكل احترام وودود، ولا يفهمون هذه النظرة

من عبادة البطولة إزاء روميل التي عززتها حملة الصحراء. من جانب آخر كان البريطانيون يعاملون الإيطاليين بمزيج من الشغف والازدراء مما أوصل الأمريكيين إلى حافة الجنون، وهذه المواقف أحيانا استفزت اشتباكات بين حراس المعسكرات من انجليز وأمريكيين مما كان مدعاة للترفيه عن سجنائهم.

كل هذه الانتقادات الأمريكية كانت تنطلق من توجس عميق من جانب الأمريكيين إزاء الامبريالية البريطانية. هذه حرب من المفترض أن تكون من أجل الحرية والديمقراطية، ولكن الحرب بدت من القاهرة وكأنها من أجل إنقاذ الامبراطورية البريطانية لحساب البريطانيين ومصلحتهم، وكان هذا الشك قد أكدته محادثات مع العناصر الآتية من جنوب أفريقيا ونيوزيلندا الذين قالوا إن بلاد الدومينيون (الواقعة ضمن النفوذ البريطاني) هي التي حملت على عاتقها نير القتال. وفي محاولة لتحسين الموقف تقرر استخدام مذيعين ومعلنين بريطانيين وأمريكيين في الراديو. بمعنى أن قصص التعاون الأنجلو أمريكية سوف تنال أقصى قدر من التغطية والإعلان، كما ستؤكد الأفلام الأنجلو أمريكية صورة الرفيق والصديق الحميم. لكن الذي أقلق وزير الدولة (البريطاني بالذات) كان هذه الطروحات حول مناهضة الامبريالية لأن هذا بالضبط ما كانت تقوله دعايات العدو على مدار السنوات الثلاث السابقة!

وبعد ثلاث عشرة سنة عاد هذا الرفض الأمريكي (للامبريالية البريطانية) ليتجلى بصورة أعمق وأوضح عندما تَعيَن على أيزنهاور الذي كان قد شهد الاستعمار البريطاني والفرنسي في شمال أفريقيا وقت عملية "الشعلة"، أن يستجيب للأحداث سنة ١٩٥٦ عندما حاول البريطانيون والفرنسيون سحق جمال عبد الناصر واستعادة قناة السويس (بعد تأميم ناصر لها) فكان رد فعل أيزنهاور مدمرا وجاء تصميمه على استخدام الدولار ضد الجنيه الاسترليني في بورصات النقد الدولية آية على تلك المحاولة الكبرى والأخيرة التي كان من شأنها أن فرضت على القوة الاستعمارية نهاية مباغتة ومهينة في آن واحد.

ربيـــع وصيــف ١٩٤٣

فضائح ومشاجرات

سنة ١٩٤٣ كانت السنة التي بدأ فيها كل من الملك فاروق والنحاس باشا في التطلع إلى مستقبل مصر لمرحلة ما بعد الحرب. كان كل منهما يأمل في أن يسيطر على ما يستجد من تطورات في البلاد، ولم يكن من عجب أن ظلت العلاقات بينهما تفتقر إلى التحسن. في أبريل استقر عزم الملك على ألا يحضر أي احتفال عام يتواجد فيه وزراؤه، في حين تميز احتفال حزب النحاس باشا بعيد الجلوس (الملكي) بغياب ممثلي السراي، ومع ذلك جاء عام ١٩٤٣ ليتميز عن سواه من الأعوام بفضائح ومشاجرات أكثر من تميزه بأزمات سياسية حقيقية.

بدأت أيام العام على ما يرام بالنسبة إلى سير مايلز لامبسون الذي صدر سجل التشريفات الانجليزية للسنة الجديدة وقد حمل اسمه بوصفه البارون كيلرن الأول (اللورد) وكان هذا تكريما نادرا بالنسبة لسفير يرفع إلى رتبة اللوردية وهو لا يزال في منصبه ومن ثم أقام النحاس باشا مأدبة عامرة للاحتفال بالمناسبة في قصر الزعفران. وهذا التكريم الكبير من جانب ملك بريطانيا وحكومته لم يغب عن بال الملك فاروق في حين أن باله كان مشغولا من جانب آخر في العلاقات الانجليزية المصرية ألا وهو أن الملكة فريدة كانت تزور استديو التصوير الخاص برسام بريطاني اسمه سيمون الويز.

كان الويز رجلا وسيما في أوائل الأربعينات من عمره، وجاء إلى مصر في نوفمبر من عام ١٩٤١ في فرقة الهوسار العاشرة. وألحقوه من الناحية النظرية بقسم العلاقات العامة في مقر قيادة الجيش البريطاني في مصر، لكن مهنته الرئيسية كانت رسم الوجهاء في مجتمع القاهرة. في صيف عام ١٩٤٢ ضمت قائمة من جلسوا لكي يرسمهم السفير البريطاني ذاته والحسناء كونسويلو رولو. لكن سيسيل بيتون لم يكن مرتاحا إلى هذا الأمر بل اعتبر

الرسوم التصويرية ضعيفة وتقليدية وإن كان قد اعترف إن من صور كونسويلو المرسومة ما جاء في غاية الجمال، ومنها أيضا ما كان متقنا لدرجة تكفي فقط أن يعلقوه في غرفة استقبال صغيرة. أما الرسام فقد وصفه بيتون بأنه "شخص لا يحتمل وشديد التصنع كثير الإملال ومطلق الأنانية". من ناحيته كان الويز يتصور نفسه فاتنا للنساء، وقال لصديق مصري أنه لا يمكن أن يرسم صورة جيدة لأي امرأة إلا إذا نام وشاركته الفراش. كذلك كان طموحا ولم يشأ أن يغادر مصر قبل أن يرسم صورا لكل من الملك والملكة.

هذا الاقتراح طرحته على صاحبي الجلالة، ناهد سري زوجة رئيس الوزراء السابق وخالة الملكة فريدة. ووافق الملك على التكليف برسم صورتين يتقاضى سيمون الويز عن كل منهما ١٠٠٠ جنيه مصري يدفع نصفها مقدما، ثم تقرر أن يرسم الملكة فريدة أولا وقد قام السفير ومعه أصدقاء الويز في السفارة بإبلاغ الرسام بأهمية الأمر وذلك في ضوء الحساسيات الإسلامية حتى يحملوه على التصرف بأقصى قدر من اللياقة في حضور الملكة.

أول جلسات تمت في قصر عابدين حيث ثرثرة الوصيفات والمقاطعات التي تنتهي وسط بلاط شرق أوسطي مما شتت قدرة الفنان على التركيز فقال إن من المستحيل عليه أن يعمل وسط هذه الظروف، وإذا كان له أن يعامل الصورة بما تستحقه، فإن على الملكة أن تأتي إلى مرسمه الخاص، وإذا كانت مثل هذه الدعوة تقع ببراءة تامة على أسماع الأوروبيين إلا أن الوصيفات صدمن إزاء هذا الاقتراح الذي قدم إلى ملكة مصر، في حين أصر سيمون الويز على أن ليس بوسعه العمل في عابدين، وبعد شيء من الإقناع وافقت فريدة على الذهاب إلى مرسمه.

الملكة فريدة كانت في العشرين فقط من عمرها، وكانت قد أنجبت بنتين هما فريال وفوزية دون أن تنجب وريثا لعرش أسرة محمد علي. وفيما كان يمكنها تجاهل غراميات زوجها مع نسوة أخريات كانت تعتبرهن مجرد بغاث لا

أكثر، إلا أنها شعرت بإهانة عميقة إزاء العلاقة التي ربطته بالأميرة "فاطمة طوسون" وهي إحدى سيدات العائلة المالكة. ومنذ ذلك الحين لم تكد تبادل فاروق طرفا من حديث وربما لهذا لم تطلب منه الإذن لكي يكتمل رسم صورتها في مرسم الويز. بيد أن الملكة بإهمالها هذا الأمر وضعت نفسها في وضع خطر لأن صرامة الأخلاقيات الإسلامية كانت تفرض عليها أن تبقي جلساتها في منزل الويز سرا، فإذا ما اكتشف أحد الأمر فهناك يتنظرها أسوأ التفسيرات لزياراتها تلك.

رافقتها وصيفة اسمها "عقيلة" ومن ثم ذهبت الملكة فريدة مرات عدة إلى مرسم سيمون الويز، ولكن لم يكن مثل هذا الأمر بعيدا عن الأعين فقد كان للسراي دائرة استخبارات قوية سبق إلى إنشائها الملك فؤاد، ومن ثم انتقلت إلى فاروق الذي كان حريصا على متابعة ما يجري شأن أبيه تماما، حتى لقد قيل إن ما يكاد يكون كل سفرجي نوبي أو سوداني بالقاهرة يرتبط بشبكة يسيطر عليها محمد حسن الشماشرجي النوبي الخاص بالملك. وثمة مصدر آخر للمعلومات الداخلية كان مفترضا أن تتولاه الخازندارة، وهي السيدة المسؤولة عن المتعلقات الملكية من ملابس وغيرها، وكانت تتلقى المعلومات من شبكة تضم خادمات السيدات في كل أنحاء المدينة، وسرعان ما عرف فاروق عن زيارات زوجته للاستوديو، وفي عصر أحد الأيام قرر أن يذهب بنفسه إلى هناك.

كان سيمون الويز يشارك في شقته اثنين من ضباط الطيران: سوني هويتني ومعه، حتى يكتمل الارتباك والخلط أيضا، قائد الجناح هويتني ستريت (ضابط طيران يترأس وحدة نقل جديدة تحت قيادة شولتو دوجلاس). كان ستريت انجليزيا غنيا من أصل أمريكي وقد أسقطوا طائرته فوق فرنسا، ويمثل هروبه قصة غير عادية (الروائي نويل كووارد وصفه بأنه جذاب للغاية، ولكن حقيقة أن مثل هذا الرجل الواسع الثراء قرر أن يسهم في المجهود الحربي بأن يعيش فقط على مرتبه، بدت أقرب إلى الشح والتقتير منها للروح الوطنية في

القاهرة). الضابطان كانا يعرفان أن الملكة تأتي سرا لكي يتم رسم صورتها، وكم بلغ منهما الذعر مبلغه وهما في المنزل حين وصول الملك الذي بقي وقتا وكأنما يستمتع بالقلق البادي على محيا ضيوفه، بينما عمدت الملكة ووصيفتها إلى مخرج سريع للهروب من الباب الخلفي.

في السنوات التي تلت قيل إن فريدة والويز كان يلتقيان مستترين بالظلام في السينما، بل إن هناك من ضبطهما متلبسين في عابدين، ولكن قلة من الناس هي التي كانت تعرف بالقصة في ذلك الوقت. أما الملك فقد أوعز إلى من يقول إن من الأفضل أن يغادر الويز القاهرة بأسرع ما يمكن، واللورد كيلرن كان أكثر من حريص على تفادي فضيحة كبرى، وفي يوم ١٦ يناير أوفد سيمون الويز إلى جنوب أفريقيا، ويلاحظ كيلرن في مذكراته أنه في ضوء الشائعات التي ترددت بأن فاروق مقدم على تطليق زوجته، كان من الأنسب تماما أن يزاح الويز من الطريق (اعترف بعد ذلك أنه كان "قلقا إلى حد ما حول سلامة سيمون شخصيا" في ذلك الوقت). ثم لاحظ السفير كذلك أن الملك كان يتصرف بأطوار غريبة منذ أن أطلق لحيته.

الكثيرون صدقوا أن لحيته، وهي رمز من رموز التقوى في مصر*، كانت آية على طموحات فاروق إلى الخلافة. ولقد كان الخليفة الأول للنبي محمد (عليه الصلاة والسلام) هو أبا بكر، أما آخر شخص يحمل اللقب في مصر فقد مات عام ١١٧١ [هو الخليفة الفاطمي العاضد]. ومع ذلك فإن فكرة زعيم يوحد صفوف العالم الإسلامي كانت لها أهمية متجددة في وقت بدت فيه القومية العربية وكأنها أكثر التطورات المنطقية بالنسبة لأقطار الشرق الأوسط.

في سلسلة من المقالات التي كتبها فاروق لمجلة "امباير نيوز" بعد تنازله عن العرش عام ١٩٥٢، أنكر الملك السابق أنه كانت تراوده أي طموحات إزاء

---

* هكذا! "المترجم"

لقب الخليفة. وذكر لقرائه أنه أطلق لحيته لأنها كانت أبلغ المقدسات التي يحلف بها المسلم، وقد رباها ليحلف عليها أن يطلق فريدة•(!).

ويبدو أن الويز كان متناسيا الموقف المتفجر، ولذلك تصور عن صدق أنه سيذهب إلى جنوب أفريقيا لمجرد أن يرسم صورة لمسز سمطس، وعندما وجد أن السفارة تمنعه من العودة إلى مصر، كتب الويز رسالة إلى الملكة فريدة تحوي أنتقادا شديد المرارة للسفير البريطاني، ولم يقدر للرسالة أن تصلها، بل اعترضها الرقيب ورفعها إلى كيلرن. ومن جنوب أفريقيا أرسلوه إلى الهند والسبب - كما فسر كيلرن سابقا للمارشال ويفيل - أن كان في الهند بعيدا عن إثارة متاعب فيما لو أرسلوه إلى لندن حيث كان بوسعه مواصلة التراسل الأحمق عن طريق السفير المصري. هذا المنعطف الأخير في القصة بات مطروحا بعد شهر من ذلك التاريخ عندما أرسل الملك أحمد حسنين إلى السفارة ليطلب عودة الويز إلى مصر أسبوعين لإنهاء الصورتين اللتين دفع جلالته نصف ثمنهما، ولكن جاء ذلك مجرد لعبة استفزاز وإحراج للسفير أكثر من كونه اقتراحا جادا.

زحف الجيش الثامن إلى طرابلس يوم ٢٣ يناير، وهو حدث لقي احتفالات كبيرة في مصر، فها هو التهديد بالغزو وقد انقضى وزال بحق، وها هي أخبار انعقاد مؤتمر كبير في الدار البيضاء تأتي علامة على أن الحلفاء موشكون على دخول أوروبا. وها هو موسوليني يوصف - وكأنها نبوءة - في صحيفة مصرية بأنه "برميل فارغ معلق على شجرة ••"

• انظر الحاشية السابقة. "المترجم"

•• إشارة إلى المصير الذي لقيه موسوليني بعد ذلك حيث أعدموه معلقا على شجرة. "المترجم"

مر تشرشل بالقاهرة في طريق عودته من الدار البيضاء، وكان يسافر متنكرا تحت اسم الكومودور فرانكلاند، لكن هذا التنكر لم يخفف من أعباء السفارة، فقد كان فريقه يتألف من سير آلان بروك، القائد العام للقوات البريطانية، وراندولف نجل رئيس الوزراء، وطبيب رئيس الوزراء، واثنين من الخدمة السرية، وعنصرين من السكرتارية الخاصة، وعنصرين من الطباعة، والخادم الخاص. ومن القرارات التي صدرت خلال هذه الزيارة للقاهرة، القرار الذي يقضي برفض استمرار دعم الأميرال الفرنسي جود فروي ورجاله، الذين كانوا لا يزالون في ميناء الاسكندرية، وقد اشتكى جود فروي بمرارة من الأمر وظلت المفاوضات مستمرة خلال الربيع. وفي نهاية المطاف أقلعت السفن الفرنسية يوم ١٥ مايو في طريقها لكي تنضم إلى الجنرال جيرو في الجزائر. وفي ٢٧ يناير مثل تشرشل بحضرة الملك فاروق، وقال إن الملك جورج يدعوه لتناول الغذاء مرة في الأسبوع في لندن متسائلا عما إذا كان ملك مصر لا يتصور أن تلك عادة يجدر اتباعها مع رئيس وزرائه، وقطب فاروق جبينه قائلا، إن هذا كان يمكن أن يكون مناسبا للغاية لو كان رئيس وزرائه هو ونستون تشرشل، ولكن من أسف فرئيس وزرائه هو النحاس. ساعتها شعر كيلرن بما يشبه الصدمة لأن الملك كان يخاطب زائره البارز باسم (تشرشل) طيلة الوقت دون أي ألقاب، ولكن وضح أن الملك كان مستمتعا باللقاء، وبعد ذلك قدم إلى رئيس الوزراء البريطاني سيجارة طولها ست بوصات بدلا من سيجار.

في ذلك الوقت وصلت الأنباء أخيرا إلى القاهرة بأن ديفيد سترلينج قائد القوات الخاصة وقع في الأسر بينما كان يتولى ملاحقة خطوط إمداد العدو فيما وراء طرابلس، وكتب تشارلس جونستون يقول "إن هذه الأنباء كان مدعاة للارتياح في واقع الأمر لأن الرجل كان جديرا بأن يورد نفسه مورد التهلكة لو لم يقع في الأسر. كما أن أسر ديفيد قد يكون علامة على نهاية مرحلة بعينها من مراحل الحرب الناشبة هنا، وكم هي خسارة فظيعة أن لا نجده معنا وهو

يعيش في الشقة المعهودة وسط هالـة مـن الغمـوض فيمـا بيـن العمليات بينمـا تبسط الخرائط على مائدة الطعام في هزيع الليل الأخـير، ويـأتي ويذهـب ضبـاط الأركان والمظليون والخدم الجنود إلى الشقة، بينمـا ترابـط خارجهـا قافلـة مـن سيارات الجيب. أما ديفيد نفسه فهو كثـير التواضـع بـل والخجـل إزاء الشـهرة التي أحرزها، وما كان منه إلا أن يعتذر عن حضور الحفلات كي يجلس وحيـدا يحتسي البيرة ويقرأ كتابا بجوار المدفأ.... ".

بعد شهرين سمع بيتر سترلينـج أن أخاه ديفيد يعيش في أمان في معسـكر أسرى إيطالي وأبلغ جونستون الأنباء في رسالة بعث بها إلـى الوطـن قـائلا إن ديفيد مقامر رهيب، وقد احتفل بليلة وصوله بـأن كسـب ١٥٠ جنيـه اسـترليني على مائدة الروليت مع زملائه الأسرى ويقال إن كثيرا من الضباط الذين كـانوا يخططون للهرب من الأسر أصبحوا بلا موارد تجعلهم قادرين على تكاليف هـذا الـهرب.

كان شتاء ١٩٤٢-١٩٤٣ قاسيا بمعايير القاهرة، ارتفعت إصابات التيفود وهبت عواصف ممطرة عديدة في أنحاء العاصمة وكان الفقراء يتحملون وطـأة الـبرد القـارس والبلـل الشـديد بـأقصى قدر يسـتطيعون بـأن يعصبـوا رؤوسـهم بالكوفيات الصوفية ثم يرتعشون في ملابسـهم القطنيـة الخفيفـة، مـع ذلـك كـان ثمة فسحة للأمل: القوات البريطانية سوف تمضي ولا شك في حال سبيلها بعـد أن انتهـى القتـال فـي مصـر، وهـذا مـن شـأنه تخفيض الأسـعار، وهكـذا شـرع القاهريون يتطلعون قدما إلى الربيع.

وعندما جاء الدفء، جاء معه فصل الزهور القصـير، وأمـام الفيـلات فـي الزمالك وجاردن سيتي كان الجنايني‍ـة يسـهرون علـى الاعتنـاء بزهـور العـايق والورد البلدي والبسلة والقرنفل وزهور القطيفة. وفـي يـوم الاثنيـن الـذي يلـي عيد القيامة القبطي يحتفـل المصريـون مـن جميـع الأديـان بعيـد الربيـع - شـم النسيم - حيث يفترض فـي ذلـك اليـوم أن يكـون النسـيم عليـلا، فتذهـب مئـات العـائلات فـي نزهـات خلويـة مـن أجـل الاستمتاع حيـث تزدحـم كـل الحدائـق

والمنتزهات الخضراء بالناس يأكلون أطعمة تقليدية في هذا الموسم ما بين الفسيخ والبيض وبصل الربيع، ويحتسون شرابا من المشمش المجفف•. وإذا كان ربيع عام ١٩٤٣ حافلا بالأمنيات، فلم يكن كذلك، إلى حد ما، بالنسبة للنحاس باشا، فقيل إنه في شهر مارس يعاني من تضخم في البروستاتا، بينما كانت حكومته واقعة في ربقة فضيحة سياسية مريرة أحكم نسجها مكرم عبيد باشا. وعندما أصبح النحاس رئيسا للوزراء في السنة الماضية، قام بتعيين يده اليمنى مكرم عبيد باشا وزيرا للمالية، وكان مكرم عبيد سياسيا مقتدرا وكان قبطيا، إذ أن الوفد كان يصر دائما على التعاون مع الأقلية القبطية، وكل وزارة وفدية كانت تضم واحدا أو اثنين من الوزراء الأقباط. مع ذلك فإن هذه المكانة التي تمتع بها مكرم لم تكن تسعد زوجة النحاس السيدة زينب الوكيل. وكانت عقيلة النحاس سيدة شديدة المراس والطموح، وقد لاحظ كيلرن أن أسبوعها الخيري في الربيع السابق نجمت عنه الكثير من مشاعر الحقد المحلية لأنها عند محاولتها جمع الأموال للأعمال الخيرية كانت تعتمد على مواهبها في ممارسة الضغوط أكثر من الاعتماد على أريحية الآخرين. وفي صعود مكرم عبيد كانت ترى تهديدا لسلطة ومكانة زوجها بين صفوف حزب الوفد، وهكذا أوحت إلى النحاس بأن الكل يعرف أن مكرم هو الذي يدير شؤون الحزب، وأن النحاس ما هو إلا رمز فخري لا أكثر ولا أقل.

النحاس الذي طالما اعتمد كثيرا على مكرم في الماضي شرع في إغلاق أبوابه بوجهه، وما كان من مكرم إلا أن رد الصاع صاعين، اتهم رئيس الوزراء بأنه يطرد عددا من الموظفين بغير جريرة ثم يحل محلهم الوفديين

• الإشارة هنا إلى قمر الدين، ويتضح فيها الخلط بين شم النسيم وشهر رمضان. "المترجم"

ليتقاضوا مرتبات طائلة، وتحدى النحاس لكي يحول بينه وبين اعتماد بعض التعيينات داخل الحكومة، ولكن النحاس كان أقوى منه بكثير، فما كان من مكرم إلا أن اضطر للاستقالة من وزارة المالية في مايو سنة ١٩٤٢.

ثم جاءت النبرة الحادة لهجمات مكرم المتكررة على النحاس في البرلمان لكي تباعد بينه وبين الكثير من مؤيديه حتى لقد طرد من صفوف (حزب) الوفد بعد ذلك. على أن الحزب أثخن بجراح بالغة من جراء هذا الصراع، وإن كانت قبضة النحاس القوية على البلاد خلال تقدم الألمان في الصيف السابق، فضلا عن الحمية والنشاط اللذين عالج بهما عناصر الطابور الخامس قد جعلته يتمتع بسلطة واسعة.

لكن هذا لم يكن كافيا لتهدئة خواطر التبرم المتصاعد من جانب المعارضة ومن مكرم عبيد بشأن الفساد الذي دب في حزب الوفد، وكان من المعروف أن مكرم عبيد عاكف على تجميع "كتاب أسود" ترد فيه بالتفصيل جميع انحرافات الحكومة، وفي مارس، وعندما كان الكتاب متوقعا ظهوره بالضبط، أمر النحاس بمهاجمة عدد من المطابع في محاولة لمصادرة الكتاب بأكمله ولم يستطع العثور على الكتاب الصحيح، ولكن بنهاية الشهر نزلت إلى السوق آلاف من نسخ "الكتاب الأسود" لمكرم عبيد.

كانت وزارة الخارجية البريطانية حريصة على قراءته بطبيعة الحال، وإن كانت ترجمة السفارة له قد استغرقت فيما يبدو وقتا طويلا للغاية، وفي ١٧ أبريل تعين على كيلرن أن يفسر "أن المسألة تقتضي مهارة وصبرا بلا حدود من أجل استخلاص التهم الرئيسية الموجهة ضد الحكومة من بين ركام الشعارات والصياغات الإنشائية العربية."

اتخذ الكتاب شكل عريضة مرفوعة إلى الملك وانقسم إلى فصلين "استعراض عام" و "الحقائق"، وقد اتهم مكرم عبيد الحكومة بالمحسوبية وخاصة تجاه عائلة عقيلة النحاس وهم آل الوكيل، حيث كانت هي وشقيقها يضعان في جيوبهما أموال الحكومة ويبيعان المزايا والامتيازات، أما النحاس

فقد استخدم منصبه الكبير في عقد صفقات خاصة عديدة جنى منها أرباحا وكان يملأ سلك الخدمة المدنية والحكومة بمحاسيبه، وفضلا عن ذلك فقد جاء اعتقال علي ماهر والنبيل عباس حليم تصرفا لا يقدم عليه سوى ديكتاتور، فضلا عما تم من التنازل عن حقوق مصر في السيادة لصالح بريطانيا. ومن واقع القرائن المطروحة في "الكتاب الأسود "يتضح أن مكرم عبيد كان قد أجرى معظم بحثه قبل تخليه عن منصبه الوزاري، كما لقي تعاونا لا يستهان به من جانب السراي في إعداد الكتاب.

معظم أيام شهر مارس كان النحاس مريضا وعاد إلى البرلمان في أبريل، وبعد مناقشة حول المحاذير والإجراءات أعطوا مكرم عبيد ثلاثة أيام كاملة لكي يعرض قضيته أمام البرلمان، وكان من شأن ذلك أن يتيح له وقتا كافيا، ولكن عندما لم يسمحوا في اليوم الرابع لمكرم عبيد أن يواصل خطابه انسحب هو وعناصر المعارضة بأكملها. وخصص يومان لردود الحكومة، ولأن المعارضة كانت قد تخلت عن موقعها، فقد جاء التصويت بالثقة في الحكومة إجماعيا.

عمل النحاس على تفنيد كل شيء، ولكن دفوعه ضد الاتهامات الأقوى حجة جاءت أقل إقناعا إلى حد ما، ومع ذلك فقد شنت الصحافة الوفدية حملة من الهجوم على مكرم عبيد تصفه فيها بأنه "الكذاب الأشر" و "الدجال الأكبر" بل وحتى "الخفاش" وعملت لجان الوفد المحلية على نشر الشائعة التي تقول إن "الكتاب الأسود" كان فكرة بريطانية لإخافة النحاس وحمله على التماس المساعدة من بريطانيا، وعندما انتهت أعمال البرلمان بينما بدأ الأعضاء ينغمسون في مناقشات حامية حول سلوك رئيس الوزراء وعلاقاته.

جاءت ردود الفعل في مصر متباينة. الجاليات الأجنبية التي كانت دائما تبغض الوفد لأنها كانت تشعر بالخوف والتهديد إزاء سياساته الوطنية كانت أكثر تبرما بالأمر من المصري المتعلم العادي الذي لم يؤثر فيه تأثير خاصا صدور الكتاب الأسود فهو يتوقع دائما قدرا من الفساد في أي حكومة. وفيما يتجاوز نقطة معينة هي بالطبع حد الفساد الشائن، فلم يكن من المستبعد أن

يتربح شخص من مركزه السياسي. أما الطبقات الأمية التي تنزع إلى رفع زعمائها إلى مراقي البطولة فكانت ما تزال ترى في النحاس خليفة سعد زغلول، قبل أن تراه شرير "الكتاب الأسود" ومع ذلك فقد اهتز بالشدة إيمانها بالوفد، وتبعت هذه الفضيحة موجة من التشاؤم والإحباط السياسي.

رفع مكرم عبيد شخصيا نسخة من كتابه إلى الملك فاروق، الذي بات في يده الآن مبرر كامل لقطع الصلات بينه وبين حكومته، وبدأ الملك في مقاطعة الوفد في النشاط الاجتماعي وفي الحفلات الخيرية المتصلة به، ورد الوفد بالمثل. وكان من نتيجة ذلك أن لم يقدم أي من أنصار الملك أموالا لنادي العلمين بينما قطع الوفد كل الصلات بينه وبين النشاط في يوم المستشفيات، وعرف فاروق أن النحاس رتب مظاهرات للعمال الوفديين في الترسانة والورش الأميرية لكي ينضموا إلى مواكب الطلاب الذين جاءوا للهتاف للملك في عابدين في ذكرى عيد الجلوس، وأن العمال تلقوا التعليمات بهتاف يحيا الملك مع النحاس، وهنا أوعزت السراي إلى قسم الأمن العام بالداخلية بعدم السماح للعمال بدخول ميدان عابدين في ذلك اليوم، ورد النحاس بأنه في هذه الحالة فإن الطلاب لن يسمح لهم كذلك.

من خلف لعبة شد الحبل هذه في المستويات العليا كانت تكمن منافسة أعمق جذورا. لقد هزم المحور في العلمين، ومني بهزيمة ساحقة في ستالنجراد في شهر يناير. وبدا الحلفاء وكأنهم على وشك الانتصار في الحرب العالمية الثانية، كما أصبحت مصر بمنأى عن الخطر. وكان كل من فاروق والنحاس يهدف، لا إلى تزعم مصر المستقلة استقلالا كاملا فحسب، بل وتزعم العالم العربي بعد نهاية الحرب.

وواصلت الصحافة الوفدية نشر تقاريرها المتوهجة حول النحاس ولكن برغم أن كان بوسعهم أن يصفوه بأنه "زعيم الشرق والعروبة" عندما زار فلسطين في شهر يونيه، إلا أن رئيس الوزراء كان يعرف أن هناك من الساسة المصريين في صفوف المعارضة ممن تمتعوا بفهم أفضل لمشاكل وقضايا

العروبة أكثر منه، وفي مصر كان من الأصعب التغني بمآثر النحاس خاصة في ضوء الحقيقة القائلة بأن حكومته فشلت في السيطرة على الاقتصاد، وكان ذلك أمرا يفوق في أهميته حتى الظلال التي ألقاها على شخصيته "الكتاب الأسود."

كان الحلفاء ينفقون ٣ ملايين جنيه استرليني في مصر كل شهر، وبين عامي ١٩٤٠ و ١٩٤٣ ارتفعت ودائع المصارف من ٤٥ مليون إلى ١٢٠ مليون، وكل من كان يملك أسهما في شركة فنادق مصر (صاحبة فنادق شبرد والكونتننتال وسميراميس وغيرها) تضاعفت قيمة أسهمه، ولأن الواردات كانت قد خفضت إلى حدها الأدنى بدأت الصناعات المحلية في الازدهار.

لكن ما كان لهذا كله أن يخفف من صعوبة الحياة عن كاهل الفقراء، كانت أجورهم بعيدة عن أن تساير التضخم الذي حدث، كما أن القيود المفروضة على زراعة القطن أضرت بهم من ناحيتين، فإذا ما زرع أصحاب الأراضي الحبوب التي كانت تدر أموالا أقل من القطن، كان هذا ينعكس على أجور الفقراء، وفي الوقت نفسه ظل سعر القطن مرتفعا بالعمد لكي يرضي "لوبي ملاك" الأراضي في البرلمان بكل جبروتهم، وهذا شجعهم على أن يتجاهلوا القيود المفروضة على زراعة القطن مما أدى إلى أوجه نقص جديدة في الحبوب التي ارتفعت أسعارها بالتالي، ومرة أخرى كان الفقراء هم الذين دفعوا الثمن، وكان أن ارتفع الرقم القياسي لتكاليف المعيشة بصورة أشد وأنكى حتى منذ أن جاء النحاس إلى السلطة، وأصبحت مزمنة تلك الأزمات في توافر السكر والكيروسين.

على النقيض من حكومته، أمكن للملك فاروق أن ينعم ببداية طيبة في عام ١٩٤٣. في شهر يناير كان قد قدم منحة بمبلغ ٤٠٠ جنيه مصري إلى دير سانت كاترين في سيناء، وأعرب رئيس الدير عن امتنانه لتلك الهدية السخية التي قدمها الملك المسلم، فما كان من فاروق إلا أن رد عليه بأنه ملك جميع المصريين، وشرعت الصحافة في التهليل للأمر ونشرت مقالات موحية حول موضوع الوحدة الوطنية المصرية. وفي رأس السنة الهجرية وردت

أوصاف فاروق في جريدة "المقطم" ومجلة "الاثنين" بأنه الملك المسلم الصالح، وفي يوم عيد ميلاده نشرت "الاثنين" مقالا تشير فيه إلى الملك بأنه "رجل الساعة" ونشرت مقالة أخرى قارنت بين فاروق الذي كان يحب التواصل مع رعيته ومساعدة فقرائهم وبين الخليفة هارون الرشيد الحاكم النموذجي الذي تغنت بشمائله سطور ألف ليلة وليلة. وكتبت "الاثنين" أن أهل الحجاز يعدونه الملك الوحيد الذي يمكنه توحيد الشرق الأوسط. أما "المصور" فقد أشادت به بوصفه ملك المسلمين. وأيا كانت عبارات الإنكار التي صدرت عنه فيما بعد، فلم يكن من عجب أن اللحية التي كان قد أطلقها الملك فاروق اعتبرت إشارة على أنه كان يعد نفسه لمنصب الخلافة.

من ناحيتها كانت الملكة نازلي قد توجهت معتزلة إلى فلسطين في شهر فبراير على سبيل الاحتجاج من جانبها على الطريقة التي كانت تعامل بها من جانب ابنها وزوجة ابنها. وبعد أشهر قليلة أصبح غيابها عن البلاط موضع تعليق، ولكن عودة نازلي كانت مشروطة بأن تحظى عودتها ووصولها إلى محطة القاهرة باستقبال رسمي كامل يشهده الملك ورئيس الوزراء، وقد وافقا على مضض فعادت إلى الوطن في يوليه برغم أن الملك قرر ألا يحضر الاستقبال في اللحظة الأخيرة.

الهروب الملكي التالي من مصر جاء أكثر دواما. ففي ٢٣ مارس، سمع صوت النبيل منصور داوود قريب الملك من إذاعة عربية في روما، وقال إنه جاء من أجل "الانضمام إلى قضية المحور" ولكن خطوته هذه بدت متأخرة بعد فوات الأوان إذ أن الحلفاء كانوا يكسبون الحرب هنا وهناك. على أن أحاديث النبيل حول القمع البريطاني والحاجة إلى انتصار المحور لم تؤخذ على محمل الجد الشديد في مصر، حيث كان النبيل يحظى بالنذر اليسير من الاحترام إذ كان الكل يعرف أن منصور داوود خاوي الوفاض، ومن الواضح أن الإيطاليين كانوا يدفعون له بسخاء لقاء مؤازرته، وفي الشهر التالي قرر الملك تجريده من لقبه وامتيازاته الملكية.

من هنا فهروب منصور داوود لم يضر مكانة الملك في قليل أو كثير وظل فاروق محل احترام رعاياه الذين رأوا فيه رمزا لطموحات البلاد الوطنية، وإن كان احترامهم له كرجل أو إنسان لم يبلغ هذا الشأو بعد أن أذله البريطانيون، وإن كانت تصرفات لورد كيلرن في هذا المجال موضع بغض شديد وكل كلمة في صالح الملك كانت من ثم عملا من أعمال التحدي الوطني بوجه المستبدين بأقدار البلاد. هكذا تسابقت الصحف المصرية في التغني بمآثر الملك، وكان الشعب يعرف أن ثمة جانبا أقل نقاء في شخصيته، ولكن المصريين قوم متسامحون فيما كان الملك في ميعة الشباب. من ناحية أخرى لم تكن السفارة البريطانية تكنّ احتراما من أي نوع لفاروق، وكانت تأخذ سوء تصرفاته على نحو أكثر جدية.

ظل اللورد كيلرن يطلع لندن تباعا على أنشطة الملك، وفي ليلة من ليالي ديسمبر ١٩٣٩ كان فاروق قد أغار على مكتبة ألمانية خاضعة للحراسة، وكانوا قد أبلغوا الشرطي الحارس أن هناك فريقا سيأتي لفض الأختام ودخول المبنى وأنه لا ينبغي وقف أعمال هذا الفريق، وفي أوائل ١٩٤٠ كان قد استولى على مجموعة السيوف التي يملكها الأخوان جورج وحبيب لطف الله، وبعد سنة أخرى استولى على المجموعة الرائعة من الأسلحة التي تخص محمود خيري باشا. ويبدو أن فاروق كان قد أرسل إلى خيري قائمة بما يريده من مجموعته، فأجاب خيري أن قيمة المجموعة سوف تتلاشى إذا ما جرت تجزأتها، ولكن الملك أبلغ من يعنيهم الأمر أنه لو حيل بينه وبين ما يريد لأوقف المرتب الشهري الذي يدفع من الخاصة الملكية بمبلغ ١٢٠ مليون جنيه مصري لخيري باشا بوصفه زوج الأميرة قدرية. ولم يكن هذا المبلغ كبيرا، ولكن أن يخسر المرء عطف الملك يمكن أن يؤثر كثيرا على مكانة العائلة وعلى مستقبل نجلهما الشاب. وافق خيري باشا على أن ينزع منه جانب من المجموعة مقابل ٢٠ ألف جنيه مصري، رغم أنه كان شاكا في أن يرى بعينه

هذا المبلغ على الإطلاق، كما أن "خبراء" فاروق سوف يقدرون ولا شك قيمة المجموعة بنصف المبلغ.

ويجدر القول إن لورد كيلرن بدوره كانت تراوده نوبات أشبه بالنزوات في بعض الأحيان: الدهشة انتابت فريقا من اللاعبين في مسابقة جولف، إذ رأوا السفير البريطاني يأتي إلى ملعب الجولف بنادي الجزيرة يوما ومعه بندقيتان وماسورة ذخيرة وخادمان، وكانت أهدافه هي الحدآت المحلقة التي كانت تطير فوق سماء المدينة، والتي كان يضمر لها أشد البغض لأنها سرقت يوما كرات الجولف الخاصة به متصورة وقتها أنها إنما تسرق بيضة!!

ولأن هذه الجوارح كانت تؤدي خدمة مفيدة لمصر، إذ تلتهم الطفيليات التي كانت تتغذى على نبات القطن، فقد كانت هذه الطيور بمثابة أنواع محمية. وكان من سوء السلوك في أعين البريطانيين ممارسة الصيد بالبندقية في ملاعب الجولف، لكن أيا من هذه الاعتبارات لم تكن لتحل بين كيلارن وبين أن يقتل اثنتين وعشرين حدأة في عصر ذلك اليوم، بينما مضى الخادمان يلتقطان الطيور المذبوحة وهي ترتمي على النجيل بين لاعبي الجولف الذين كان من بينهم مثلا جيرتي ويصا والبريجادير تشارلس فريزر الذي أصيب بصدمة عميقة إزاء سلوك السفير.

كذلك كان كيلرن ومعه رسل باشا حكمدار بوليس القاهرة يشعران بقلق أكبر بكثير عندما اجتذبا وادي الرشراش غرائز الفضول لدى الملك فاروق. كان رسل باشا من غلاة المحافظين على البيئة فضلا عن كونه صيادا ماهرا، وكان قد أقنع الملك فؤاد والد فاروق أن يعلن وادي الرشراش محمية تصونها الدولة، وقد زار فاروق المحمية في صيف عام ١٩٤١ واصطاد وغلا ثم أعلن أن المكان سيكون منتجعا خاصا به للصيد. وكان مفهوما مقدار الغضب الذي انتاب رسل باشا وإن كان قد نجح فيما يبدو في إنقاذ المكان من براثن فاروق، فقد كتب في مذكراته المنشورة عام ١٩٤٩ يقول: "اليوم، وبناء على أوامر من

جلالة الملك فاروق، أصبح الرشراش تحت حراسة مشددة وظـل بمثابـة الملجـأ الآمن للوعول في هذا البلد."

كـان الملـك مجنونـا بجمـع ما يكـاد يكـون كـل شـيء: كـؤوس الصيـد، السيارات، الأسلحة، الأدويـة الخاصـة، المشغولات الذهبيـة، النكـت الخارجـة، البطاقات العابثة، الأدبيات المكشوفة، الحلي والعملات وعلب الكبريت، كـل هـذا الذي جمع بين سقط المتاع والكنز النفيس كان مكوما في غرفة إثر أخـرى فـي قصري القبة وعابدين. وبدا أن هـذا البـالون الملكـي المصـري كـان يحـاول أن يمـلأ فراغـا داخلـه لا يمكـن إشـباعه، كـانت شـهيته حـادة إذ يفضـل الأطعمـة الرخيصة على الأصناف الفاخرة التي تقدم فـي المـآدب الملكيـة، ومـا يلبـث أن يغسل هذا كله بكميات من الحليب أو الليمونـادة.

وكان فاروق يستمتع بأن يعرض صفوفا من الطفاشات اللاتي كـانت تتيـح لـه الولـوج إلـى شـقق صديقاتـه المتنوعـات وكـان يـروق لـه الظهـور بمظهـر كازانوفا، وبمعنى من المعاني كانت النساء بمثابة أشياء يجمعها ضمن مقتنياته الأخرى سواء بسواء، ولكنه كان ينعم كذلك بصحبة المرأة بوصفهـا امـرأة فـي الأساس. إيرين نجار كانت من شقراوات القاهرة الجميلات وكان الملك قد أغرم بها غراما مشبوبا فترة من الوقت، وقد أمضت إحـدى عطـلات نـهايـة الأسـبوع وحدها مع الملك ظلا خلالها يتعابثان سـاعات طـوال فـي حمـام السباحة ولكـن مضى يومان بطولهما دون أن يحدث بينهما أكثر من قبلة طبعهـا فـاروق علـى خدها.

كان يستمتع كذلك برؤية النساء وهن يتسابقن علـى نيـل رضـاه، وعندمـا كان الملك ينظم حفلات صيد غير رسمية في الفيـوم لأصدقائـه وصديقاتـه كـان دور المضيفة يسند إلى عشيقة المرحلة وكـانت فـي هـذه الحالـة إيريـن نجـار. وعلى العشاء، وضعت الملك بجوار حسناء انجليزية شـابة لعـوب. لـم يكـن أي من الضيوف يعرف عنها كثيرا، ولكن لم يكن من شـك فـي أن الملـك وقـع فـي

حبال هذه المنافسة الجديدة، وهكذا لمحت إيرين وقد تملكها الغضب الملك ومعه غريمتها الجديدة يصعدان السلالم فقررت في نفسها أن تنتقم.

بين الموائد التي صفت للإفطار أمرت بوضع مائدة صغيرة وحولها ثلاثة مقاعد ودعت الملك والانجليزية إلى الانضمام إليها عندما ظهرا أخيرا في الصباح التالي، ووسط هدير الضحكات من فاروق ظلت إيرين نجار تلتزم جانب الأدب الشديد إزاء غريمتها التي طلبت القهوة والتوست. في الوقت نفسه كان الخدم بناء على تعليمات من إيرين يحزمون أمتعة الضيفة غير المرغوب بها، وفور أن وضعت الحقائب في السيارة استدارت إيرين إلى غريمتها قائلة: عزيزتي من سوء الحظ أنك ستغادريننا بهذه السرعة، وقبل أن تعرف المرأة الانجليزية ما يدور كانوا يقتادونها إلى سيارة يقودها سائق لكي ينقلها سريعا إلى القاهرة. راقب فاروق المنظر بأقصى قدر من المتعة وظل يصفق بحرارة حتى النهاية.

صحبة الرجال كان يجدها بين صفوف أغنياء المصريين الذين كانوا يلعبون على مبالغ كبيرة في نادي السيارات الملكي، وكان منهم شكري ويصا وإميل عدس وجورج صيدناوي، وكان فاروق يمضي أيضا وقتا مع غير المصريين ومنهم من انتابته الدهشة إذ وجدوا أنفسهم يحبون الملك لذاته كإنسان، ومن بينهم كان مراشال الجو سير ويليام شولتو دوجلاس قائد المقاتلات الجوية بين عامي ١٩٤٠ و ١٩٤٢.

وصل دوجلاس إلى القاهرة في شهر يناير ليتسلم زمام القيادة بوصفه قائد عام سلاح الطيران من مارشال الجو سير آرثر تيدر. على أن صداقته مع الملك بدأت في واقع الأمر يوم ١ أبريل عام ١٩٤٣ عندما شهد الملك فاروق حفل الافتتاح لفيلم "نصر الصحراء"، وكان السبب الرئيسي لدعوة الملك هو اجتذاب أثرياء القاهرة الذين سيكونون على استعداد لدفع مبالغ كبيرة مقابل تذاكر الحفلة الخيرية، ولكن دوجلاس لاحظ كذلك معاملة السفارة للملك وقد اتسمت بنوع من الوصاية والاستعلاء وهو ما تصوره أمرا من الخطل بمكان،

فرغم كل شيء كان فاروق هو أقوى رجل في مصر، كما كان البريطانيون ضيوفا على بلاده.

في ليلة الحفلة، عمد دوجلاس إلى تنظيم استقبال فخم للملك وسط فرقة حرس الشرف الكاملة "لم ينل بالتأكيد مثل هذا الاحترام الفائق من قبل كما ناله يوم افتتاح الفيلم". هكذا كتب دوجلاس في مذكراته مضيفا "بل إن المسكين اعترف لي أنه شعر أخيرا أن البريطانيين بدأوا يعطونه قدرا من الأهمية وكانت سعادته بادية وأصيلة على السواء، وقد حملني على الشعور أنه قد يكون من الأفضل لنا إذا ما بدأنا نحيطه بقدر ما من الاهتمام ".

على ذلك دعا فاروق لتناول العشاء في بيت الطيران وبدأ الملك يزور المكان دون ترتيب كلما عنّ له ذلك، وكثيرا ما كان يصحب مارشال الجو في جولات في النوادي الليلية بالقاهرة حيث كان ثمة مائدة محجوزة دائما في كل منها للملك. لكن هذه النزهات ما لبثت أن أصبحت مرهقة لأنه لم يكن يجوز أن يغادر دوجلاس المكان قبل فاروق الذي كان يمكث بانتظام حتى الرابعة أو الخامسة صباحا، ناسيا فيما يبدو أن الآخرين لديهم عمل يقومون به. كان الملك يحب إبقاء الحديث حيويا إذ تتخلله النكات، ولكن كان أحيانا يتحول إلى الجدية فيكشف عن إنسان أفضل مما يتخيله الآخرون من حيث قراءاته ومعلوماته. المال كان من الأشياء التي يأخذها على محمل الجد، وقد أبلغ فاروق دوجلاس أن ثروته الشخصية تقدر بمبلغ ستة ملايين جنيه وأن زيادتها كانت من بين اهتماماته الرئيسية في الحياة، أما في مجال السياسة فكانت أراؤه أقرب إلى اليمين، وما عدا ذلك فهو الشيوعية في رأيه بما في ذلك مثلا مبادئ دوجلاس الاشتراكية المعتدلة.

في ذلك الوقت كان لدى الملك عدد من الأصدقاء الانجليز والأمريكيين، وثمة جماعة منهم كان يستمتع بزيارتهم وكانوا يقضون مواسم الصيف في بيت رطيب فسيح في بولاق الدكرور غربي القاهرة مباشرة. كان المنزل يخص "روجر لو" الذي كان ينقل عائلته إلى الاسكندرية كل صيف، وقيل إن روميل

كان قد اختار هذا البيت مقرا لقيادته (في حال دخوله مصر) وخلال مرحلة الورطة التي شهدتها السنة السابقة، زرع الجنود البريطانيون الألغام في خنادق وهددوا باقتلاع الأشجار، ثم حولوا اهتمامهم إلى السطح عندما جاءت أسراب من النحل البري لتنغص عليهم حياتهم مما كان مدعاة لسعادة الخدم الغامرة.

المجموعة التي سكنت المنزل خلال أشهر الصيف كانت تتألف من روبين فيدين الذي شارك في تأسيس مجلة "برسونال لندسكيب" ورينيه كاتسفيليس وهو يوناني من الاسكندرية كان قد تزوج في ذلك الخريف، وبرنارد (سير برنارد فيما بعد) بوروز الذي كان وقتها السكرتير الثاني بالسفارة، وإينيز والتر الذي كان متزوجا في عام ١٩٤٤، وجون برينتون الملحق العسكري الأمريكي وزوجته جوسي وديفيد أبركرومبي (البروفيسور فيما بعد) وزوجته ماري، وكان ديفيد شأن روبين فيدين محاضرا في جامعة القاهرة.

وفي ليالي الحفلات كان برنارد بوروز وجون برونتون يحضران القلة الفخارية الضخمة ويملآنها بعصير الجريب فروت ومعه أي كمية يمكن لأهل البيت الاستيلاء عليها من الويسكي أو الجن. ولم يكن ذلك بالويسكي أو الجن الحقيقي، ولكن في تلك المرحلة من سير الحرب كانت من الندرة لدرجة تستوجب التعامل معها بكل احترام إذ كانت عمليات تقليد من قبرص أو فلسطين، التي حتى صانعوها كانوا يعترفون بأنها أدنى من حيث النوعية عندما يعلنون عنها بوصفها "مناسبة لحفلات الكوكتيل" .

كانت بولاق الدكرور ألطف هواء من القاهرة، وبالنسبة للضيوف الذين يكونون قد أمضوا أيامهم فريسة للقيظ في المدينة "كان من المبهج حقا قيادة السيارة عبر طريق رئيسي يفضي إلى الكوبري الانجليزي (كوبري الجلاء فيما بعد) وما يلبسون يتحولون فجأة إلى سكة زراعية ريفية تمتد عبر الحقول والقرى المزدحمة وبعدها المزيد من الحقول ومن ثم إلى سلسلة من الأشجار

ومنزل ريفي انجليزي لطيف البرودة له حديقة من أشجار الصنوبر التي شذبوها على شكل مخروط، فما بالك بحمام سباحة "...

وكان الاستحمام في منتصف الليل ملمحا منتظما للحفلات في بولاق الدكرور، وقبل ذلك تعقد حلبة الرقص التي كان يستمتع بها كثيرا بيتر ملك يوغوسلافيا الشاب، الذي كان يتولى مسؤولية اختيار الاسطوانات وإدارة الجراموفون، بينما كان الملك فاروق شغوفا بأن يطب بغير سابق إنذار، وكان هذا الحدث هو الذي يجعل الخدم يهرعون هنا أو هناك لكي يحصلوا لصاحب الجلالة على كوب من لبن الجاموس الطازج. وإلى جانب البعد عن الرسميات، كان فاروق يستمتع بالمماحكات الخفيفة التي كان يمكن أن يقبلها من الأجانب بأيسر مما يقبلها من رعاياه. في إحدى المناسبات سأل جون برينتون الملك معابثا إذا ما كان سيشارك الجنرال جامبو ويلسون في يوم الأمم المتحدة (١٤ يونيه ١٩٤٣) الذي تقرر أن يستعرض فيه ويلسون جنود ودبابات الحلفاء، فأجاب الملك "ولماذا أفعل ذلك؟ إنهم عادة هم الذين يحضرون الدبابات إلى عندي" (إشارة منه إلى حادث ٤ فبراير).

وجد فاروق صديقا آخر في شخص ضابط بريطاني شاب، اسمه باتريك تيلفر سموليت، الذي حاول أن يخرجه من عالمه الشديد الأبهة والمغرق في حمأة الترف. كان تيلفر سموليت ملحقا بالبعثة العسكرية البريطانية التي كانت غطاء لعمله في المخابرات تحت قيادة البريجادير كلايتون. وكم راعه المناسبات القليلة التي يظهر فيها فاروق أمام الجمهور بأقل بكثير من العائلة المالكة البريطانية. كذلك كانت الجولات الملكية في الأقاليم نادرة للغاية، واكتشف تيلفر سموليت، لدهشته، أن الملك لم يزر يوما نادي الضباط المصريين، ومن ثم رتبوا زيارة وشعر الضباط، الذين كان من بينهم بعض أشد المؤيدين للملك، بالسعادة وهم يجدون فاروق وسطهم يحادثهم ببساطة ويرتدي الزي المهيب للفيلد مارشال (المشير) وبفضل هذا الاستقبال تشجع فاروق على العودة لزيارة نادي الضباط في مناسبات كثيرة.

لكن ارتباط الملك بأصدقاء بريطانيين وأمريكيين كانوا متعاطفين مع قضيته ظل مصدرا للقلق بطبيعة الحال بالنسبة إلى لورد كيلرن، برغم أنه لم يستطع وقف الملك عن الاستمتاع بصحبتهم. كان دوجلاس واحدا من كبار الضباط في القوات المسلحة، بينما كان الأصدقاء الآخرون مثل تيلفر سموليت أو ماكس آتكين من الضباط الواصلين من حيث علاقاتهم.

وزادت العلاقة تعقيدا بين السراي والسفارة عندما ظهر في ذلك العام مجلد مذكرات ويندل ويلكي بعنوان "عام واحد" وفي هذا المجلد وصف ويلكي كيلرن على أنه "السفير البريطاني لدى مصر وحاكمها الفعلي من حيث كل النواحي العملية". هذا الكتاب تم حظره في مصر.

صيف يتألق

جاء الانتصار الرسمي على قوات المحور في أفريقيا يوم ١٥ مايو، وكان ذلك حدثا لقي تحية مفعمة بالارتياح في مصر. وكم كانت سعادة الفقراء من أبناء الاسكندرية إذ تصوروا أن هذا سيكون إشارة لنهاية القيود البغيضة على الإضاءة، ولكن شد ما كانت خيبة أملهم عندما رفض الكولونيل بورت سميث إنهاء قيود الإضاءة، بينما تظل اليونان وكريت في يد الأعداء. وبحلول شهر أغسطس بدأ الأغنياء أيضا يشعرون بأن إجراءات التعتيم لم تعد ضرورية، وفي حفل أقيم لمساعدة نادي العلمين أصبح قصر أنطونيادس بالاسكندرية بهيجا بالأضواء المتلألئة وما كان من برت سميث إلا أن وجه توبيخا عنيفا إلى منظميه على تنكبهم الإحساس بالمسؤولية.

من ناحيتها، كانت أحزاب المعارضة في مصر تأمل أنه بعد أن تنتهي الحرب فعليا من شمال أفريقيا فإن البريطانيين سوف يسمحون بالإطاحة بحكومة النحاس التي أصبح فسادها وعجزها باديا للعيان، ولكنهم عندما رأوا أن اللورد كيلرن مازال على استعداد لموازرة الوفد، ما لبثوا أن ناصبوا البريطانيين العداء. وفي مؤتمر حاشد للمعارضة بالمنوفية في يونيه، كان الخطباء المعادون للبريطانيين يتبعون نبرة عنيفة، كما كان حاضرا عدد كبير من غلاة العناصر الوطنية الناشطة والمتشددة، وقد توقع كيلرن استمرار هذا الاتجاه، وأفضى في مذكراته أن هؤلاء الناس بحاجة إلى قصف جوي لكي يثوبوا إلى رشدهم.

في الوقت نفسه كان القادة البريطانيون والأمريكيون يستعدون لواحدة من أكثر عمليات الحرب طموحا وتعقيدا هي العملية "هسكي"، فعلى خلاف عمليات الإنزال بشمال أفريقيا في شهر نوفمبر فإن عمليات الإنزال في صقلية التي قرر لها ١٠ يوليه سوف تواجه بمعارضة عنيفة، وشملت عملية "هسكي" نصف مليون فرد على طول مسار الحملة، ولم تكن قيادة نقطة القاهرة من الحملة متواجدة في مقر الجيش البريطاني في مصر، ولكن اتخذوها في مكتب منفصل في إحدى حارات عماد الدين ويحمل اسم "جورج ".

وفيما قدر المخططون احتمالات الخسائر البريطانية في الأرواح، كان ثمة ضابط يشعر بقلق أكثر إزاء الضرر الذي يمكن أن تنزله العملية ذاتها. كان عالم الآثار مولتيمر هويلر قد قام بتشكيل بطارية مضادة للطائرات في بداية الحرب، وبرغم أنه كان يزيد في العمر سبع سنوات على سن الخدمة العاملة، فقد مضى ليقاتل في العلمين. وفي غمار البدايات وما تبعها من مسار القتال، أتيحت له فرصة كافية لكي يلاحظ أنه برغم ما ألحقه فيلق أفريقيا (بقيادة روميل) من ضرر قليل بالأطلال القديمة في برقة، إلا أن الجيش الثامن (الانجليزي) المنتصر كان جديرا بالتسبب في المزيد من الدمار. وعلى نحو ما يورده بكل موضوعية في سيرته الذاتية "ما زال الحفر مستمرا" فإن "أعمدة لبدة والأسس التي تنهض عليها كانت كلها فريسة سائغة" وقد اتخذت التدابير الكفيلة بحماية الآثار في شمال أفريقيا وإذ شاهد البريجادير هويلر الأضرار التي حدثت هناك (رقي في مايو ١٩٤٣) فقد شعر أن من الضرورة بمكان أن يتعهد الجيش بحماية آثار صقلية قبل أن تتعرض لغزو الحلفاء.

طار إلى القاهرة في بداية يونيه ومن مقر القيادة فيها توجه إلى مكتب "جورج" السابق الذكر حيث كان سعيدا بمقابلة الكولونيل لورد جيرالد ويليسلي وارث لقب الدوق ولينجتون (قاهر نابليون في واترلو) وكان ويلسلي مهندسا معماريا في الحياة المدنية ومن ثم كان متعاطفا مع المسألة، على أنه لم يكن على بينة بالتأكيد مما ينبغي فعله، ولكن المسألة طرحت على قوات الحلفاء في

مقر قيادتها في الجزائر، وفي الوقت نفسه قال ويليسلي إنه سيفعل كل ما وسعه لحماية الآثار التي تقع ضمن نطاق نفوذه في جزيرة صقلية برغم أن المسألة سيصعب تنفيذها دون توافر دليل منشور بها. صحيح أن مكتبات القاهرة ربما كانت تحوي عدة نسخ من دليل "بايديكر" لصقلية، إلا أن رؤية ضابط بريطاني وهو يشتري واحدا منها كان من الخطورة بمكان.

في عصر ذلك اليوم توجه مورتيمر هويلر لتناول الشاي مع واحد من أكبر العلماء الانجليز في القاهرة وهو البروفيسور أرشيبالد كريسويل أستاذ الفن والعمارة الإسلامية بجامعة فؤاد الأول الذي كان يعيش في أعلى مبنى عتيق متداع في شارع حسن الأكبر قرب القلعة، وبينما كان كريسويل مشغولا في المطبخ عمل هويلر بسرعة على استعراض مكتباته العديدة التي كانت تشغل غرفة الاستقبال الصغيرة، وفيها شاهد كتاب "بايديكر" بعنوان "دليل إلى جنوب إيطاليا وصقلية" وعندما عاد البروفيسور كريسويل من المطبخ كان الكتاب قد استقر تماما في جيب الضيف!

عاد إلى "جورج" – المكتب وهناك أفاد ويليسلي أن رسالة وصلت من الجزائر تقول إن اثنين من الأمريكيين سوف يعهد إليهما بالمحافظة على الأطلال والكنائس في الجزيرة خلال الغزو، ولم يبد الأمر مطمئنا بما فيه الكفاية، ولكن هويلر كان سعيدا أن أمكنه إعطاء اللورد جيرالد الكتاب المسروق وأن يعرف أن هناك دليلا مكتوبا على الأقل حول آثار صقلية سينضم إلى العملية "هسكي " .

جيري ويليسلي الذي كانوا يعرفونه في القاهرة باسم "الدوقة الحديدية" كان واحدا من حفنة من الانجليزي الذين كانوا يفضلون الحياة في القاهرة القديمة شأنه في ذلك شأن البروفيسور كريسويل. وعثر على بيت كان يشكل ملحقا بجامع ابن طولون المبني في القرن التاسع الميلادي، ومن السطح كان يمكن للمرء أن يطل على صحن الجامع الواسع القائم على أعمدة، وكان

يشاركه في المنزل "ديفيد بلفور" وهو رجل كان انخراطه في السلك الديني مدعاة للحيرة أكثر من كونه مدعاة للتأمل.

كان بلفور قد بدأ راهبا من طائفة البندكتين، والتحق بالكنيسة الأرثوذكسية ليصبح قسيسا في روسيا أولا وبعدها في اليونان، وخلال هذا الوقت كانوا يعرفونه باسم الأب ديمتري بلفور. وعندما سقطت اليونان (في يد النازي) جاء إلى مصر حيث بدأت الحرب تدمر مهنته الدينية. وها هو الكابتن برايان جينيس نجل اللورد موين الذي عمل في مقر القيادة يصف لزوجته إليزابيث التحولات التي طرأت على الأب ديمتري بلفور يقول: "... أبونا بلفور بدأ يصلح كيانه قطعة إثر قطعة و ... أعتقد أن الأمر يدعو للرثاء، أولا قام بقص شعره ثم طرح جانبا مسوحه السوداء وقبعته التقليدية العالية وبعدها بدأ يهذب لحيته قائلا إنه يتوقع في الأسبوع القادم أن يحلقها تماما وأن يكون مرتديا الزي العسكري ...". والمهم أن هذا التغيير وصل إلى نهايته إذ أصبح صاحبنا هو الكابتن ديفيد بلفور، وحصل على وظيفة في قيادة الجيش البريطاني برغم أنه ظل محافظا على نوع من التزهد في أسلوب الحياة.

بالنسبة إلى ويليسلي، فإن مشاكل الحياة بعيدا عن وسط البلد بدأت ترجح سحر بيت ابن طولون، فانتقل في خريف ١٩٤٢ تاركا مكانه لباتريك كين روث، الذي كان قد عين مؤخرا مسؤولا صحفيا في سلاح الطيران البريطاني، وقد كتب لوالدته يقول: "أتصور أنني سوف أستأثر لنفسي، فصاحبنا (يقصد ديفيد بلفور) يسلك مسلك الرهبان، ولسوف يتعيش على اللبن الزبادي في زاوية فوق السطوح " .

باتريك كين روث كان أيامها يتخذ إجراءات الطلاق من زوجته، ولذلك كان يتعين عليه تجنيب جزء من دخله لمصاريف المحامين وأقساط النفقة. ولم يكن المنزل في ابن طولون يكلف أكثر من عشر جنيهات شهريا. وفي يناير ١٩٤٣ انضم إليه من قبرص إيدي جاسورن هاردي مما أدى لتخفيض النفقات أكثر وأكثر. كان هاردي واحدا من المحاضرين الذين كانت سمعتهم المريبة

تسبب قلقا كبيرا في نفس فلكس دونداس، رئيس المجلس البريطاني. كان هاردي يتصف بعادات شديدة الخشونة أشبه بسلوك المعسكرات فضلا عن أحاديثه المكشوفة مما لم يكن ليروق لأعضاء الجالية البريطانية الأكثر تحشما. ولكن خلف هذه الخفة كانت تكمن عقلية مرتبة وثاقبة كانت تؤمن كثيرا بالتراث الكلاسيكي ولم يكن له وقت يضيعه في متابعة تجديدات كتّاب من أمثال هنري ميلر. لقد حاول لورانس دوريل مرة أن يجمع بينهما في اليونان، ولكن كلا منهما ما لبث أن أضمر كراهية فورية للآخر. من المجموعة كذلك كان روبين فيدين، الذي يتذكر كيف أن ميلر تملكه الغضب يوما فدق على كرشه قائلا "لكنني أؤلف كتبا هنا"، وساعتها جاوبه جاسورن هاردي على الفور: "أرجوك قل لي هنا فين بالضبط يا عزيزي " .

وبفضل رخص الحياة في الحي الشعبي القديم، استطاع كين روث وهاردي أن يستثمرا في ... كنبة "بمعنى أن كان بوسعنا أن نجلس عليها مرتاحين في الأمسيات بدلا من أن نقعد متصلبين على الكراسي المنفوخة التي تركها الدوقة الحديدية". من هنا غادر ديفيد بلفور كوخه فوق السطح ونزل ليعيش معهم محاولا أن يتغلب على أول فاجعة غرامية صادفته بمساعدة بيانو "كان يعزف موسيقى باخ في كل مساء وبجانبه قطته التي لم تكن تحب باخ، ومن ثم كانت تملأ الدنيا مواء وصراخا خارج بابنا " .

في أشهر الشتاء كان يروق لكين روث أن يذهب إلى العمل ماشيا، ولكن مع تزايد الحرارة أصبحت كل هذه الرياضات أمرا بعيدا عن أي متعة "فاجأنا الصيف، وكدنا ننشف من القيظ"، هكذا كتب إلى أمه في شهر أبريل مضيفا "وقد بدأ الطقس يصبح شديد الحرارة والرطوبة لدرجة يشعر المرء معها بأنه يلتصق بعضه ببعض. وفي شهر يوليه أصبح الطقس رطبا بصورة لا تحتمل، وإن كان المرء يكافأ في الليل عن قدرته أن يعيش بالنهار". فعندما كان الظلام يسدل أستاره، كانت الشوارع تعود فتنتفض بالحياة ويصعد الناس ليجلسوا

فوق أسطح المنازل، أو يضعون الكراسي في شرفاتهم لكل يأكلوا الخبز والفول والمخلل.

وتصادف أن جاء عيد ميلاد كين روث مع أيام المولد السنوي لأحد الأولياء الصالحين بالمنطقة "وعليه كنا نقيم حفلتنا فوق السطوح ونرقب العامة في الشوارع تحتنا، وأهدانا أحدهم زوجا من الفراخ، وكان لدينا سمك نيلي، بالإضافة إلى برقوق وشليك وزبد وكذلك كأس من نبيذ فلسطين. وضمت القعدة ست بنات لطيفات وجذابات من القاهرة. وكم كانت احتفالات المولد مدهشة، فها هم الدراويش وبالعو السيوف يتمايلون بتلقائية بين الجموع التي سادتها الفرفشة، وفي كل موقع جوقة تعزف ألحانا محلية، وباعة البطيخ والعسلية والأرز والفول، وفي أرجاء المكان تتلألأ الأضواء الملونة وتخفق البنود والرايات، وكل هذا كان يتركز من حول منزلنا وهكذا كنا نشعر وكأننا أسياد الضيعة، كما يقولون " .

كانت محاولات فاروق لحمل لندن على استبدال لورد كيلرن بسفير آخر لم تحقق النجاح، ولكن حملته استمرت بكل وسيلة ممكنة في يديه، وفي أواخر صيف ١٩٤٣ طلب من باتريك سموليت أن يرتب مقابلة مع القائد العام جامبو ويلسون، وأوضح صديقه أن الأمر سيكون من الصعوبة بمكان وأن من الطبيعي أن لا يتحمس ويلسون لأن يراه أحد وهو يتصرف من خلف ظهر السفير. ومع ذلك رتب اجتماع عن طريق سموليت، ومارك شابمان ووكر، ياور الجنرال ويلسون، وتم في فيلا يملكها فاروق على النيل خارج القاهرة مباشرة في سبتمبر ١٩٤٣، إذ كان السفير وقتها يقضي إجازة في جنوب أفريقيا.

كان أول الواصلين ريك سموليت وأعقبه بعد فترة قصيرة فاروق الذي كان قد جاء بطاقم شاي من الذهب في شنطة سيارته، واستدعوا السفرجي لكي ينقل طقم الشاي إلى الفيلا، بينما كان فاروق بانتظار أن يحيي الجنرال ويلسون. وكان القائد العام لم يلتق مع فاروق إلا في إطار رسمي، ولذلك

فوجئ عندما وجد الملك يشد على يده قائلا "جامبو، أنا أكثر من سعيد أن ألتـق بك "

جاءت المقابلة خاصة ولكن يبدو أنهم تطرقوا إلى فكرة كان فـاروق علـى استعداد أن يطرحها من أجل التجربة: في زمن الخديـوي اسماعيل، اسـتطاعوا حل مشكلة مع البريطانيين من خلال إيفاد الخديوي مبعوثا مباشرا إلـى الملكـة فيكتوريا، وها هو فاروق يقترح محاولة شيء من هذا القبيل من جديد، بمعنـى أن يرسل علبة شيكولاتة من بنات فاروق إلى الأميريتين إليزابيث ومـارجريت، لكي توزع على الأطفال في المستشفيات، وسوف يرافق باتريك سموليت هديـة الشيكولاتة التي ستكون بمثابة مقدمة توصله إلى العائلة المالكة، وأيضا فرصة لتسليم رسالة خاصة من الملك فاروق إلى يد الملك جورج شخصيا.

ورتبت الرحلة إلـى انجلترا بمسـاعدة مـارك شـابمان ووكـر، وفـي اليوم الموعود توجه سموليت إلى قصر عابدين ليأخذ هدية الملك، وحتى ذلك الحيـن لم يكن قد أدرك حجم العملية، فإذا بفاروق وقد أمر بـأن يتم تعبئـة نحـو ٢٣٠ باوند من الشيكولاتة من محل جروبي في صفوف مرصوصة فوق مائدة هائلة. وكان يرقب في دهشة بالغة، بينما يـدور الملـك حـول الطاولـة يتـذوق مـن كـل صنف وهم يملأون صندوقا من اللاكيه الفخم الذي يحمل شعار التـاج المصـري وشعار بريطانيا بالهدية الموعودة.

سافر سموليت والشيكولاتة من القاهرة إلى الخرطوم، ومنها إلى نـيروبي ثم عنتيبي وستانلي فيل إلى داكار، وكلما أمكن كانوا يضعون الشـيكولاتة فـوق ثلج ساعات قليلة، ولكن الثلج لم يكن متوافرا باستمرار، ولا بـد أنـهـا أصبحـت في حالة يرثى لها عندما بدأت تجتاز الجزء الأكثر برودة من الرحلة. من داكار واصلـوا السـفر إلـى لشبونة وايرلنـدا وأخـيرا لنـدن. وقـام سـموليت بتوصيـل الشيكولاتة إلى قصر باكنجهام، ولكنه لم ير العائلة الملكية التي كانت وقتها في ساندرينام. ولم يكن عى بينة مما يفعله بعد ذلك، ومن ثم توجه إلـى الخارجيـة حيث التقى الوكيل الدائم سير الكسندر كادوجان، وشرح مشكلته وكانت المقابلة

مختصرة لأن كادوجان لم يكن يريد أن يسمع الأمر: إذا ما أعفو كيلرن فهو الذي يمكن أن يكون السفير التالي المعين لدى القاهرة.

رسالة فاروق ظلت بغير تسليم عندما تلقى سموليت العودة إلى القاهرة وقد أرسلوه مباشرة إلى منطقة القناة، وكل محاولة من جانبه للتوجه للقاهرة لم تنجح، ووجد أصدقاءه يتجنبونه قائلين إنهم يريدون المساعدة ولكن الخارجية كانت قد أعطت أوامر واضحة بأنه لا ينبغي أن يتاح له العودة للعاصمة. ومن منطقة القناة أوفدوه مباشرة إلى إيطاليا ولم يتح له أن يحكي القصة للملك جورج سوى في حفل راقص أقيم في قصر باكنجهام بعد انقضاء عامين كاملين من الحرب، وقد أعرب سموليت عن أسفه إزاء عجزه عن تسليم رسالة الملك فاروق، وما كان من الملك جورج إلا أن ابتسم قائلا إنه كان يدري بالأمر تماما.

الدهشة الشديدة كانت تروع القادمين من لندن التي أصبح وسواسها هو تقنين الأغذية عندما يعاينون ما يرونه بالقاهرة من صنوف الترف والأبهة من قبيل الفاكهة الطازجة والقهوة اللذيذة والزبد والشيكولاتة. يوم ١ سبتمبر كتبت فيفيان لي لوالدتها تقول "الحرب ليست موجودة في مصر، وعندما ترين موائد ضخمة عامرة بكل صنف من اللذائذ وحافلة بأوعية كاملة من القشطة فإن الأمر يفوق المعتاد. كانت الحرب حية ونابضة فقط في يوليه ١٩٤٢ لكنها بعد ذلك انتهت وانقضت، والعاصمة التي ظلت محورا حيويا في آلة الحرب للحلفاء بدت الآن بمنأى عن الخطر، وجاء هذا الصيف ليضيف بهاء ورونقا جديدا إلى سمائها.

بالإضافة إلى فيفيان لي كان هناك كذلك بياتريس ليلي ودوروثي نيكسون ونيكولاس فيبس وليزلي هينسون، وكانوا يعملون في أوبريت مسرحية بعنوان "حفل الربيع" من إخراج جون جيلجود. كانوا قد قدموا مسرحيتهم أمام الآلاف من الجنود المتحمسين في الجزائر وتونس قبل وصولهم إلى القاهرة في أواخر يونيه حيث قدموا العمل بدار الأوبرا، وكانت مبنى بهيجا من الجص الرقيق

من أثر المدينة المعاصرة ذاتها. فمن خلال عدسات دوريل المعتمة هذه، ما زال معظم السواح وبالذات الصحفيون الأجانب يطلون على مدينة الاسكندرية.

"رباعية الاسكندرية" عاشت فترة حمل طويلة في وجدان المؤلف ولم تنشر إلا بعد قيام الثورة المصرية (١٩٥٢) ولكن بداياتها يمكن تقصيها إلى أوائل الأربعينات وإلى الحرب التي جاءت بالمؤلف دوريل إلى مصر في المقام الأول.

في النصف الثاني من عام ١٩٤٢ غادر دوريل القاهرة ليتولى منصب الملحق الصحفي في الاسكندرية، وفي سبتمبر انضم إليه الشاعر جوين ويليامز، الذي كان قد أوفد من القاهرة ليصبح أول رئيس لقسم اللغة الانجليزية في جامعة فاروق الأول (الاسكندرية) وكان كذلك أول من استهل حرب الشعراء التي كان دوريل وروبرت ليديل وهارود إدواردز وويليامز نفسه يمثلون فيها، بينما كان يمثل القاهرة كل من الشعراء روبين فيدين وبرنارد سبنسر وكيرينس تيلر وبرين ديفيز. كتب دوريل إلى تمبيموتو في "الشعر – لندن" يقول: "لم تنشب مثل هذه الملاحاة منذ أيام طروادة". ولقد ظلت هذه النقائض من المباراة في قرض أشعار المعابثة، وقد حفلت بالإهانات والنكت الخاصة والإيماءات الأدبية متواصلة على مدى ثلاثة أعوام إلى أن دعى ويليامز نفسه إلى إعلان هدنة في عام ١٩٤٥.

إن الطريقة التي سمح بها الناس للحرب الحقيقية بأن تستوعب كل دقيقة من يقظتهم هي التي أحنقت دوريل الذي ظل ينظر إلى عمله بقدر لا يستهان به من التهكم دون أن يحول هذا بينه وبين أن يظل فعالا على أعلى مستوى. ليزلي بيرس (أومالي فيما بعد) التي كانت تعمل في دائرة الإعلام بالقاهرة، تعين عليها أن تذهب إلى الاسكندرية أسبوعا لتنظيم تغطية صحفية لمعرض عن سلاح الطيران البريطاني، وقدمت نفسها إلى دوريل وشرحت ما ينبغي فعله، ولكن بدلا من بدء العمل إذ به يغمرها في جولة من النزهات والحفلات والأيام الرخية التي أمضوها على البلاج. وهذا الاستهتار يمكن أن تفسره

حقيقة أن دوريل وصف ليزلي بيريس بعد ذلك بقوله "إنها كانت من الجمال الأخاذ لدرجة أن تأثيرها كان مثل هيروشيما تحمل الرجال على نسيان كل شيء عن الحرب. وعندما تكون موجودة فما أشق الأمر على مونتجمري إذا ما أراد اجتذاب أي اهتمام لشخصه من جانب الحاضرين " .

وبمرور تلك الأيام بدأت ليزلي بيريس تشعر بقلق متزايد حول حجم العمل الصغير الذي تم إنجازه، وظل الأمر هكذا حتى آخر يوم حين قال دوريل "والآن فلنشمر عن ساعد الجد". زار معرض الطيران معا، وجداه حافلا بالكثير على نحو ما يتوقع المرء، ولكن عندما دعا دوريل الصحفيين أدلى بموجز مثير للغاية حول أهمية المعرض لدرجة أنه حظي بأوسع تغطية ممكنة، وعادت ليزلي بيريس إلى القاهرة لكي تتقبل، ولو على استحياء، عاطر الثناء من رؤسائها في دائرة الإعلام.

في عيون السائح فإن جوانب الاسكندرية الأساسية تتمثل في المطاعم الفاخرة والبلاجات العامرة. وتبدو العمارات الحديثة متقادمة في العمر وكذلك الفيلات المتداعية من طراز الباروك دون أن يبقى تقريبا أي أثر من مدينة العصر الكلاسيكي القديم، وما تبقى فيمكن التفرج عليه في عصر أي يوم. ولكن ارتياد الاسكندرية التي عرفها دوريل والتي كتب عنها أ. م. فورستر دليله، وأبدع فيها كفافي أشعاره هو اكتشاف مدينة أخرى تكاد تكون غير مرئية وإنما هي تكمن من خلف المدينة الحقيقية. كان دوريل نافد الصبر مع الحياة اليومية للاسكندرية "تلك المدينة النابوليتانية المحطمة والكئيبة بسقوف المنازل المتوسطية التي تحفل بها وقد تقشرت واجهاتها في الشمس على نحو ما وصفها به هنري ميلر "... لا موسيقى، لا فن، لا بهجة حقيقية، بل سأم من طبقة وسطى أوروبية مشبعة غارقة في الشراب والقمار وكباين الشاطئ، وليس من موضوع يطرق في الحديث سوى شيء وحيد ... المال". في الوقت نفسه خلب لبه هذا التجاور بين الاسكندرية المحدودة الفكر هذه بكل عوامل فسادها الخبيث وبين عاصمة الجمال والعلم العريقة التي أيقظها من سباتها كل

من فورستر وكفافي. في خريف ١٩٤٣ غادر دوريل المكان الذي كان يتقاسمه مع جوين ويليامز وذهب ليقيم في شقة كبيرة مع بول وديانا جوتش، وكانت الشقة تطل على برج صغير فوق سطح يمكن للمرء أن يرى منه عمود بومبي، ثم يطالع على مرمى البصر امتداد الملاحات من بحيرة مريوط. في هذه الفترة التقى مع إيف كوهين، المرأة التي ستكون زوجته الثانية، والتي يمكن التعرف على كثير من شخصيتها في شخصية جوستين في رباعية الاسكندرية.

إيف كوهين كانت الإبنة الكبرى لأم اسبانية يهودية وأب يهودي مصري لم يكن ماهرا في تجارة أقراض الأموال التي يمارسها، ومن ثم كانوا فقراء يبدلون المساكن كثيرا، بل كانت في طفولتها جائعة وحافية القدمين في معظم الأحيان، لكن كان لأمها كبرياؤها فلم تكن تتحدث العربية إلا مع الخدم. أما في المنزل فقد كانت الأسرة تتحدث تلك الرطانة الغريبة التي يسمونها فرنسية الاسكندرية. وعندما أنهت إيف المدرسة حصلت على عمل هو الطباعة في شركة أفلام، وتلك خطوة أغضبت أباها كثيرا، فحقيقة أن البنت تعمل من الأصل كانت بمثابة إهانة تمس شرفه، وعندما لم تعد الفتاة تتحمل المشاجرات والضرب في المنزل، انتقلت لتعيش مع رئيسها وزوجته.

كان شباب الاسكندرية يتحركون هنا وهناك في مجموعات شديدة الصخب من الشاطئ إلى المقاهي، ومن الكافيه إلى السينما. أحيانا كانوا يستقلون قوارب للتجديف وسط الميناء، ويواصلون أسمارهم على قارب قديم مربوط إلى شمندورة طافية. كانت حياة بهيجة، ولكن إيف كوهين كانت شديدة القلق. كم شعرت بالضجر من أصدقائها بكل طموحاتهم المريحة وأحاديثهم التي كانت استعراضية وسخيفة. من ناحيتهم لم يفهموا نفاد الصبر الشديد الذي ألم بها ولا رغبتها في الجمع بين أفكار كثيرة وكان أن أطلقوا عليها لقب" آنسة التحليل النفسي"، ولأنها لم تستطع حملهم على مشاركة أفكارها، ولا تفهم ازدرائها للطريقة التي استطاع بها السكندريون أن يتجاهلوا الفقر والمسغبة

والتعاسة المحيطة بهم، فقد التزمت الصمت وما لم تستطع أن توصله للآخرين أصبح بمثابة غصة خانقة تضيق بها جوانحها.

التقاها لورانس دوريل في حفل، إيف كوهين كانت فتاة جميلة، شابة سمراء ذات نظرات درامية ولكنها لم تتأثر كثيرا إزاء الرجل القصير المتين البنية الذي قال إنه شاعر، مع ذلك وجدها جذابة ولأنها من الاسكندرية فلم يغب عنها ملاحظة ذلك، وشجعته على أن يتصل بها ذات مساء بالهاتف، إذ كانت تعاني من الوحدة والاكتئاب الشديد، وخرج إلى محل مسترودي حيث لم يكن دوريل متعاطفا معها فحسب، ولأول مرة في حياته، بل وجدت إيف كوهين نفسها تتحدث إلى إنسان يرسل على نفس طول الموجة التي تبث عليها أفكارها.

على أن الحديث إلى دوريل لم يكن بالتجربة المريحة. مضت أسابيع على لقائهما فإذا به يمطرها بأسئلة ويجبرها على أن تجادل في كل شيء، وكانت تلك عملية مؤلمة شعرت وكأنما يقلبها من داخلها إلى الخارج. في شخص إيف كوهين التي أضفى عليها اسم جيبسي روز، وجد دوريل كيانا مشبوب العاطفة مما جعلها، على نحو ما كتب إلى صديقه هنري ميلر "غريبة تماما وسط هذا المستنقع من التفاهة وحب المال، الشخص الوحيد الذي استطعت أن أتحادث معه حديثا حقيقيا. نحن نتقاسم نوعا من حياة اللاجئين ..." في الوقت نفسه كان خيال دوريل يغيرها إلى أن تصبح مخلوقا ينتمي إلى اسكندريته هو. تواصل رسالته قائلة:" إنها تجلس ساعات على الفراش وتحكي لي عن الحياة الجنسية للعرب، وعن أوجه الشذوذ والمطاهرة والحشيش والحلويات وعمليات الختان والقسوة والقتل " .

في صحبة أصدقاء دوريل وجدت إيف نفسها وسط عالم يتجاذب فيه البشر أطراف الأحاديث التي كانت تحلم بها. لم يكن لديها رغبة في المشاركة، بل في الإصغاء، وربما يفسر هذا لماذا وصفها تشارلس جونستون بأنها "جميلة مثل لبؤة، وأيضا متقنة في حديث الانجليزية". إن الحياة الدبلوماسية

المطلي بالأبيض والقرمزي والذهبي، ويكاد هيكلها يقوم بأكمله على الخسب والجص، ومن ثم كانت أرضياتها تصدر صريرا مخيفا وربما كانت بذلك من مواقع تهديد السلامة في المدينة.

كتب باتريك كين روث "جاء العرض معقدا بأكثر مما يسيغه الجنود. بياتريس غنت أنشودتها التي كانت تغنيها في كافيه دي باري منذ سنوات خلت، ديكسون تقدمت بها السن، هينسن أيضا كانت تحاول أن تتغندر، أما فيفيان لي فأمرها يدعو للإشفاق إذ كانت تنشد أغنية كم أنت عجوز يا بابا ويليام، عيونها مغرقة في العواطف، وأغنيتها حول سكارليت أوهارا وكلارك جيبل، فضلا عن قطعة شديدة العاطفية. مع ذلك كله كانت لطيفة، وقد أخذ الجنود الأمر كله على مأخذ الخفة، ومن ثم بدوا في غاية من السعادة " .

الذين حرصوا على استضافة أبطال رواية "حفل الربيع" كانوا على أكمل ما يكون. رتب السفير لعشاء بعد العرض يوم ٩ يونيه، ولكنه أجّل بسبب ولادة جاكيتا، الطفلة الثانية لأسرة كيلرن، ولم يأت النجوم إلى السفارة إلا بعد ثلاث ليال عندما جاء ضيوف آخرون من بينهما كونسويلو لورو وأسرة على خان.

كتب لورد كيلرن يقول إن جلستهم طالت بعد العشاء، ومن ثم تحركوا إلى الشرفة حيث أفرطت بياتريس ليلي في الشراب لدرجة أزعجت زملاءها من أهل المسرح، ولكن السفير يتذكر أن بياتريس امرأة ألطف بكثير مما يمكن أن تعبر عنه الكلمات، وكلما زاد تحفظها زادت رقتها، وفي كل حال سهر النجوم حتى الرابعة إلا ربعا صباحا، ولم يقبلوا على احتساء شيء بخلاف الويسكي، وعلى هذا "فلا بد أن مؤنتنا الشحيحة قد نزل بها أشد العقاب " .

وجهت الدعوة إلى باتريك كين روث لتناول الغذاء في مأدبة أقيمت للنجوم من جانب ماي كاسي حضرها جميع النجوم والكواكب والجنرالات والأميرالات ومارشالات الجو، الذين جلسوا جميعا في جانب من الحجرة ومن حولهم كل من يتمتعون بخفة الظل وحدة الذكاء. ولم يكن لديه سوى القليل من

الكلمات التي تبادلها مع الفنانة فيفيان لي قبل أن يتسأثر شولتو دوجلاس باهتمامها ثم "يحتكرها" لنفسه طيلة ما تبقى من مدة زيارتها.

شهد صيف ١٩٤٣ كذلك افتتاح أوبرج الأهرام، وهو ناد ليلي فخم وجديد على طريق مينا - شارع الهرم، وكان له باحة مكشوفة يتوسطها حلبة رقص، ويعد أبهج مربع ليلي بالقاهرة حيث أصبح موقعا شبه دائم للحفلات الخيرية وأيضا موقعا مفضلا كي يغشاه الملك، الذي كان يفضل كذلك نادي كلوب رويال. ذهب لورد كيلرن لأول مرة إلى هناك يوم ٥ أغسطس وبصحبته ابنة أخيه بيتي وقد دعاهما فاروق إلى مائدته حيث كان يجلس وبصحبته اثنان من الياوران وبدا أن الملك قد أنس إلى خفة دم بيتي الواضحة، وعندما غادر الملك المكان في العاشرة كم كانت دهشة كيلرن عندما قيل له إن جلالته قد دفع الفاتورة.

هذه الحادثة غير الاعتيادية تكررت يوم ١٨ أغسطس عندما دعا كيلرن (الكاتب المسرحي) نويل كوارد إلى أوبرج الأهرام بعد عشاء مع الوزير الأمريكي المفوض وكتب كوارد قائلا إن دخولهما كان مهيبا إذ أن الدخول مع مايلز له وقعة في النفوس، ومن ثم خصصت لهما مائدة مجاورة للملك الذي كان بصحبته شولتو دوجلاس وكوني كاربنتر وهي ممثلة كانت تعمل مع جمعية الترفيه الوطنية، وكانت أول من غنى أنشودة "مسكينة الفتاة الغنية الصغيرة" في الولايات المتحدة. كثيرا ما كانوا يرون دوجلاس بصحبة مس كاربنتر، وبدا الملك مشدودا إليها كذلك، ويقال إن دوجلاس كان في غرفتها بفندق شبرد ذات مساء عندما جاء الملك لزيارتها واقتضى الأمر أن يقوم مارشال الجو بهروب "طيران" عبر سلم الخدم! وقدم السفير نويل كوارد إلى الملك الذي غادر المكان مبكرا بعد أن دفع الحساب لهم جميعا، وساعتها شعر كوارد بالندم بأنه لم يطلب سوى زجاجة بيرة وعلبتي سجائر جولد فليك.

شهد كوارد جوزفين بيكر خارج فندق شبرد يوم ٨ سبتمبر وهو يوم استسلام إيطاليا. كانت ترتدي زي كولونيل من الفرنسيين الأحرار "على آخر

موضة من الشياكة والتألق ... كانت تؤدي عملا مدهشا لخدمة القوات وترفض أن تظهر في أي مكان يتقاضون فيه مالا على الدخول أو يتواجد فيه المدنيون". وعلى خلاف جوزفين بيكر التي لم تنشد أغانيها سوى أمام المقاتلين، كان كوارد يعرض فنه في أي مكان يطلب منه أداءه. في ١١ سبتمبر دعاه شولتو دوجلاس ليلتقي بالملك من جديد، وبدأت نمر الحفل بفيلمين قصيرين من أفلام الدعاية اللذين كتب عنهما كوارد في مذاكرته يقول "كانا كافيين لإقناع الملك أن يسلّم دلتا النيل بقضها وقديدها إلى الألمان من فرط ما شاهده من سخافة" [مع ذلك فلم يكن لورد كيلرن ليثق في أفكار كوارد بشأن الدعاية، فالفيلم المعنون "حيثما نخدم قضيتنا" كان عليه اقبال كبير من حيث الاستهلاك المحلي، ولكن من شأن فيلم عن إغراق طاقم بارجة انجليزية تغوص في اليم ألا يخلق الانطباع السليم في مصر]. بعد ذلك قدموا لهم النسخة الهوليودية من "السم ولاسي العجوز" وفي الحادية والنصف أبلغ كوارد بأن الملك يريده أن يغني، وتقول مذكرات شولتو دوجلاس أنه لم يكن في كامل لياقته في ذلك اليوم "لا أشك أن كوارد كان مرهقا إذ كان يعمل بكد واجتهاد ويسافر مسافات بعيدة في جهوده الكريمة من أجل الترفيه عن القوات، ولكن السبب في أنه أدى نمرته على هذا النحو من السوء في حفلنا وكان بذلك نمرة سيئة بصورة محرجة هو تعليق بدر من الملك عندما سألت كوارد إذا كان يتكرم بالعزف من أجلنا، فإذا بفاروق يهتف بصوته ذي النبرة العالية الذي تردد في أرجاء المكان بحيث لم يغب عن أسماع أحد يقول :نعم ... تعال وغن لتدفع ثمن عشائك"، ولو كان في النظرات ما يقتل لكانت تلك النظرة التي سددها كوارد إلى فاروق مما كان جديرا بأن يفقده عرشه بأسرع مما حدث بالفعل " .

لم يكد يمر يوم بغير جولة في مستشفى واحد على الأقل، وكان كوارد في غاية التأثر إزاء الرجال الذين شاهدهم: "بوسع المرء بينه وبين نفسه تماما أن يسمح لنفسه بقدر من الانفعال الشخصي إزاء أجسادهم المحطمة، ولكن روحهم

كانت صافية وعالية فوق كل رثاء". عادة كان يقدم عرضين في اليوم الواحد للجنود، وفي يوم ١٤ سبتمبر قدم ثلاثة عروض، وكان هناك عرض يشارك فيه لاري أدلر ووينى شو وآنا أنالي وجاك بيني، وقد تم تنظيمه في سينما صيفية بالقاهرة احتشدت بآلاف من جنود سلاح الطيران في الليل، ولكن في الدقيقة الأخيرة لم تتمكن من الظهور لا أنالي ولا جاك بيني. وأرسل لاري أدلر رسالة استغاثة إلى كوارد فوصلته بعد أن كان قد أكمل حفلين موسيقيين في مستشفيات هليوبوليس، ولكنه هرع عائدا إلى القاهرة وقدم عرضا لنصف ساعة لقي تقديرا عاليا قبل أن يتوجه للعشاء مع الكسندر كيرك. لم يشأ كوارد أن يغادر مصر قبل أن يزور الاسكندرية ومما لا ينسى أن طلبوا منه مغادرة مبنى نادي الشراع الملكي إذ كان يرتدي الشورت والقميص، وكان زيا يتصور كوارد أنه مناسب تماما للطقس والظروف. كان أوزولد فينى، مضيف كوارد، واحدا من أوسع رجال الطباعة والنشر نفوذا في مصر، وكان يرتدي نفس الثياب، ولكن رغم تهديداته واحتجاجاته فقد أجبروهما على الذهاب. وكتب كوارد يقول "تناولنا غذاء شهيا في المدينة وأراحنا بالنا عندما فكرنا أنه طالما ظل نادي اليخت بالاسكندرية يحافظ على مستواه المعنوي الرفيع، فإن الحرب في سبيل الحرية والحضارة ما زالت تستحق الفوز بها ".

لكن المعنويات في بقية أنحاء الاسكندرية كانت أمرا مشكوكا فيه. إن قراء رباعية الاسكندرية - تأليف لورانس دوريل، ما زالوا يحبون أن يتصوروا المدينة وهي تستحم في وابل من الفساد الفاتن. وعندما يتكلم أي مصري مع أجنبي فإنه يبدأ بنبرة أقرب إلى الدفاع فيقول إن دوريل فهم الاسكندرية خطأ على طول الخط في رباعيته، وذلك أسلوب لا يعدو القول بأنها ليست مليئة كما صورها بكل الشواذ ومواخير الأطفال، مع ذلك فربما يضايق المصريون في واقع الأمر أن الرباعية وقد كتبها انجليزي واستلهمت اثنين من الأجانب الآخرين هما كونستانتين كفافي و أ. م. فورستر، إنما تحدث أثرا أكبر

الإدارات المختلفة السرية وشبه السرية خلال ذلك الصيف من عام ١٩٤١ أو بالنسبة للسنتين اللتين جاءتا من بعده. والذين قرأوا روايتي كريستوفر سايكس الممتازتين قد يجدون من الصعب أن يصدقوا أن الرجل لم يكن يبالغ، لكن أستطيع أن أؤكد لهم أن وصفه للطريقة التي كان يتصرف بها البشر هو وصف موضوعي بصورة قاسية.

رواية "قتل على مستوى رفيع" وضعت في عام ١٩٤١ لكن يبدو أن الأمر استثنائي تماما، إذ لم ينشر الكتاب إلا بعد ثلاث سنوات عندما كانت الحرب ما زالت مستعرة على قدم وساق وفضلا عن انتقاداته لقيادة الجيش بالقاهرة، فهو يذكر ثلاثة أفراد كانوا هناك في ذلك الوقت دون أن يكترث حتى بإخفاء أسمائهم. الشخصية الأولى كانت مومو ماريوت، وبرغم أن الأمر لم يكن انتهاكا كبيرا للسرية حين يذكر اسمها بوصفها أكبر صاحبات الصالونات بالقاهرة، إلا أن اسمها أعطى وزنا لما يليه: "أن محتويات الملفات 'السرية الفائقة للغاية` كانت تطرح كثيرا للمناقشة مع مسز ماريوت دون أن يثير هذا أي قلق بلا مبرر من جانبنا، فهي من قلة قليلة من النساء الأشد حرصا، لكن أن يحجم ضيوفها عن تناول هذه الأمور بأصواتهم الزاعقة والاستعراضية كان أمرا هو محل ابتهالاتنا المستمرة التي لم تجد من يجيبها". ثمة أسماء حقيقية أخرى تبرز في ثنايا القصة وتشمل البريجادير شيلر وأدريان بيشوب الذي كان يعمل لدائرة الخدمة السرية الخاصة في فارس، أما شرير الرواية وهو شخصية تدعى الميجور أنسيتي، فتستند إلى شخصية الميجور جون ميثيريل الحقيقية، وكان رجلا طويلا له شارب ويلبس مونوكل، وكان ضابط الأركان للكولونيل ثورنيل وقد اشتد بغض سايكس لذلك الرجل حتى وصل الكره إلى أن ملك على أمره فوصفه بأنه أخبث مخلوق التقاه في حياته، وكتب أغنية حول طموحات ميثريل المؤرقة سماها "الترقية: أنشودة الحرب العالمية الثانية". وفي قصة كتبها سايكس وقام بتصويرها لابنه مارك البالغ من العمر أربع

سنوات حيث يعود ميثيريل إلى الظهور بوصفه الأمير الشرير لمنطقة المحيط الأطلسي.

رواية "القتل على مستوى رفيع" ورواية "أغنية قميص" المنشورتان عام ١٩٥٣ تصفان عددا من اللجان المؤدبة لدرجة البرود والمنقسمة إلى فصائل جائعة للسلطة تمثل مصالح إدارات متنافسة. ومن الألاعيب الشائعة في هذا المضمار اللجوء إلى حبس المعلومات الحيوية عن هذه اللجنة أو تلك سعيا نحو احتكار السلطة على نحو ما وصفه بازيل ديفيدسون بقوله "قاعدة الثلاثة". وبرغم أن القواعد الحكومية لم تكن تساند هذه الفكرة إلا أن العادة كانت تقضي بأن الضابط الذي يعمل تحته ثلاثة من رتبة كابتن ينبغي أن يحمل رتبة ميجور، والضابط الذي يرأس ثلاثة ميجورات يصبح كولونيل، وثلاثة كولونيلات لا بد وأن يترأسهم بريجادير، وهكذا. برغم أن القاعدة أصبح من الصعب تطبيقها عند أقصى القمة من السلم، ولكن كان الأمر الباعث على مزيد من القلق بأكثر من آليات السلطة هو أثر البيروقراطية بكل تفاهتها.

كتب سايكس "هنا يحل محل العالم المتحضر أسوأ الصراعات وأشدها بغضا. هنا نقترب من الأحداث الكبرى في تواصل يومي مع الرجال الذين سوف يذكر التاريخ أسماءهم، ومع ذلك لم نكن لنبدو وكأننا نناقش أي شيء، بل هي السوابق المتبعة والإجراءات الجامدة وأمور التنظيم الأشد تفاهة".

ثم زاد الموقف سوءا في سنة ١٩٤٣ عندما لم تعد لقيادة الجيش بالقاهرة نفس الأهمية أو الجاذبية التي كانت تتمتع بها منذ سنة مضت، وبالنسبة لضابط نظامي كان من مزايا نشوب حرب طويلة الأجل أنها جديرة بأن توصله إلى ترقية سريعة، وكانت قيادة الجيش الآن قد باتت حافلة بضباط يحملون رتبا ويتقاضون مرتبات متضخمة بفعل الحرب دون أن يكون لديهم ما يعملون، ولم يكن مستبعدا أنهم حاولوا الحفاظ على وظائفهم، ولا كان مستغربا تمسكهم بأصول التسلسل الهرمي، وقد أصبح ذلك بمثابة كفاح يزداد فيه روح

التنافس، بل والتباغض وخاصة عندما كان القتال الحقيقي يبتعد أكثر وأكثر عن قيادة الجيش البريطاني في مصر.

غير بعيد عن مقر قيادة الجيش كان مقر دائرة العمليات الخاصة في القاهرة التي تقع في عمارة تسمى عمارات رستم، ومن الناحية السياسية كانت تتلقى توجيهاتها من لندن، بينما كان كانت قيادة الجيش تمارس سيطرتها على العمليات من خلال لجنة العمليات الخاصة. وكتب بيكام سويت سكوت يقول "قلما كان الجو السائد لائقا وكثيرا ما شعر ممثلو القوة ١٣٣ بأنهم يعاملون وكأنهم سجناء في محتجز أو معتقل أكثر من كونهم أعضاء في لجنة* برغم أن أنشطة دائرة العمليات الخاصة كانت من السرية لدرجة أن الحاضرين كانوا دائما أقل من عشرين فرد، وكلهم كانوا يتخذون سمت الذكاء اللامع الذي لم يكن يعرفه مكان سوى قاهرة زمن الحرب". وكتب سويت سكوت يقول إنه لا ينسى قط نظرة الرعب التي تبدت على وجوههم عندما طلب من الكولونيل توم بارنيز أن يسرد آخر الأنباء التي جاءت من اليونان. كان بارنيز قد عاد لتوه من جبال إيبيروس وكان زيه متسخا وأرسل لحية سوداء هائلة، وكانت الحادثة بأسلوبها هذا دليلا على الطريقة التي تدار بها الأمور: مركز القيادة للجيش يشرع في تهدئة الأمور وينشد الراحة لنفسه، بينما كانت دائرة العمليات السرية الخاصة هي التي ينبع منها الحمية والنشاط. وبرغم قاعدة نشر الوثائق بعد ثلاثين سنة، فإن القليل جدا من الوثائق التي تخص هيئة العمليات الخاصة (السرية) تم الإفراج عنها. وفيما يتعلق بملفات العمليات السرية

---

* من الطرق التي لجأت بها دائرة العمليات الخاصة لحماية سريتها التخفي خلف وابل من الأسماء الكودية مثل مو ١ ومو ٢ أو "الشركة" وقرب نهاية الحرب اكتسبت اسم القوة ١٣٣. على أن المنظمة يشار إليها في سطورنا هذه بوصفها العمليات الخاصة القاهرة، والعمليات الخاصة لندن، تحاشيا للخلط.

الخاصة في القاهرة، فمن المشكوك فيه إذا كانت قد تلقت وثائق على الإطلاق لها قيمة حقيقية فقد شهدت مرحلة الورطة في يوليه ١٩٤٢ إحراق عدد كبير من السجلات، ثم صدر الإذن بإحراق المزيد من ملفات العمليات الخاصة - القاهرة، ونفذ ذلك في عام ١٩٤٥. وهذا النقص في القرائن الوثائقية جعل كلا من العلماء والدارسين ثم المشاركين في تلك العمليات وقتها يتجادلون فيما بينهم. وفي نطاق كتابنا هذا، لا توجد سوى مساحة يمكن أن نثير فيها بعض أسئلة أو نصف جانبا من أهم اللحظات المثيرة للجدل، فيما كان كل سائق تاكسي قاهري يصفه بأنه "المبنى السري ".

في صيف عام ١٩٤٢ تولى لورد جلينكونر مسؤولية فرعي العمليات والدعاية في دائرة العمليات الخاصة بالقاهرة. وكان اللورد مسؤولا كذلك عن المكتب العربي (المخابرات البريطانية في المنطقة) ومعنى هذا أن نطاقا واسعا من واجباته كان يعني أنه لم يكن شخصية مألوفة بالنسبة لمرؤوسيه في عمارات رستم، بل كانوا يفضلون الإشارة إليه ببساطة على إنه "ربنا"! وبدا وكأنه يعمل في الدوائر العليا، وكان من المتوقع لمن يفوضهم في السلطات أن يستمروا في أداء واجباتهم دون العودة إليه في كل صغيرة وكبيرة، وكانت تلك سياسة تناسب تماما البريجادير سي. ج. كبلي.

جاء كبلي من قيادة الجيش بالقاهرة، حيث كان رئيسا لقسم المخابرات المسؤول عن رصد الإمدادات التي تصل إلى روميل، وقد رقي مديرا للعمليات العسكرية في الهيئة الخاصة بعد معركة العلمين، وكانوا يصفونه بأنه "آخر رجل يتولى هذا المنصب ويعرف كل ما يدور طيلة الوقت". وأيا ما كانت الانتقادات الموجهة إليه، وكانت بالمناسبة كثيرة، فلم يكن لأحد أن ينكر أن "بولو" كبلي كان ضابطا نشيطا فعالا، يتمتع بذهنية حادة لاستيعاب التفاصيل. كان له جسم ضخم أحمر البشرة ينضح دوما بعرق غزير، لا يلبس أكثر من الشورت والصديرية وكأنما زرعوه في مبنى رستم من الصباح حتى الليل، وكانت لهجة الحديث الخشنة العدوانية التي اتبعها مع مرؤوسيه هي السبب في

الرفيعة التي عاشها تشارلس جونستون لم تحل بينه وبين كتابة الشعر، ولكن لم يكن قد نشر شيئا منه في مصر، وعندما التقى إيف كوهين ودوريل في الاسكندرية في يونيون بار وذهبوا في اليوم التالي إلى مكتب الصحافة في شارع طوسون، سأل دوريل "ماذا حدث؟ لقد وصلت منذ سنة وقيل لنا إنك تقرض الشعر، ومنذ ذلك الحين ظللت تأوي إلى زاوية معتمة تماما. على أن جونستون أحجم عن أن يوضح أن حياته في القاهرة لم تكن في زاوية من نسيان، لكن أسعده رغبة دوريل في أن يرى أشعاره، فجلس في مكتب صغير ليطبعها "لاري جاء بعد فترة وحدق في وجهي بما يشبه الذهول قائلا: لكن أن لك أنيّ تطبعها هكذا من الذاكرة؟ إنني لا أستطيع أن أتذكر كلمة واحدة من أشعاري ".

كتب دوريل إلى صديقه هنري ميلر في ربيع عام ١٩٤٤ قائلا "إن الشعر الذي أنقب عنه في هذه الأيام شعر كئيب وخبيث وكأنه لحم الخنزير الفاسد". ظلت رسائله تموج بالغض إزاء تفاهة الشرهين إلى المال في الاسكندرية، وكم كان يحن إلى الخروج من مصر، مع ذلك فإن ديانا جولد (التي سوف تتزوج فيما بعد العازف يهودي مينوهين) كانت في مصر مشاركة في رواية الأرملة الطروب من إخراج سيريل ريتشارد، ما لبثت أن تشكل لديها انطباع مختلف تماما. كان روبين فيدين قد أبلغ ديانا في القاهرة أن عليها مقابلة دوريل، وابتهج كل منهما بصحبة الآخر، وعندما كانا يتمشيان في الشوارع أو يجلسان للحديث في المقاهي شعرت بأن المدينة على هواها بكل مقياس. و "ارتديت الاسكندرية وكأنها قبعة خفيفة". من ناحيتها شعرت إيف بمرارة إزاء اهتمام دوريل بالنساء الأخريات وأبلغ دوريل ميلر أنها برغم فهمها الكامل لنصوص الطاو الموروثة عن الحكيم الصيني القديم لاو تسي "فإن هذا لا يمنعها من أن تخمش وجهي لكي تحتج على الخيانات التي لا تكاد تعني شيئا وسط هذا المكان، وفي ظل هذه الظروف، تماما كما أنني لا أعني شيئا لا أنا ولا هي ولا حتى عمود بومبي "

بعد الحرب، ذهب دوريل وإيف كوهين إلى رودس، حيث عين دوريل مديرا للعلاقات العامة، وفي عام ١٩٤٧ عادا إلى مصر للزواج، لكن هذا اقتضى كميات هائلة من المستندات والأوراق، فبرغم أن شهادة ميلاد إيف كوهين كانت سليمة وأصولية، إلا أن عائلتها التي كانت في الاسكندرية تعيش على مدى أجيال، إنما جاءت أصلا بوصفهم مهاجرين، ولم يحصلوا قط على الجنسية المصرية ولا على غيرها، وهكذا كانت إيف كوهين من الناحية الرسمية "أجنبي بلا جنسية" .

في الوقت نفسه، كان أبواها معارضين تماما لفكرة زواجها من دوريل لدرجة أنهما كانا على استعداد لإعلان أن إبنتهما مجنونة وممسوسة، بل واستطاعا أن يضما إلى صفهما كبير حاخامات الاسكندرية. وزادت الأمور سوءا عندما تعين على إيف أن تهرب إلى طنطا حيث وجدت ملجأ مع صديق دوريل القديم، بول جوتش الذي كان كان تلقى برقية من دوريل تقول "احجز هذه الفتاة في الساحة ولا تجعلها تغيب عن نظرك لحظة". والحاصل أن الحاخام استطاع تهدئة خواطر والدي إيف وأنجزت الأعمال المكتبية وتم الزواج في القاهرة، ولما كانت شهادة زواجهما لم تبد براقة بما يكفي، وحتى ترتفع مكانتهما في عيون والدي إيف، أقنع دوريل صديقا في السفارة بأن يزين الوثيقة بأكبر وأفخم خاتم أحمر استطاعت السفارة البريطانية أن تمهرها به.

خلف أبواب مغلقة
(الجيوش الخاصة - القاهرة)

''مشكلة الحرب أنهم ينصّبون أناس مثلك ليكونوا مسؤولين عن أنـاس مثلـي. إن لك قلبـا صناعيـا مثـل أسنانك سواء بسواء ''. كـابتن كريسـتوفر سـايكس - مخاطبا على ما قيل - البريجادير س. م. كبلي

مئات نحن من أصلب الفتيان
قد دربونا على فنون الحرب والطعان
وخلفونا تحت رحمة
السجون واليونان
وإمرة القائد رافع اللواء
صاحب المعالي واسع الثراء
ونحن بلا شغلة ولا مشغلة
وتلك يا صاحبي هي المشكلة
نحن عصبة معقودة الخناصر، فينا
من كل شعب صالح وخاسر
فلا الخارجية سائلة فينا
وأمرنا بات حديثا للمدينة
وأحسن الأمور أن نغلق الأبواب

فنحن بلا شغلة ولا مشغلة
وتلك يا صاحبي هي المشكلة.

أغنية حول الجيوش الخاصة بالقاهرة من تأليف جورج مورتون

أيام القاهرة العظيمة بوصفها قاهرة زمن الحرب، وبوصفها مركزا للسياسة الدولية والإدارة جاءت بعد معركة العلمين. كان مكتب وزير الدولة (البريطاني) هو محور كل البعثات الدبلوماسية البريطانية في الشرقين الأدنى والأوسط، وكذلك كان مركز تموين الشرق الأوسط يتولى تنسيق الإمدادات من حلب إلى الخرطوم، ومن دمشق إلى طرابلس. كل جنسية في أوروبا المحتلة كان لها فرعها الوطني من الصليب الأحمر ومكتبها العسكري في مدينة القاهرة. كانت أيضا مركز الحكومة اليونانية في المنفى، وموقع ملكهم الشرعي جورج من مارس ١٩٤٣. وفي أغسطس جاء بيتر (بطرس) ملك يوغوسلافيا إلى مصر ليصبح على اتصال أوثق بالأحداث في بلاده. هكذا كان بالقاهرة ثلاثة ملوك بالإضافة إلى ملك مصر نفسه (جون بينتون ركب مصعدا ذات مرة مع الثلاثة جميعا)، وكان من الطبيعي أن يستدعي تقدم الحرب ناحية الغرب وجود مقار أخرى للقيادة كان أبرزها مقر قيادة القوات المتحالفة في الجزائر، لكن مقر قيادة الجيش البريطاني في القاهرة ظل محتفظا بأهميته بوصفه قاعدة إمداد وتموين ومحورا لتنسيق العمليات المنفذة في الشرق الأوسط ومنطقة البحر الأبيض المتوسط وشمال أفريقيا.

بعد العمل تحت قيادة الكولونيل ثورنيل بين عامي ١٩٤٠ و ١٩٤١ أمضى كريستوفر سايكس سنة في فارس قبل أن يعود إلى مقر قيادة القوات الخاصة بالقاهرة. كتب روايتين حول قيادة الجيش البريطاني وقيادة القوات الخاصة في القاهرة وطبقا لشاهد عيان واحد على الأقل، فإن كلا منهما دقيقة بصورة تبعث على القلق. كتب بيكام سويت سكوت "لا أحد ممن لم يشهدها يمكن أن يتخيل جو الغيرة والتشكك والتآمر الذي تفاقمت معه العلاقات بين

عدم جعله شخصية شعبية، لكن كبلي ما كان ليكترث في قليل أو كثير، كان من بناة الامبراطورية، وعلى الأقل تولى العمل الذي أتاح له نطاقا كاملا ليثبت فيه مواهبه وطموحاته.

قبيل تعيين كبلي في منصبه بأشهر قليلة قرر رؤساء الأركان في لندن أن توفد إلى يوغوسلافيا بعثات من الخدمة الخاصة (السرية) لكي تجمع مزيدا من المعلومات حول مقاومة الأنصار. كان للملكيين كان لهم مقاومتهم الرسمية التي تساندها الحكومة اليوغوسلافية في المنفى كما تدعمها بريطانيا وكان يقودهم الكولونيل دراجا ميها لوفيتش. وتتركز في صربيا، ومع ذلك كانت التقارير تتوالى بأن جماعات من حرب العصابات المستقلة عن ميهالوفيتش تعمل في كل من سلوفينيا وكرواتيا.

ولكي يتم الاتصال بهم توجهت هيئة الخدمة السرية إلى كندا، حيث كان قد هاجر في الثلاثينات إليها عناصر كثيرة من الكروات. وكان الكروات الذين طلبت مساعدتهم في هذا الأمر شيوعيين جميعا، مما جعل المفاوضات دقيقة إلى حد بالغ، إذ كان يتعين قطع تعهدات لهم بغير معرفة رسمية من جانب الملك أو الحكومة اليوغوسلافية في المنفى التي كانت معادية للشيوعيين ومؤيدة للصرب. وفي أغسطس بدأ كروات كندا رحلتهم الطويلة عبر البحر من مونتريال إلى السويس عن طريق رأس الرجاء الصالح. وبعد النصر في العلمين الذي تحقق في شهر أكتوبر، تمت واحدة من أنجح عمليات القوة السرية الخاصة وهي تدمير جسر جورجا بوتاموس يوم ٢٥ نوفمبر مما أدى إلى وقف سكة حديد أثينا - سالونيكا لمدة ٣٩ يوما، مما أعاق بشدة إمدادات روميل إلى شمال أفريقيا وشجع على توقعات بأن ثمة صعودا مثيرا ستشهده أنشطة محاربي العصابات في البلقان.

وبفضل أعماله السابقة، ظل اسم كبلي مدرجا على قائمة التوزيع بالنسبة لوثائق المعلومات الفائقة السرية، وفي أعقاب تعيينه في منصبه بالقاهرة انغمس في غمار سلسلة من عمليات رصد الرسائل والمعلومات الألمانية التي

كانت تشير جميعا إلى القتال مع الأنصار (في يوغوسلافيا). وكان كبلي قد وضع فريقين من موظفيه للعمل في أنشطة الرصد هذه. أول فريق كان يتولاه بازيل دافيدسون وهو عنصر مغامر له أسلوب استعراضي منفتح على الجميع، وكان يعمل صحفيا في دار "ستار" عندما جندوه لحساب العمليات السرية الخاصة، وبعد مهمة في المجر استطاع أن يهرب فيها أمام تقدم الزحف الألماني، أصبح رئيسا لقسم يوغوسلافيا في الهيئة السرية. أما الفريق الثاني فكان يتولاه الكابتن (السير ويليام الآن) ديكين، وهو أكاديمي كان يدرس التاريخ قبل الحرب في كلية وادام في أكسفورد، وكان بدوره يعمل مساعدا لتشرشل في البحوث التي أجراها عندما وضع سيرته عن دوق مارلبورو.

كان الغرض من الدراسات التي أجراها دافيدسون وديكين على معلومات الرصد الألمانية - التي بدأ الحصول عليها في أعقاب وصول الثاني في أواخر عام ١٩٤٢ هو تحديد مواقع آمنة في يوغوسلافيا لإسقاط بعثات جديدة من خلال استخدام معلومات المحور ذاتها للتأكد من كيفية انتشار قواته في يوغوسلافيا. أما ما كشفت عنه فهو أن ثمة تسع فرق كانت في المناطق التي يسيطر عليها ميهالوفيتش، بينما كان هناك ثلاثون فرقة تزيد قليلا على نصف مليون فرد موزعة في بقية أنحاء البلاد. وكان من الواضح أن قوام قوات المحور قد استطاعت أن تحيّدها بقية منظمات المقاومة. وعندما وصل تشرشل إلى القاهرة في طريق عودته من الدار البيضاء تناول غذاءه مع ديكين يوم ٢٨ يناير وسأل رئيس الوزراء عما يفعلون، وجاء الجواب مثيرا للغاية لتشرشل، ومن ثم أمطر ديكين بتافصيل التساؤلات، وكانت النتيجة هي استدعاء البريجادير كبلي إلى مقابلة في نفس المساء، وعندما وصل كبلي كان معه ورقة موجهة إلى رؤساء الخدمات مع نسخة إلى ريتشارد كاسي وزير الدولة. الهدف الرئيس لهذا التقرير كان توفير المزيد من الطائرات لهيئة الخدمة السرية - العمليات الخاصة، فبغير أن تساير المنظمة أحدث التطورات فإن أعمالها في البلقان تصبح عديمة الجدوى. ولخصت الورقة ما أمكن

استنتاجه من تقارير التصنت والرصد واقترحت إرسال معلومات إلى كل من ميهالوفيتش (الملكيين) والأنصار (الشيوعيين وحلفائهم) وكانت تلك أول وثيقة تقوم بهذه المهمة، ويقال إنه لو لم تؤازر بريطانيا العظمى الأنصار في تلك اللحظة لفعل ذلك عاجلا أو آجلا إما الأمريكيون أو الروس. وقد طلب تشرشل نسخة أخذها معه وهو عائد إلى لندن.

منذ ذلك الحين تغيرت مهمة ديكين ودافيدسون فيما يتعلق بعمليات الرصد والتصنت، فبدلا من تحديد المواقع الخالية من الألمان، شرعوا في رسم المواقع والأنشطة التي يرابط فيها محاربو العصابات من سلوفينيا وكرواتيا.

على أن هيئة العمليات السرية الخاصة في لندن قاومت بشدة فكرة التغيير في السياسة، وما كان من لورد سيل بورن الذي تولى المسؤولية بعد هيو دالتون كوزير للمجهود الحربي الاقتصادي، ثم أصبح الوزير المسؤول عن الخدمات السرية الخاصة، أن توافرت لديه القناعة بضرورة دعم ميهالوفيتش على حساب كل جماعة أخرى. من هنا اختلف بشدة حول أي تحالف مع الشيوعيين حتى برغم أن محاربي العصابات من كرواتيا وسلوفينيا لم يكونوا جميعا شيوعيين. رؤساء هيئة أركان الحرب كانوا بدورهم ضد الفكرة إذ لم تكن تتوافر طائرات كافية لتزويد الكروات والأنصار بالأمر المطلوب، لكن تشرشل كان مصمما على أن تتوافر الطائرات أمام الخدمة السرية الخاصة، وفي الوقت المناسب انضمت عشر من طائرات هاليفاكس إلى محرري المنظمة الذين أنهكهم الجهد وأضناهم العمل.

كروات كندا وصلوا القاهرة في شهر فبراير في ظل أقصى قدر من السرية، وأخذوا إلى فيلا قرب فندق مينا هاوس، وكان قوام المجموعة نحو ١٢ رجلا، من الطبيعي أن كانوا يتحرقون شوقا لبدأ الإسقاط في يوغوسلافيا، لكن أجبروا على البقاء في الفيلا قرابة شهر حيث كانوا يزودون بالمعلومات والتعليمات من جانب كل من دافيدسون وديكين وجيمس كلوجمان.

كلوجمان كان قد حصل على شهادة في اللغات الحديثة من كمبردج وأصبح عضوا في تلك المجموعة من المتحمسين من الشيوعيين الشباب التي ما لبثت أن حققت شهرتها العاتية من خلال جي بورجيس ودونالد ماكلين (من أشهر جواسيس المرحلة)، وبين عامي ١٩٣٥ و ١٩٣٩ كان سكرتيرا لرابطة الطلاب العالمية المناهضة للحرب والفاشية، وبهذه الصفة سافر كلوجمان إلى الشرق الأوسط، وإلى البلقان ثم إلى الصين حيث التقى مع ماوتسي تونغ.

وبعد تجنيده في الخدمة العسكرية الملكية (رفضت كلوجمان انتهاك ميثاق عدم الاعتداء الموقع بين ستالين وهتلر، ولذلك لم يتطوع للحرب) نقل إلى هيئة المخابرات. وفي القاهرة التحق بهيئة العمليات السرية الخاصة ككاتب نفر، وذات يوم جاء بقدح من الشاي إلى الكولونيل تيرينس آيري (سير تيرينس فيما بعد) وكان آيري قد جاء إلى الهيئة في عام ١٩٤١ في إطار أول دفعة من الضباط من قيادة الجيش بالقاهرة، واكتشف أنه كان زميل دراسة مع الجندي النفر، وتذكر زميله بوصفه طالبا لامعا بشكل استثنائي وتصور أن من الحمق تبديد مواهب كلوجمان وهو في تلك الرتبة المتدنية، ثم أرسل إلى لندن طالبا تصريحا أمنيا قبل ترقيته، وكانت ملفات الأمن قد أودعت في سجن ورموورد سكربس لحفظها في مكان أمين عند بداية الحرب، لكن الكثير منها دمر عندما قصف المكان أثناء الغارات النازية على لندن، فجاءت رسالة تقول ألا شيء بحق كلوجمان، الذي رقوه بعد ذلك إلى رتبة كابتن.

ولو كانوا قد أجروا التدقيقات الأمنية كما ينبغي، لكان من المستبعد جدا أن يستخدموا كلوجمان في منظمة سرية وحساسة من الناحية السياسية. إن اتحاد الطلاب العالمي كان معروفا بأفكاره الشيوعية، حتى ولو كان قد تجنب عن حكمة الاعتراف بذلك علنا، ومع ذلك كان كلوجمان يعمل بجد واجتهاد وضمير وخلق. معرفته بالجماعات المناهضة للفاشية في البلقان التي كان قد التقاها في عقد الثلاثينات، وإلمامه بكيفية تشكيلات الخلايا الشيوعية أعطت

عمله - ولا سيما محاضراته لتوعية العملاء البلقانيين - بُعدا كان يفتقر إليه الآخرون، وبحلول صيف ١٩٤٣ كان قد عين ضابط مخابرات.

هناك من المحللين ومن بينهم المؤرخ الأمريكي ديفيد مارتن صاحب كتاب يدافع فيه عن ميهالوفيتش، من يتصور أن وجود كلوجمان في هيئة الخدمة السرية والعمليات الخاصة بالقاهرة إنما يشير تلقائيا إلى اختراق شيوعي، بمعنى أنه كان شيوعيا ملتزما، وإنه كان أداة من أدوات المخابرات السرية السوفييتية. ومن أغسطس ١٩٤٣ كان هناك مفوضية روسية بالقاهرة، ومن ثم كان يتاح له سبل الاتصال ولكن حتى تفتح ملفات المخابرات السوفييتية للدراسة العلنية لا سبيل إلى إثبات ذلك بطريقة أو بأخرى. وعلى خلاف الذين عرف أنهم يعملون لحساب المخابرات السوفييتية في ذلك الوقت، فإن كلوجمان لم يكن ليختبئ من خلف ستارة دخان تتمثل في إعلان نوازع يمينية، لكن مؤيدي نظرية الاختراق الشيوعي لهيئة العمليات السرية بالقاهرة يعتقدون أن أي معلومات مخابرات حول أنشطة ميهالوفيتش المعادية للألمان كان يحجزها كلوجمان عمدا في القاهرة، وهذا هو الذي أدى إلى قرار الحكومة البريطانية بأن تتخلى عن الملكيين لصالح الشيوعيين في يوغوسلافيا.

تم إسقاط أول مجموعة من كروات كندا بالمظلات في يوغوسلافيا ليلة ٢٠-٢١ أبريل وكانت عمليتهم فنية بحتة تتمثل في تحديد مواقع مجموعات المقاومة في المناطق الرئيسية من كرواتيا التي سوف ترسل إليها بعثات بريطانية بأسرع ما يمكن. وشاء الحظ أن يتم إسقاطهم على ما يكاد يكون أعلى مقر قيادة تيتو مباشرة.

كان تيتو قد قاد المقاومة الشيوعية منذ غزو ألمانيا لروسيا في يوليه ١٩٤١ عندما أبلغ الكومنتيرن (عصبة الشيوعيين الدوليين) جميع أعضاء الحزب الشيوعي المخلصين بأن يحاربوا ألمانيا ليل نهار، وأيا كانت التكاليف لكي يخففوا الضغط عن روسيا. في بادئ الأمر شكل الملكيون (الستنيك) بقيادة ميهالوفيتش والأنصار (البارتيزان) بقيادة تيتو تحالفا مضطربا بوجه أول

محاولة وحشية من جانب الألمان لسحق المقاومة، لكن هذه الشراكة ما لبثت أن تحطمت، ومنذ عام ١٩٤٢ فصاعدا سادت حالة من الحرب الأهلية بين الفريقين إذ كانا يعرفان أن الألمان سوف يذهبون عاجلا أو آجلا وأن المعركة الحقيقية من أجل يوغوسلافيا فيما بعد الحرب هي بين الستنيك والأنصار.

وفيما يتعلق بالحرب العالمية الثانية فإن الفرق بينهما كان أن تيتو كان يركز جهوده على الألمان وكان لدى رفاقه الشيوعيين القليل مما يفقدون، لكن بالنسبة إلى ميهالوفيتش كان الأمر أصعب بكثير، فأي إجراء ضد الألمان معناه إطلاق العنان لعمليات انتقام وحشية ضد الفلاحين الصرب الذين كان قد تعهد الرجل بحماية ممتلكاتهم وأسلوب حياتهم.

البريجادير كبلي (الذي كان قد ترقى فور تعيينه مديرا للعمليات العسكرية) كان يغطي منطقتين في إطار هيئة العمليات السرية بالقاهرة، الأولى كانت العالم العربي وبلاد فارس، حيث كان ريك دومفيل وهو واحد من قلة من المستعربين الذين كانوا يستطيعون أيضا الغناء بالعربية مسؤولا عن تنظيم مهمات البقاء في تلك المناطق لحساب بريطانيا، أما المنطقة الثانية فكانت البلقان، ومن ثم كانت البعثات العسكرية إلى اليونان وألبانيا ويوغوسلافيا تدار على يد كل قسم مسؤول عن هذا البلد أو ذاك، وكذلك الأمر بالنسبة للبعثات المرتقبة التي كان يزمع إرسالها إلى بلغاريا والمجر ورومانيا.

الأقسام القطرية كان يرأسها الكولونيل جي تامبلين، الذي كان في فترة ما قبل الحرب مصرفيا في بولندا واستونيا ولاتفيا. كان يعرف هذه البلاد جيدا، وكانت زوجته من لاتفيا، ومن هنا انتشرت النكتة التي تقول إن الذي أرسله مسؤول جاهل بالأمور في لندن لم يكن يعرف الفرق بين البلطيق والبلقان. لم يستطع تامبلين أن يتعايش مع ضغوط وظيفته، وفي شهر أكتوبر سنة ١٩٤٣ وجدوه منحنيا فوق طاولة مكتبه ذات صباح وقد صرعته نوبة قلبية عنيفة، رغم أن هناك من كان يتصور أن سبب وفاته أشد وأخطر. طيلة ذلك اليوم انهال على كبلي مكالمات هاتفية داخلية مجهولة الأسماء تقدم تهاني متشفية إذ

كان من المعروف جيدا أنه كان يتباحث بشأن فعالية نوع بعينه من السموم المطلوب استخدامه في الأراضي المحتلة من الأعداء.

كان كبلي وتامبلين قد جمعا كوكبة موهوبة من الموظفين، فإلى جانب دافيدسون وديكين كان هناك المؤرخ هيو سيتن واطسون الذي تخصص في لغات البلقان، ثم السيدة هاسيوك التي كرست حياتها لدراسة لغة ألبانيا وعاداتها، وكان الكابتن ويجينتون يتولى تنظيم الطلعات الجوية التي كانت لا تتطلب - كما أكدت هيئة الخدمة السرية مجرد المهارة الإدارية، بل تقتضي كذلك مقدارا هائلا من الحذر والاحتياط. كان قد بدأ حياته العملية في شركة ترام نوتينهامشاير وبعد ذلك عمل في تنسيق الطلعات الجوية للخدمة السرية في كل أنحاء أوروبا. لكن برغم أن تامبلين لم يكد يتوقف عن العمل ورغم الإخلاص الدؤوب من جانب موظفيه، فإن هيئة العمليات الخاصة والخدمة السرية كانت تنمو بأسرع من اللازم، يأتي من يأتي ويذهب من يذهب بناء على إخطار لحظي إما بتولي وظيفة أخرى أو للهبوط بالمظلات داخل البلقان، وأي امرء ينجح كان يتلقى النذر اليسير من التوعية، وكثيرا ما كان لا ينال أكثر من خبطة على الكتف من باب التشجيع مع تطمين بأن المسألة لن تنسى. الإشارات المهمة كانت تتدفق كالسيل كل يوم، ولا تعرض في جانب منها على المختصين، بينما يتراكم كم هائل من البرقيات التي لم تفك شفراتها بسبب نقص مزمن في موظفي فك الشفرات.

من الناحية الرسمية كانت الهيئة ما زالت سرية، لكن حجم عملياتها واتساع نطاقه (كان يتبع كبلي رئيسها نحو ٨٠ عملية منفصلة في البلقان بحلول شهر أكتوبر) مما كان يعني أن طابعها في تغير من منظمة سرية إلى منظمة تزداد علانيتها. وفي ربيع ١٩٤٣ أصبحت مطالب كبلي من أجل توفير المزيد من التسهيلات والرجال والضباط والموظفين الإداريين، من الضخامة لدرجة أن قيادة الجيش في القاهرة بدأت في الشكوى. في الوقت نفسه كان

كبلي قد مس الجانب الخطأ في لورد سيلبورن، وكان السبب هو مسألة جوليان آمري.

جوليان آمري عمل ملحقا صحفيا بالسفارة البريطانية في بلجراد قبل الحرب، ثم جندوه في فرع "دال" وهو إدارة سرية في وزارة الحرب سرعان ما استوعبتها هيئة الخدمة السرية في عام ١٩٤٠. وكان تأييده للساسة اليوغسلافيين المجندين لحدوث انقلاب في وقت كان البريطانيون يساندون فيه رسميا الأمير بول الوصي على العرش، ينظر إليه بوصفه تمردا من جانب وزارة الخارجية، برغم أن الحوادث جاءت من بعد لتثبت صحة وجهة نظره. ومنذ يونيه ١٩٤١ كان آمري يعمل في قسم شؤون البلقان في هيئة الخدمة السرية مع تركيزه على يوغوسلافيا. ولم يكن تساوره رغبة في أن يقضي أيام الحرب مشدودا إلى مكتب، وأراد أن يضع خدمته ومعارفه في محك الاستخدام العملي بالميدان.

نال حرصه على أن يوفد في بعثة إلى يوغوسلافيا موافقة كاملة من جانب لورد سيلبورن، وعندما طلب الكولونيل س. بايلي أن ينضم إليه جوليان آمري في مارس سنة ١٩٤٣ في مقر قيادة ميهالوفيتش، مارس سيلبورن ضغطا على هيئة العمليات السرية بالقاهرة لصالح آمري. وبحكم الرتبة الكبيرة للبريجادير كبلي كان رد فعله قويا، فأرسل برقية شديدة العنف إلى لندن تقول إنه ضد هذا الأمر على طول الخط، فمن الناحية الأمنية يعارض أن يتم إنزال بالمظلات لشقيق خائن زنيم موجود في الأرض المحتلة من العدو.*

تملك سيلبورن الغضب إزاء هذه الاستجابة، ومنذ ذلك الحين فصاعدا ظل يتحين الفرصة لطرد كبلي من الخدمة، ولكن كان يمنعه مؤقتا النتائج المرموقة

---

* كان جون الأخ الفاسد لجوليان آمري قد أذاع عدة أحاديث من راديو برلين سنة ١٩٤٢ وواصل أعمال البروباجندا لحساب الألمان حتى نهاية الحرب، وقد اعترف بارتكابه جميع جرائم الخيانة العظمى وقت محاكمته، وتم شنقه في نوفمبر ١٩٤٥.

التي كانت تحققها إدارة البريجادير.

لم يكن هناك بين صفوف الخدمة السرية بالقاهرة من يتوقع أن يتم الاتصال مع الأنصار اليوغوسلاف بمنتهى البساطة أو اليسر. لهذا انتابت القاهرة موجة من الحماس والإثارة عندما تلقت إشارة من كروات كندا بأن تيتو على استعداد لقبول بعثة بريطانية. وأختير ويليام ديكين لقيادة واحدة من البعثتين المشتركتين الموفدتين إلى الأنصار وهو أمر ظل طي السرية من جانب مخابرات القاهرة لحين وقت الإرسال.

كانت مهمة ديكين بالإضافة إلى مناقشة الأهداف والإمدادات مع الأنصار والحصول على إجابات قدر الإمكان، أن يسأل تيتو ما إذا كان على استعداد لقبول بعثة بريطانية أكبر حجما وأشد أهمية يقودها ضابط بريطاني كبير. وكانت خطة كبلي تقضي بأن يكون الضابط من رتبة البريجادير أو ما فوقها ليقود جميع البعثات الرئيسية التي كان يوفدها إلى أوروبا المحتلة. وكانت الأسطورة السائدة هي أن جميع جماعات المقاومة ستكون سعيدة بأن يقودها ضابط بريطاني، وكلما كانت رتبته أكبر، كان هذا أفضل من حيث قيادته لها، لكن بازيل دافيدسون يعتقد أن كبلي كان يشجع الترقيات ضمن صفوف إدارته للعمليات الخاصة حسب قاعدة "الثلاثة" السابق وصفها لكي يزيد سلطات وأهمية الامبراطورية التي يتسيد عليها.

في ٣١ مايو بعث ديكين بإشارة من يوغوسلافيا تقول بأن تيتو على استعداد لقبول بعثة بريطانية أكبر حجما وأكثر أهمية، ووصلت الأنباء إلى لندن بعد أربعة أيام، وبات تشرشل قادرا عى أن يقرر التدخل شخصيا في شؤون هيئة العمليات السرية الخاصة، وبرغم صيحات الاعتراض من جانب كل من إيدن ولورد سيلبورن، فقد اختار الكابتن فيتز روي ماكلين ليكون ممثله الخاص لدى البارتيزان.

كان ماكلين يتكلم الروسية وربطته تجربة وثيقة بالشيوعية إذ كان السكرتير الثاني في السفارة بموسكو، وعند اندلاع الحرب قرر ماكلين أن يقاتل

ولكنه عرف أن وزارة الخارجية لم تكن لتخلـي رجالها إطلاقا لصالح الخدمة المسلحة، وكان السبب الوحيد المقبول لاستقالة دبلوماسي هو أنه يريد فقط الترشيح للبرلمان، وهذا بالضبط عين ما فعله ماكلين، إذ أصبح عضوا في البرلمان عن لانكستر، وبمباركة من ناخبيه تطوع في صفوف الخدمة المسلحة وجاء إلى الشرق الأوسط والتحق بسلاح الطيران الخاص وكان قد أوصى به معرّفون ممتازون من النوعية التي يقدرها تشرشل حق قدرها، ما بين راندولف تشرشل إلى ركس ليبر إلى سير أورمي سارجنت، ثم يشاء القدر أيضا أن يكون ماكلين جاهزا للتكليف على الفور باستمرار.

في أوائل يونيه ألغيت عملية كانت تشمل فصيلة من سلاح الطيران الخاص تاركة قائدها الكابتن ماكلين دون عمل تقريبا، فما كان منه إلا أن ألمح إلى ركس ليبر السفير لدى الحكومة اليونانية في المنفى منذ شهر مارس بأنه يتطلع إلى أن يهبط بالمظلة في اليونان إذا ما كان ثمة مجال لاستخدامه هناك. وأدى هذا إلى استدعاءات فورية إلى انجلترا حيث أبلغ بأنه سوف يهبط بالمظلة في يوغوسلافيا ليترأس بعثة لدى الأنصار.

وفي شيكرز تلقى التعليمات من رئيس الوزراء شخصيا الذي أبلغه أن يعود إلى مصر حاملا رتبة البريجادير، ولم يقدر لوصفه شخصيا لما حدث بعد ذلك أن يكشف عنه النقاب إلا بعد ثلاثين سنة من ذلك التاريخ. وقد أبلغت هيئة العمليات السرية الخاصة ماكلين بأن ليس هناك طائرات مقرر أن تتجه إلى القاهرة بسبب سوء الأحوال الجوية، وبعد أيام وجد أن هذا غير صحيح، وساعتها، وفي أعقاب مقابلة غير عادية مع لورد سيلبورن الذي حاول أن يحمله على أن يقسم قسم الولاء لهيئة العمليات السرية الخاصة على أساس أن هذا الولاء قد يوصله إلى نيل نوط الامتياز، استدعى رئيس الوزراء ماكلين مرة أخرى. وفي داوننج ستريت، عرض عيه تشرشل رسالة كان قد تلقاها من القائد العام في الشرق الأوسط، وفيها أعرب الجنرال ويلسون وهو صديق

شخصي لماكلين عن رأيه بأن ماكلين غير مناسب تماما لهذا العمل، ثم عرض عليه رئيس الوزراء رده على الرسالة في هذه العبارة: "افعل ما تؤمر ".

في القاهرة كان جنرال ويلسون قد ساءه تماما تعريض تشرشل به، وهو أمر كان يعرف أن ليس له ما يبرره على الإطلاق، وعندما وصل ماكلين حكى لويلسون عن الرسالة الأولى، فأدرك القائد العام ساعتها أن هناك من أرسلها باسمه وبغير علمه، وحينئذ قيل لماكلين أن يعتبر نفسه بريجادير حسب النشرة الصادرة، وبعد أن وضع على زيه العسكري ثلاث نجوم وتاجا، توجه إلى زيارة البريجادير كبلي. المعين حديثا الذي كان يمتلك كل الثقة في نفسه إذ كان وسيما مرحا فضلا عن نيله الرتبة من جانب رئيس الوزراء شخصيا، سمع أشياء غريبة للغاية بشأن الخدمة السرية من واقع محادثاته مع ريكس ليبر، لكنها لم تكد تعده لتجاربه التي خاضها في مبنى رستم بالقاهرة.

أدخلوا ماكلين إلى مكتب حيث كان كبلي يجلس مرتديا القميص والشورت والجوارب واضعا قدمه فوق الطاولة، واستهل كبلي الحديث قائلا "كيف تجرؤ على أن تأتي هنا بهذه الملابس؟" أجاب ماكلين أنه كان يتصرف بناء على أوامر القائد العام. فسئل من جديد "لماذا ذهبت لترى القائد العام؟" وأجاب ماكلين لأنه طلب إليه ذلك، فقال كبلي إنه "لو أرسل إليه القائد العام مرة أخرى فعليه ألا يذهب"، وأجاب ماكلين إنه كجندي عامل سوف يذهب بكل تأكيد، ولم تكن تلك بداية واعدة، ومن ثم فقد جاء تعيين ماكلين بمثابة كارثة بالنسبة للبريجادير كبلي الذي لم يكن يمتلك سلطة على ضابطه الشاب باعتباره كان ممثلا شخصيا لتشرشل ومن ثم كان سيتولى إدارة أهم عملياته قاطبة. وكانت تلك هي الخطوة الأولى لأن تتحول هيئة العمليات السرية الخاصة فتصبح لا أكثر من إدارة مخازن عسكرية توفر الطلعات الجوية وعاملي اللاسلكي، بينما يتحول كبلي، ولا فخر، إلى مدير عموم المستودعات.

رفض كبلي أي سبيل لإطلاع ماكلين على ملفات الهيئة السرية، وأبلغه بأنه بصرف النظر عما قد يقوله تشرشل أو جنرال ويلسون فإن كبلي يؤكد أنه

لن يطلع عليها قط. وعاد ماكلين حانقا إلى مكتب الجنرال ويلسون ليطلب منه إرسال إشارة إلى رئيس الوزراء تفيد أنه لن يتولى الوظيفة إذا ما تداخلت في الأمر هيئة الخدمة السرية، وفي ذلك الوقت كان القائد العام يشاركه في جلسته فيلاكوت مدير الحرب السياسية في الشرق الأوسط، الذي كان من مهامه نشر الشائعات حول القاهرة لصالح قضية الحلفاء. وكان هناك في الخدمة السرية بالقاهرة من طلب إلى فيلاكوت أن يشيع أن ماكلين شخص معروف بالشذوذ وتعاطي الخمور، وأنه كان يبدي نزعة مستمرة من الجبّن والاستهتار طيلة عمله مع سلاح الطيران الخاص. ولما صعب علي فيلاكوت أن يصدق ما سمعه، فقد ذهب يلتمس تأكيدا لذلك من ويلسون على أن الشائعة السخيفة لم تتعد هذا النطاق، ولكن ويلسون لم يكن يشأ تفويت هذه المسألة، وفي اجتماع عاجل دعا إليه القائد العام وحضره وزير الدولة ومعه ماكلين ولورد جلين كونر من الخدمة الخاصة، قال الجنرال ويلسون للورد إن منظمته "فاسدة حتى النخاع" ثم كتب بعدها تقريرا سيئا إلى لندن بحق هيئة العمليات السرية الخاصة.

بعد ذلك أصبح ماكلين مسؤولا مباشرة أمام القائد العام، لكن كان لا يزال عليه أن يعوَل على الخدمة السرية لكي تحمله إلى يوغوسلافيا، أما المؤسسة المذكورة وقد فشلت في وقف مهمته، فقد وافقت على مضض أن تطلع ماكلين على مختارات من ملفاتها بشأن يوغوسلافيا رغم أن أيا منها لم يكن مستكملا حتى تاريخه باعتبار أنه كانت تمضي فترة ستة أسابيع على الإشارات البالغة التشفير. ومما كان له أهمية زائدة تلك السلسلة من المذكرات والبرقيات التي تتعلق بتعيين ماكلين وأكدت أهمية إحباط الأنشطة الخبيثة التي كانت تقوم بها منظمة وصفوها بأنها "بي إكس" (أو هي و. خ.)التي دهش ماكلين حينما عرف ما قيل عن صلات تربطه بها، وعندما سأل مساعده المؤقت ماذا تعنيه عبارة "بي إكس" هذه، جاءه الجواب إنها تعني وزارة الخارجية.

وفيما كان فيتز روي ماكلين داخلا في صدام مع البريجادير كبلي، كان ثمة أزمة في طور النشوء، وكان من شأنها أن تدمر هيئة العمليات السرية الخاصة فيما لو صح ما أرادته وزارة الخارجية، وكان موضوع النزاع هذه المرة هو اليونان: وزارة الخارجية كانت تؤيد ملك اليونان وحكومته في المنفى، ومن دواعي القلق الشديد اكتشاف أن الأمر لم يكن يقتصر على القوات الوطنية والجمهورية اليونانية في عمليات الخدمة السرية الخاصة، بل شاركت أيضا منظمات الشيوعيين اليونانيين "إيلاس" (كانت إيام هي الفرع السياسي، فيما كانت إيلاس الفرع العسكري لمنظمة أنشأها وسيطر عليها الحزب الشيوعي اليوناني). وكان هذا موقفا غير منطقي في ضوء العلاقات الودية المتزايدة بين الحكومة البريطانية وبين الشيوعيين في يوغوسلافيا، لكن كان ثمة خلافات بين الحالتين.

فبرغم أن كبار الدبلوماسيين في الخارجية البريطانية لم يشعروا بارتياح تام إزاء سياسات تيتو، إلا أن الرجل كان يتحرك في اجتهاد بطولي لم يملكوا إزاءه سوى الإعجاب، وكان من المفهوم أن الرجال يدفعون قائدا إلى المقدمة من هذا الطراز حتى ولو كان شيوعيا، كما أن عقليته المستقلة كانت تتناقض بصورة حادة مع العقلية الجامدة لأعضاء الحزب الستالينيين. لكن في اليونان كانت قوة منظمتي الشيوعية "إيام" و "إيلاس" – السياسية والعسكرية تنسج من خلال سلسلة من اللجان والمحاكم التي لا وجه لها ولا طعم يميزها، ومن هنا ساور البريطانيون إزاءها تشككا وريبة عميقين.

ولقد عمدت هيئة الخدمة السرية على إبقاء وزارة الخارجية والحكومة اليونانية في حال من التعتيم التام بشأن تعاونها مع المنظمتين الشيوعيتين في الميدان، سواء في القاهرة أو لندن، ويصف جورج تايلور اجتماعات اللجنة الأنجلو – يونانية على أنها مهزلة، إذ "من أجل ألا تثار مصاعب هائلة من جانب الحكومة اليونانية، كان همّ اللجنة الاقتصار على مناقشة الخطط المنفذة باليونان، والتي هي موضع قبول للحكومة اليونانية: أما العمليات الحقيقية

لهيئة الخدمة السرية الخاصة فلم يكن هناك من يتطرق إلى ذكرها على الإطلاق " .

وكان تبرير هيئة العمليات السرية الخاصة باتباع سياسة تختلف تماما عن سياسة وزارة الخارجية أو الحكومة اليونانية في المنفى يستند إلى توجيه أصدره تشرشل نفسه يوم ١٨ مارس، وأكد يومها رئيس الوزراء الأهمية التكتيكية للأنشطة التخريبية في اليونان قائلا إنه برغم ضرورة أن تعتمد العمليات السرية الخاصة باستمرار على الجماعات التي تؤيد الملك ووزراءه "لكن لا سبيل على الإطلاق إلى أن ترفض هيئة العمليات الخاصة التعامل مع هذه الجماعة أو تلك استنادا إلى مجرد أسباب تقول بأن العواطف السياسية لهذه الجماعة أو تلك تتعارض مع الملك أو الحكومة (اليونانية."...)

في يوليه سنة ١٩٤٣ طلب كبير ضباط الاتصال البريطانيين في اليونان، البريجادير إدموند مايرز الإذن للمجيء إلى القاهرة مع ديفيد والاس مساعده السياسي الذي كان عضوا في كل من أحزاب المقاومة الثلاثة الرئيسية، وكانت هذه الجماعات قد أقنعت بالعمل معا عندما تصوروا أن تحرير اليونان بات وشيكا، لكن الاستراتيجية البريطانية بتوجيه الضربة عن طريق اليونان بدلا من البلقان تطلبت تهدئة أنشطة المقاومة هذه، بل ووضعها في ثلاجة لفترة قد تدوم أشهر عدة إن لم يكن أكثر. ولقد حذر مايلز من أن هذا قد يؤدي بالتأكيد إلى ما يشبه الحرب الأهلية باعتبار أن الشيوعيين كانوا عاقدي العزم على تثبيت سيطرتهم على مقاليد البلاد بل وأقاموا بالفعل نواة لدولة حرة في الجبال وكان الطريق الوحيد لتفادي سفك الدماء هو إقرار أرضية مشتركة أصلب بين جماعات المقاومة وبين الحكومة اليونانية في المنفى.

أعطت الإذن هيئة العمليات السرية في القاهرة، وكان من المقرر أن يسافر الوفد إلى مصر بالطائرة، وفي اللحظة الأخيرة، وإذ أوشك الفريق على الإقلاع، أصر الفرع السياسي من الحزب الشيوعي على إرسال ثلاثة مندوبين آخرين ولم يكن من خيار أمام مايلز سوى أن يقبل، وبعث إشارة بالإخبار إلى

القاهرة برغم أنه لم يستطع انتظار الرد عليها، وهكذا وصل إلى القاهرة يوم ١٠ أغسطس وفد من ستة أفراد بالإضافة إلى كل من مايلز ووالاس.

وبرغم أن كل المعنيين كانوا قد حذروا من وصول وفد "الأندارتي" (مقاتلي المقاومة) إلى القاهرة، فلم يكونوا مستعدين على الإطلاق لا لحجم الوفد ولا لأهميته. إن ليير "أفضى به الأمر لأن يتوقع مجموعة صغيرة من فردين أو ثلاثة يأتون لتبادل أحاديث ودية ونوع من التشجيع، لكن بدلا من ذلك وصل ستة رجال يمثلون ثلاث منظمات، ويعتبرون أنفسهم بمثابة حكام اليونان في المستقبل " .

وفد المقاومة - "الأندارتي" كان موحدا حول نقطة واحدة وهي أنه لا ينبغي السماح بعودة الملك جورج الثاني إلى اليونان دون إجراء استفتاء شعبي. فالملك الذي كان قد أعلن بالفعل أنه سوف يعقد انتخابات في غضون ستة أشهر من العودة إلى اليونان رفض أن يغير موقفه. وكان يدعمه في ذلك كل من روزفلت وتشرشل، ولكن الحكومة اليونانية في المنفى التي كانت قد تشكلت بعد جهد جهيد من خلال سلسلة من أنصاف الحلول، كانت تكاد تكون منقسمة حول هذه المسألة وعاد وفد الأندارتي إلى اليونان خاوي الوفاض في منتصف سبتمبر، وفي غضون شهر واحد من عودته اندلعت الحرب الأهلية في اليونان.

وبقدر ما جهدت هيئة العمليات الخاصة في إحاطة أعمالها بالسرية وخاصة علاقاتها مع الشيوعيين اليونانيين، واستطاعت أن تحمل وفد "الأندارتي" جوا خارج اليونان لكي تلقي بهم وكأنهم قنبلة سياسية في القاهرة بقدر ما أحاق بها الملام، ولكن ويكام سويت سكوت يوضح أنها كانت أيضا بمثابة كبش فداء لموقف السلطات الأعلى المتذبذب: "صدمت السفارة عندما وجدت أن مقاتلي حرب العصابات ينبغي أن يكون لهم أي آراء سياسية تكتسي أي نوع من الأهمية، وصدم العسكريون عندما وجدوا أن نشاط حرب العصابات الذي طلب تنفيذه رؤساء الأركان ومقر قيادة الحلفاء يمكن أن يؤدي إلى مطالب

سياسية، وما كانت أي من الجهتين تبدو وكأنه يمتلك أي بديل إلا أن يضع الملام على عاتق هيئة العمليات السرية الخاصة لخلق موقف من هذا القبيل "

في عملية التطهير التي تلت ذلك أمروا لورد جلين كونر بالعودة إلى لندن، ووضعت هيئة العلميات السرية الخاصة في القاهرة تحت قيادة الجنرال و. ستاويل الذي كان قد تولى وظائف رفيعة عدة في وزارة الحرب وقيادة الجيش البريطاني في مصر، ولكنه لم يكتسب أي خبرة بالمنظمات السرية، وبعد أسابيع قليلة، ما لبث البريجادير كبلي الذي خرجت امبراطوريته من بين لديه، أن عاد إلى "الأعمال الروتينية "

فيتز روي ماكلين أنزل بالمظلات إلى مقر الأنصار يوم ١٧ سبتمبر نفس اليوم الذي عاد فيه وفد "الأندارتي" - المقاومة اليونانية إلى اليونان، وفي محادثات مع تيتو وبيل ديكين، وكذلك مع عناصر الأنصار النشطة في الميدان، عرف قدرا كبيرا من المعلومات عن تنظيم وأنشطة الأنصار وقدموا إليه كذلك الدلائل التي تثبت تعاون الستنيك (الكروات) ليس فقط مع الإيطاليين ولكن مع الألمان أيضا.

ثم غادر يوغوسلافيا مزودا ب "تقرير تفصيلي عن الموقف العسكري والسياسي كما عاينه من جاييس، فضلا عن قائمة من الاحتياجات من المعونات العسكرية". وفي القاهرة ناقش تقريره يوم ٢٥ نوفمبر على عشاء في كلوب محمد علي مع سير الكسندر كادوجان، وبعد ذلك استعرضه من جديد في اليوم التالي مع أنطوني إيدن، وقد أكد التقرير أن جيش التحرير الوطني الذي يقوده تيتو ينبغي الاعتراف به رسميا بوصفه قوة حليفة، كما ينبغي أن يكون زعيمه هو القوة والسلطة في يوغوسلافيا ما بعد الحرب، واقترح إرسال قدر كبير من المعونات الإضافية إلى الأنصار مع "وقف الدعم المقدم إلى ميهالوفيتش "

في سياق مؤتمر طهران الذي افتتح يوم ٢٨ نوفمبر أذن الكبار الثلاثة بإصدار بتوجيه عسكري يقول إن تيتو ينبغي تأييده إلى أقصى قدر ممكن ولم

يتطرق التوجيه إلى أي ذكر لميهالوفيتش الذي لم يتلق منذ ذلك الحين فصاعدا أي إمدادات بريطانية، بينما تلقى الأنصار في الأشهر الثلاثة الأخيرة من عام ١٩٤٣ ما يزيد على ألفي طن من الامدادات.

وبينما كان المؤتمر منعقدا، كان فيتز روي ماكلين قد عاد أدراجه إلى يوغوسلافيا وبعد أيام قليلة عاد مع بيل داكين ووفد من ثلاثة من قادة الأنصار وعاد رئيس الوزراء من طهران عبر القاهرة حيث اجتمع في صباح يوم ٨ ديسمبر مع كل من ماكلين وديكين (الذي رقي وقتها إلى رتبة ميجور)، ورالف (لاحقا سير رالف) ستيفنسون الذي كان قد عين حديثا سفيرا لدى الحكومة اليوغوسلافية في المنفى. وقد استقبلهم تشرشل في السرير بمنزل وزير الدولة، وقام ماكلين بتلخيص النتائج التي خلص إليها بأن مساهمة ميهالوفيتش في العمليات المعادية للمحور في يوغوسلافيا كانت تافهة، وأن أي عمليات تم الاضطلاع بها جاءت في جانب كبير منها بفضل جهود الضباط البريطانيين الملحقين بالكروات (الستنيك) وأكد كذلك قناعته بأن تيتو سيكون هو العامل السياسي الحاسم في يوغوسلافيا فيما بعد الحرب، وأن نظامه سيكون شيوعيا.

ولقد كتب ماكلين في "مناهج شرقية" يقول: جاء رد رئيس الوزراء ليحل كل شكوك، إذ سأل: "هل تعتزم جعل يوغوسلافيا وطنا لك بعد الحرب، فأجبته لا يا سيدي، فقال ولا أنا أيضا. والآن والحالة هذه كلما طامنت من قلقك حول شكل الحكومة التي سيقيمونها كان ذلك أفضل "

كان أهم القرارات المتخذة في طهران هو الاستعداد للهجوم التالي للحلفاء في شمال فرنسا بدلا من الهجوم شرقي المتوسط كما كان تشرشل يفضل. منذ ذلك الحين فصاعدا دخل ميهالوفيتش في حيز النسيان، ولم يكن ثمة أمل في إحيائه في شرق أوروبا التي تقرر "تحريرها"، ومن ثم سيطرت عليها روسيا السوفييتية. مع ذلك فمن أجل توضيح الأمور في ذهنه ظل رئيس الوزراء "تشرشل يستجوب بيل ديكين ساعات طوالا في اليومين التاليين، ثم كلف ديكين

بمهمة ثقيلة هي إبلاغ "ملكه" الشاب بيتر أن الحلفاء سوف يساندون تيتو من الآن فصاعدا.

أبلغ فيتس روي ماكلين أن مهمته لدى الأنصار سوف يجري توسيعها، وعاد إلى شقة بيتر سترلينج لكي يبحث عن المزيد من المجندين، وكانت جريدة دايلي اكسبرس قد وصفت ماكلين بأنه "الزهرة الناعمة" مما كان مبعث مضايقة بالغة له، ولكن مو السفرجي (المصري) كان أشد إشفاقا إذ كان يقول بوجادير فاين فيلو - البوجادير كويس كتير، ثم يضيف يوما ما سيحصل على المقصات مشيرا إلى السيف المتقاطع والعصا التي تزين رتبة الميجور جنرال. ولم يكن ثمة نقص في المتطوعين من أجل بعثة يوغوسلافيا بل كان من الضباط الأربعة المختارين راندولف تشرشل نفسه، وقد تصور ماكلين أن أسلوب راندولف المثير في المعيشة سوف يجعله قريبا من قلوب اليوغوسلاف، وكان بالتأكيد يمتلك من الشجاعة والتحمل ما يؤهله للنجاح في العمليات، ومع ذلك فلم يكن دبلوماسيا بطبيعته. فقبل الإيفاد إلى يوغوسلافيا كان على راندولف أن يلتقي مع الميجور فلاتكو فيليبيت ضابط الاتصال من جانب تيتو مع البعثة البريطانية الذي كان قد جاء بالطائرة إلى القاهرة مع ديكين وماكلين كعضو في وفد الأنصار اليوغسلاف، ورتبوا لمائدة غذاء لكي يلتقي فيها راندولف مع فيليبيت وشملت المأدبة الكابتن ديفيد سمايلي والميجور بيلي ماكلين الذي كان قد جهز أول بعثة لهيئة الخدمات السرية إلى ألبانيا.

ماكلين وسمايلي كانا في إجازة وأمضيا صباح ذلك اليوم في شراء هدايا من قصر أحمد سليمان للروائح في البازار، وكانا قد جربا عدة عطور على ذراعهما إلى حد أنهما كانت تفوح منهما أثناء الغذاء وكأنهما "اثنتان من البغايا". هنالك بدت على الميجور فيليبيت ملامح المأخوذ وتصور ديفيد سمايلي أن وصول راندولف سيصحح الانطباع السيئ الذي تركه هو وماكلين، لكن

أولى عبارات راندولف كانت: "حسنا ميجور فيلبيت، يبدو أن جماعة الستنيك عندكم يقومون بعمل رائع "

لم تكن تلك بالبداية الواعدة بحال من الأحوال نظرا لأن وظيفة راندولف تشرشل كانت ستكون ضابط العلاقات العامة بين تيتو وقوات الحلفاء، ولكنه شارك بالفعل في بعثتين إلى يوغوسلافيا أولاهما في البوسنة حيث مكث راندولف إلى أن اجتاح الألمان مقر قيادة تيتو في مايو، واضطر الأنصار إلى أن يشقوا طريقهم بالقتال إلى الخارج ويومها أعجبوا كثيرا بشجاعته في الانسحاب، أما تيتو وهيئة أركانه فهربوا إلى باري، ثم عادوا إلى يوغوسلافيا بعد فترة قصيرة.

وخلال إقامته في البوسنة كان راندولف تشرشل قد أدرك مدى الحاجة إلى ضابط اتصال كاثوليكي يستطيع إجراء اتصالات حصيفة مع الجالية الكاثوليكية الكبيرة، وشعر أن مصالح بريطانيا في يوغوسلافيا في الأجل الطويل يمكن خدمتها على أفضل وجه من خلال تشجيع هذه العناصر التي من المرجح أن تقاوم الذوبان داخل الكيان الشيوعي.

قرر راندولف أن "إيفيلين وو" هو الرجل المناسب لهذا العمل، فلم يكن فقط كاثوليكيا بل كان رفيقا ناشطا، إلا أن بعثتهما في كرواتيا ما لبثت أن منيت بإحباط وخيبة أمل شديدة، فمن سبتمبر إلى ديسمبر ١٩٤٤ ظلا يعيشان في بيت ريفي خارج قرية طوبسكو وإذ فرضت حياة من السأم على إقامتهما فقد أصبحا أكثر استفزازا وأقل تسامحا من المعتاد، وكان كل من وو وراندولف يبغضان الشيوعية، ولم يحاولا إخفاء مشاعرهما عن الأنصار، وفيما جاءت محاولات وو لاصطناع علاقات مع الكاثوليك المحليين محاولات أقل ما توصف به أنها فاترة، إلا أن أهم ما أنجزه وو في قرية طابوسكو هو أنه استغرق أسبوعا في أواخر شهر نوفمبر عكف فيه على تصحيح بروفات روايته "زيارة جديدة إلى برايزهد" وإلا فلم يكن ثمة ما يفعله سوى الإغراق في الخمر المحلية وفي نعي الذات.

شتـــــاء ١٩٤٣

ساسة وقراصنة

عندما وافق ستالين على حضور مؤتمر في طهران يضم الثلاثة الكبار، اقترح تشرشل على روزفلت أن يعقدا اجتماعا تمهيديا في القاهرة، ولكن الرئيس الأمريكي لم يشأ أن يذهب إلى طهران وقد شبك ذراعه في ذراع رئيس وزراء بريطانيا، وعليه فعندما وافق على فكرة تشرشل دعا روزفلت زعيم الصين الوطنية تشانج كاي تشيك. وخصصت الجلسة العامة الأولى المعقودة في ٢٣ نوفمبر للشرق الأقصى حيث كان تشانج كاي تشيك يؤكد على أهمية تنفيذ عملية برمائية عبر خليج البنغال. وفي اليوم التالي ناقش تشرشل وروزفلت الادعاءات المتضاربة بشأن مسارح العمليات في البحر المتوسط، وعبر القناة الانجليزي واستمعا من كبار القادة العسكريين على مدى اليومين التاليين ما يفيد بضرورة تأمين البحر الأبيض المتوسط قبل محاولة غزو فرنسا. وفي ٢٧ نوفمبر طار تشرشل إلى طهران.

وبرغم أن الاستعدادات لعقد المؤتمر أثارت قدرا كبيرا من الاهتمام والفضول، فلم يكن أحد في القاهرة يعرف ماذا كان يدور من نقاش. وفي ١٤ نوفمبر أعلنت جريدة الايجيبشيان جازيت أن مينا هاوس سوف يخصص لبعض المحادثات المهمة، ومن ثم بدأت الشائعات في الانتشار وسمع أمريكي في حلب يقول إن الطائرات لا يسمح بتواجدها على مسافة عشرة أميال من فندق مينا هاوس، وإلا تعرضت لإسقاطها، كما سمع فرد آخر يقول إن فندق الملك داؤود في القدس تم الاستيلاء عليه بالفعل.

وفور ما انتشرت الأقاويل بأن الفيلات في المنطقة المحيطة بالفندق سوف يتم الاستيلاء عليها جميعا لتهيئتها لإقامة بعض الشخصيات المهمة

وحاشياتها، رفع مالكوها الإيجارات انتهازا للفرصة، ورفض مستأجر الخروج من فيلته التي كان يريد الأمريكيون سكناها، وأحالهم إلى صاحب البيت، وتبين أن الرجل يستحق عليه ستة أشهر إيجارا متأخرا وهكذا اضطر الأمريكيون لدفعها لمجرد أن يخرجوه منها. واختار جنرال أمريكي موقع المعسكر النموذجي للرجال الذين خصصوا لحراسة منطقة المؤتمر، ثم وضع ومعه اثنان من الكولونيلات خطة لتنفيذ الحراسة ونظموا فريقا من العمال لتمهيد الأرض، ونصب خيام النوم والطعام، ولكن الموقع كان يخص مزارعا اختار تلك الليلة لكي يروي أرضه، وهكذا عندما جاءت قوة العمل في اليوم التالي إلى الموقع وجدت المكان كله مغمورا بالمياه!

على أن المؤتمر حظي بأكثر مما يلزمه من احتياجات، ففي فندق مينا هاوس قاموا بتركيب لوحة سويتش تحوي ٢٧ خطا تليفونيا منها ثلاثة "مؤمّنة" وأقاموا عليها ثلاثة موظفين يساندهم آخرون بالإضافة إلى خدمة استقبال وإرسال على مدى الساعات الأربع والعشرين، وكرسوا موظفين خصوصيين لكي يأخذوا الأوراق المهملة إلى إحراقها في أفران خاصة، كما كلف بحراسة الحديقة أربعة أطقم حراسة. أما العاملون من أبناء البلد في الفيلات المحيطة فحل محلهم أفراد عسكريون وزود كل جانب من جوانب السلالم بتبّة من أجل الكرسي المتحرك للرئيس الأمريكي، وبما أن الملاريا كانت منتشرة في ذلك الحين في الصعيد، وزاد عدد أسراب البعوض في القاهرة، كلف ثلاثة من مختبر الملاريا الميداني رقم ٣ برشّ كل ركن في المكان بالفليت، وبالإشراف على تغطية جميع الأبواب والشبابيك بالناموسيات، فضلا عن إخضاع المطابخ لمراقبة مشددة. ونصبت من أجل الموظفين إحدى وعشرون خيمة ميدانية وأربع خيام ميس طعام من الطراز الهندي، فضلا عن وجود مطبخ خاص للموظفين ومستودع للنافي. وأضيف إلى ذلك غرفة ملابس مجهزة بشكل خاص ومزودة بالفرشات ومكواة كهربائية فضلا عن مستلزمات الغسيل والنشاء.

يقول شستر موريسون من جريدة شيكاغو صن "كل شيء حول المسألة برمتها كان سريا فيما عدا شيء واحد وهو أن كل إمرىء كان يعرف كل شيء"، وكم كان إحباطه شديدا إزاء السرية والرقابة مما أثار الكثير من الإشاعات والتوقعات التي بدت وكأنها تحبط الهدف الأساسي من المؤتمر، وما أسرع ما عرف أن تشرشل وروزفلت وتشانج كاي تشيك كانوا في مصر وتزاحم جميع المراسلين في المدينة، وقد زاد عددهم على المائة، حول موظف بيروقراطي صغير أصلع بدا وكأنهم أوعزوا إليهم أن يغذي الصحفيين بأخبار ليس لها أي أهمية، كأن يقول مثلا كيف ذهب الجنرال تشانج لزيارة الرئيس روزفلت، وكيف قدم المستر تشرشل الشاي، ومن جاء ليحتسيه، وتعود أن يتحدث عن الطريقة التي لبس بها المستر تشرشل قميصا من التيل الأبيض يوم الثلاثاء، وجوارب سوداء مع أحذية بيضاء يوم الأربعاء، وكيف ارتدت مدام شيانج شيئا في غاية الشياكة، ولكنه لم يستطع وصفه لأنه لم يكن يعرف الكثير عن الملابس الصينية. هذه المقتبسات جاءت من إذاعة قدمها "شستر موريسون، وبرغم أن الرقيب أجازها وتم إرسالها بعد انتهاء المؤتمر إلا أنها سببت إحراجا كثيرا للسفارة، أولا لأن هذه الرسالة الإذاعية احتوت تسريبا غير مقصود لمعلومات سرية سببت وابلا من السخط من جانب دوائر الأمن، ولكن أحاديث موريسون كانت أيضا بمثابة تعليق ممرور على حماقة محاولة التغطية على مثل هذا الحدث الكبير، وكل ما استطاع أن يفعله في هذا المجال أن ظل يغطيه بواسطة أنباء تعمد أن تكون تافهة. ولم يقصر نقده على الآلة الإعلامية وحدها، بل تعدى أيضا إلى نقد الصحفيين: في عصر يوم الثالث والعشرين اصطحب تشرشل روزفلت لمشاهدة الأهرام وفي رفقتهما ترجمان مصري، في اليوم التالي استطاع الترجمان أن يبيع هذا الانفراد عن حكاية الرحلة إلى ثلاث أو أربع صحف مختلفة، وربما جمع من الأموال في عصر ذلك اليوم بأكثر مما جناه في السنة بأكملها، وفيما يتعلق بالسفارة فالشيء الطيب الوحيد الذي رَشَح عن هذه الرسالة الإذاعية كان الغضب الذي استفزته في

نفس أ. رايان من وزارة الإعلام. فلم يكن هذا الموظف محبوبا من أي فرد إذ أنه عمد في الأيام القليلة السابقة على بدأ المؤتمر إلى الاستئثار بكل الترتيبات الإعلامية لتكون تحت سيطرته وحده.

مع كل هذه السرية فإن الإعلام والإشاعات تمكنا من تضليل الألمان الذين ما لبثوا أن أبرزوا ما اكتشفوه، ففي آخر ليلتين من نوفمبر أذاعوا أن روزفلت وتشرشل وستالين اجتمعوا كلهم "في خيمة في ظلال الأهرام"، وأنهم سيطيرون سوية إلى طهران. في ١٥ نوفمبر وفيما كانت الاستعدادات جارية على قدم وساق لمؤتمر القاهرة، كان الملك فاروق يسابق الريح في طريقه إلى الاسماعيلية وكانت قدمه كالعادة مثبتة على دواسة البنزين لمزيد من السرعة، وبينما كان يتجاوز شاحنة للجيش البريطاني شاهد سيارة أخرى تقترب منه بسرعة، فما كان من فاروق إلا أن جنح نحو الشاحنة إذ ضغط على الفرامل بشدة وجاءت النتيجة أنه فقد السيطرة على المقود ليصطدم بالأشجار على حافة الطريق، وأسرعوا به إلى المستشفى البريطاني العسكري في القصاصين حيث وجدوا ضلعين مكسورين وكسرا آخر في عظمة الحوض.

بعد أيام قلائل أشار أطباء الملك أن جلالته قد يجد في قصره من سبل الراحة بأكثر مما يجده على سرير حديدي في المستشفى الميداني، لكن فاروق رفض الانتقال وأصر على أن يعالج شأنه شأن أي مريض آخر، رغم ما كان هناك من فروق ملحوظة بطبيعة الحال. وفورا تم تركيب خط تليفوني، وكلفت شاحنة بإحضار الطعام من المطابخ الملكية كل يوم، وكان ذلك مقياسا لمدى شعبية الملك حينما توافدت جموع الفلاحين الفقراء على المستشفى متمنين له الشفاء، ومقدمين له هدايا صغيرة من البيض والكعك، فضلا عن صلواتهم التي رفعوها من أجل شفائه، وحتى بعد ثلاثة أسابيع كان الملك مستمتعا للغاية لدرجة لا يرغب معها في العودة إلى القاهرة، إذ كان بعيدا عن هموم الدولة، لا تعوقه مراسم البروتوكول وتحيطه الممرضات اللائي كن يتضرجن حمرة وينكمشن عندما كان يعابثهن، فضلا عن سيل لا ينقطع من الزوار. لكن العلاج

الطبيعي والتدليك أتيا بنتائج طيبة، وبعد قدر كبير من الإقناع عاد الملك إلى بيته.

في الجو المحموم للبلاط المصري، كان ثمة همس وتشاور كثير حول الأضرار التي يمكن أن تكون قد لحقت بالملك عندما كسرت عظمة الحوض. بعد يومين من الحادثة كان الأمير محمد علي مسرورا للغاية عندما أبلغ اللورد كيلرن أن الملك كان في حالة أسوأ مما يتصورها أي فرد، وسرت الإشاعة بأن بعض الغدد في جسده دمرت بغير علاج، وقيل إن البريطانيين حثوا الملك على إجراء جراحة، ولكن الأطباء المصريين حالوا دون ذلك قائلين إن المخاطرة ستكون كبيرة للغاية، فيما أعلن آخرون أنه قد أجرى جراحة ولكن الجراحين البريطانيين أساؤوا إجراءها تاركينه في حالة أسوأ من ذي قبل. على أن العلامة الوحيدة التي تشهد بأن الحادثة أدت إلى إطلاق نوع من الخلل في الهرمونات تمثلت في أن جسده الضخم عادة سرعان ما أصبح سمينا مكتنزا.

ومع برودة الجو أصبحت الأيام ألطف وأرق، وخاصة بالنسبة إلى لورد كيلرن، الذي بدأ يمارس هواية الصيد في إكياد بالدلتا، وخلال الحرب كانت قيود الاستيراد قد حدت بقسوة من استيراد الخرطوش، وأدى ذلك إلى أن حفنة قليلة فقط من ذوي النفوذ في مصر هم الذين كانوا يحوزون هذه الإمدادات، وكان كيلرن يشتري ما يحتاجه من "بودي" صاحب محل الأسلحة، كما طلب نحو ثلاثة آلاف مرة واحدة في مقابل نحو جنيهين للمائة. والذين كانوا يدعون إلى الصيد مع السفير، كانوا يشترون خراطيشهم منه، وكانت تلك عملية لا تسعر بالنسبة للصيادين غير المهرة. وكل بندقية كانت تعد مع خراطيشها دون أن يحسب الحساب إلا في نهاية اليوم عندما ينصبون مائدة طويلة يقف خلفها أحد موظفي السفارة، ويقترب كل ضيف من المائدة يرافقه خادم يحمل البط والعصافير التي صادها ثم يعيد خراطيشه غير المستخدمة، وبعدها يعاني مذلة حساب نسبة طيوره إلى خراطيشه قبل أن يقولوا له المبلغ الذي يتعين له أن يدفعه.

في القاهرة نفسها سارت الأمور على منوالها، ولكن هذا الإحساس بالإثارة والتكاتف الذي كانت الحرب قد جلبته إلى نفوس الحلفاء كان قد انتهى، صحيح أن الأفراد ظلوا ينادون بعضهم البعض بأسمائهم الأولى وبغير كلفة، كما أن الجنود كانوا يذهبون إلى حفلات غير رسمية لا يرتدون سوى الشورت وقميص بسيط لكن نما إحساس ثقيل في الهواء كما هو الحال في مسرحية تقترب من نهاية عروضها حيث بدأ الممثلون يفقدون الاهتمام. لكن في بيت شمالي حي الزمالك كانت المباهج في بدايتها الأولى.

كان البيت يخص مجموعة من شباب الضباط معظمهم كانوا مشاركين في بعثات ومهمات عسكرية تنفذها هيئة العمليات السرية الخاصة في اليونان وألبانيا، ومن الاستثناءات بينهم كان الكابتن ويليام ستانلي موس من حرس كولد ستريم، وكان قد حارب في العلمين وتبع الحملة إلى نهايتها في تونس، وبعد ذلك جندوه في العمليات الخاصة برغم أنه لم يكن قد أرسل بعد إلى الميدان.

في خريف ١٩٤٣ التقى مع الميجور باتريك فيرمور وهو ضابط في العمليات السرية كان قد أمضى التسعة أشهر الأخيرة في جبال كريت، وكان بوسع فيرمور هذا أن يلقي على مسامعك أبيات الشعر بلغات شتى، ويغني أنشودة طريق الحرية الطويل بالفرنسية والعربية. كان الولاء والمودة اللذان إستطاع أن يغرسهما في نفوس أهل كريت شاهدين على مناقبه كجندي. ولكن هذا كله كان مستترا خلف قناع من الرومانسية نصفه الشاعر بايرون ونصفه الآخر قرصان في إطار عرض صامت لدرجة كانت تخلب ألباب أصدقائه. قرر هو وبيلي موس أن يغادروا "هانجوفر هول" وكان واحدا من أسخف البانسيونات التي قدمتها لهم هيئة الخدمة السرية بالقاهرة ليسكنا في فيلا فسيحة عثرا عليها في الطرف الشمالي من منطقة الجزيرة. كانت تحوي سلما تفضي درجاته إلى قاعة البيانو، فضلا عن احتوائها على عدة غرف نوم إلى جانب قاعة رقص كبيرة مغطاة بالباركيه. سكانها الجدد أطلقوا عليها اسم

"تارا"، وهي المسكن الأسطوري لملوك أيرلندا القدماء(وفي قارة أخرى) كـانت مسكن سكارليت أوهارا •.

ولأنهما لم يستطيعا استخدام المنزل في وقت الإجازات، فقد طلبا إلى ثلاث نساء مشاركة الفيلا سرعان ما تنحت اثنتان منهن تاركة فقط الكونتيسة صوفي ترنوفيسكا. كانت قد انفصلت عن زوجها وهو ضابط في الكتيبة البولندية وأسست فرع الصليب الأحمر البولندي في القاهرة، ولم تشأن أن تكون السيدة الوحيدة في منزل كله من الرجال، لكن لم يتسن العثور على أي أنثى أخرى تسكن المنزل، وكان أن توسل إليها كل من بادي فيرمور وبيلي موس ألا تتخلى عنهما. وهكذا أقامت معهما صوفي بمتاعها القليل - روب حمام، فستان سهرة، بزة عسكرية، ثم اثنان من حيوانات النمس المدللة. واستطاعوا حماية سمعتها عندما اصطنعوا لها اسم مستأجرة وهمي هو مدام خياط التي تعاني من تدهور شديد في صحتها!

على أن أهل المنزل زادوا عددا، فقد وصل بعد ذلك أرنولد بريم الذي عمل في مقر خدمة العمليات الخاصة وتلاه بعد ذلك أربعة عملاء لنفس الدائرة: بيلي ماكلين وديفيد سمايلي، الذي كان عائدا لتوه من ألبانيا، وورلاند وين (اللورد سان أوزولد) الذي شارك في عملية أخرى في ألبانيا لنفس الدائرة ثم إكسان فيلدينج الذي كان قد عمل مع لي فورمر في كريت. لفترة موجزة طيلة شتاء ١٩٤٣-١٩٤٤ وعاش الجميع معا في ذلك البيت وكتب بيلي موس بعد خمس سنوات من ذلك التاريخ "على المرء أن يقبل حقيقة أننا كنا في غاية السعادة إزاء تواجدنا معا في تلك الأيام"، كانوا جميعا دون الثلاثين عائدين من مهمات في الأرض المحتلة بالعدو وتسرهم غاية السرور حقيقة أنهم ما زالوا على قيد الحياة. وكانت لدى كل منهم ثروة تتمثل في متأخرات راتبه مودعة

• القارة هي أمريكا والإشارة إلى بطلة رواية "ذهب مع الريح" تأليف الكاتبة الأمريكية مرجريت ميتشل. "المترجم"

في حساباتهم المصرفية وجاهزة للإنفاق بشهية مفتوحة زاد من حدتها أشهر الشظف والمشقة، كما أن وهج العمليات السرية كان معناه أن القوم يحتفون بهم كأبطال.

كانت أوضاعهم مدعاة للغبطة بالمقارنة مع أوضاع ضباط الخدمة في مركز القيادة بالقاهرة، ومنهم من كان يصدق عليه وصف "خنزير الجبردين" وحتى اللذين لا يوصفون كذلك كانوا يعاملون وكأنهم من فصيلة النكرات العسكريين. مهما كانوا يعملون بجد ويستبد بهم القلق، مهما قطع أحدهم أشواطا لكي يذهب إلى الجبهة، فقد كان ثمة الالتزام الاجتماعي الذي لا مهرب منه حين يظهرون بمظهر اللامبالي ويصفون أنفسهم على أنهم أعضاء فريق جروبي أو فريق شبرد، (من ناحية أخرى فالذين كانوا يوفدون في مهمات خطرة لم يصدقوا قط العبارات التي كانت تقال لهم من أفواه ضباط الأركان الذين كانوا يرافقونهم حتى باب الطائرة – عبارات من قبيل "وددت لو كنت معك يا فتى)".

قراصنة بيت "تارا" الشباب الذين أرادوا أن يعيشوا مثل الأمراء طيلة إجازاتهم التي كانت تمتد أسابيع قليلة سرعان ما اكتشفوا أن المتأخرات المالية لا تدوم كما كانوا يودون. الويسكي والجن الحقيقي كان قد استبعد من قائمة الواردات الأساسية في المملكة المتحدة في شهر يناير بينما توقفت مقننات النافي عند ربع زجاجة شهريا، وهو أمر لا يكفي على الإطلاق، وبرغم أن البيرة والبراندي القبرصي وأنواع الجن والويسكي المزيفة من فلسطين (تناسب الكوكتيل كما أسلفنا) كانت رخيصة نسبيا، إلا أن السخاء الزائد في حفلات "تارا" سرعان ما ألحق بالميزانية المشتركة تصدعات خطيرة. السفرجي الذي كان يخدمهم تصور أن بوسعه تخفيف الوطأة عندما يقف على قمة السلالم وقد أمسك طربوشه في يده طالبا الهبات من الضيوف المغادرين. هذه العادة المحرجة أوقفوها فور ما اكتشفتها صوفي ولكن اقتضى الأمر في كل حال إجراء بعض التخفيضات لاقتصاد النفقات. تذكرت كيف أن الضياع التي

كان يملكها والدها في بولندا كانت تضيف أصناف المشمش أو الخوخ أو البرقوق إلى شراب الفودكا من أجل الحصول على ألذ طعم، وهنا قرر أهل البيت أن يجربوا نفس المسألة مع السبرتو الخام الذي كانوا يحصلون عليه من الجراج القريب، كما يضيفون القراصية. لكن النتائج جاءت جد مخيبة للآمال، ربما لأن سكان تارا الذين كانوا ينتظرون العودة إلى اليونان أو ألبانيا في أي وقت، قرروا أن ليس بوسعهم الانتظار ثلاثة أسابيع حتى يختمر العصير، ومن ثم بدأوا في احتسائه بعد ثلاثة أيام فقط لا غير.

على أن ذلك الجو المسكر للحياة في "تارة" ما لبث أن أثر على واحد من حيوان النمس الأثير لدى صوفي، فهرب إلى الحديقة المجاورة وأصاب ببغاء ليدي "كيوين بويد" بجروح. وكان زوجها سير الكسندر كيوين بويد شخصا ذا حيثية إذ كان في غاية الثراء مشاركا في مركز تموين الشرق الأوسط، ومن ثم لم تفت الحادثة بغير عقابيل، فقد استدعى البريجادير كبلي الكابتن سمايلي والميجور ماكلين إلى مكتبه حيث وبخهم بغضب وشدة وأبلغهم أن يضعوا الحيوان تحت السيطرة، ولسوء الحظ عاود الحيوان الهرب ثانية، وفي هذه المرة لم تكتب للببغاء الحياة. وأصرت ليدي كيوين بويد على ضرورة إعدام النمس الجاني بالرصاص، وحكى ماكلين القصة ذات عشاء معربا عن شديد سخطه إزاء هذه القسوة التي بلا قلب، والمشكلة أن القصة لم تجد تقديرا من جانب مستمعتها التي تبين أنها كانت ليدي كيوين بويد وليس غيرها!

ومثل شقة بيتر سترلينج من قبل، أصبح "تارا" هو أشد الأماكن إثارة في المدينة، وفضلا عن الحشد المعتاد من الدبلوماسيين والضباط والكتاب وأساتذة الجامعة ومراسلي الحرب وعدد من مرتادي الحفلات من علية الأقباط والشوام تميزت حفلات "تارا" بالفجائية التي استعصت على التنبؤ المسبق. كان يمكن أن ينفلت الزمام تماما على نحو ما حدث عندما قام بعض أصدقاء صوفي البولنديين بإطلاق الرصاص على جميع لمبات الكهرباء، وكان يمكن من ناحية أخرى أن يكون من ضيوفها جنرالات وأمراء والسفير البريطاني بل والملك

فاروق نفسه، الذي جاء يوما وبصحبته صندوق من الشمبانيا. وعلى مدى أيام ذلك الشتاء استعاروا بيانو من نادي الضباط المصريين، فيما كان المسرح يشهد إلقاء تشكيلات من الأشياء ما بين كرات الجولف إلى الكنبات خارج النوافذ. وفي كل حال ظل "تارا" حيويا بمعنويات عالية على غرار ما قد يتوقع المرء من الجو السائد في إحدى كليات أوكسفورد في نهاية الفصل الدراسي. لكن المنزل لم يكن مجرد مكان مريح يصلح لإقامة الحفلات. إن بيلي موس كتب خلال إقامته في كريت أنه كثيرا ما كان يتفكر في هؤلاء الذين جاؤوا لوداعه ومعه بادي فيرمور في آخر ليلة أمضياها في "تارا": ديفيد سمايلي، جرتي ويصا، دينيس منشة، ألكسي لاداس، إينيز بوروز، وصوفي تارنوفسكا التي تزوجها في عام ١٩٤٥. جاء ديفيد سمايلي وحول وسطه فوطة وهدية عبارة عن كتاب أوكسفورد من الشعر الانجليزي وأعمال شكسبير في مجلد واحد وقال إن هذه الأشياء كانت معه في ألبانيا وسوف تجلب الحظ السعيد لهما بكل تأكيد. في الرابعة صباحا كانوا لا يزالون متجمعين حول طاولة حمراء ينعكس على وجوههم أضواء الشموع فيما ظلوا يشربون ويغنون، وجلسوا معا حتى جاء وقت المغادرة إلى المطار، وكان دفء هذه الأمسيات فضلا عن أحلام العودة هي أهم الأشياء، لا بالنسبة له ولكن بالنسبة لجميع الذين رأوا في "تارا" بيتهم ومثواهم، بينما كان يتعين عليهم أثناء المهمات أن يقبعوا فريسة للقلق يمضون ليالي بغير طعام لاذين بغيابات مغارة وعاجزين عن النوم من فرط الصقيع.

عندما حل الشتاء التالي كانت صوفي وسائر المستأجرين قد تركوا الفيلا التي ساء حالها وانتقلوا إلى شقة لم تكن على هذه الدرجة من الأبهة، ولكن "تارا" الجديدة تميزت بنفس اللوحة النحاسية التي زينت سابقتها، وفوق كلمة تارا المكتوبة بحروف كبيرة مائلة، نقشوا أسماء ساكنيها: الأميرة دينيبر بتروفيسك، السير أستاسي رابيار، الماركيز هويت ستوك، الأنورابل روبرت سابريتاشي، اللورد هيو ديفيد درايف، اللورد بنتبط، اللورد راكيل ومستر جاك

جارجون •.

أقيمت سلسلة من الحفلات الخيرية قبيل حلول الكريسماس، وتبرع الملك بمبلغ ألف جنيه مصري من أجل الترفيه عن القوات، فنالت حفلة صندوق الجوارب للكريسماس التي أشرفت عليها ليدي كيلرن دفعة كبيرة عندما أقامت الأميرة شويكار حفلتها للغرض نفسه في الكريسماس في أوبرج الأهرام. ولاحظ السفير في مذكراته أن الأميرة كان ترتدي فستانا من القطيفة السوداء، وهو أفضل ما يمكن أن يبرز واحدا من أكثر العقود الماسية التي رآها في حياته من حيث فتنته الطاغية، وكان مؤلفا من ماسات كبيرة للغاية من أفخر النوعيات. الأميرة التي أصبحت في بدايات السبعينات من عمرها كانت الزوجة الأولى للملك الراحل فؤاد، وقد تزوجها عام ١٨٩٥، أي قبل فترة طويلة من أي طموحات له في تولي العرش. وكانت شويكار مدللة ومتقلبة الأهواء تنتمي مثل زوجها إلى البيت المالك العريق، لكنها كانت أغنى منه بكثير، وقد كاد زواجهما هذا يكلف فؤاد حياته ذاتها.

الأمير (الملك) فؤاد كان قصير القامة، عصبيا، وشديد المحافظة، يربي شاربه وقد فتله بالشمع لكي يقف منتصبا على جانبي أنفه، وكانت تربيته الإيطالية قد زودته بنزعة نحو المقامرة وأيضا نحو العاشقات الإيطاليات، لكن كان في نفس الوقت متمسكا بالتقاليد التي تعزل المرأة المسلمة، وشد ما كان حنق شويكار عندما ألفت نفسها محبوسة في الحريم من طلعة النهار حتى حلول الليل، وقد مات ابنهما الوحيد وعمره تسعة أشهر، وبعد ولادتها الثانية قررت شويكار أن لا قدرة لديها بعد ذلك على تحمل عنف زوجها ووطأة عاداته، ولذلك عادت إلى أسرتها. وحملها زوجها على العودة ثانية، إذ كان منحقه ذلك بموجب الشرع الإسلامي، لكن شويكار كان له أخ أصغر منها هو

• هذه أسماء رمزية تشير إلى السكان الحقيقيين، وكان أولهم الكونتيسة (حقيقة) صوفيا تارنوفسكا وآخرهم الكابتن ستانلي موس. "المترجم"

سيف الدين، الذي أقسم على تخليصها من براثن هذا الطاغية. وفي يوم ٧ مايو عام ١٨٩٨ اندفع سيف الدين يرتقي سلالم الكلوب الخديوي ليجد فؤاد في غرفة السلاملك فأطلق عليه عدة رصاصات قبل أن يوقفه أحد عند حده، وقد أصيب فؤاد بجراح بالغة لدرجة أن الأطباء قرروا إجراء العملية في التو والحال فوق الأرضية التي سقط عليها وانتزعوا رصاصة من ضلوعه وأخرى من فخذه، ولكن الرصاصة التي استقرت في حلقه كانت قريبة من الشريان لدرجة يستحيل إزالتها، ومنذ ذلك اليوم حتى وفاته أصبح حديث فؤاد يعوقه ما وصفه لورانس جرافتي سميث بأنه "تباح عصبي مرتفع النبرة" لدرجة كان يندهش معها حتى الذين سبق تحذيرهم إزاءها.

سيف الدين حكم عليه بالأشغال الشاقة خمس سنوات وبعدها أعلنوا جنونه وأودعوه مصحة للأمراض العقلية، ولكن فعلته الدرامية هذه نجحت حقا في تحويل فؤاد عن زوجته فطلقها بعد ذلك بقليل، وخاضت شويكار ثلاث زيجات أخرى في العقود الأولى من القرن العشرين قبل أن تتزوج خامس أزواجها إلهامي حسين باشا في سنة ١٩٢٧. وهناك من يقول إنها هي التي أفسدت فاروق باستغلال وإشباع نزواته، وشجعته على المقامرة وكأنها تتشفى بذلك من فؤاد وعائلته، وللسبب نفسه قيل إنها شجعت الحب المزعوم بين ابنها وحيد يسري والملكة فريدة، ومع ذلك بدا الملك فاروق سعيدا بالتردد على الأميرة شويكار، وكان يشاهد دائما في الحفل الذي تقيمه بمناسبة رأس السنة، والذي كان يعد إحدى أشهر المناسبات المدرجة على التقويم الاجتماعي.

ولإعطاء فكرة عن حجم الأبهة والفخفخة التي كانت تحيط حفلات الأميرة شويكار، لم يكن يتوقع من أي مدعو على مائدة عشائها أن ينال أي شريحة من سمكة أو طير يكون مقدما إلى فرد آخر. كان ثمة سفرجي يقف خلف كل كرسي ويقدم لكل ضيف السمكة أو الطير بأكمله وله أن يختار ما يروقه من شرائح. وأدى هذا بالطبيعة إلى أن ظلت كميات كبيرة من الطعام دون أن تمتد إليها يد، وتلك كانت ترسل إلى الأديرة القبطية والمؤسسات الخيرية في اليوم

التالي.

كان ضيوف الأميرة شويكار البالغ عددهم نحو خمسمائة يستقبلون على سلالم قصرها المشيد على طراز الباروك الأحمر والرمادي بواسطة كوكبة من الحسناوات الشركسيات يرتدين الفساتين التقليدية المزخرفة وعلى رؤوسهن اليشمك ينحنين للضيوف وعلى شفاههن كلمات الترحيب عندما يتحرك الضيوف قدما (يقال إن شركسيات الأميرة كان يوازنهن فرقة من السقاة الممشوقين الذين يرتدون أزياء القرن الثامن عشر ويخدمون زوجها). وفي داخل الحديقة بأكملها ينصبون خيمة ضخمة يفوح منها أريج الزهر والخضرة، وإذ كانت قاعات الاستقبال الفسيحة حاشدة بالأرستقراطية التركية والمصرية حيث استعراضات الياقوت والزمرد والماس كلها تخطف الأبصار بحيث تترك الأوروبيات وكأنهن يرتدين أسمالا بالية، خاصة بما يلبسنه من عقود متواضعة من اللؤلؤ. ثم كانت البوفيهات عامرة بأكوام المحار والاستاكوزا والسمّان، وكان أمام الضيوف أمر الخيار للاستماع إلى إحدى الفرق الثلاث تعزف الموسيقى في السراي: موسيقى الغجر أو الجاز أو الموسيقى الكلاسيكية.

أما هدايا حفلات شويكار فكانت أقرب إلى شنط السهرة الكارتييه ومباسم السيجار الذهبية منها إلى علب الشيكولاتة أو زجاجات العطور الصغيرة، ولاحظ لورد كيلرن أن الملك كان يدخن بايب في حفلة رأس السنة عند الأميرة شويكار، احتفالا بمقدم عام ١٩٤٤ وكان يتصرف بجلافة شديدة. وعندما قام الأمير عبد المنعم (الذي أصبح وصيا على العرش لفترة قصيرة بعد الإطاحة بفاروق عام ١٩٥٢) بتهنئة الملك على إبلاله السريع من حادث القصاصين، قال فاروق إن معافاته الصحية خيّبت آمال الكثيرين ولسوف ينتقم منهم يوما ما. ربما كانت هذه الحالة النفسية راجعة إلى خيبة أمله بعد ولادة طفلته الثالثة فادية يوم ١٥ ديسمبر. (هناك من ألسنة السوء ما قال إنها ابنة وحيد يسري). وقد أعلن الملك أنها برغم أن المولودة ليست الابن الذي طال انتظاره إلا أنها ستكون بدورها موضع حب كشقيقتيها سواء بسواء.

ربيـــع ١٩٤٤

اليونانيون يتمردون

ظلت صحة المزارعين من أبناء الصعيد طيبة نسبيا حتى قدوم السنوات الأولى من هذا القرن عندما شيد المهندسون الانجليز خزان أسوان الأول. وبحلول عام ١٩١٢ ضوعفت المساحة المزروعة قطنا وقصب سكر، ولكن جميع الأخطاء التي كانت قد ارتكبت في الوجه البحري الذي شهد نظام الري الدائم الذي أدخله منذ قرن تقريبا محمد علي، هذه الأخطاء تكررت من جديد. لقد حفرت شبكات الترع والقنوات بغير نظام للصرف السليم، وإذ اقتضى الأمر أن يكون منسوب الترع أعلى من الأرض المحيطة بها، فقد أدى هذا النوع من الصرف إلى إيجاد برك دافئة ومستنقعات راكدة أفرخت الأمراض التي انتشر أثرها، وأصبحت البلهارسيا والانكلستوما أمراضا متوطنة في الصعيد كما كانت من قبل في الدلتا، حتى الملاريا التي لم تكن تعرف تماما من قبل جاءت الأنباء بالإصابة بها في مديريتي قنا وأسوان فوصلت الأنباء إلى القاهرة في يناير عام ١٩٤٣، وبنهاية ذلك العام كانت قد تسببت في وفاة ١٥٠ فردا في الأقصر.

كان البريطانيون حريصين على أن يفعلوا شيئا، لكن المنطقة كانت حساسة من الناحية السياسية، وأي معونة كان ينبغي أن تقدم بقدر من الحصافة ودون إعلان حتى لا تعرض بالحكومة المصرية، ومع ذلك فقد أشار الدبلوماسي إيدوين شابمان أندروز من لندن أنه لو لم يفعل البريطانيون شيئا في هذا الصدد لتقدم الأمريكيون لاتخاذ إجراءات، وأضاف في تشاؤم أنه لو أصبح برنامج الإغاثة من الملاريا مشروعا انجليزيا - أمريكيا مشتركا لعمد المصريون إلى إعطاء كل الفضل والثناء إلى الأمريكيين في كل حال. توجه

الملك فاروق لزيارة المناطق المنكوبة بنفسه في منتصف فبراير، وحقيقة أن الحكومة لم تكد تفعل شيئا لتخفيف الوضع هي التي استطاع فاروق أن يلعب عليها وشنت حملة دعاية كبيرة لصالحه برغم أن بعضا من أسوأ الحالات في صعيد مصر، طبقا لما ذكره اللورد كيلرن، كانت توجد في ممتلكات وتفاتيش فاروق نفسه. وكانت مصر في تلك الفترة ما تزال مجتمعا إقطاعيا: معظم ملاك الأراضي لم يقوموا يوما ما بزيارة أراضيهم، وكان تصورهم أن كل شيء سيظل على ما يرام ما دام الإيراد منتظما. وسواء كان الفلاحون المقيمون في عزبهم وأبعادياتهم يعيشون في ظروف معقولة أو يرسغون في ربقة البؤس المدقع، فقد كان ذلك متوقفا على سلوك نظار العزب ومديري التفاتيش الذين كانوا في غالب الأحيان قوما لا يأبهون بشيء ويسود الفساء بين ظهرانيهم. كتب باتريك كين روث يقول "إذا وجدت مالكا للأرض له ضمير يقظ لوجدت الفرق في الأمور أبعد عن التصديق: قرى نظيفة وفلاحون أصحاء وروح حقيقية من الولاء الإقطاعي ".

إن الظروف التي كان يعيشها صعيد مصر كانت في معظمها أبعد ما تكون عن هذا النموذج. سوء توزيع المواد التموينية أفضى إلى انتشار سوء التغذية عبر السنتين الماضيتين، وكان الافتقار إلى القطن لا يعني فقط أن القوم يرتدون أسمالا بل يعني أن الذين يعانون من الملاريا لا يجدون ما يغطي أبدانهم للدفء حتى لم تكن ثمة كميات من الأكفان تكفي لدفن الموتى.

كانت الحكومة قد رصدت ٧٥٠ ألف جنيه لمعالجة أمر الوباء المنتشر، وبرغم أهمية استئصال المرض في مرحلة التكوين من دورة حياة البعوضة، فقد ظلت الحكومة تتعثر في خطواتها. وكان النحاس قد شعر باستفزاز عميق إزاء النقد المتصاعد لحكومته، وسمع لورد كيلرن أنه تصرف بصورة فظة أمام اثنتين من كبريات سيدات مصر اللاتي جئن إلى منزل النحاس يطلبن من عقيلته المساعدة في أعمال الإغاثة.

كانت جولة الملك قد حظيت بتغطية واسعة ومن ثم أبرزت خطورة الحالة في أسوان وقنا، وباتت قطاعات الرأي العام تستجيب، وبدأت فروع الصليب الأحمر ومنظمات خاصة مثل مبرة محمد علي، التي تديرها الأميرة شويكار، تنظم المعونات لترسلها إلى الصعيد، وسمعت الأميرة في مخابرة تليفونية للقاهرة تقول فيها إن السراي أصبحت في موقف يتيح لها حاليا ضرب الوفد وطرد النحاس.

على أن الشعور المناهض للبريطانيين عاد إلى الصعود من جديد، وفي يوم ٢ فبراير عاد زعماء المعارضة فنظموا مظاهرة دعت إلى انتهاج أشد الأساليب عنفا ضد البريطانيين، لكن الوفد كان أكثر اعتدالا وإن أكد من جديد رغبته في إخراج المحتلين من مصر، وعكست الصحافة الحالة النفسية السائدة من خلال موضوع طرحته وكان دوما موضع ضيق البريطانيين وهو استخدام اللغة العربية في الحياة اليومية. وقد هاجم "المصور" إهمال اللغة العربية في السباقات والمطاعم وتساءل عن شرعية القرار الذي أصدرته الحكومة بالسماح باستخدام الفرنسية والانجليزية في المراسلات الدبلوماسية، وأصبحت الصحافة المصرية أشد حساسية لانتقادات مصر في الصحافة الناطقة بالانجليزية، وها هي الحرب قد انجلت عن مصر، ومن ثم حان الوقت الذي يتذكر فيه البريطانيون أنهم ضيوف في البلاد وعليهم أن يتصرفوا على هذا الأساس.

فوق ذلك كله، بدأ الوفد ينشر الشائعات المعتادة بأن نقص الأغذية في الصعيد إنما كان يرجع إلى شراهة الاستهلاك لقوات الحلفاء، لكن الذي دحض هذا هو البيان الواعي الذي أصدرته السفارة البريطانية فألقت اللوم تماما على حكومة النحاس، وعندما تسربت الأنباء بأن الوفد رفض عرض بريطانيا لتقديم معونة خبراء بدا الشعب ميالا إلى تصديق السفارة.

ومن عجب أن الملك اختار أن يقف بعيدا عن هذه الموجة من الشعور المناهض للبريطانيين، وكتب لورد كيلرن قائلا إن فاروق "من المستبعد أن يعفو تماما عما حدث في ٤ فبراير ... ولو فعل لكان ذلك فوق طوق البشر"،

ومع ذلك فلم يمض سوى يومين على الذكرى السنوية الثانية لانقلاب عابدين (٤ فبراير) إلا وكان السفير ضيفا على الملك في رحلة الصيد الملكية في دهشور. وهذا الموقف الودي بدأ بعد العلمين، لكنه لم يكن راجعا لحقيقة أن الحلفاء كانوا يكسبون الحرب، لقد أدرك فاروق أن كيلرن لم يكن ليسمح له بطرد الوفد إلا إذا استطاع وضع حكومة متعاونة مكانه، وعليه كان الملك بحاجة إلى إقناع السفير بأنه إيجابي ومؤيد للبريطانيين وأنه سيضمن أن تأتي حكومة جديدة على نفس الشاكلة تماما.

كان فاروق يعرف أن مصر لم تعد وفدية في غالبها الأعم على نحو ما كانته عندما كان النحاس في صفوف المعارضة. ساد شعور بخيبة الأمل إزاء النحاس وحزبه الذي فشل في الحد من ارتفاع الأسعار فضلا عن فشله في مكافحة وباء الملاريا. ثم إن الفساد الذي دب في صفوف الحزب بلغ مبلغا شديدا عن ذي قبل، وكان معروفا أن صهر النحاس، أحمد الوكيل، كان يطلب ٨٠ في المائة من أرباح أي صفقة يعمل على تدبيرها.

وفي محاولة لإحياء شعبيته قام النحاس بجولتين في الصعيد في أوائل أبريل، أولا إلى أسيوط والمنيا ثم إلى مديريتي قنا وأسوان، ووضع عددا من أحجار الأساس كان مقررا أن تحمل اسمه بدلا من اسم الملك كما جرت العادة المتبعة، وفي الوقت نفسه كان الوفد مشغولا بممارسة الضغط على ملاك الأراضي والشركات المحلية لتمويل تلك المؤسسات. وبالنسبة للملك فاروق كان مؤسسات النحاس باشا الخيرية تشكل تعديا على الامتيازات الملكية، بل زاد حنقه عندما أدلى رئيس الوزراء ببيان صحفي يقول فيه: إن أهل الصعيد أصحاء جيدو التغذية وفي غاية الرضا عن حكومتهم، وكأنه بذلك يغمز من قناة صاحب الجلالة على أساس مبالغته الواضحة في الاستجابة للموقف. وجاءت القشة الأخيرة عندما سمع أن النحاس كان يخطط للقيام برحلة في الوجه البحري أيضا.

استدعى الملك فاروق اللورد كيلرن إلى قصر عابدين يوم الخميس ١٢ أبريل، وقدم له مذكرة تعلن أن جلالته قرر تغيير الحكومة، على أساس أن وزارة النحاس لم تكن فقط فاسدة وعاجزة عن الكفاءة فحسب، بل إنها "تصرفت بصورة من عدم الاحترام السافر والصارخ تجاه العرش" واقترح أن يحل محل النحاس من وصفهم السفير بأنهم "مجموعة لا لون لها من الموظفين والمتقاعدين ومن هم في حكم النكرات بصورة أو بأخرى" على أن يرأسهم حسنين باشا رئيسا للوزراء. ومنذ سقوط علي ماهر ظل نفوذ حسنين يتزايد قوة في السراي وكان على علاقة طيبة دائما مع لورد كيلرن، وكثيرا ما لعب دور الوسيط اللبيب بينه وبين الملك.

حاول السفير أن يبقي المقابلة في إطار غير رسمي وخفيف الروح، وطلب من الملك ألا يقدم على شيء متسرع بينما مصير العالم لا يزال في كفة الميزان، لكن حقيقة أن الملك استقبل لورد كيلرن علنا، فأثارت موجة من التكهنات في الصحافة بأن ثمة أزمة تلوح في الأفق. وأبلغت شرطة القاهرة بأن الحرس الملكي وياوران الملك وضعوا في حال استعداد وألغيت إجازاتهم مع إعلان حالة طوارئ، بينما كانت المعارضة تتطلع قدما إلى رؤية الوفد وقد أطيح به بعيدا عن الحكم. أما النحاس فقد أحسن صنعا عندما بقي في خلفية الصورة، لكن كثيرا من الوفديين شعروا بالإهانة باعتبار أن مستقبل أي حكومة مصرية والنقاش حولها أصبح أمرا اقتصر فقط بحثه على الملك والسفارة البريطانية. وفي مايو ١٩٤٠ حيث كان السفير قد أمضى أكثر من نصف عقد من الزمن في مصر، كتب يقول "كنت أرى على مدار سنوات كثيرة أن أفضل شكل للعلاقة الدائمة مع مصر إنما يكمن في ضمها بشكل أو بصيغة ضمن الامبراطورية البريطانية". هذه القناعة كان تكمن وراء سياسته في مصر، ولو ظل يراوده ندم واحد لكان إقدامه على ترك الملك جالسا على عرشه يوم حادثة (٤ فبراير) في قصر عابدين. وبعد لقائه مع الملك يوم ١٢ أبريل، أرسل كيلرن برقية سرية للغاية إلى أنطوني إيدن يشير فيها أنه ربما

حان الوقت لممارسة "بعض السيطرة المباشرة على مصر" بدلا من أن نواجه تلك الأزمات التافهة المتواصلة التي تثيرها السراي.

وبرغم أن الملك وعد كيلرن أنه لن يتصرف بسرعة، إلا أنه في ١٨ أبريل كان بالفعل قد أطاح بالنحاس، ولذلك عقد اجتماع للجنة الدفاع حيث كان لورد كيلرن مؤيدا لاستخدام القوة وضم رؤساء الخدمات المسلحة قائدا جديدا لسلاح الطيران هو سير كيث بارك وقائدا جديدا للقوات البرية هو سير برنارد باجت لكنهما كانا ضد الفكرة على نحو ما كان أسلافهما ضدها يوم ٤ فبراير منذ سنتين خلتا، وقد ذكرا إنهما حتى بناء على أوامر من لندن فلن يكون بوسعهما تجهيز ما يكفي من القوات لتنفيذ سياسة من هذا القبيل. وبصرف النظر عن أي شيء آخر فقد توجه لهما الدعوة لإخماد التمرد الذي نشب بين صفوف القوات اليونانية المسلحة المرابطة في مصر، الذي كان قد اندلع أواره في ذلك الشهر.

تصور كيلرن أن لندن ربما توافق مع رؤساء الخدمات المسلحة وتوعز إليه بعدم استخدام القوة، إلا أن تشرشل كان يساند السفير على طول الخط، وفي اليوم التالي كتب يقول "إن وزارة الحرب سوف تؤيد على الأرجح وجود حكومة ديمقراطية تواجه شلة السراي التي تربع على رأسها مستبد شرقي أثبت في كل مناسبة أنه صديق لا يعتمد عليه لانجلترا ... وعليك أن تتأكد أن قادة القوات يمتلكون تحت تصرفهم من القوات ما يكفي للتعامل مع أي مصريين يثيرون المتاعب، فضلا عن ضرورة التعامل مع اليونانيين ".

قام الجنرال باجت حسب الأصول بإعداد خطط للطوارئ، ولكن عندما طرحوا على كيلرن البدائل العسكرية شعر أن الحالة السياسية يمكن أن تكون مذبذبة ومضطربة لدرجة لا تسمح له بأن يلزم نفسه بأي شيء أمامهم، وكان الأهم هو الضغط لدفع الحكومة المصرية إلى موقع الأهمية في مقدمة الصورة بحيث إذا ما استخدمت القوة البريطانية فلسوف يكون ذلك بناء على سلطة

النحاس باشا، واتفق الجميع على ذلك بمن فيهم كيلرن على أساس أن لا تكرار لحادث ٤ فبراير.

على مدى الأيام القليلة التي تلت، أحدثت التهديدات المستترة والتحذيرات الصارمة من جانب السفارة فعلها، ولم تلح أي حاجة لاستخدام القوة. وفي ٢٤ أبريل أعلن فاروق أنه سيترك الحكومة في مكانها مؤقتا، لكن السفير تصور أن الأمر قد يكون بحاجة إلى تهديد واحد آخر لكي يؤكد على الرسالة المطلوبة، وفي حفلة أقامتها في تلك الأمسية دورا بلانت (وهي قبطية من عائلة خياط تزوجت حديثا من ضابط بريطاني) جمع حديث طويل بين لورد كيلرن وبين ناهد سري، خالة الملكة فريدة، ولما كان يعرف أن ما سيقوله سوف ينقل إلى الملك، فقد أبلغها السفير بأن البريطانيين يجهزون جيوشا تأتي من جميع الاتجاهات لكي "تضع القوم في أحجامهم ".

كان البريطانيون مدينين بالولاء للنحاس باعتبار أنه عمل على استتباب الاستقرار في مصر عبر الأيام السوداء من يوليه ١٩٤٢، ولكن ها هي حكومته وقد فقدت كثيرا من ثقة الجماهير، كما اتهمت المعارضة البريطانيين بإبقاء عملاء لهم في سدة السلطة، وربما يطرح السؤال لماذا كان اللورد كيلرن على هذا القدر من التصميم في تأييدها، والسبب الرئيسي هو أن الوفد في المعارضة كان خطرا محتملا وحيوانا ينزع إلى الانتقام، ومن شأنه أن يتحول بعنف ضد البريطانيين، كما عبر لورد كيلرن في أحد تقاريره "أيا كانت سلبيات الوفد كآلة إدارية فلا ينبغي التهوين من قدر الضيق الذي يسببه بوصفه قوة غير مسؤولة في صفوف المعارضة ".

يوم ١ مايو وافق الملك فاروق على مضض أن يقابل النحاس باشا، ولكن بدلا من أن تبقى المقابلة في إطار من الاعتدال واللياقة على نحو ما اقترح مستشاروه، فإن الملك ما لبث أن هاجمه في مواضيع شتى متهما إياه بتجاهل ما للملك في مصر من حقوق، وفي أواخر اليوم نفسه، استقبل جلالته كيلرن الذي قال له إن فاروق يمكنه بقدر من المشقة القليلة أن يضع النحاس

في جيبه، فما كان من فاروق إلا أن أجاب بغضب أنه لا يريد أن يضع في جيبه مثل هذه الأقذار.

ويجدر القول إن الصدفة البحتة هي التي جعلت فاروقا يتراجع عن مواجهة مع كيلرن يوم ٢٤ أبريل. كانت الأنباء قد وصلت لتوها عن قيام القوات البريطانية بإخماد تمرد الجيش اليوناني.

القوات الهيلينية الملكية في مصر كانت تتألف من متطوعين ومجندين من الجالية اليونانية، ومن القوات التي تم إجلاؤها بعد سقوط كريت بالإضافة إلى لاجئين كانوا قد شقوا طريقهم إلى مصر في الأشهر التي تلت. وفي أبريل ١٩٤٢ تم تشكيلهم في اللواءين الأول والثاني اليوناني، وشكل اليونانيون كذلك قوة طيران ووحدات بحرية ما لبث أن ساندها بعد ذلك أسطول تجاري قوي.

معظم الرجال الذين خدموا في القوات المسلحة اليونانية كانوا يحبذون إقامة حكومة ليبرالية، لكن صفوفهم ضمت كذلك نسبة من متطرفي الاشتراكيين والشيوعيين، وكان الكثير منهم يونانيين متمصرين، أو لاجئين من الجزر اليونانية الذين أرادوا أن يشهدوا تغييرا جذريا في أسلوب حكم بلادهم. وقد نشب بالفعل تمردان في الجيش اليوناني، حدث الأول في سورية في شتاء عام ١٩٤٢ عندما قبض الأفراد على الضباط اليمينيين، ومن ثم أصبحت الوحدات تحت سيطرة "لجان الجنود" المكونة من اليساريين المتطرفين. وبعد إخماد هذا التمرد أعلن مونتجمري أن حيازة منشورات تخريبية من جانب أعضاء القوات اليونانية سوف تشكل جريمة يعاقب عليها بالمحاكمة العسكرية. وتم تطهير الجيش اليوناني من العناصر التخريبية على نحو ما حدث بعد التمرد الثاني في يوليه ١٩٤٣ عندما جرى اعتقال ٢٠٠ "من المتصلبين اليساريين" واحتجازهم بالسودان، ولكن ظل السخط متناميا.

وفي مارس ١٩٤٤ أقام الحزب الشيوعي اليوناني حكومة مؤقتة لإدارة المناطق التي تحررت من الألمان، وكانت تعرف باسم اللجنة السياسية للتحرير

الوطني: وهذه المنظمة دعت إلى أن يؤيدها اليونانيون من جميع أنحاء العالم، وطلبت من رئيس وزراء الحكومة اليونانية في المنفى (تسوديروس) تشكيل حكومة وحدة وطنية تمثل جميع الأحزاب وجماعات المقاومة.

وفي مصر جاءت إلى تسوديروس جماعة من الضباط من الجيش والبحرية وسلاح الطيران اليوناني تطلب إنشاء حكومة وحدة وطنية تمثل جميع الأحزاب وجماعات المقاومة، وتؤيد اللجنة السياسية للتحرير الوطني السالفة الذكر، وما كان من تسوديروس إلا أن رفض، ومن ثم بدأت المتاعب. وفي ٢ أبريل جاءت إلى القاهرة مجموعة صغيرة من المتمردين من معسكرها في المنيا واقتحمت مكتب رئيس الشرطة العسكرية اليوناني، الذي كان في الأصل مدرسة يونانية، واعتصمت بداخله وجرى إقناعها بالاستسلام بعد يومين عندما أحاطت بالمبنى وحدة بريطانية متحركة.

ثم كان التشكيل الآخر الذي انضم إلى التمرد هو اللواء اليوناني الأول الذي كان مرابطا في برج العرب. وكانوا قد تقرر إبحارهم إلى إيطاليا يوم ٨ أبريل، ولكن قبل هذا الموعد بيومين ألقت لجان الجنود القبض على جميع الضباط اليمينيين وفرضت عليهم حراسات دائمة، وحاول البريطانيون إقناعهم بالاستسلام وأوفدت إلى المنطقة قوة دبابات وقد غادر بعض اليونانيين بالفعل المعسكر في هذه المرحلة، ولكن عندما بدأ المتمردون في الاستعداد لتشغيل بطاريات بوفور، انسحبت الدبابات، وحاصر البريطانيون معسكر المتمردين وقطعوا عنه كل الامدادات، برغم أن هذا الأمر لم يتسبب في مشاق كثيرة، إذ كان اليونانيون يزيدون على مائتي فرد من أصلب العناصر، وكانوا يملكون كمية كبيرة من المخزونات، ويسحبون المياه مباشرة من ماسورة مرسى مطروح، ويملكون من الأموال ما يتيح لهم شراء البيض والخبز من البدو في المنطقة، وبحلول ٨ أبريل كانوا قد تحصنوا في المعسكر، وما لبث التمرد أن انتشر إلى الاسكندرية. كذلك أعلنت التمرد ثلاث سفن من البحرية الهيلينية الملكية، بينما قام زعيم اتحاد البحارة اليونان الشيوعي بتنظيم صفوف مائتين

من البحارة اليونان، مسلحين بالخناجر والبنادق، لكي يحتلوا مكتب الاتحاد في ميدان محمد علي.

يوم ١١ أبريل حاول وفد من اللواء اليوناني الأول في برج العرب استهلال المفاوضات مع القائد العام، لكن الجنرال باجت أصر على أن يستسلموا دون قيد أو شرط، ورفض هذا الجانب الاخر ثم مضت الأيام الاثنى عشر التالية في حال من الركود، بينما كانت سحابات المنشورات الحافلة برسائل من الملك جورج الثاني، ومن رئيس الوزراء الجديد سوفوكليس فنزيلوس، وأيضا من الجنرال باجت تهطل على رؤوس المتمردين.

من ناحية أخرى تجمعت سحب الأزمة السياسية في مصر عقب قرار فاروق طرد الوفد، مما كان يعني أنه لا سبيل للسماح بالتمرد أن يستمر بغير نهاية، وفي الساعات الأولى من صباح ٢٣ أبريل، قامت قوة بريطانية صغيرة بفتح النار على معسكر المتمردين في برج العرب، ووافق اللواء الأول اليوناني على الاستسلام في اليوم التالي، وبحلول مساء ٢٤ أبريل استسلمت السفن المتمردة، وقسم اللواء اليوناني الأول إلى ثلاثة معازل للسجناء قرب الاسكندرية، أما أشد الوحدات تصلبا فكان أفرادها يصيحون منادين رفاقهم وقد هزوا الحواجز بعنف لدرجة أن البريطانيين تصوروا أنهم سوف يحطمونها.

لم يمض يومان بعد نهاية التمرد اليوناني إلا وتمت في كريت واحدة من أشهر العمليات الصغيرة التي شهدتها الحرب، إذ قام فريق صغير من أبناء كريت (من بينهم جنود من الجيش اليوناني بالإضافة إلى قوى الأندارتيس من المقاومة المحلية) بقيادة الميجور لي فيرمور والكابتن موس باختطاف الجنرال كارل كريبي، الذي كان يقود فرقة سيفستوبول رقم ٢٢ التي كانت تحتل كريت في ذلك الوقت. وبدأت العملية بشل حركة الجنرال بواسطة ثلاثة من أهل كريت في المقعد الخلفي من سيارته، بينما جلس فيرمور في المقعد الأمامي يرتدي قبعة الجنرال وكان يقود السيارة موس الذي شق طريقه خلال العاصمة هيراكليون، واجتاز ٢٢ من نقاط التفتيش الألمانية قبل أن يهجروا السيارة

ويختفوا بين شعاب الجبال. وبين صفوف الألمان كانت ردود الفعل إزاء الاختطاف مختلطة بصورة واضحة ويسجل بيكام سويت سكوت قصة قيلت بعد الحرب على لسان أحد أصدقائه الألمان، ممن كانوا في ذلك الوقت يعملون في هيئة أركان الجنرال كريبي ومؤداها أنه لدى إعلان اختطاف الجنرال في ميس الضباط في هيراكليون، ساد صمت يشوبه القلق، وما لبث أن قال أحدهم "حسنا أيها السادة أتصور أن هذا الأمر يستدعي دور شمبانيا للجميع". وبرغم أن المغيرين حاولوا أن يعطوا الانطباع بأن البحرية قد التقطتهم شمال الساحل، فلم يكن الألمان يقتنعون بذلك، وتأكدت الشكوك بعد أسبوع من خلال ما أذاعه راديو القاهرة من أن "كريبي يتم إبعاده عن الجزيرة"، ولتحاشي مجموعات البحث اضطر موس وفيرمور إلى إخضاع الجنرال لمسيرة شديدة الإرهاق فوق قمة جبل إيدا وهي أعلى نقطة في كريت، إلى الساحل الجنوبي، وبعد أسبوع يشوبه القلق في محاولة تنظيم موعد للقاء حينما كانت مئات من قوات الألمان تقوم بدوريات تمشط السواحل القريبة أمكن للفريق أن يجلو عن المكان في أمان ويعود إلى القاهرة.

خلال الأيام القليلة الأخيرة في كريت، كان فيرمور يعاني من ضعف الصحة وتقلصات الجسم وتدهورت حالته بعد العودة إلى القاهرة حيث أخذوه إلى المستشفى وقد أصيب بنوع غريب من شلل الأطفال، وكان لا يزال نزيلا به عندما ثبت الجنرال باجت نوط الخدمة الممتازة على سترته الكاكي التي كان يرتديها فوق بيجامته المخططة، بينما منحوا موس وسام الصليب العسكري. وكم دهش أصدقاؤهما في القاهرة إزاء نجاح المهمة، فكم كان يسر المختطفين أن يحكوا لكل امرئ أنهم كانوا ذاهبين إلى كريت "لتعبئة" جنرال ألماني، ولكن لم يكن أحد يتوقع جادا أنهم سيحققون النجاح.

فكرة الاختطاف خطرت على بال موس وفيرمور ذات مساء وهما جالسان في نادي رويال ثم جرى تخطيطها خلال شتاء عام ١٩٤٣ (إحدى جلسات التخطيط تمت في حمام بفيلا تارا: كان ديفيد سمايلي وبيلي ماكلين قد نصحا

مخططي الاختطاف باتباع تكتيكات نصب الكمائن، ورسم فيرمور خرائط للمنطقة المستهدفة على جدران الحمام المجللة بالبخار). وفي ذلك الوقت كان الجنرال مولر قائد الفرقة العسكرية في كريت مكروها من جانب أهلها بسبب وحشيته في عمليات الانتقام من السكان، ونجح فيرمور في الهبوط بالمظلة داخل كريت في شهر فبراير، لكن حال سوء الحظ وسوء الطقس بين موس و ١٢ كريتيا من الجيش اليوناني، وبين الانضمام إليه (بحرا في هذه الحالة) حتى ٤ أبريل. وفي ذلك الوقت حل محل مولر الجنرال كريبي.

هكذا تعين على هيئة الخدمة السرية والعمليات الخاصة بالقاهرة أن تقرر ما إذا كانت العملية ستمضي في طريقها المرسوم. بيكام سويت سكوت، الذي كان وقتها يعمل في القاهرة مستشارا سياسيا للجنرال سكاويل رئيس الهيئة، كان معارضا لها على طول الخط، في حين أن مسؤولين آخرين في الهيئة شعروا أن من شأنها أن ترفع كثيرا الروح المعنوية بين سكان كريت، بالإضافة إلى المتعة الحقيقية التي تصور الألمان في أهاب الحمقى، وكل هذا كان من شأنه توفير أسباب كافية لاستمرار العملية.

ساورت موس وفيرمور وساوس كثيرة إزاء عمليات الانتقام المحتملة، وقد أكدا للألمان برسالة أن العملية برمتها قام بها جنود بريطانيون ويونان دون أي مساعدة من عناصر المقاومة الوطنية في كريت، وأن الجنرال يعامل معاملة كريمة كأسير حرب بحكم رتبته الرفيعة. مع ذلك يكتب بيكام سويت سكوت في اختتام انتقاداته لعملية الاختطاف قائلا "أبلغوني بعد ذلك أن ٢٠٠ تقريبا من أهل كريت أعدموا رميا بالرصاص" وهو يشير في هذا أن حياة هؤلاء البشر كان يمكن إنقاذها لو لم يختطف الجنرال كريبي. لكن يبدو أن صاحبنا قد بالغ سواء في الرقم أو في الدلالات التي يتحدث عنها. صحيح أن عمليات الانتقام الألمانية كانت قاسية بكل تأكيد، لكن أهل كريت شعب جبلي صعب المراس إلى حد رهيب ومجبول على الأخذ بالثأر الدموي، وكانت عمليات المقاومة ومعها ثورات الانتقام والثأر تمضي على قدم وساق في

الجزيرة، دمرت ثلاث قرى، بينما كان المختطفون وأسيرهم في الجبال على سبيل الانتقام إزاء عملية قصف بالمدافع تمت في الشهر الذي سبق، وينبغي أن يظل الحكم النهائي في هذه القضية بيد أهل كريت أنفسهم، ومن الواضح أنهم لم يشاركوا سويت سكوت في رأيه السابق، ويشهد بهذا الترحيب الهائل الذي لقاه باتريك لي فيرمور في سنوات ما بعد الحرب.

على أن موس وفيرمور جاءا من كريت بمشكلة على شكل رجل روسي اسمه بيوتر إيفانوف، كان قد هرب من معسكر أسرى في راتيمو بصحبة ثلاثة رفاق، وخلال قسوة أيام الهرب وصل إيفانوف إلى حال من الضعف والمرض لدرجة أن ضباط الخدمة السرية اضطروا إلى أن يحضروه معهم إلى القاهرة، لكن السلطات البريطانية كان لها شكوكها القوية إزاء هذا الرجل الرصين والسخيف، ومن ثم احتجزوه دون أن يسمحوا له باتصال يجريه مع المفوضية الروسية مما آثار غضبا هائلا من جانب نيكولاي لوفينوف، الوزير الروسي المفوض، الذي شرع في نوبة من الصياح والتهديد بطريقة عنيفة أصابت لورد كيلرن بصدمة كاملة، ولم يتم الإفراج عن إيفانوف إلا بعد أن تلقت السلطات العسكرية البريطانية تعهدا بأنه عضو حقيقي وأصيل في الجيش الأحمر (السوفييتي) .

صيــف وشتــاء ١٩٤٤

لورد موين

لم تكن القاهرة قد تغيرت كثيرا في الأسابيع التي شهدت غياب لي فيرمور وزميله موس. في نهار الصيف الحار بضوئه الصارخ كان الصبية من ماسحي الأحذية وباعة الأمشاط يواصلون ملاحقتهم وإلحاحهم باستمرار للبشر، فيما ظل نفس الرجل يقف أمام مقر قيادة الجيش البريطاني في القاهرة مناديا: شيكولاتة! سجائر! نياشين!". الجوارح ظلت في جولاتها محومة ببطء في السماوات الدافئة بينما كان يعلو صرير ترام فوق ضجيج حركة المرور بين فينة وفينة، ومعها يعلو صريخ صفارة كمساري الترام تدليلا على أهمية يتمتع بها. جماعات من الرجال يرتدون الجلابية ذات الألوان الكالحة، يجلسون على أديم نجيل جاف في وسط ميدان الخديوي اسماعيل (التحرير) دون أن يلقوا بالا إلى ضجيج المرور والأبخرة المتصاعدة منه، بل يتجاذبون طرفا من حديث ويدخنون وكأنهم يجلسون في جنات النعيم. بدا الأمر وكأن الصلة بين البريطانيين والمصريين كانت على حافة وجود هؤلاء وهؤلاء. الصبية الصغار كانوا يندفعون بين الأرجل والموائد الخيرزان الموضوعة في شرفة فندق شبرد، يبيعون آخر طبعة من البورص إيجيبشيان، وهم ينادون: البورص! البورص! بل يحاولون دفع الجريدة تحت أنف جنرال ذي حيثية تكون سيارته الديلمار قد انحشرت بين العربات الظائطة والبغال التي تجر بأجسادها الضامرة أحمالا وأثقالا لا تكاد تطاق. في عصاري الأسبوع كان رسل باشا يمتطي حصانه الأبيض يجوس به كعادته لسنوات كثيرة في فجاج المدينة، وقد بدا في

بدلته الرسمية المهيبة السوداء وطربوشه الأحمر تجسيدا حيا لمعنى القانون والنظام.

كانت ليدي رسل باشا قد منحت وسام الامبراطورية، بينما كان مكرم عبيد مؤلف الكتاب الأسود المشاغب قد أودع رهن الاعتقال، نموذجا آخر على الطريقة القمعية التي كان النحاس ينزع إلى معاملة خصومه بها، وإن كانت هذه الأنباء قد قوبلت بقدر من الارتياح إذ كان الكل قد سئم مكرم وخطبه وثرثرته، وفي شهر يونيه ذهب "الكسندر كيرك"، الوزير المفوض الأمريكي ليحل محله "بنكني تك" - آخر حلقة في سلسلة أسماء وزراء مفوضين من مقطع لغوي واحد على شاكلة برت فش، وكيرك وتك. على أن لورد كيلرن كان حزينا عندما ذهب كيرك الذي كان صديقا مقربا منه، وكان من غلاة مؤيدي البريطانيين وإن كان تعيين تك قد قبل بارتياح عام في مصر، فهو نجل قاض في المحاكم المختلطة وكان قنصلا في الاسكندرية ويتكلم العربية بطلاقة.

شعر السفير البريطاني أيضا بالحزن إذ لاحظ أن القاهرة بدأت في الانكماش بعد فترة الإثارة طيلة الحرب، اصبحت المكاتب الإدارية أصغر وبعضها أغلق أبوابه، وبدأت الشقق السكنية تخرج من الصورة إذ كان الضباط قد غادروا إما إلى إيطاليا أو انجلترا، وهنا كتب لورد كيلرن يوم ١٨ مايو يقول "إنني أعجب كل يوم لما آل إليه حالنا، وللأسلوب الذي نبدو وكأننا نعود به إلى قاهرة ما قبل الحرب، وتلك عبارة أكتبها بكل إخلاص". كان يمكن للحرب أن تتجه ألى الأسوأ لكي تكتشف أن القاهرة لم تعد تكترث بمجريات الأمور، لكن وسط هذا القلق جاء التأمل الحزين بأن الأمور بشكل عام أصبحت مملة وسخيفة في الفترة الماضية، حتى وصول سيارة الباكار الجديدة ذات السبعة مقاعد التي وضعت تحت تصرف السفارة، وحتى الحفلة القبطية الفارهة التي شهدها أوبرج الأهرام، كل هذا لم يفلح في رفع معنويات السفير الذي عاود يوم ٢٧ يوليه كتابة ملاحظاته حول القاهرة وكيف أصبحت "فاترة ومضجرة" منذ أن فارقتها الحرب.

مع ذلك كانت الحرب ما تلبث أن تعاود وجودها بين حين وحين، فبعد أيام قلائل، أي يوم ٣ أغسطس، جنح على شاطئ قصر المنتزه الملكي لغم إيطالي عند الطرف الشرقي من الاسكندرية، وكم أثار هذا الملك فاروق الذي أصدر أوامره إلى البحرية المصرية بتفكيك اللغم، ونظرا لأنه لم تتوافر لديهم خبرة بهذه النوعية من الألغام أحسنت البحرية المصرية صنعا باستدعاء البريطانيين وهنا شرع خبراء التدمير في العمل، لكن فاروق تملكه الهياج لأن البريطانيين شاركوا في المسألة وأمرهم بالتوقف فورا، لكن الخبراء حذروه من أن اللغم ما زال فعالا رغم أنهم نزعوا جهاز التفجير، وإن كان هذا لم يوقف فاروق من أن يأمر بتحميله على متن شاحنة حيث نقلته على طول الطريق إلى القاهرة. وأبلغ لورد كيلرن بأن اللغم في طريقه إلى سراي عابدين، ومن ثم على الاتصال بحسنين، وما كان من رئيس الديوان الذي راعه تصور قصر عابدين وقد تحول بفعل الانفجار إلى حطام، إلا أن أصدر أوامر عاجلة بألا يلمس اللغم أي فرد في السراي، ولكن تم نقله إلى وزارة الدفاع المصرية وجرى تحييده بأمان، ثم ما لبث اللغم أن اختفى ضمن المجموعة الواسعة من الأسلحة التي يقتنيها الملك.

وثمة حادثة سلمية أكثر تمثلت في حضور الملك الحفلة الأولى لعرض إرفينج برلين بعنوان "هذا هو الجيش يا مستر جونز". يوم ١٧ أغسطس كان لورد كيلرن قد أوضح لمدام سري التي تنظم العرض أنه لن يدفع ٢٥ جنيهاً مصرياً ثمناً لتذكرة لمجرد أن يفاجأ بأن جلالته قد تجاهله تماما في فترة الاستراحة على نحو ما فعل في المناسبتين السابقتين اللتين شهدتا ظهور الملك والسفير علانية من قبل. مع ذلك فقد انتهى العرض إلى نوع من الإحراج ولكن لأسباب مختلفة، فقد كان الكورس مؤلفا من جنود الجيش الذين ارتدوا ملابس فتيات جميلات وهو ما رآه جمهور القاهرة مجافيا إلى حد ما للذوق السليم. أما مخاوف السفير كيلرن فلم تتحقق إذ تصرف فاروق بمنتهى الأريحية ولم يستدع السفير البريطاني إلى مقصورته أثناء الاستراحة فحسب،

بل استبقاه فيها طيلة النصف الثاني من العرض. ومع ذلك شعر الملك بخيبة أمل شديدة إزاء مجموعة الكورس وظل يسأل لماذا بحق السماء لم يستخدموا فتيات حقيقيات بدلا من ذلك.

وفيما كان فاروق على استعداد لسلوك مسلك اللطف مع السفير البريطاني، لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لمشاعره نحو الحكومة المصرية، فبعد أزمة أبريل حاول الوفد أن يزيد من شعبيته المتداعية من خلال حملة مناهضة للبريطانيين، وهكذا شرع الوفد في مغازلة نقابات العمال واتحادات الموظفين الحكوميين والإخوان المسلمين وبدأ الحديث علنا في البرلمان حول ضرورة إعادة النظر في المعاهدة المصرية البريطانية وعن حقوق مصر في السودان، وأكد النحاس كذلك مناقبه الوطنية في أعين الآخرين عندما أفرج عن أحمد حسين، الزعيم المتعصب للحزب الوطني الإسلامي (مصر الفتاة سابقا) وجاء هذا كله مصدر ضيق حانق من جانب كيلرن.

وقرب نهاية أغسطس بذلت محاولة لتحسين العلاقات بين النحاس والسراي، ففي يوم ٣ سبتمبر وافق فاروق على مضض على استقبال النحاس ومرة أخرى بدلا من أن يتبع فاروق سبيل التصالح إذا به يوجه انتقادات وقحة لرئيس الوزراء لأنه لم يفعل في رأيه شيئا بشأن قضية السودان، وأنه قاطع احتفالات السراي خلال شهر رمضان. وتلى ذلك في ١٥ سبتمبر انفجار أزمة العام بشأن موضوع اللافتات بكل تفاهته. ففي طريقه إلى الصلاة في جامع عمر بن العاص استاء الملك كثيرا عندما شاهد بعض اللافتات الوطنية مكتوبا عليها عاش الملك مع النحاس، وأمر فاروق غزالي بك، المدير العام للأمن العام، بنزع هذه اللافتات فورا، وأطاع غزالي بك الأمر، وما لبثت الحكومة أن فصلته في اليوم التالي، فأصرت السراي على إعادة تعيينه، ومرة أخرى وصل الملك والوفد إلى طريق مسدود. وكان اللورد كيلرن يقضي إجازته في جنوب أفريقيا، وحاول لورد موين الذي كان يتولى أمور السفارة أن يشعر كلا

الجانبين بمدى حماقة المسألة وتفاهتها الظاهرة، ولكنه تلقى تعليمات من وزارة الخارجية بأن "يبتعد عن الموضوع" ويكتفي بمراقبة التطورات.

في الوقت نفسه كانت الاستعدادات ماضية على قدم وساق لانعقاد أول مؤتمر لزعماء العرب الذي كان مقررا أن يبدأ يوم ٢٦ سبتمبر، وكان ذلك إنجازا كبيرا بالنسبة للنحاس باشا الذي كانوا ينظرون إلى سياسته حول الوحدة العربية بشيء من التشكك خصوصا من جانب الذين تصوروها مجرد أسلوب من أساليب العلاقات العامة. لكن النحاس صمد في الأمر، وبعد أن استطلع آراء قادة العالم العربي توصل إلى نتيجة تقول إن ثمة أرضية مشتركة تكفي لتنظيم اجتماع تمهيدي في مصر. وكان لورد موين مؤيدا هذا المؤتمر أشد التأييد، بل عمل على تيسير حضور ممثلي عرب فلسطين إليه، وحقق المؤتمر نجاحا كبيرا، وتوج بتوقيع وثيقة تشمل قرارات إنشاء جامعة للدول العربية هي بروتوكول الاسكندرية.

في إطار هذا النصر الذي حققه النحاس تصور الرجل أن الوقت قد حان لاستلام زمام المبادرة. وعلى سبيل الاعتراض إزاء تداخل بريطانيا الذي لا يغتفر في السياسة المصرية (بمعنى آخر محاولات اللورد موين المعتدلة التي بذلها بشأن مسألة اللافتات) اقترح أن يقدم استقالته إلى الملك في ذلك المساء ويضطر أولي الأمر إلى عقد الانتخابات. لكن الملك قطع عليه الطريق، ففي صباح ٨ أكتوبر تلقى النحاس باشا مرسوما ملكيا يبلغه بعبارات لا مواربة فيها أنه قد أعفي من منصبه.

في فبراير عام ١٩٤٢ كان مصطفى النحاس باشا قد تولى منصبه ومن خلفه كل ثقل البريطانيين والبلد. وبعد سنتين ونصف من هذا التاريخ كانت حكومته قد فقدت الكثير من شعبيتها، لدرجة أن الملك استطاع أن ينفخ فيه كريشة في مهب الريح. وفي القاهرة قامت مظاهرة أو مظاهرتان احتجاجا على هذا التصرف الغريب، لكن كان الاحتجاج ضعيفا. وقد أفاد القناصل البريطانيين أن الوفد كان لا يزال محتفظا بقوته في القرى، وإن كان هناك من ارتاحوا

كثيرا لرؤية النحاس يبتعد عن الصورة. فهذه الحكومة الوفدية بالذات لم تكن فاسدة فحسب، بل كانت عاجزة عن حل مشكلة التموين. كان لورد كيلرن في إجازته في جنوب أفريقيا ولم يرفع البريطانيون إصبعا لمساعدة الرجل الذي جاءوا به إلى السلطة. هكذا تجرع النحاس كأس المهانة كاملة.

استدعى الملك الدكتور أحمد ماهر لتشكيل حكومة ائتلافية جديدة وهو خيار وافق عليه البريطانيون. كان أحمد ماهر قد بدأ حياته السياسية في صفوف الوفد، وكان هو وعضو آخر في الحزب هو النقراشي باشا قد برئت ساحتهما بتهمة التواطؤ في مقتل سير لي ستاك (السردار الانجليزي) في عام ١٩٢٤. وفي سنة ١٩٣٧، وهي عام ارتقاء فاروق على العرش، كان أحمد ماهر والنقراشي أيضا بين جماعة من الوفديين الذين تصوروا أن على الحزب أن ينهي خصومته المطلقة للعرش وأن يشجع على التطور نحو ملكية دستورية. فما كان من النحاس إلا أن طردهم من الوفد، وفي السنة التالية أسسوا الحزب السعدي الذي خلعوا عليه هذا الإسم لأن أعضاءه زعموا أنهم أقرب إلى روح الزعيم سعد زغلول، الأب المؤسس للوفد، بأكثر مما كان الحزب نفسه تحت قيادة النحاس.

وبرغم مزاعم مشاركته في اغتيال سير لي ستاك، فقد استطاع أحمد ماهر أن يكسب صداقة البريطانيين وقت نشوب الحرب عندما حث مصر على التخلي عن حيادها والانضمام إلى الحلفاء. كذلك أعجب البريطانيون بسلوكه في صيف عام ١٩٤٢ عندما توقف روميل عند العلمين، إذ كان أحمد ماهر بوصفه زعيما للمعارضة هو أهم خصوم النحاس السياسيين ومع ذلك فقد أيد التعاون بين رئيس الوزراء وبريطانيا، وكان يمكن للنحاس أن تصعب مهمته في إبقاء مصر هادئة في تلك الأيام الحافلة بالقلق لو لم يتخذ أحمد ماهر هذا الموقف.

لم تكد الحكومة الجديدة تتشكل إلا وقد هزت مصر حادثة مقتل لورد موين. لقد كان والتر إدوارد جينيس، وهو البارون موين الأول، من نوعية

الموظفين العموميين الذين يعجب بهم البريطانيون أيما إعجاب. كان يحمل اسما أيرلندا ذائع الصيت، ويمتلك ثروة هائلة. رجلا رقيق الحاشية، هادئ الطبع، أحرز لنفسه قصب السبق في خدمة الجيش والإدارة على السواء. كان يتمتع بفضول فكري مما حمله على اكتشاف طائفة عريضة من المواضيع التي تراوحت بين علم الآثار إلى علم الأحياء، ثم كان صديقا شخصيا مقربا من تشرشل. زار لورد موين مصر لأول مرة خلال الحرب العظمى الأولى، وفي أغسطس ١٩٤٢ أوفد إلى القاهرة نائبا لوزير الدولة تحت رئاسة ريتشارد كاسي ثم حل محله بوصفه الوزير البريطاني المقيم في يناير عام ١٩٤٤.

أما المسؤولون عن موته فكانوا مجموعة من الإرهابيين اليهود الذين كانوا يسمون أنفسهم: المحاربون من أجل حرية اسرائيل، برغم أن البريطانيين كانوا يصفونهم ببساطة بأنهم عصابة الشتيرن، على اسم مؤسس العصابة أفراهام شتيرن. وترجع أسباب قيامهم باغتياله إلى خريف عام ١٩٤٠ عندما وافق كل من تشرشل وإيدن على تشكيل جيش يهودي قوامه عشرة آلاف رجل يؤخذون من بين صفوف الجيشين البولندي والتشيكي، ثم تتولى بريطانيا تمويلهم. راودت الآمال زعماء اليهود بتشكيل جيشهم هذا على أن يقوده أوردي وينجت، الذي كان إخلاصه الجياش للقضية الصهيونية معروفا للجميع. لكن الأخير أمر بالتوجه إلى إثيوبيا وكان في ذلك خسارة لهم، إلا أن الدكتور حاييم وايز مان وزملاءه كانوا مرتاحين أن الحكومة البريطانية قطعت على نفسها على الأقل التزاما بهذا المشروع.

ولسوء الحظ كان تشرشل قد ارتكب الخطأ الذي تمثل في إعطاء كلمة من جانبه دون أن يعمد أولا إلى مشاورة الإدارة البريطانية في فلسطين أو القائد العام في منطقة الشرق الأوسط. ولأسباب سياسية واقتصادية، كان المفوض السامي سير هارولد مك مايكل والجنرال ويفيل يعارضان معارضة شديدة تشكيل جيش يهودي. ووجد تشرشل أن من المستحيل تغيير رأيهما، وهكذا

أبلغت الجالية اليهودية في فلسطين أنه لا سبيل إلى وضع الفكرة حاليا موضع التنفيذ برغم إمكانية معاودة النظر فيها في غضون ستة أشهر.

الرجل الذي كلف بإبلاغهم ذلك لم يكن تشرشل، بل كان لورد موين الذي كان في أعقاب الوفاة المفاجئة للورد لويد قد أصبح وزيرا للمستعمرات في شهر فبراير. كان كل من موين وسلفه مؤيدين للعرب، وبرغم أنهما لم يفتقرا إلى التعاطف مع الصهيونية لكن أسلوب موين اتسم إزاءها بقدر أكبر من التباعد والروح العملية، وربما يكون هذا قد أعطى انطباعا باردا إزاءها. كان عليه أن يبلغ مرتين حاييم وايزمان وبن جوريون أن تشكيل جيش يهودي ينبغي تأجيله: أولا في شهر فبراير ١٩٤١ وبعد ذلك في أكتوبر عندما أعيد التطرق إلى الموضوع لدراسته ومن ثم لرفضه من جديد.

منذ ذلك الحين فصاعدا وجد الصهاينة المتطرفون أن الرجل عدوهم، وهم رأي لم يكن ليتغير عندما أوفد الرجل في منصبه إلى القاهرة، وأصبح معروفا جيدا أن مكتب وزير الدولة البريطاني يشمل مجموعة من مؤيدي العرب المخلصين الذين كان على رأسهم البريجادير كلايتون. ويشهد للورد موين أنه لم يوجه دعوة عشاء إلى كلايتون في الليلة التي كرم فيها الفيلد مارشال لورد جورت، الذي كان على وشك أن يتولى منصبه مندوبا ساميا لبريطانيا في فلسطين، إذ شعر أن كلايتون متحيز لدرجة كبيرة لصالح الآراء العربية وربما يعطي بذلك الانطباع الخاطئ للمفوض السامي الجديد.

بيد أن عصابة الشتيرن لم تكت تهتم بالذات بشعور اللورد موين بالنزاهة والعدالة، إن تشجيعه عقد مؤتمر بشأن الوحدة العربية والمساعدة التي قدمها لمندوبي فلسطين إلى هذا المؤتمر كان سببا كافيا من أجل قرار تصفيته تماما، ورأوا أن القتل سوف يجلب معه مزايا أخرى. إن الأزمة التي ستنجم عنه سوف تضع مشكلة فلسطين على جدول الأعمال الدولي، سيرى البريطانيون أنها لم تعد مجرد مسألة يستطيعون تسويتها على هواهم في لندن، كما كانت عصابة الشتيرن تعتقد أن الوجود البريطاني في الشرق الأوسط هو الذي يتهدد

قضيتها وليس العرب الذين رأت فيهم شركاءها في المعاناة من نفس الاضطهاد البريطاني، بل إن الاغتيال سوف يبين أمام المصريين أن البريطانيين ليسوا على نفس القوة التي تفترض فيهم.

عصابة الشتيرن كان لها بالفعل خلية في مصر تتألف من ثمانية رجال وأربع نساء، ولكنها لم تكن قد ارتكبت أي أنشطة تخريبية تتجاوز طبع بضعة منشورات والبحث عن الأسلحة، ولذلك لم يكن بوسعهم أن يقدموا سوى بعض المساعدات، وعليه كان يتعين إرسال القتلة من فلسطين إلى مصر.

لم يكن ثمة نقص في المتطوعين من أجل تنفيذ العملية، وهكذا اختير اثنان، الأول اسمه إلياهو حكيم، كان قد انضم إلى محاربي الحرية من أجل اسرائيل عام ١٩٤٠ عندما كان لا يزال بالمدرسة، وقد شعرت عائلته بالذعر وأجبرته على مغادرة صفوف المنظمة وأقنعته بالالتحاق بالجيش البريطاني وقد أوفد إلى القاهرة وأصبح مشاركا في تدريبات على الأسلحة مع خلية عصابة الشتيرن وهرب من الجيش في فبراير ١٩٤٤ وعاد حينئذ إلى فلسطين ونزل للعمل تحت الأرض، ووقت اختياره للمهمة كان قد قتل بالفعل ستة رجال على الأقل، كما شارك في عدة محاولات لم تكتمل لاغتيال سير هارولد مك مايكل المندوب البريطاني السامي. كان في العشرين من عمره، أما الرجل الثاني إلياهو بتزوري فكان أكبر منه بسنوات ثلاث يعمل في وظيفة بمصلحة المساحة وما كان يفتقر أليه من خبرة بالعمليات عوّضه بالحماس المتعصب.

جاء حكيم إلى القاهرة في خريف عام ١٩٤٤ واتصل برفاقه القدامى، واستأجر غرفة صغيرة في حي الموسكي، وتعرف على صديقة اسمها "يفا" وكان الإثنان يتناولان طعامهما في المطاعم الصغيرة، ويرتادان المراقص، وقد كفلت له صديقته مظهرا بريئا. كانا يتمشيان مثل أي حبيبين خلال الشوارع المتعرجة في حي جاردن سيتي من حول مكتب موين، وكذلك في الشوارع السكنية العريضة في الزمالك، قرب منزله (الذي كان يوما منزل مومو ماريوت) بينما كان حكيم يقوم بالمهمة الكئيبة المتمثلة في دراسة العادات

والتحركات اليومية لضحيته. جاء بيتزوري وانضم إليه من فلسطين وحددا ٦ نوفمبر يوما لتنفيذ الاغتيال، كما قررا الهروب بواسطة دراجات لأن المسألة لن تستغرق سوى بضع دقائق للتحول من بيت موين في شارع الجبلاية إلى كوبري الزمالك، ثم الاختفاء في الحواري الفقيرة في حي بولاق.

وقت الغذاء من يوم الاثنين ٦ نوفمبر استدارت الباكار السوداء التي يستقلها الوزير إلى الممشى المفروش بالحصى في البيت رقم ٤ شارع الجبلاية، وكان بصحبة لورد موين سكرتيرته الخاصة دورتي أوزموند وياوره الكابتن أندرو هيو أونسلو وسائقه الرقيب فولار. خرج أونسلو من العربة ومشى نحو المنزل عندما سمع صوتا يأمره ألا يتحرك. فولر الذي كان قد استدار إلى خلف السيارة ليفتح الباب أمام لورد موين تلقى عدة طلقات في صدره من بيتزوري وبعدها ركض حكيم إلى الأمام وبدأ يطلق الرصاص على لورد موين لحظة محاولته الخروج من السيارة وعندما أفاقت دوروثي أوزموند وهيو أونسلو من الصدمة الأولى، كان فولار ميتا، وكان لورد موين مصابا بصدمة جروح متعددة فيما كان القاتلان قد هربا خارج حيز السكن.

اندفع هيو انسلو خلفهما وأطلق إنذارا في كشك حراسة قريب، واستولى شرطي على سيارة عابرة، وبرغم أن القاتلين كانا قد انسلا إلى شارع جانبي إلا أن الشرطة كانت في أعقابهما عندما شارفا على الكوبري، وندت صيحة من نافذة تنبه كونستبل في حرس الوزارات المصري على موتوسيكل لكي يقطع طريق هروبهما، وأطلق الإرهابيان عيارات في الهواء، لكن عبد الله محمد الأمين لم ينكص على عقبيه وأمكن بسرعة التغلب على مقاومة الإرهابيين. والحق أن حكيم وبيتزوري كان يمكن أن يتمكنا من الهرب لو كان على استعداد لقتل أمين، لكنه كان مصريا ولم يكن في عزمهما استعداء الرأي العام العربي.

في الوقت نفسه أخذوا لورد موين إلى المستشفى، وفي عصر ذلك اليوم نقلوا له أربع كميات من الدم وأجروا له جراحة، ولكن لم يكن لديه سوى

فرصة ضئيلة في الحياة بسبب الصدمة والنزيف، وخاصة في ضوء ما أصيب به من جروح داخلية شديدة وتوفي في الثامنة وأربعين دقيقة في نفس المساء.

ارتاع المصريون كثيرا، كانوا قد نسوا يوم اغتيال سير لي ستاك، في ذلك اليوم تسببت حفنة من العناصر الوطنية المتطرفة، في مدى بضع دقائق لا غير، في تأخير نضال مصر من أجل الاستقلال الكامل عشرين سنة. يومها شعر البريطانيون أن من حقهم أن يتخذوا أقسى التدابير العقابية وأشدها قمعا، وشددوا أيضا قبضتهم على السودان الذي لم يقدر لمصر قط أن تستعيده. لذلك تملك الرعب كلا من الملك ورئيس الوزراء الجديد إزاء فكرة الانتكاس في عام ١٩٤٤، ومن ثم فعندما اكتشفوا أن القاتلين كانا من اليهود لا من المصريين، كان ارتياحهم شديدا. تم تنظيم جنازة رسمية في القاهرة لتشييع جثماني لورد موين والرقيب فولر، وتبع النعشين موكب طويل من الجنود البريطانيين والمصريين، وتقدم أولا نعش الرقيب فولر، وخلف نعش لورد موين سار ابنه برايان، الذي سارع بالمجيء من فلسطين ولم يصل إلى المستشفى في الوقت المناسب لكي يرى أباه على قيد الحياة، وكان يمشي متصلبا، هامته مرفوعة، بينما جلل وجهه الدموع.

في غضب عاصف دوى صوت تشرشل في مجلس العموم قائلا "إذا ما كان لأحلامنا من أجل الصهيونية أن تنتهي وسط دخان ينبعث من فوهة مسدس يصوبه قاتل، وإذا ما كانت جهودنا الحثيثة من أجل مستقبلها ستفضي إلى طغمة جديدة من العصابات التي لا تليق إلا بألمانيا النازية فحينئذ سوف يتعين على الكثيرين من أمثالي أن يعيدوا النظر في الموقف الذي ما برحوا يتمسكون به بكل إصرار في الحاضر وفي الماضي". كان حزن رئيس الوزراء وغضبه قد بلغا مبلغا لدرجة لم يكن يجرؤ أي امرئ طيلة الأسابيع التي تلت أن يفتح أمامه موضوع فلسطين.

تحت الاستجواب أدلى القاتلان باسميهما على أنهم كوهين وسالتزمان، لكنهما لم ينبسا ببنت شفة طيلة الساعات الأربع والعشرين التالية كي يعطيا

لأصدقائهما فرصة الهرب. بعد ذلك اعترفا أنهما عضوان في جماعة المقاتلين من أجل حرية اسرائيل، وقدم حكيم وبيتزوري للمحاكمة في شهر يناير، وتم شنقهما يوم ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ وماتا من منطلق الاقتناع العميق أنهما ذهبا شهيدين في سبيل قضيتهما. وعندما وقف حكيم على منصة المشنقة، تطلع إلى المسوح الخشنة الحمراء التي يلبسها عادة المحكوم عليهم بالإعدام ثم أعلن أنها أفضل حلة ارتداها في حياته. دفنت جثتاهما في مقبرة خاصة خارج منطقة هليوبوليس ونصب حرس عليها ليحال دون إخراج الجثتين وإعادتهما إلى فلسطين. وشوهد شخص يقترب من المقبرة وقبض عليه ووجد معه أسماء ٦٠ من الأفراد المرتبطين بعصابة الشتيرن.

إن غالبية اليهود وزعماءهم كانوا يرون في إرهابيي عصابة شتيرن قتلة ولا يرونهم شهداء، وحتى الوكالة اليهودية الأكثر راديكالية أدانت هذه الفعلة وكان من آيات إدانتها أن الوكالة تعهدت بأن يقوم الهاجانا (الجيش اليهودي السري) بمساعدة الشرطة على استئصال شأفة عصابة الشتيرن. كذلك ناشدت الجالية اليهودية في فلسطين ألا تؤوي أحدا من الإرهابيين بل تقدمهم إلى ساحة العدالة.

مع ذلك فبعد ثلاثين سنة من ذلك التاريخ تغيرت النفسية العامة في اسرائيل تغيرا ملموسا، وفي عام ١٩٧٥ أفرجت الحكومة المصرية عن رفات إلياهو حكيم وإلياهو بيتزوري في مقابل عشرين من العرب الذين كانوا مودعين في سجون اسرائيل بوصفهم جواسيس للعدو. وقد حملت الرفات إلى القدس وأقيمت لهم جنازات أبطال حيث مر بنعشيهما الآلاف بمن فيهم رئيس الوزراء اسحق رابين. وبعد ذلك تم دفن القاتلين وسط مظاهر التكريم العسكري الكاملة بين رفات مؤسسي اسرائيل.

ربيـــع ١٩٤٥

الصلح خير

وجهت الدعوة لإجراء الانتخابات في شهر يناير، وبرغم أن الوفد قاطعها، فقد جهد رئيس الوزراء الجديد الدكتور أحمد ماهر في تشكيل حكومة ائتلافية محترمة، وكان من أولى إجراءاتها الإفراج عمن جرى اعتقالهم في ظل الحكومة السابقة، وكان من بينهم أخوه علي ماهر، الذي كان رئيسا للوزراء عند اندلاع الحرب، ثم عمل البريطانيون على إزاحته عن الطريق بسبب عواطفه الموالية للمحور، ومنهم أيضا مكرم عبيد الذي وقف له أعضاء البرلمان تحية عندما دخل دار المجلس النيابي.

وألقي خطاب العرش يوم ١٨ يناير ١٩٤٥، وبناء على الأوامر الملكية فقد ألزم رئيس الوزراء الجديد نفسه بتدبير الغذاء والكساء بما يكفي الفقراء، وكانت هذه هي النقطة الرئيسية في خطاب بلغ صفحاته ثلاثين صفحة، ولكن معظم الحاضرين لم يعيروه كبير التفات، إذ كانوا مهتمين أكثر برفض الملكة فريدة حضور المناسبة، وجاء ذلك اعتراضا على حقيقة أن الملك دعا خليلته الأميرة فاطمة طوسون وزوجة أخيها الأميرة مهواش. في يوم ١٥ فبراير جاء ونستون تشرشل في زيارته الرابعة وقت الحرب إلى القاهرة، وكان في طريق عودته من يالتا. وصل بصحبة ابنته سارة إلى الاسكندرية تحت جناح السرية لدرجة أن الحرس لم يدركوا الشخصية التي يتولون حمايتها إلا عندما سمعوا كبير الموظفين يسأل عن وصول البراندي والسيجار. وكان أول موعد لتشرشل قد تم على متن الطراد الأمريكي كوينسي حيث قدر له أن يجمعه لقاء أخير مع فرانكلين روزفلت (الذي توفي يوم ١٢ أبريل)، وبعدها توجه تشرشل إلى

القاهرة حيث أقام من جديد في "البيت الأزرق" ضيفا على سير إدوارد جريج (لورد الترنشام فيما بعد) وكان قد خلف لورد موين في منصبه .

وقد أبرق لزوجته قائلا "أنا الآن قرب الأهرام أستقبل وجهاء القوم"، وبعد اجتماع مع هيلاسلاسي الذي لم يعرب عن أي امتنان إزاء المساعدة التي تلقاها من البريطانيين لاستعادة عرشه، توجه تشرشل إلى الفيوم وهي واحة تمثل منتجعا جميلا أخضر وسط الصحراء على مسافة ٧٠ ميلا جنوب غربي القاهرة، وقد اختاروها لتكون موقعا لاجتماع تشرشل مع الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود، الذي يعرف باسم ابن سعود. ووصل الملك وحاشيته الكبيرة في أوتيل دي لاك (فندق البحيرة) الحديث البناء، باعتبار أنه لا ابن سعود ولا الملك فاروق رأيا أن من اللائق أن يشاهدا في القاهرة، وكان ابن سعود ضخم الجثة وعندما قدموا له لورد كيلرن ابتسم الملك قائلا إنه قلما التقى بأي إنسان أضخم جرما منه شخصيا، ويومها كتب السفير "لا أعتقد أن هناك من يقاوم شعور الإعجاب البالغ إزاءه" .تشرشل بدوره كان بالغ الإعجاب ولاحظ أن حريمه يضم سبعين امرأة وله أربعون من الأبناء الأحياء، وقد مضت المقابلة على ما يرام، وتبعها مأدبة عامرة.

كانوا قد أبلغوا تشرشل أن ابن سعود لن يسمح بالتدخين أو شرب الكحول في حضرته، لكن تشرشل قال "إذا كانت هذه هي تعاليم ديانة الملك، فإن تعاليم دين تشرشل من ناحية أخرى تصر على شعائر الشراب والتدخين وأن على المؤمن بهذه الديانة أن ينعم بها وقتما يحب ويهوى"، مع ذلك وحتى لا تجرح مشاعر الملك قدموا أصناف الويسكي والصودا إلى تشرشل وإيدن وكيلرن في أقداح ملونة واصفين إياها بأنها "دواء". أما الملك فلم يكن يشرب سوى الماء من بئر زمزم المباركة في مكة، وقد أقنعوا تشرشل بتجربة بعض منها وكتب يقول إنها كانت أعذب مياه ذاقها في حياته.

بعد المأدبة قدم تشرشل إلى ابن سعود صندوقا من العطور الثمينة كان ياورانه قد اشتراه من الموسكي بمبلغ مائة جنيه مصري، وبدت المسألة هدية

لائقة إلى أن شرع ابن سعود في تقديم هداياه، وبينما كانت تنتشر تحت قدمي تشرشل أصناف السيوف المطعمة والخناجر المحلاة بالجواهر والخواتم والأقراط الماسية وأنواع البخور الثمين وقناني التوابل وصندوق من روح الورود وخزانة مليئة بالعباءات الذهبية التطريز حتى باتت هدية البريطانيين تتضاءل إلى أن تلاشت أهميتها ولم يبق منها سوى الإحراج، وعليه أبلغ رئيس الوزراء ابن سعود أن صندوق العطور ليس إلا رمزاً لأن هديته الحقيقية وهي رولز رويس خصوصية جدا لم تكن جاهزة وقتها. وقد تحمس تشرشل لهذا الموضوع عندما انطلق يصف صنوف الراحة والفخفخة التي لا تحصى في السيارة الموعودة ما بين فرشها الفاخر وقدرتها على الصمود أمام هجوم مسلح، فيما أصغى أنطوني إيدن وقد غاص قلبه إلى قدمه متسائلا كم سيكلف هذا القصر المحمول على عجلات؟

في عصر ذلك اليوم عاد تشرشل وإيدن ولورد كيلرن إلى "البيت الأزرق" قرب الأهرام حيث اجتمعا مع الملك فاروق، وأعقب ذلك اجتماع مع الرئيس السوري شكري القواتلي، وبعد رحيل هؤلاء الضيوف البارزين بقي الفريق البريطاني للعشاء، ثم تحولوا إلى قاعة الاستقبال ليبدو إعجابهم بهدايا الملك السعودي وقد ظل إيدن والسفير يتطلعان بشغف، بينما كان رئيس الوزراء يحاول ارتداء عباءاته الفاخرة فيما فتحت سارة تشرشل الصندوق الضخم الذي كان الملك قد أعطاه لأبيها هدية "لأهل منزلك". واحتوى هذا الصندوق على المزيد من الأثواب المزينة بالذهب بالإضافة إلى عقود من اللؤلؤ والماس، وقدر اللورد كيلرن هذا الكنز بمبلغ ٣٥٠٠ جنيه استرليني، وكم كانت خيبة أمل الإبنة عندما قرر تشرشل أن يباع كل شيء كي يدفع ثمن سيارة الرولز رويس التي وعد أن يقدمها إلى عبد العزيز آل سعود.

وفي لقائه مع الملك فاروق عصر ذلك اليوم، حرص تشرشل على التأكيد على أهمية التعجيل بتحسين حياة الفلاحين في مصر، بل تجاسر على القول بأن ما من بلد على وجه الأرض أكثر من مصر يتجلى فيه مثل هذا التناقض

الصارخ بين الثروة الطائلة وبين الفقر المدقع. وما كان من الملك إلا أن وافق بكل ارتياح على هذا القول، وإن كان قد أضاف إن هذا إلى حد كبير هو واجب حكومته، ثم وافق كذلك على أن ليس من سبب يدعو إلى تأخير إعدام قتلة لورد موين أكثر من ذلك، وهو موضوع كان قد بدأ يسبب قلقا بالنسبة لتشرشل. وعلى المستوى الدولي أبلغ تشرشل الملك أن من نتائج مؤتمر يالتا عقد اجتماع للدول المتحالفة في مدينة سان فرانسيسكو في أبريل، ولكن سيقتصر المشاركة فيه على الدول التي تكون قد أعلنت الحرب على ألمانيا واليابان قبل يوم ١ مارس سنة ١٩٤٥ وحث مصر على إعلان الحرب بحيث يمكنها المطالبة بموقع في هذا المؤتمر وتصبح من ثم عضوا مؤسسا للأمم المتحدة.

جاءت استجابة الملك الفورية من خلال ما قاله إن مصر قد تبدو بمظهر الحمقى إذا ما أعلنت الحرب في هذه المرحلة المتأخرة، لكن تشرشل أكد أن من حق مصر أن تفعل ذلك وعليها ألا تضيع الفرصة، وما لبث فاروق أن غير موقفه عندما سمع أن الأتراك قد دعوا بدورهم للمشاركة في المؤتمر فقال إن مصر قد تتصرف في إطار من التنسيق مع تركيا. ثم أضاف قوله إن المسألة في كل حال متروكة لكي تبت فيها حكومته، وطلب من أنطوني إيدن أن يطرح الموضوع للبحث مع الدكتور أحمد ماهر في اجتماعهما في اليوم التالي.

وبرغم أن أحمد ماهر كان قد فشل في إدخال مصر في غمرة الحرب في سنة ١٩٤٠ إلا أنه كان مصمما على النجاح هذه المرة، أما الوفد فقد أصبح، على نحو ما تنبأ به لورد كيلرن يتخذ موقفا مناهضا بعنف للبريطانيين فور أن وجد نفسه في موقع المعارضة، ومن ثم عارض بشدة فكرة إعلان الحرب وكان يؤيده في ذلك غلاة الوطنيين ومنهم الإخوان المسلمون الذين نشروا الشائعات التي تقول بأن مصر سوف ترسل قوة عمل إلى الشرق الأقصى إذا ما أصبحت حليفا مقاتلا. مع ذلك جاهد أحمد ماهر يوم السبت ٢٤ فبراير في

تأمين موافقة البرلمان على إعلان الحرب، وكانت الخطوة التالية هي عرض الموضوع على مجلس الشيوخ.

غادر أحمد ماهر قاعة مجلس النواب مجتازا البهو في طريقه إلى مجلس الشيوخ عندما قام محام شاب متعصب، اسمه محمود عيسوي، بإطلاق ثلاث رصاصات مباشرة عليه، ولقي رئيس الوزراء حتفه في الحال تقريبا، ثم استسلم قاتله دون مقاومة، وعندما وصل رسل باشا بعد ١٥ دقيقة كانت أبواب مباني البرلمان مفتوحة لا تزال على مصراعيها، وفي الداخل ألفى حشدا كبيرا تجمع في إطار من الارتباك الهستيري. وفي رسالة بعث بها إلى نسيبه، كتب رسل باشا قائلا "... كان الأمر عملا مزريا من أعمال حرس البرلمان الذي لا يدخل تحت سيطرتي كما تعرف أنت وغيرك، لكنه مجرد هيئة مصطنعة من أفراد يخضعون لسلطة رئيس البرلمان المباشرة والوحيدة ويختالون في أزياء فاخرة خاصة بهم، وقد حملوا مسدسات ويبلي التي لم تطلق منها رصاصة يوما، ولا كان أي منها محشوا وقت وقوع الجريمة "!.

أتى رسل باشا بمائة من رجاله ليتولوا السيطرة على الموقف، ولكن عندما أغلقوا الأبواب وبدأوا في تفتيش كل فرد متواجد في المبنى اكتشفوا ٥٢ فردا لم يحمل أي منهم بطاقات أو تصاريح للدخول. هرع لورد كيلرن وسير والتر سمارت إلى مكان الحادث وسرعان ما لحق بهما طبيب من الجيش البريطاني، ولكن في ذلك الوقت كان جثمان أحمد ماهر قد تم نقله في طريقه إلى بيت الأسرة بشارع الملك في حدائق القبة، وتبعه بعد فترة قصيرة السفير وبصحبته سير والتر لتقديم فروض العزاء إلى العائلة الثكلى.

عندما دخلا إلى باحة المنزل ترامت إلى أسماعهما أصوات عويل سيدات الأسرة من خلف الأبواب المغلقة، كان الخدم قد انخرطوا في نشيج وعويل ثم تطلع لورد كيلرن إلى القاعة الرئيسية فإذا به يلمح عدوه القديم في سنة ١٩٤٠ - علي ماهر باشا - جالسا ومن حوله مجموعة من أقرباء الأسرة الجالسين في صمت. تصور سير والتر سمارت في تلك اللحظة أن الموقف

يحفه إحراج شديد، لكن لورد كيلرن قرر أن يرتفع فوق أي مشاعر شخصية فتقدم ليشد على يد علي ماهر ويبلغه بأحر تعازيه.

قتل أحمد ماهر لأنه أدخل مصر في حرب لم تكن تريد أن تشارك فيها من قريب أو بعيد، وها هي الشخصية الأوتوقراطية للسفير البريطاني تشد على يد الرجل الذي كان قد أطاح به من سدة السلطة بسبب عواطفه الموالية للمحور، بل ها هي الحرب ذاتها - على الأقل بالنسبة لمصر - قد وضعت أوزارها.

خاتمة

الحريق والثورة

١٩٥١ - ١٩٥٢

في سنة ١٩٤٦ تم تعيين لورد كيلرن مفوضا خاصا في جنوب شرق آسيا بعد ثلاث عشرة سنة من الخدمة في مصر، وأقاموا له غذاء وداع شهده الملك فاروق يوم ٦ مارس. وكتب كيلرن عن ذلك يقول "اتسم سلوكه بجبن يحفه لطف شديد وهو السلوك الذي ظل يتبعه باستمرار في الآونة الأخيرة رغم الارتياح الذي لا شك كان يراوده في تلك اللحظات ... أن يراني موليا ظهري، كان ممثلا جيدا لكن لم يشأ أن يبدو عليه ذلك ".

جاءت نهاية الحرب العالمية الثانية لتشهد مصر أغنى بكثير مما كانت عليه في بدايتها. فإلى جانب المبالغ الضخمة من الأموال التي أنفقها الحلفاء في مصر، فإن القيود التي فرضت على الواردات هيأت دفعة كانت تحتاجها بشدة الصناعة المحلية، وظلت بريطانيا مدينة لمصر بمبلغ ٣٠٠ مليون جنيه استرليني على شكل مواد تموينية وأضرار يدفع مقابلها فضلا عن تعويضات في زمن الحرب. لكن هذه الأموال كلها كانت تصب في جيوب الأغنياء دون أن ينال الفقراء منها شروى نقير. الأسعار ظلت ترتفع على الأقل بمقدار الثلثين منذ ١٩٣٩ دون أن تظهر أي إشارات بالانخفاض، بينما ظلت الأجور متعثرة

تماما. الصناعات المحلية التي ولدت في تلك اللحظة لم تستطع على الإطلاق أن تتنافس مع استئناف التجارة العادية في فترة ما بعد الحرب، ومن ثم ترنح كثير منها في طريقه إلى السقوط، وجاء هذا، بالإضافة إلى الأعمال التي انتهت من خلال تفكيك آلة الحرب للحلفاء ليلوح شبح البطالة أمام ٣٠٠ ألف فرد.

السنوات التي أعقبت الحرب العالمية مباشرة شهدت بدورها فترة من التغير المؤلم في مصر، فحتى منتصف عقد الأربعينات كان الفقراء يعقدون آمالهم على الوفد أو على الملك، لكن هذه الآمال سرعان ما ذهبت أدراج الرياح، فقد ثبت أن الوفد دب فيه الفساد وافتقر إلى الكفاءة وأصبح عاجزا عن مد يد العون إليهم. أما الملك الذي كان المصريون يعاملونه يوما بنفس التسامح والتساهل الذي يعامل به ملك شاب إلا أنهم باتوا يستنكرون انغماسه في النزوات والملذات.

فاروق كان قد فقد محبتهم واحترامهم، كم أوذيت مشاعر الرأي العام الإسلامي عندما تحصّل على فتوى تقول إنه من سلالة النبي وهي مقولة لم تكد تدخل في عقل الكثيرين. ثم سادت مشاعر من التعاطف مع الملكة فريدة عندما طلقها فاروق في عام ١٩٤٨. رغم أن الملكة في واقع الأمر كانت هي التي طلبت الطلاق، فلم تكن قد أقامت مع الملك منذ مولد ابنتها الثالثة، وبعد ذلك غادرت قصر عابدين بهدوء وسكنت قصر القبة. وفي ٦ مايو سنة ١٩٥١ تزوج فاروق ناريمان صادق ابنة السكرتير العام لوزارة المواصلات، ثم أوغل في جرح المشاعر العامة، عندما أمضى شهر العسل مع بداية رمضان الكريم يوم ٢٥ مايو، ثم أنجبت الملكة ناريمان الأمير أحمد فؤاد الابن الوحيد لفاروق في ١٦ يناير سنة ١٩٥٢.

لم يتغير الملك كثيرا باستثناء ما أصبح يحمله من سنوات في العمر وأطنان من الشحم واللحم، لكن الذي تغير هو المزاجية العامة في البلاد إذ أصبحت أشد شظفا وقسوة. الأفكار الاشتراكية طرحت للمناقشة بدلا من الديمقراطية التي كانت سائدة في العشرينات والثلاثينات. وجاء قيام الاتحاد

السوفياتي كدولة عظمى ليساعد على إعطاء قوة دفع جديدة لكفاح الطبقات العاملة، ومن هنا أصبح الحزب الاشتراكي المصري (المسمى في الأصل مصر الفتاة) بزعامة أحمد حسين يكتسب قوة وكذلك كانت الحركة الوطنية للتحرر الوطني (حدتو) التي انضوى تحت لوائها الشيوعيون والماركسيون وأنصار السلام وكانت تؤازرهم المفوضية الروسية.

وسط هذا المناخ من السخط العام ازدهرت كل الأفكار المتطرفة وكل الجماعات الوطنية سواء كانت تنتمي إلى اليمين أو اليسار. رسالة الإخوان المسلمين ازدادت قوة وتأثيرا وحرصت الجماعة في جريدتها اليومية على إدانة فشل الحكومة والملك في تخفيف المعاناة عن كاهل الفقراء، وعمدت الجماعة كذلك إلى مساعدة أعضائها الفقراء بتقديم القروض وبرامج التأمين الخاصة بها والعلاج المجاني ثم قامت أيضا بتشكيل جيش سري قوامه الجوالة التي بلغ عدد أعضائها وقتا ما ألفي عضو، وفي إطار هذه التشكيلات كان ثمة تنظيم أمعن في السرية مدرب على مهارات الإرهاب والاغتيال.

يوم ١ سبتمبر ١٩٤٧ قررت الأمم المتحدة تقسيم فلسطين وانتهى الانتداب البريطاني يوم ١٥ مايو ١٩٤٨، وفي نفس اليوم دخلت الدول العربية - ممثلة في جيوش مصر والعراق وشرق الأردن وسورية - غازية فلسطين في محاولة لخنق دولة اسرائيل الجديدة لحظة ميلادها، وفي القاهرة هوجمت المصالح التجارية التي يمتلكها اليهود والأجانب، ووضعت قنبلة في حارة اليهود. وجاء فرض الأحكام العرفية مع إعلان الحرب في فلسطين ليتيح للحكومة حل جماعة الإخوان المسلمين التي بلغت من القوة حد الخطر، وفي أقل من شهر واحد أغتيل رئيس الوزراء النقراشي باشا على يد واحد من إرهابيي الجماعة المذكورة، وفي أوائل عام ١٩٤٩ قتل حسن البنا مرشد الإخوان المسلمين بدوره وربما جاء ذلك بأوامر من الحكومة.

في المرحلة الأولى من حرب فلسطين كان تقدم المصريين سريعا ومن ثـم التقوا مع عناصر الفيلق العربي في شرق الأردن، لكـن الجيش المصـري كـان سيئ التجهيز ولم يعمل على تعزيز مكتسباته من الأرض، وفي المرحلة الثانيـة من الحرب أمكن دفعهم إلى الوراء وكان (الكولونيل) جمال عبد النـاصر واحـدا من الذين رفضوا تسليم آخر موقع محـاصر فـي الفالوجـة، وفـي ديسمبر شـن هجوما مضادا أتاح للمصريين الصمود حتى الشهر التالي. وبعدها اضطـر هـو نفسه إلى التسليم ووقعت الهدنـة فـي فبراير ثـم عـاد إلـى مصـر وفـي أعماقـه شعور مرير بالعار إزاء هزيمة الجيش المصري الذي كان يشعر قبل كل شـيء أنه وقع ضحية صفقة سياسية قامت على أساس أسلحة فاسدة ساعد الملك فـي التغطية على تحقيقاتها ولم يكن عبـد النـاصر فـي ذلـك وحـده، بـل كـانت كذلـك جماعة الضباط المتآمرة الصغيرة بيـن صفـوف الجيـش وقـد نمـت تحـت جنـح السرية، ومنذ عام ١٩٤٩ تم تشكيل اللجنة التأسيسية لهذه الجماعة من خمسة ضباط تحت قيادة عبد الناصر بغـير منـافس. أبـرز القسـمات التـي اتسـمت بهـا السياسة في مصر في أواخر الأربعينات كـانت تتمثـل فيمـا إذا كـانت الجماعـات المنشقة الساخطة دينيـة أو علمانيـة متجهـة نحـو اليمين أو جهـة اليسـار، إلا أنـهم جميعا كـانوا يؤمنـون بـأن الكفـاح ضـد الاسـتعمار الـذي كـان يتجسـد فـي استمرار وجود القوات البريطانيـة علـى أرض مصـر كـان يرتبـط علـى نحـو لا ينفصم بالنضال ضد العهد البائد الـذي كـان نظامـه الفاسـد يحكـم البـلاد. وسـاد الشعور في كل مكان بأن أيام الباشوات أصبحت معدودة وتـؤذن إلـى نـهايتـها، وأن ما من شيء بوسعه أن يوقف مد الثـورة التـي كـانت نذرهـا تتجمـع تحـت السطح.

بالمقارنة إلى لندن أو باريس لم تكد القـاهرة يطـرأ عليهـا أي تغيـير منـذ الحـرب، وظلـت الشريحة العليـا مـن الانجليـز – المصرييـن تسـير علـى نفـس المنوال الذي تعودت عليه دائما. البريطانيون ما يزالـون يحتسـون الجـن علـى شرفة فندق شبرد بعضهم فـي الـزي العسـكري، إذ ظـل البريطـانيون يحتفظـون

بقوة قوامها ٨٠ ألف فرد في مصر، وكان معظمها في منطقة قناة السويس، لكن أغلبية الرجال كانوا يرتدون بدلات من التيل، فيما ترتدي النساء قبعات القش وفساتين من القطن. كانوا لا يزالون يلعبون البولو ويقيموا السباقات في نادي الجزيرة، ويرقصون في أوبرج الأهرام أو في كازينو بديعة مصابني. وظل الحال هكذا حتى جاء السبت ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ الذي شهد القاهرة وهي تجتاز أخطر مرحلة استثنائية من الفوضى والاضطراب في تاريخها الطويل، هذه المدينة التي عرفها البريطانيون وأحبوها والتي قامت إلى حد كبير من أجل منفعتهم بل ومتعتهم، هذه المدينة• وليس غيرها اختفت وزالت بين عشية وضحاها.

بدأت النذر الأولى لما أصبح يعرف باسم "السبت الأسود" تتجمع في أكتوبر سنة ١٩٥١ بعد أن جاء النحاس باشا والوفد مرة أخرى إلى السلطة. كانوا قد ألغوا الأحكام العرفية وأفرجوا عن الإخوان المسلمين المعتقلين على أساس أن يكون ذلك جميلا يجنون ثمراته عندما يستميلون المتطرفين إلى جانبهم. لكن المفاوضات من أجل تعديل معاهدة ١٩٣٦ المعقودة بين مصر وبريطانيا، وكذلك حول حقوق مصر في السودان، وجلاء القوات البريطانية، كل هذا وصل إلى طريق مسدود، ومن ثم بدأت عصابات المتطرفين في عمليات تخريب في منطقة القناة، ولم يتورع البريطانيون عن استعمال القوة للرد عليها. ولكسر هذه الحلقة المفرغة أعلن النحاس باشا من طرف واحد إلغاء المعاهدة الانجليزية - المصرية (١٩٣٦) واتفاق السودان لعام ١٨٩٩.

من جانبهم احتج البريطانيون على أن هذا الأمر غير شرعي وغير محتمل، وأن على مصر أن تتحمل نتائجه، لكن جاء إلغاء المعاهدة بالنسبة للمصريين ليعني أن الوجود البريطاني في مصر قد أصبح غير مشروع وأيا

• المؤلفة تقصد وسط البلد من القاهرة وقد عصف به حريق يناير ١٩٥٢. "المترجم"

كانت النتائج فعلى بريطانيا أن تتحمل نفسها تبعة ما عساه يحدث، هكذا انطلقت مجموعات صغيرة من الطلاب والفلاحين والإخوان المسلمين حملن اسم "كتـائب التحرير" في شن حملة شديدة الحماس من حرب العصابات، وبدأت الحكومة في الوقت ذاته قطع وسائل النقل والتموين، ورفض المقاولون والعمال المصريـون العمل بعد ذلك مع البريطانيين. وفي ٣٠ ديسمبر عملت الحكومـة علـى إصـدار قانون يعلن أن تقديم أي خدمات للبريطانيين هو جريمة يعـاقب عليهـا بالسـجن بل وبالإعدام في بعض الحالات.

حاول الوفد أن يفرض سيطرته على المتطرفيـن بمـا قدمـه لهـم مـن دعـم وتأييد وتولى التدريب العسكري للشباب أملا في كسب قدر من السلطة والنفـوذ بين صفوف الميليشيات التي قام بتشكيلها الإخوان المسلمون وكتائب التحريـر. وكان فؤاد سـراج الديـن باشـا وزيـر الداخليـة يقدم الأسلحة والأمـوال ويسـبغ حماية الشرطة على حزب مصر الفتاة الاشتراكي، وكل ذلـك علـى أمـل إمكانيـة استخدامه في الحملة المناهضة للبريطانيين في منطقة القناة.

وقد أرسل السفير البريطاني، سير رالف ستيفنسون مذكرات احتجاج إلـى الحكومة بينما فرضت الحامية البريطانية سيطرتها على منطقـة القنـاة فركـزت على المناطق مـن حـول الاسـماعيلية والتـل الكبيـر. وقطعت جميـع الاتصـالات وتنبأ الجنرال سير جورج إرسكين القائد العام للقوات البريطانية في مصر بـأن الحكومة المصرية قد تعمد إلى قطع إمدادات الأغذية إلـى المنطقـة فـي محاولـة لإجبار البريطانيين على الخروج من خلال تجويع السكان المحلييـن، وهكـذا تـم تقنيـن المـؤن الغذائيـة وحسـابها لصـالح ٤٠٠ ألـف نسـمة، واقـترح السـماح بكميات من الدقيق والسكر والبصل والأرز وما إليها، بالإضافة إلـى ٦٠ أوقيـة من الرنجة المحفوظة "في حال طلبها لأسباب دينية" (ثمـة ملاحظـة فـي هـامش مذكـرة الحسـابات تتسـاءل فـي حيـرة: "مـن سـيحتاج رنجـة محفوظـة لأسـباب دينيـة؟"). هكـذا بـاتت الحيـاة تـزداد شـظفا ومشـقة بالنسبة للقوات البريطانيـة وترتفع أيضا تكاليفها حيث كـان يتعيـن أن ترافـق حراسـة مسلحة كـل شـاحنة

تأتي وسرعان ما أدركت الحكومة البريطانية أن وجودها في منطقة القناة لا يمكن الإبقاء عليه بغير تعاون مصر، ولكن في الوقت نفسه كانت مصممة على ألا تغادر المنطقة تحت ضغط من الضغوط.

يوم ٣١ ديسمبر نشرت جريدة "الجمهور المصري" مقالا أعطى فكرة دقيقة عن مدى عمق البغض الذي انطلق ضد البريطانيين، وقدمت الصحيفة مكافأة ١٠٠٠ جنيه مصري لمن يقتل الجنرال إرسكين، و ١٠٠ جنيه لقتل أي من ضباطه، ثم قالت في خيلاء "إن الجمهور المصري هي التي قادت الحملة الوطنية ضد عصابات ذوي الوجوه الحمراء في منطقة القنال، كما أن أخبارها ومقالاتها كانت تلهم الفدائيين الأبطال الذين يقتلون كل يوم، باسم الشعب المصري، عددا من الضباط والجنود البريطانيين " .

تطورت أبعاد الأزمة في منطقة القناة بسرعة منذرة بالخطر، لدرجة أن الوفد ذاته لم يكن ليعرف ماذا يفعل بعد ذلك، إلا أن الجماعات الراديكالية في مصر أدركت أن حكومة الوفد لن تستطيع مهما كانت التطورات إرسال الجيش المصري إلى منطقة القناة ولا إعلان الحرب حتى عندما بدأ الجنرال إرسكين سلسلة من عمليات التمشيط التي وصل مداها إلى اقتراب القوات البريطانية من القاهرة نفسها. ومن منتصف يناير وما بعده انتشرت المظاهرات الراديكالية التي أوضحت بجلاء مدى نفاد صبرها إزاء الحكومة والملك على السواء.

وزاد العنف سوءا في السنة الجديدة فيما ظل وزير الداخلية فؤاد سراج الدين مبقيا على تأجيج المشاعر المعادية للبريطانيين. وفي يوم ٢١ يناير حاصر البريطانيون جبانة للبحث عن الأسلحة، وفي اليوم التالي أجبروا سكان ثلاث عمارات في حي فقير بالاسماعيلية على إخلاء مساكنهم. وإذا كان البريطانيون المتورطون في هذه الأمور قد جانبهم ولا شك حسن التصرف، إلا أن وزير الداخلية ما لبث أن أذاع بيانا يوم ٢٣ يناير وضح حرصه فيه على الإعراب عن مشاعر الغضب الشديد أكثر من تحري وجه الدقة: "إن أفعال

البريطانيين في الاسماعيلية باتت تتجاوز أي حدود يمكن أن يتصورها الإنسان، فقد أخرجوا السيدات إلى عرض الشارع لا يكاد يسترهن شيء وساقوهن إلى المعسكرات حيث لا يعرف شيء بعد عن مصائرهن، دنسوا قدسية المساجد وانتهكوا حرمة المقابر وتسببوا في أن أعدادا كبيرة من المصريين قتلوا أو أصيبوا أو صلبوا على أعواد الأشجار "•

بعد يومين أرسل الجنرال إرسكين إنذارا إلى الشرطة وبلوكات النظام في الاسماعيلية يطلب تسليم أسلحتهم كلها فورا. كان جنود بلوكات النظام يجندون من بين العناصر التي يستغني عنها الجيش ولا يسلحون عادة بأكثر من الهراوات، ولكن منذ إلغاء المعاهدة صدرت الأوامر لعدد كبير منهم بحمل بنادق وإرسالهم إلى منطقة القناة، وتبين البريطانيون أنهم بمثابة قوة تتسم بصفات خاصة من حيث التسيب وعدم الانضباط حيث كانوا يعملون على مقربة وثيقة من الفدائيين. وإذا كان من الصعب العثور على الفدائيين، فإن بلوكات النظام كانوا يتركزون في مواقع بعينها. هكذا قامت قوة من ١٥٠٠ جندي بريطاني تدعمها الدبابات بمحاصرة مجمع وثكنات الشرطة، ثم وجهوا إنذارا إلى المحافظ وقائد الشرطة بأنه إذا لم يتم فورا تسليم أسلحة جنود الشرطة وبلوكات النظام فلسوف يضطر البريطانيون إلى أن يقوموا بهذه المهمة بأنفسهم، وسلم هذا الإنذار في السادسة والنصف صباح الجمعة ٢٥ يناير، ورد قائد الشرطة بأن رجاله سوف يقاتلون حتى الموت، وهذا ما كان قد أمره به وزير الداخلية.

وسارت العربات التي تحمل مكبرات الصوت لتبلغ الجنود المتجمعين في المبنى أنهم محاصرون تماما، وأعطت لهم ٤٥ دقيقة لكي يسلموا أسلحتهم، فما كان من الرجال الموجودين بالداخل إلا أن بدأوا على الفور في إطلاق النيران، وبعد ثلاثة أرباع الساعة المحددة رد البريطانيون بطلقات خرطوشية من الدبابات والأسلحة النارية الصغيرة، ثم اجتاحوا المجمع مما أفضى إلى معركة حامية الوطيس. قاوم المصريون ببسالة ضارية رغم أن لم يكن أمامهم

أدنى فرصة للفوز ثم استسلموا عند الظهر حيث كان خمسون رجلا من الشرطة وبلوكات النظام المصرية قد لقوا حتفهم.

جاءت أولى علامات العاصفة التي هبت من بعد في نفس المساء بمطار القاهرة، عندما تم بالقوة احتجاز أربع طائرات من الخطوط الجوية البريطانية ولحق الأذى الركاب والطواقم وهددوا من جانب تجمعات غفيرة غاضبة كان من بينها موظفو المطار أنفسهم. ونصح القنصل البريطاني بالتزام الحذر الشديد وأبلغ الخدم المصريون مخدوميهم أن ليس من الحكمة أن يخرجوا إلى الشارع يوم السبت.

في السابعة من نفس الصباح غادر ٣٠٠ من جنود بلوكات النظام ثكناتهم في العباسية وتحركوا إلى الجيزة حيث كان طلبة جامعة القاهرة ينظمون مظاهرة حاشدة يخرجون فيها، وكان الأهالي الذين يراقبون هذه المشاهد قد تملكهم العجب، إذ يرون الطلبة ومعهم الشرطة يتحركون كتفا بكتف وزادت الحشود لتصل إلى ألفين فعبرت الكوبري لتتجمع أمام مقر مجلس الوزراء (قصر الأميرة شويكار السابق، وكانت قد توفت في عام ١٩٤٧) وهنا خطب فيهم عبد الفتاح حسن وزير الشؤون الاجتماعية الذي قال لهم أن حان يوم الثأر، إلا أن صوته كان يشوبه قدر من التوتر ورغم إصغاء الجموع، لكن الحالة النفسية بدأت في التوتر وشوهدت عناصر الشرطة محيطة بالطلاب ومعها أسلحتها، بل إن منهم من خلع زيه العسكري ليلقيه على الأرض احتجاجا، واستبد بهم غضب شديد لكنه لم يكن موجها صوب البريطانيين وحدهم، إذ كتب على بلوكات النظام أن يتحملوا وحدهم وطأة القتال في منطقة القناة، فيما كانوا يطلبون منهم أن يموتوا بدل أن يستسلموا في أي وقت. شعروا وقتها أنهم يقومون بعمل جنود الجيش دون أن يكونوا في نفس الأوضاع التي يتلقاها جنود الجيش، ناهيك عن أجر أدنى منهم بكثير، وكان من واجب الحكومة عند هذه النقطة أن تستشعر ريح الخطر وتفرق المظاهرة وقت أن كان ذلك ممكنا، لكن شيئا من هذا لم يحدث.

كانت عناصر الشرطة تتصرف بأطوار غريبة للغاية، وفي تقرير لاحق كتبه رسل باشا (الذي كان قد تقاعد بوصفه حكمدار شرطة القاهرة في سنة ١٩٤٦ لكن مازالت لديه اتصالاته في داخل القوة) يقول إن الشرطة لم تتخذ أي تدابير للتعامل مع المشكلة حتى رغم أنهم كانوا يعرفون أن العاصفة قادمة، ومن الطبيعي أن كان عليهم أن يحاصروا جميع نقاط الخطر في الليلة الفائتة وأن يغرقوا شوارع المدينة برجالهم، وقد تم هذا مثلا في الاسكندرية ليلة ٢٥ يناير ومن ثم لم يحدث سوى شغب قليل في اليوم التالي، لكن طبقا لمرشد لم يذكر اسمه يعمل لحساب رسل باشا كانت وزارة الداخلية قد أمرت بعدم اعتراض أي من مثيري الشغب.

ما لبثت المظاهرة المحتشدة أمام مكاتب مجلس الوزراء أن تحولت إلى نقاش جدلي وكم شعر عبد الفتاح حسن بالذعر إزاء مطالب الحشد أمامه، فعندما قال إن مصر لن تطلب أسلحة بالتأكيد من روسيا في غمار معركة قناة السويس إذا بالمحتشدين يزأرون "نعم، تطلب نعم" كانت أعداد كبيرة من البشر تجوب أنحاء وسط البلد من الأزهر والموسكي، وفي الساعة الحادية عشرة ونصف اندلعت أولى شرارات الحريق، كان الهدف الأول هو كازينو أوبرا حيث كان يجلس ضابط شرطة يحتسي مشروبا في الشرفة، فما كان من جموع غاضبة من المتظاهرين إلا أن شتمته إذ يجلس يحتسي الشراب بينما يلقى رفاقه مصرعهم في منطقة القناة، وعندما رد عليهم بنفس الجلافة، اجتاحوا المبنى: ها هم شباب الأفندية بهندامهم وأناقتهم يندفعون إلى داخل المطعم ويشرعون في تمزيق الستائر وإلقاء الأثاث إلى عرض الشارع، وفجأة دخلوا إلى المبنى الغوغاء ومعهم صفائح البنزين حيث سكب أحدهم البنزين فيما عمد آخر إلى سكب بنزين على كومة الأثاث في الخارج، وبعدها مباشرة اندلعت في المطعم ألسنة النيران. لم تقع خسائر في الأرواح، لكن الشرطة التي كانت تقف على مقربة من المكان لم تفعل شيئا لوقف مشعلي الحريق عند حدهم بل شوهد على بعد أمطار شرطي آخر يدير حركة المرور بكل هدوء، وكم كانت الصدمة

مروعة لشهود العيان وهم يرون أن الحشد المتجمع الذي لم يكن من المتظاهرين بل من الناس العاديين يبدون في غاية السلبية إزاء ما يرون وكأنهم يشاهدون فيلما سينمائيا!

ربما كان الاعتداء على كازينو أوبرا قد جاء تلقائيا في جانب منه، ولكن كل الدمار الذي أعقب الاجتياح وضح تماما أنه كان مخططا، فبعيد الساعة الواحدة والنصف هوجم نادي التيرف. وعلى مدى الأسابيع القليلة التي مضت كان النادي المذكور يحميه حرس شرطة مكون من نحو ٤٠ فردا، ولكن هذه الحراسة تضاءلت بصورة غامضة لتقتصر على أربعة أفراد عندما وصلت الجموع من الدهماء التي كانت تأتمر بأوامر شاب يلبس زيا أزرق (ربما ينتمي إلى شركة مصر للطيران الحكومية) وبعدها كسروا الباب الخارجي واندفعوا لا يلوون على شيء محطمين الأثاث وصانعين أكواما منه فوق الأرض، وبعدها أشعلوا فيها النيران مستخدمين كرات من الخيش وأعواد ركبوا على رؤوسها فتائل مشتعلة بالكيروسين.

في داخل المبنى كان يتواجد في ذلك الوقت نحو أربعين من أعضائه معظمهم كانوا في الطابق الأرضي حاولوا أن يهربوا من الباب الخلفي، لكن حيل بين كثيرين وبين الهرب بسبب تواجد الحشود خارجه، ومن ثم دفعوهم ليعودوا أدراجهم حيث النيران المشتعلة وقد أحدق برجلين انجليزيين في الطابق العلوي وما كان منهما إلا أن قفزا من النافذة وكسر أولهما ظهره فوق تندة صغيرة إلى أسفل، ولا بد أن يكون قد لقي حتفه بعد ذلك، لكن الثاني استطاع أن يهبط في فناء صغير مستخدما ملاءات معقودة مع بعضها لكنه تعرض للركل والضرب بأسياخ الحديد حتى الموت. وجاءت الغوغاء بكومة من الملابس التي وضعت فوقها الجثتين لإشعال حريق، وعندما حاول بواب نادي التيرف أن يقول إن هذه بربرية يأباها الإسلام صاحت الجموع في وجهه أن ينأى بنفسه بعيدا وإلا كان مصيره الإحراق أيضا. وبينما كان نادي التيرف معرضا للهجوم، مر في الطريق لوري محمل برجال الشرطة الذين لم يتوقفوا

بل شيعتهم الحشود بالتهليل لكن في داخل المبنى كان يوجد عدد من البريطانيين الآخرين الذين قتلوا وتعرضت جثثهم لتشويه وحشي قبل أن يلقى بها إلى أتون النيران!

كانت عصابات الحريق قد جاءت من حيث لا يدري أحد. الجميع بدو شبابا حسني الهندام يعرفون بالضبط ما كانوا يفعلون. كل مجموعة مؤلفة ما بين عشرة وثلاثين فردا كان معها قائمتها بأهدافها الخاصة تنتقل من هدف إلى آخر بكفاءة مجردة من الضمير لدرجة أن ألسنة النيران كانت تندلع في أربعة إلى خمسة مبان في وقت واحد. التمسوا كذلك مساعدة من المتظاهرين والمارة الذين شاركوهم في الأمر عن طواعية وطيب خاطر، بينما تجمعت حشود لترقب المناظر وتشجع الفاعلين. كان لدى هذه العصابات معداتها الجيدة، معهم البنزين والأدوات اللازمة، وعندما صادفوا أحد المباني الذي كانت تحميه مصاريع معدنية، تبين أن لديهم حتى شعلة لحام وتفكيك باستخدام الأكسيسيتيلين. على أن الأمر لم يشهد من بعد في معظمه تكرارا لنوعية الفظائع التي تمت في نادي التيرف. لكن مدير سينما ريفولي لقي مصرعه داخل المبنى على أيدي القتلة المتعصبين حيث حاصروه ثلاث ساعات. وحاولوا كذلك مطاردة المفوض التجاري الكندي الذي استطاع الهروب من نادي التيرف وأخذه بعض ذوي المروءة من المصريين فأخفوه في مبنى غير مكتمل التشييد، وبعد ساعتين عثروا عليه أخيرا فسحبوه وطعنوه حتى الموت.

قبيل عصر ذلك اليوم كانت النار قد اشتعلت في مباني بنك باركليز ومبنى شركة الطيران البريطانية وتوماس كوك ومبنى دبليو. سميث، ومكاتب المجلس البريطاني، والمعهد البريطاني، أما أفراد الدهماء الذين هاجموا معارض سيارات موريس موتورز فقد شقوا طريقهم إليه مستخدمين علامة "ممنوع الانتظار" البالغ طولها ١٢ قدما بمثابة أداة لكسر الأبواب. أشعلوا النار كذلك في محل لبيع الأسلحة والذخائر وكان أن اشتعلت محتوياته بانفجارات عنيفة سببت أضرارا بالغة للمتفرجين على الأحداث. كانت المنشآت البريطانية

هي أكثر الأهداف وضوحا، لكنهم عمدوا أيضا إلى إحراق أي شيء تفوح منه رائحة أموال الأجانب، والانحلال الذي تفشى في البلاد. كل سينما، كل بار أو كباريه أو متجر خمور في وسط البلد تعرض للدمار. لم يكن بوسع فرقة المطافي أن تفعل الكثير إذ أن الحشود التي تجمعت لمراقبة النيران كانت منحازة إلى جانب مشعليها، بل كانت تقوم بانتظام بقطع خراطيم الحريق. في ثلاث مناسبات شوهد رجال الشرطة وهم يقومون بقطع الخراطيم، بل كانوا يشجعون ويصفقون للدهماء إذ يشقون طريقهم في أرجاء المدينة وهم في شغل من أمرهم يقطعون ويمزقون، يحطمون ويحرقون. وإذ كانت سينما ريفولي تشتعل باللهيب، شوهد إمام بك مساعد حكمدار القاهرة يرقب منظر الحريق - شاهده مصري وصفته لجنة التحقيق بأنه لم يكن بالضرورة مؤيدا للبريطانيين. وقف إمام بك ويد في جيبه واليد الأخرى تتلاعب بحبات المسبحة، واقترب منه المصري وسأله عما إذا كان البوليس سيفعل أي شيء، فإذا بإمام بك يواجهه بابتسامة قائلا: "دع الأولاد يلعبون قليلا".

في ذلك اليوم تجمع معظم كبار ضباط الشرطة والجيش في قصر عابدين في مأدبة أقامها الملك ل ٦٠٠ من الضيوف احتفالا بمولد ابنه، والذين حضروا المأدبة كانوا على بينة تماما بما يحدث بالخارج، كان التشريفاتية يأتون ويذهبون برسائل إلى جلالته الذي شوهد في لحظات عديدة في حال من التشاور العميق مع حيدر باشا القائد العام للجيش المصري، ولابد أنهما كانا يعرفان أن الشرطة كانت تقف في صف الغوغاء، لكن لم تتخذ أي خطوة لإنزال الجيش من أجل استعادة النظام.

كان على فندق شبرد أن ينتظر دوره في الدمار حتى الساعة الثانية والنصف، وكما كانت عادة الغوغاء فقد اجتاحوا المكان وشرعوا في تمزيق الستائر وتحطيم الأثاث لإشعال حريق بينما اندفع النزلاء إلى الهرب واجتذب الشرر والحرارة الرواق المغربي إلى أعلى فتحطمت قبته الزجاجية الملونة وسط اللهيب في غضون ٢٠ دقيقة، وشوهدت فنانتان في فرقة أوبرا إيطالية

وقد اندفعتا إلى الخارج بثيابهما الداخلية وأمسكتا ما تملكان من جواهر، بينما قفزت فتاة تعيسة الحظ لتلقي حتفها من الطابق الرابع في محاولة النجاة من ألسنة النيران.

بحلول الرابعة بعد الظهر، كان كل شيء تقريبا يقع في إطار المنطقة التي يحدها ميدان الأوبرا وشارع قصر النيل وشارع سليمان باشا وشارع ألفي بك قد أصبح مجرد مبان تشتعل فيها النيران. في كل مكان تصادف سيارات محترقة في الطريق وقد انقلبت على ظهرها. ثم بدأ بعدها عملية النهب والسلب تجري على قدم وساق. اقتحمت الجموع الأطلال التي كان يتصاعد منها دخان الحريق من محلات كبرى مثل شيكوريل وديفيز برايان وروبرت هيوز وبدأت في جمع المغانم والأسلاب. بقال يوناني استطاع أن يصد الناهبين عندما أعطاهم أموالا. أما مشعلو الحرائق فبعد أن اطمأنوا إلى تدمير وسط البلد انطلقوا في شاحنات إلى شارع الهرم حيث قاموا بتدمير أوبرج الأهرام والكلوب رويال دي شاسيه، أما فندق مينا هاوس فلم ينقذه من هذا المصير إلا توسلات الجمالة والباعة المتجولون الذين ناشدوا الجموع المغيرة أن تترك لهم مصدر رزقهم فلا تعرضه للضياع. والذي حدث هو أن فقد ١٥ ألف شخص وظائفهم من جراء دمار عصر ذلك اليوم. وظل يتصاعد فوق وسط المدينة عمود كبير من الدخان ولكن لم يمس أي ضرر لا الجزيرة ولا جاردن سيتي، حيث كان تواجد الشرطة قويا في الحي الأخير. وفي الثالثة والنصف استطاعت الشرطة أن تمنع مجموعة من الغوغاء من محاولة الوصول إلى السفارة البريطانية. وكان البريطانيون يظنون أن سفارتهم ما كان لها أن تنعم بهذه الحماية السابغة لولا وجود منزلي سراج الدين والنحاس باشا في نفس الجوار.

ارتاع البريطانيون إزاء انعدام الاستجابة على هذا النحو من جانب السلطات المصرية ونظروا في أمر الزحف على القاهرة، لكنهم أحسنوا بالعدول عن ذلك، وفي برقية إلى رئيس هيئة الأركان الامبراطورية العامة كتب الجنرال سير برايان روبرتسون، القائد العام للقوات البرية البريطانية في الشرق

الأوسط يقول "أي فكرة تقول إن بوسعنا أن نعرج إلى القاهرة فنجد بعض العناصر المعتدلة التي يمكن أن نكلفها باستعادة النظام فكرة مستبعدة تماما. إن توقعنا السابق بأن الجيش المصري قد لا تبدو فيه سوى مقاومة رمزية لن يكون ساعتها ممكن التحقيق". وكان على الأمور أن تنتظر حتى السادسة مساء من عصر ذلك اليوم لكي يستدعى الجيش المصري من أجل إعادة الضبط والربط، فتقدمت قواته في الشوارع صفوفا متراصة دون أن تتردد في إطلاق النيران على أي عنصر يحاول وقفها. وبعدها أعلن الملك فاروق عن مدى اعتزازه بالجيش وبالكفاءة التي أبداها في وضع نهاية للاضطرابات، وتصور أن الجيش قد أظهر بهذا مدى ولائه للعرش، لكن سلوك جنوده كان واقعا أكثر تحت نفوذ حركة الضباط (الأحرار) التي لم تكن لتوافق أصلا على عنف الغوغاء. وحتى داخل صفوف الجيش لاحت إمارات الحنق فقد اقتصرت بعض الوحدات على إطلاق الرصاص فوق رؤوس الجموع ثم السماح لها من ثم بالتفرق إلى حال سبيلها.

حتى يومنا هذا لا يعرف أحد على وجه اليقين من المسؤول عن تلك العصابات المحكمة التنظيم التي أشعلت الحريق. بعض العصابات تولى أمرها الإخوان المسلمون، وهؤلاء هاجموا البارات والنوادي الليلية. عصابات أخرى بدت مؤلفة من الحزب الاشتراكي بزعامة أحمد حسين، وقد ظن البريطانيون أن من المستبعد أن يكون بمقدور أحمد حسين تنظيمهم على هذا النحو المحكم، لكن كان ثمة عناصر أشد مهارة منه داخل منظمته التي كان من المعروف أنها مخترقة من جانب الشيوعيين. كذلك تميز الحزب الاشتراكي بأنه تلقى تجهيزات وتمويلا طيبا من جانب فؤاد سراج الدين وزير الداخلية. ويقول تقرير من السفارة معلقا على معلومات قدمها فرجاني بك، وهو مصدر ثبت أنه موثوق به في الماضي "أن سراج الدين ظل حتى النهاية من الحماقة بما يحمله على تصور أن هذه التسهيلات التي قدمها (الأموال والأسلحة) سوف تستخدم

في منطقة القنال"، وكان قد توقع بطبيعة الحال، بل وأراد، أن يثور شغب في يوم ٢٦ يناير على أن يكون "شغبا اعتياديا" فحسب.

كتب سراج الدين مقالا دفاعا عن نفسه كان من المقرر أن تنشره صحيفة "المصري" الوفدية يوم ١٠ فبراير، لكن العدد صودر بأكمله، وذكر سراج الدين أنه ظل يحاول طيلة عصر ذلك اليوم أن يحمل حيدر باشا على استدعاء الجيش، بيد أنه والملك أيضا ظلا يسوفان عمدا في الأمر حتى فوات الأوان. أما الشرارة التي أشعلت أحداث السبت الأسود فكانت هي هجوم البريطانيين على بلوكات النظام في الاسماعيلية، لكن بغض البريطانيين لم يكن الدافع الوحيد للدمار الذي وقع في ذلك اليوم، ولا كان الدافع هو الأصولية الإسلامية ولا كراهية الأجانب أو الغرباء. كان ثمة توتر ثوري شديد يكمن عند جذور هذا كله، وهو الذي ظل يعتمل في النفوس ويتصاعد على مدار فترة طويلة من الزمن، ثم جاء انفجاره العفوي ليترك المدينة مشدودة الأعصاب والانفعالات، حتى أن الثورة التي أعقبته بعد أشهر قليلة لم تكن بمثابة مفاجأة درامية أو مثيرة.

في يوم ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ استيقظ شعب مصر ليجد أن الضباط الأحرار في الجيش المصري قد استولوا على السلطة في الليل، وتم تعيين علي ماهر رئيسا للوزراء، ثم أوفدوه يوم ٢٦ يوليه بإنذار إلى الملك يقول بأن عليه التنازل عن العرش لإبنه الطفل الأمير أحمد فؤاد بناء على إرادة الشعب، ويأمره بأن يغادر هو وعائلته أرض مصر بحلول السادسة من مساء نفس اليوم.

على متن اليخت الملكي المحروسة صحبته زوجته ناريمان وابنهما، وغادر الملك السابق البلاد، تماما كما سبق لجده اسماعيل أن فعل منذ ثلاث وسبعين سنة خلت من عمر الزمن. تبادل تحيات الوداع المهذبة مع اللواء محمد نجيب وحظي بتحية ٢١ طلقة عندما أبحر اليخت ليغيب في مياه البحر عن الأنظار. أما بالنسبة لأفراد الشعب الذي قامت الثورة باسمه، فلم يكونوا

يعرفون سوى القليل عن حكامهم الجدد أو عن الأسلوب الذي سوف تتغير به الأمور، لكن مصر كانت قد وعدت بمجتمع يسوده العدل وكانت ساعتها تتطلع إلى هذا المجتمع وقد جاشت في صدرها الآمال.

القاهرة
في الحرب العالمية الثانية
١٩٣٩-١٩٤٥

المؤلفة

- أرتيميس كوبر
- كاتبة انجليزية تخرجت في جامعة أكسفورد، وعاشت في مصر إبان الحرب العالمية الثانية، حيث قامت بتدريس اللغة الانجليزية عاما أكاديميا في جامعة الاسكندرية. وهي حفيدة السياسي البريطاني "دف الفريد كوبر"، الذي كان أول من احتج على سياسة "شمبرلين" في "تهدئة" هتلر، ثم أصبح عضوا في وزارة الحرب التي رأسها ونستون تشرشل. وقد أصدرت حفيدته - مؤلفة كتابنا - مجلدا ضافيا عن مراسلاته مع زوجته ديانا بعنوان "وهج لا ينطفى" كما أصدرت مجلدا آخر بعنوان "قصاصات من ديانا كوبر."

المترجم

- محمد الخولي.
- الكاتب والإذاعي وخبير التحرير والترجمة الدولية.

- درس الأدب الانجليزي وعلم النفس والتربية والإعلام الإذاعي والتليفزيوني والاقتصاد السياسي في كليات الآداب، والتربية، والإعلام، والعلوم الاجتماعية بجامعات القاهرة وعين شمس ونيويورك.
- يستخدم في أعماله اللغات الانجليزية والاسبانية والفرنسية.
- أصدر ٩ كتب – تأليفا وترجمة – أحدثها بعنوان "القرن الحادي والعشرون: الوعد والوعيد" (كتاب الهلال، ديسمبر ١٩٩٤). بالإضافة إلى ترجمة كتاب "المستعربون" تأليف روبرت كابلان (القاهرة ١٩٩٥) عن النخبة والدبلوماسية الأمريكية في الشرق الأوسط."
- عضو نقابة الصحفيين المصريين.
- عضو اتحاد المترجمين الدوليين.

المحتويات

رقم الايداع : ٢٨١٨ / ١٩٩٦
الترقيم الدولى: I . S . B . N : 977 _ 251 _ 015 _ 4

دار ماجد للطباعة
ت : ٤٢٤٠٤٣٧

هذا الكتاب

عرض شائق، بعيون انجليزية، لبانوراما الحرب العالمية الثانية، التى ظلت مصر تكابدها على مدى السنوات الست: ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥، بكل ما حفلت به دراما الصراع الدولى من لمسات إنسانية ومؤامرات سياسية ومفارقات أو مفاجآت من صنع الأحداث. ولقد توالت فصول الدراما على أرض القاهرة ـ العاصمة التى أدار الحلفاء منها آلة الحرب فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، بينما كانت جوانحها تغلى بالغضب ضد الاحتلال والمرارة بسبب الاستغلال، ثم تجيش أيضا بالتطلع إلى مرحلة الخلاص.


Bibliotheca Alexandrina
04477748